

فكريّة فصليّة محكّمة

العـدد

60

خريف 2023

سنغـورو

زيتية للفنان الفلسطيني عماد أبو شتيه

« اتجاه» فكريّة فصليّة محكّمة،
المدير المسؤول: د. أنور خطار
رئيس التحرير: د. علي حمية
العنوان: فرات للنشر، رأس بيروت، بيروت، لبنان. ت:750053 1 00961 – 543166 70 00961
البريد الإلكتروني: editor@ittijah.info
www.ittijah.info

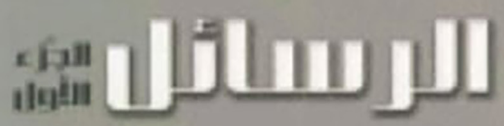
Ittijah: revue culturelle trimestrielle, Rédacteur en chef: Dr. Ali Hamiyeh.
Adresse: C/O Furat Publishers, Ras Beyrouth, Beyrouth, Liban,
tel: 00961 70 543166.

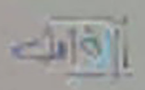
إتجاه

فكريّة فصليّة محكّمة
العدد 60
صيف 2023

محتويات العدد

هنري حاماتي





"طوفان الأقصى"
طوفان الأمة، كلها!

علي حمية

أستاذ جامعي

منذ قيام الدولة اليهودية، بالإستيطان والغزو والإحتلال، وبدعم ورعاية واحتضان قوى الإستعمار الأوروبي، فالغربي بقيادة الولايات المتحدة الأميركية ... مذّاك، وشعبنا في فلسطين وسائر محيطها القومي يواجه "الدولة" الجديدة الغازية، مقدماً، ولا يزال، الشهداء تلو الشهداء، في وقفات عزّ قلّ نظيرها في العالم أجمع.
إن ما كان ينقص شعبنا الخارج، لتوّه، من تحت النير العثماني ولم يبرأ بعد من استبداده، والمنخرط بحماس منقطع النظير في معركة التصدي لهذه الحركة الإستيطانية التوسعية، كان ينقصه الدولة القومية الحديثة التي تتنكب بنفسها قضايا التحرر والإستقلال والسيادة والتطور السياسي والإقتصادي، وهذا ما كان شعبنا — ولا يزال— يحتاجه بشدة، خصوصاً في هذا العصر الذي تتنازع فيه الأمم ودولها القومية أسباب التفوق والغلبة !.وهذا يفسّر لنا كيف أن المشهد نفسه يتكرّرعند كل مواجهة بيننا وبين الدولة اليهودية ومتعهديها من قوى ودول كبرى: حرباً خاطفة تشنها "إسرائيل" لأيام معدودة، بعد أن تقرّر، لوحدها، زمانها ومكانها، وتنتصر فيها، وهزيمة تلو الهزيمة تُمنى بها دولنا وجيوشنا، و"تغريبة" تلو أخرى يُساق فيها شعبنا إلى الجلجلة! هذا كله كان يجري في زمن الأنظمة المتخاذلة والدول العاجزة االتي أذلت شعبنا بدل أن تنصره، وجلبت عليه الويل فالويل بدل أن تسير به إلى النصر.
اليوم، وقد بدأنا نشهد أفول تلك الأنظمة المستبدة، غير مأسوف عليها، ونستعيد زمام المبادرة، بقيادة حركات المقاومة المظفّرة، ونتقدم، بثبات، لمواجهة الدولة الغازية ومن يقف وراءها من قوى دولية متوحشة متجبرة...اليوم، نزفّ إلى شعبنا، شعب الجبّارين، في فلسطين ومحيطها القومي، وقد بدأت طلائع انتصاراته تسطر تاريخنا الجديد، نزفّ له أن عدونا وحماته ومتعهديه يتراجعون منهزمين، وأننا ومقاومتنا نتقدم بثبات واقتدار محققين النصر تلو النصر، وكلنا ثقة بأننا سنغيّر وجه التاريخ في منطقتنا ومحيطها، وأننا ملاقون، غداً، أعظم انتصار لأعظم صبر في التاريخ!.

فتحي ليسير

جائحة كوفيد 19

الحَدَث الوحش

مقالة في التاريخ الآني



فتحي التريكي من فلسفة التنوع إلى فلسفة للتاريخ[1]

بن شرقي بن مزيان

قسم الفلسفة
جامعة وهران 2

"إن الفكر الذي يقتصر على التعامل مع الواقع الماضي دون إرادة التجاوز والتحدي هو فكر جامد لا ابتكار فيه، ولا فائدة ترجى من ورائه، فهو فكر عقيم، جثة قضت عليها الديدان، فلا يمكن البتة إحياؤه مهما تعددت المحاولات»

فتحي التريكي

فضاء الفلسفة

لعل أكثر الإشكالات تناولا لدى المفكرين العرب تلك التي يمكن حصرها في محاولتهم التفكير في كيفية تناول أزمات الواقع العربي المفتوح منذ أمد طويل من تاريخه على انكسارات وهزائم نفسية وتاريخية وفكرية، وهو ما خلق بدوره حركية متميزة في الكتابة مع اختلاف في الطرح، بل أحيانا لحظات من الصراع.

وهذه الحركية التي يمكن حصرها زمانيا في قرنين، ونعني بذلك فكر النهضة والفكر المعاصر، لو نظرنا إليها اليوم من موقع نقدي، ما نعنيه بالنقد هنا المعني الكانطي للمفهوم، نراها تدل على مؤشر صحة وقوة إبداعية داخل فكر زاخر بالطروحات. فكر لم يرض بحلول جاهزة مما جعله يبدو توقا بل ومشدودا نحو إبداع أصيل يأخذ الواقع العربي في خصوصيته وكونيته دون انغماس أحيانا في رؤى وحلول بعيدة عن معطياته. علما أننا نلحظ أحيانا عدم فعالية بعض المشاريع للمفكرين العرب رغم ضخامتها وقوتها وجرأة طرحها لعدم تمكنها من وضع تشريح صحيح للواقع والمصير العربين.

إن مفعول العملية التشريحية،[2] وهو ما سنسعى لتوضيحه من خلال فلسفة الأستاذ فتحي التريكي، يُمكننا من أن نَقف على الوصفةِ الطبيةِ الصحيحة أو القريبة إلى الصحة رغم تنوع واختلاف تشخيص الداء، لأجل أن نمارس المهنة الأصيلة للفلسفية والتي تكمن في البحث عن الحقيقة لا التشريع لها ذلك أن الأخيرة، المهمة التشريع، أقرب لرجال القانون والحكام منها إلى الفلاسفة كما يقول نيتشه.

إن رسالة الفيلسوف اليوم تكمن في الإبداع، لا إبداع النظريات والأنساق الفلسفية الكبرى بل فيما يحدده دولوز **Delueze** بإنتاج المفاهيم « إن الفيلسوف صديق المفهوم، إنه بالقوة مفهوم. مفاد هذا أن الفلسفة ليست مجرد فن تشكيل وابتكار وصنع المفاهيم، ذلك لأن المفاهيم ليست بالضرورة أشكالا أو اكتشافات أو مواد مصنوعة. إن الفلسفة، بتدقيق أكبر، هي الحقل المعرفي القائم على إبداع المفاهيم »[3]

وهذه المأمورية التي يجعلها جيل دولوز من صلب الفلسفة تبدو بمثابة المهمة الراهنة للفلسفة التي يحتاجها الفكر الفلسفي في عالمنا العربي. مأمورية لم تعد جديدة علينا لو تتبعنا مسطرة التحليل الدولوزي خاصة في السؤال الذي يبني عليه مؤلفه ما الفلسفة.

إن إبداع المفهوم يشكل جوهر تاريخ الفلسفة حتى في أحلك ظروفها رغم أن البعض راح يبشر بنهاية الفلسفة حينما تخلت في بعض فترات تاريخها عن مهمتها في إنتاج الأنساق، ولذلك نراه، أي دولوز، لا يوافق رأي من يُنادي بموت الفلسفة فلم يكن كما يقول دولوز « لدينا أبدا، على أي حال، مشكلة تتعلق بموت الميتافيزيقا أو بتجاوز الفلسفة (فتلك الأفكار) هراءات لا جدوى منها وشاقة. (...) كلما تم إبداع المفاهيم في مكان وزمان ما، فإن العملية المؤدية إليه ستسمى دائما فلسفة، أو لن تتميز عنها نهائيا حتى وإن أطلق عليها اسم آخر »[4].

إن التصور الذي يأتي به دولوز في هذا الباب سيكون من بين تلك المسائل التي تفطن إليها الأستاذ فتحي التريكي في الفترة الثانية من حياته الفكرية، كما سنشرح ذلك لاحقا، فكان ذلك بمثابة أمل بعث فيه روح مبادرة فلسفية متميزة ضمن المشاريع الفلسفية الكبرى في عالمنا العربي المعاصر[5].

لم يكن دولوز بالمنبع الكافي والوحيد الذي تشبعت من خلاله فلسفة فتحي التريكي لما أنه كان بحاجة لبعث قوة الإرادة في الحياة خاصة وأن الأمر كان في بداية حياته يتعلق بنضال سياسي فكري لأجل نيل الحرية بالمفهوم الواسع للكلمة، حرية سياسية واستقلالية ذاتية، حيث تمثل ذلك في إعادة صياغة مفهوم الإرادة أو لنقل إرادة الحياة كما تصورها أولا نيتشه وكما بلورها الشاعر التونسي الشابي.[6]

فكان ذلك بمثابة بعث لإرادة القوة في الحياة وفي التموقع ضمن فضاء العقل الذي لا يقبل أي جغرافية أو جنسية كانت سوي أنه كوني بالقوة وبالفعل تلك هي المهمة الأصيلة

للفلسفة والتي تفطن إليها فتحي التريكي[7].
وفي العلاقة التي ربطته بكل من جون توسان دوسنتي J.T.Desanti وميشال فوكو M.Foucault ما يوحي ببداية تشكل جديد لمفهوم مغاير للتفلسف حيث نلحظ لديه، أي فتحي التريكي، تمثله لبعض من أفكار ج.ت.دوسنتي منها خصوصا ما تعلق بمهمة الفلسفة ومسألة التشارك التي بلا شك سيجد التريكي ظالته فيها بعدما يشرع في بناء فلسفته للعيش المشترك.
إن داسنتي وهو يحدد مهمة الفلسفة والفيلسوف يقول ما نصه»» لا يجب أن نمتطي هذه الأحصنة الكبيرة لنمارس الفلسفة، وبالخصوص ألا نمنحها أجنحة، يجب على المرء أن يخفف الْوَطْءَ، ويكون قريبًا من الوقائع، وأن يبقي بجوارها»»[8]. تكشف لنا الفقرة السابقة ما يمكن أن يتمثله سلوك الفيلسوف وقربه من معاينة واقعه بما فيه واقعه اليومي. وليس ببعيد أن يُذكرنا فتحي التريكي بنفس الموقف مستندا إلى التفرقة التي يقوم بها الفارابي بين الفيلسوف البهرج والفيلسوف الكامل على الإطلاق فيما يخص الجمع بين الفلسفة النظرية والفلسفة العملية حيث يقول «» فالفلسفة هي عمليّة تشخيص واقع الانسان ومقتضياته ومستتبعاته بأدوات نظرية وطريقة بحثية نقديّة تعتمد ما سماه الفيلسوف الفرنسي كانغلام «» خدمة المفاهيم» أي فهمها في مواضعها أوّلا ثّم إمكانيّة الاعتماد على نقلها من ميدان ولادتها إلى ميادين أخرى واتخاذها نموذجا لمباحث متعددة وتكوينها وإعادة تكوينها. والفلسفة هي أيضا ربط هذا التشخيص المتعلق بالواقع المعيش بإمكانية التغيير والإصلاح بحثا عن سعادة الانسان القصوى.»»[9]
كما يحدد ميشال فوكو مهمة الفلسفة في علاقتها باليومي وما يجب أن تكون عليه الفلسفة اليوم فيقول ما نصه «» ...، يجب على الفيلسوف أن يعرف الآن أنه إذا كان «طبيبا للثقافة «، فإنه، مع ذلك، لم تكن له مهمة الشفاء، لم تعد له مهمة أن يُحسن الأشياء ولا تهدئة الصراخ، ولا المصالحة. لا يصلح عطبا ما أفسدته الفتنة(...) الفلسفة تروم مثل اللغة اليومية ما هو راهن لها: تتمفصل حوله كما لو أنها لغة صامتة موجودة بالفعل. (...) بعبارة أخرى، يمارس الخطاب الفلسفي طابعه اليومي فقط من خلال تحويل كل ما يحدِّده إلى نوع من الخطاب اليومي، والذي يتوجب فضح سذاجته اليومية ويشيد السياق أو الدعامة التي لم يُفكر فيها إطلاقا. (...) لذلك تمارس الفلسفة ما يمكن تسميته، بالمعنى الواسع، وظيفة النقد (...)هذه الوظيفة تعكس تمامًا العلاقة اليومية التي تحافظ عليها الفلسفة مع ما يحيط بها، هذا هو المحيط الذي يَظهرُ بعد ذلك كخطاب يومي.[10]
ولذلك يمكننا القول أن فتحي التريكي ومنذ سنوات رسم طريقا، ومن زاوية نقدية، فلسفيا يحلل وينتقد ما هو يومي محددا ما يجب أن تكون عليه الفلسفة في توجهها الجديد اليوم حيث يقول»» التوجه الجديد للفلسفة التي في كنهها ومسارها لا تكون مجدية إلا إذا

فتحت آفاق الفكر نحو النقد الجذري وتجاوزت حدود الظنون والأفكار السائدة. فبدون حركية النقد والتقويض والتشهير والتهديم لا يمكن للفلسفة أن تكون فعالة ومبدعة [11] وهو نوع من نقد للمركز الذي يجد ضالته فتحي التريكي في فلسفتين ونعني بذلك كل من جاك دريدا وميشال فوكو.[12]

تبعا لما سبق ذكره من مصادر فلسفية قد تضعنا في صورة واضحة لما سيقوم به الفيلسوف فتحي التريكي والذي يأتي في رأينا مغاير لمسطرة الخطاب الفلسفي العربي المعاصر من حيث عمق النظرة ودقة الطرح دون الدخول في نزعة النمذجة L'archetypisme التي طبعت بعض المفكرين العرب ونقصد هنا السجال الكلامي الذي تتبعنا حلقاته على الأقل منذ 1967 في مشاريع تتصارع على أحقية النموذج وصلاحيته دون الانتباه إلى التفكير في بناء أو تجديد السؤال الفلسفي في حقل الثقافة والفكر العربي، في غياب تام لمخرج يؤسس لفلسفة. وهذا الهاجس، ونقصد البحث عن حقول عملية للفلسفة، هو ما يَطبعُ فكر الأستاذ التريكي ويجعل أعماله الفلسفية تأخذ منحي البناء من بدايتها [13] إلى كتابه العقل والحرية وإستراتيجية الهوية وفلسفة الحياة اليومية.

ثانيا: شرعنة السؤال الفلسفي وفلسفة التنوع:

ينتمي الأستاذ فتحي التريكي إلى دائرة ما نطلق عليه اليوم الفلسفة العربية المعاصرة في شكلها العام، نقول الفلسفة العربية المعاصرة دون حرج من السؤال المخيف الذي يثير فينا الإرباك كلما حاولنا الإجابة عنه، هل هناك فلسفة عربية معاصرة ؟ سؤال يبدو لنا جوهريا ونحن نتطرق لدراسة فلسفة الأستاذ التريكي لا لشيء سوي لأنه يحمل في نظرنا تصورا مغايرا وجديدا عن الفلسفة يمكن اعتباره علاجا لأزمة حضور السؤال الفلسفي في كونيته.

نقصد بهذا راهن السؤال الفلسفي كما يبدو لديه، والذي لم يعد فقط محصورا في إنتاج الأنساق بقدر ما هو في الفلسفة، فلسفة التنوع، التي تتأسس على الإيمان بالعقل والحرية، وعلى التنوع بل والترحل **فلسفة شريدة**

إننا لا نزعم بأن فلسفته شبيهة بذلك الطرح الذي عرفناه لدي دولوزDeluze[14] ولكن مع ذلك لا بد من التأكيد على أن شرعية السؤال الفلسفي ليست حكرا على جغرافية معينة أو جنس بشري معين بقدر ما أن السؤال الفلسفي كما تأسس تاريخيا كان ينبني على العقل والعقل لا يقبل أية عملية حصر جغرافية أو نموذجية للفلسفة.

إن نزعة النمذجة للتماهي مع ما في الجانب الآخر تعمل على خلق حالة من الحصار السيكولوجي تعرقل تأسيس سؤال فلسفي متميز ومستقل في عالمنا العربي المعاصر، على الرغم من الأستاذ مراد وهبة يُرجع أزمة حضور السؤال الفلسفي العربي المعاصر إلى

أزمة في اليونقيرسيل[15] وقد يكون محقا في ذلك، ولكن لا يجب أن نحصر أنفسنا في النموذج ونحن نسعى لبناء التنوع. من هنا يبدو بأن فتحي التريكي يقدم لنا حلا مخالفا لما سبق، حلا لتأسيس جديد للسؤال الفلسفي، تحت ما شرع منذ سنوات في تسميته بالفلسفة التنوع والفلسفة الشريدة.

أ- فلسفة التنوع:

يبني الأستاذ التريكي رؤيته الفلسفية من خلال تحليله لتطور تاريخ الفلسفة الذي لا يختلف فيه مع بعض الرؤى التي سجلت حضورها في عالمنا العربي والتي تتفق على أن الخطاب الفلسفي يعيش أزمة.

ولكن تصور فتحي التريكي للأزمة لا يقوم على حكم مسبق بقدر ما يخضع لتلك القراءة العميقة لتاريخ الفلسفة فأزمة الفلسفة كما يقول «ليست ابنة اليوم، أو الأمس، هي أزمة مزمنة ولدت مع ولادة الفلسفة نفسها، ولعلنا لسنا نغالي إذا ما قلنا إن التفكير الفلسفي، بما أنه نقد قبل كل شيء، أخذ ورد، إقرار ونفي، عراك وعنف، شك وبحث، هو دائم التأزم، دائم التغير، لا يمكنه البتة أن يقر بفكرة ما ويستقر عليها «[16].

وعليه يصبح أمر دراسة تاريخ الفلسفة لمعرفة كنه التفكير الفلسفي في تشكل طبقاته[17] التاريخية مخرجا للإجابة عن واقع السؤال الفلسفي. هذا التاريخ الذي لم يعد محصورا جراء الأزمات التي لحقت بتاريخ الفلسفة في السؤال الفلسفي.

إن الفلسفة كما يقول فتحي التريكي لم تعد هي « ذلك التفكير الكلي الموحد الذي يعطيك فكرة، إن لم نقل حلا لكل سؤال يطرح عليها، حسب هذه الوحدة الشاملة. لم تعد نسقا وحيدا متماسكا، بل أصبحت حرية وتنقلا، شتاتا وتعددا تنتجها ميادين متعددة فتأتي مختلفة الأوجه متباينة المضارب والمآرب»[18]، ولذا لم يعد البحث عن الفلسفة، نقصد السؤال الفلسفي متوقفا على تلك المذاهب الكبرى التي تشكلت ضمن تاريخ طويل للفلسفة. إن البحث عن الفلسفة يتجلى في رأيه يُكشف عنه في حقول انطباقية الفلسفة ذلك أن الفلسفة ليست أضغاث صالونات، كما يذكر، والتي لا توجد خارج هذا التاريخ الطويل للفلسفة بل في ثناياه. وهو ما يمكن الكشف عنه في طروحات السفسطائية التي كانت تعبيرا عن حالات تأزم للسؤال الفلسفي بل حتى لدي أفلاطون لأن ميزة هؤلاء أنهما شعرا بخطر الأزمة التي لحقت بالفلسفة فبحثا لها عن حقول عملية فكانت في مستوي الخطاب كما عند السفسطائية، وفي مستوي العلم كما لدي أفلاطون.

ولعل البحث عن التصور نفسه الذي نجده ضاربا بجذوره في تاريخ الفلسفة يعد من صميم الفلسفة ذاتها، مما يدفعنا إلى التفكير لا في أزمة السؤال الفلسفي بقدر ما يجب التفكير في كيفيات وصيغ الممارسة الفلسفية حيث يحدد التريكي على ضوء ذلك شكلين للممارسة الفلسفية: الممارسة الداخلية والممارسة الخارجية.

ويعني بالممارسة الخارجية « هي التي يكون حقل انطباقيتها خارجا عنها، فيكون موضوعها غير فلسفي، وطرق تفكيرها مأخوذة عن ممارسات أخرى (...) ولا تقوم هذه الفلسفة في عملها باستعمال أداة العقل فقط، كعادتها، بل ربما استعملت أدوات أخرى تقتنيها من ممارسات أخرى كالنقد، والنضال، والتنظيم الاستراتيجي، وغيرها»[19]، وهي بذلك تكون في موضوعاتها تهتم بالاقتصاد والاجتماع والدين، والحرب والأخلاقيات والتكنولوجيا مما يفسر لنا لاحقا اشتغال فتحي التريكي على جملة من القضايا التي لها صلة بهذه المباحث.

بينما الخطاب الداخلي وكما يعرفه على أنه « ذلك الخطاب الفلسفي، الذي بعد استيعابه، واستبطانه لميادين خارجة عنه، يتخذ لنفسه كميدان للتفكير، الفلسفة نفسها، أن تصبح الفلسفة، موضوع الفلسفة. فتقرر ما يجب أن نفكر فيه. فتقدم لك الحقيقة الفلسفية في جلائها، وتقرر بالتالي الأرضية التي بني عليها التفكير الفلسفي»[20]. يمكننا أن نؤول مفهوم التعقلية والعيش المشترك وهما مفهومين أساسين في فلسفة فتحي التريكي ضمن هذا السياق إذ بعدما بحث لهما عن ميادين عملية عاد بهما ليؤسس ومن داخلهما فلسفته التي أعلن عنها سواء في فلسفة التنوع أو الفلسفة الشريدة/المترحلة.

تمشيا مع هاتين الصورتين يمكن أن نقرأ تاريخ الفلسفة لنستجلي بعد ذلك الصورة الحاضرة للفلسفة أو لنقل التاريخ الحضوري في فلسفته، والذي لا يمكن أن تكون سوي من طبيعة النوع الخارجي للفلسفة لا لشيء سوي لأن الأنموذج الداخلي يبقي في نظره متعلقا بفترة كانت الحاجة ماسة فيه إلى تدويل الفلسفة في القرن التاسع عشر بغية إقحامها في المؤسسات الجامعية وتدريسها.

ومن ثمة فإن النمطية الداخلية ليست كلها تاريخا للممارسة الفلسفية، لذا فإننا نجد ضمن تاريخها ممارسات تخرج عن هذا النمط، كما هو الحال في الفلسفة العربية حيث تظهر أوجه الإبداع « بكل جلاء في الخطاب الخارجي للفلسفة(...) الذي ارتبط بميادين أخرى، لهذا نراه في الفقه والكلام، والرياضيات والعلوم الأخرى، في الجماليات في الفلسفة الاجتماعية والسياسية، جاء على يد الطبري، والبيروني، وابن حيان والتوحيدي، وابن مسكويه، وابن خلدون »[21]. علما أننا نجد من ينكر باسم ضرورة الممارسة الداخلية للفلسفة الحضور الفلسفي العربي علما أن ذلك لا يدل سوي عن قصور في النظر مبني على مركزية غربية لمفهوم الفلسفة.

من هنا تظهر في نظر فتحي التريكي ضرورة الأخذ بالممارسة الخارجية التي تبدو نقدا لفكرة التدويل أي « نقد للفلسفة الرسمية، نقد للممارسة التعسفية التي يقوم بها بعضهم لاستبعاد ممثلي الخطاب الخارجي»[22] ويقصد بممثلي الخطاب الخارجي: ماركس ونتشه فرويد.

إن الانفتاح الذي تعرفه الفلسفة مع المفهوم الجديد الذي يطعم به التريكي تصوره

للفلسفة يفتح الباب أمام إمكانيات عديدة لقراءة تاريخ الفلسفة لا كما يقدمها الغرب، بل كما تريد الفلسفة أن تكون. بمعني أن هذا التصور يضع الفلسفة خارج المركزية الغربية لتصبح الفلسفة مبثوثة في كل ميدان، وموجودة حيث لم يكن بإمكانها أن تفكر أي أنها فلسفة موجودة في الهامش كما في المركز. وهو ما يبشر بانفتاح الفلسفة في تشردها عن جدران رسمت لها، ولذلك فإن « ...، الفلسفة المفتوحة، بما أنها تقر بمبدأ التعدد والاختلاف، ستترعرع، لا خارج الأنساق فقط، بل خارج أسوار الغرب أيضا، لتلتصق بهموم الشعوب الأخرى، وتحطم مركزية الغرب على الصعيد الفكري»[23] ومن ثمة تغدو الفلسفة المفتوحة في نظره التريكي فلسفة غير محصورة بموضوع أو نسق وهوما يعد من كنه فلسفة التنوع.

إن فلسفة التنوع فلسفة ترفض منطق العقل الموحد الذي لا يؤمن بالحرية والاختلاف، منطق مبني على كونية مركزية غربية، وبذا ستكون غاية فلسفة التنوع تحطيم هذا النوع من الفلسفة « لأن الفكر الكوني خاصية أساسية للفلسفة الغربية، بانقراضها ينقرض الفكر الغربي المهيمن، فالتنوع في الفكر قاتل للهيمنة الفكرية الأوربية والغربية لأنه يقر حق الاختلاف ويعترف بنسبية المعارف وخصوصياتها كما ينصت إلى الآخر ولا يعترف بمركزية الفكر»[24]

يبدو جليا أن الغرض من الإيمان بفلسفة التنوع حسب التصور والطرح الذي يأتي به التريكي خيار إستراتيجي يهدف إلى إرساء قواعد الفعل الفلسفي تمشيا مع المعطيات العلمية في مجالات العلوم الطبيعية والعلوم السياسية والاجتماعية لأن هذه العلوم، وكما يُذكر بذلك، عاشت بعد القرن التاسع عشر تحولات في البناء الابستمولوجي لقواعدها المعرفية ولم تعد تلك المفاهيم والتصورات تتلاءم مع ما أتت به مفاهيم النسبية والقوانين الافتراضية في العلوم الطبيعية ولذا فإن «»العقل الذي يلم الشتات ويوحد المفاهيم أي هذا العقل المبني أساسا على ميتفزيقية التوحيد لم يعد يستطيع أن يقدم لنا صورة واقعية للأحداث الطبيعة والاجتماعية»[25]. ولذا أصبحت الحاجة إلى تجاوز العقل الموحد المبني على معقولية الفكر الكلياني لا تظهر فقط في العلوم الطبيعية بقدر ما تبدو في كل المجالات حتى السياسية والاجتماعية منها، لتجاوز قوي الهيمنة والغطرسة وفتح الباب أمام الحرية والتنوع لتصبح في هذا المستوي فلسفة «التنوع هي فلسفة الحرية والنضال ضد القمع بكل أشكاله وأنواعه، وهي تشهير بنمو القمع والقهر وبنمو الاستغلال وخراب العقل»[26].

تغدو إذن فلسفة التنوع فلسفة للممارسة بل أنها الفلسفة التي تتكشف داخل الممارسة نفسها، ولذا يعطيها صورا تاريخية يمكن حصرها في أربعة وهي: المدرسة السفسطائية ذلك أن السفسطائية كانت فلسفة ضد نظام النسق ولم تحصر نفسها ضمن تلك

النزعة الطبيعية فكانت في رأيه « بداية الفلسفة اللانظامية التي تقول بالكثرة والتعدد والنسبة»[27]حيث عاشت مقهورة إلا أن أتى الفلاسفة اللانظاميون ويقصد بذلك: ماركس، وفرويد ونيتشه وأعادوا لها قيمتها بتحطيمهم النسق الذي قام وفقا لمنطق العقل الموحد المبني على فهم المعقولية كأساس لتلك الممارسة العملية، ومن خلالها أصبحت الفلسفة بدون موضوع، فلسفة موجودة في كل ميدان، أي فلسفة تقر بمنطقية التنوع.

وهناك الصورة الآنية موجودة كذلك لدي ماركس برفضها الانغلاق ضمن النسق، والاتجاه الدحضاني La réfulabilite الذي يؤمن به بوبر في العقلانية النقدية، وأخيرا، في التراث العربي نموذج ابن خلدون الذي آمن بل عمل على إيجاد تطبيقات للعقل خارج أطر العقل التنظيري المبني على الوحدة الميتافيزيقية اليونانية للوجود.

يبدو واضحا أن الخيار الاستراتيجي الذي يضعه التريكي أمام الفلسفة اليوم، والذي تمثله تاريخيا في صوره الأربعة، مبني على معطيات تاريخية وعلمية وفلسفية. الخيار الذي يُعد في رأينا بيان بنهاية غطرسة وهيمنة المركز، المبني على المعقولية النظامية النسقية كما تمثله الغرب خيار يسعى من وراءه لتعرية واقع شائك « وتحرير ذاتنا من عبودية القهر والاستبداد بإقرار حرية التفكير والاعتراف الكامل بحقوق الاختلاف والتنوع. ولنا الآن أن نسأل أنفسنا ما هي طرق العملية لبلوغ هذا الهدف من الفلسفة؟

للإجابة عن هذا التساؤل يكون من الواجب الانتقال مع الأستاذ التريكي إلى مرحلة طرق الممارسة الفلسفية من خلال فلسفة التنوع؟، فما هو الجانب العملي في فلسفته؟

ثالثا: الممارسة الفلسفية وفلسفة التاريخ

إن فلسفة التاريخ التي ورثناها فلسفة مبنية على معطيات ميتافيزيقية وهي بذلك فلسفة فلسفة في رأينا مبنية على تصور ليس من جوهر فلسفة التنوع فهي فلسفة للتاريخ ترفضها فلسفة التنوع بل أنها طمست وعملت على طمس فلسفة الاختلاف، ولذا يكون من الأفضل، وبغية توضيح الأمر أكثر لما له من أهمية في فلسفة فتحي التريكي، أن نأخذ فلسفة التاريخ هنا في ثلاثة أبعاد: البعد الأول يتمثل في تلك المنهجية التي يتبعها التريكي في قراءته للتراث ونعني التراث الفلسفي العالمي والعربي، ومن جهة ثانية البحث عما يمكن أن تقدمه فلسفة التنوع لقراءة الوضع العربي وجديد هذه الفلسفة، ومن جهة ثالثة الكشف عن هذه الفلسفة في قراءة التاريخ العربي، كل هذا يمكن أن نصل من خلاله إلى ما نسميه هنا فلسفة التاريخ بالمنظور الذي يطرحه فتحي التريكي.

أ—البعد المنهجي

يميز التريكي في قراءة التراث بين اتجاهين متدخلين: التداخل الذي يكون سببه احتواء

فكرة القراءة التراثية ضمن بعدين للزمن: الماضي بمقوماته وأصالته، والحاضر كحافز ودافع لهذه القراءة. والتداخل الحاصل في فهمنا للحاضر نفسه أي الحاضر باعتباره راهن وواقع له معطياته ومقوماته.

فالتداخل الحاصل في القراءة التراثية يدفع به إلى أن يحكم منذ البداية على أن « الفكر الذي يقتصر على التعامل مع الواقع الماضي دون إرادة التجاوز والتحدي هو فكر جامد لا ابتكار فيه (...) فهو فكر عقيم (...) فتعاملنا مع التراث تعامل ايديولوجي، تتزاحم فيه النظرات السلفية التي تتخذ كأنموذج لعملها السياسي الحاضر ذلك الماضي «» المجيد «» فتصبو إلى التغيير الارتكاسي، والتراجعي للواقع الحاضر»[28]

وتبعا لهذه النظرة يقوم بتقسيم النظرة العربية للتراث أو ما يمكن أن نسميه القراءة التراثية إلى شقين: الشق الأول يتمثل في ذلك الفريق من المفكرين الذين يهتمون في رأيه بكيفية وضع أنموذج في توافق تام مع معطيات العلم الحديث، والشق الثاني الذي يهدف إلى إحياء أنموذجه من التراث.

ولذا فإن هذه العلاقة بين الفريقين كما يري التريكي لا تجد أرضية للاتفاق وذلك لاختلاف المنطلقات والرؤى، فكل اتجاه حينما يُفكر فإنه يفكر خارج الاتجاه الثاني وينفي المعطيات الأساسية لوضوح الرؤية فعلى سبيل المثال كما يقول التريكي إذا « ما أراد المفكر وصف الواقع الماضي، وإحياء التراث، سيكون قوله حتما نابعا من المعطيات الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، للواقع الحاضر، الذي ترعرع فيه، وتكون، وفكر، فهيأ فيه طريقة قراءته للتراث، وللماضي ... ويبقي إذن قول المفكر، مهما تعلقت همته بالموضوعية والعلومية، مرآة وممارسته المختلفة، أحب ذلك أم كرهه»[29]، وإن كانت في رأيه هذه العلاقة المتوترة صفة عادية في العلم الإنساني نظرا لصعوبته وتشابك معطياته.

وعليه فإن نظرتنا وتعاملنا مع التاريخ والتراث تُطبع بصور متعددة ومختلفة الحلول من نظرة تمجيدية ودفاعية وانزلاقية كما يصفها، ولأن كانت النظرة الانزلاقية في نظره رغم اختلاف المفكرين حولها وفي جديتها وفاعليتها في قراءة وفهم التراث العربي نظرة تأتي لتتماشي والمعطيات التاريخية لعالمنا العربي. وعليه تكون الشروط التاريخية في تعالمنا مع هذه الحضارات من المتطلبات التاريخية والحضارية وفقا لمتطلبات النظرة العلمية النقدية المؤمنة بتظافر العلوم كما يصفها التريكي مما يعني في نظره « أن طريقتنا العلمية تتعامل حتما، إن أرادت أن تصل إلى مستوى العلم، مع الحضارات الإنسانية المختلفة، ولا سيما الحضارة الغربية، حيث ترعرعت العلوم الحديثة ... ولكن هذا التعامل لا يجب أن يكون خضوعا واستكانة، بل تعاملا علميا وديناميكيا»[30].

إن التنوع في حضارتنا وتراثنا يتحول وفقا لهذا الطرح لا إلى سبب يدفع إلى الارتكاس والتقوقع وفق منطق دفاعي عن الذات كما تفعل وتعمل النظرة السلفية مهما تعددت

أطروحتها ولا حتى النظرة التمجيدية الماضوية لتراثنا، بقدر ما تصبح صفة للإبداع والخلق الذي لا ينكر أصالة تراثه ويريد أن يندمج اندماجا وفق معطيات العصر ومقومات التراث والتاريخ. تلك الحركة التي يجب أن ندفع إليها قراءتنا لتراثنا للخروج من مأساة ما يسميه قراءة التراث بالتراث.

علما أنها حركة بالرغم من أنها تُعاني من القراءة الاندفاعية التمجيدية والارتكاسية فإنها تعاني من الثقافات الرسمية التي طغت بسطحيتها على كل عمل خلاق مبدع ولذا فإن هذه « العوامل تجعلنا نعتقد اعتقادا راسخا أن علينا أن نخدم مفاهيمنا وطرقنا البحثية، وأن نستوعب الأفكار الجديدة، والممارسات العلمية، والفلسفية المختلفة، ونتعامل، معها تعاملا منهجيا، حتى نتمكن من تطوير فهمنا لحضارتنا وهويتنا وماضينا ومستقبلنا وواقعنا وطموحاتنا»[(31)] بهذا يصبح مطلب الفلسفة ضروريا لكل عمل نقدي نسعى ونطمح إليه.

لا ينفي التريكي أن هذا المطلب لم يكن خفيا على المفكرين العرب، ولكن تعامل هؤلاء مع الفلسفة لم يتم إلا من خلال تلك العملية التوظيفية والأيديولوجية للفلسفة لترتسم في عالمنا العربي كما في كل أنحاء العالم تلك الوضعية المأسوية للفلسفة. ومن هنا لم ينتج هذا المطلب سوي ما يسميهم بأساقفة القرن العشرين ويعني بذلك شريحة التكنوقراطنين عبدة التقنية الذين يحصرون الفلسفة في حديث الصالونات كما يصفهم ولا من أولئك «المحافظون الذين تمترسوا بالتراث والأصالة، والعودة إلى عدالة النظام المحمدي، واعتبروا (الذين التحموا بالفكر الأوربي ، وتفتتوا أذلاء في فكرة المنتن الآفن) (أحقر من جناح بعوضة) ينادون بإصلاح الفلسفة وجعلها ميدانا من ميادين الفكر الديني»[(32)].

على هذا الأساس يأتي مجهود الأستاذ التريكي في الدفاع عن الفلسفة العربية وشرح وضعها وموقعها ومكانتها من جهة ومن جهة ثانية إرساء قواعد تلك العملية في بناء المفهوم من خلال رؤية فلسفية تنحصر في فلسفة التنوع لتصبح فلسفة التنوع فلسفة لقراءة التراث من جهة ومن جهة ثانية بحث عن موقع وموطن للفلسفة العربية، ومن جهة ثالثة توطيد مكانة الفلسفة العربية ضمن التراث الفلسفي العالمي.

إن فلسفة التنوع كما يبدو يمكن اعتبارها فلسفة للتاريخ من حيث أنها لا يمكن أن تُفهم كلحظة تقيمية وتقويمية للسؤال الفلسفي بقدر ما هي آمل في حضور وبناء للسؤال الفلسفي في ثوب جديد من خلال الهامش والمترحل والتي لم تترك، كما يوضح ذلك التريكي، قوة الغطرسة وطغيان النسق لها فرصة الظهور إلى أن قام الفلاسفة اللانظاميون: ماركس فرويد نيتشه بنقد النسق وإظهار فلسفة جديدة فلسفة تتغذي من الهامش نفسه ومن التنوع والاختلاف، فلسفة شريدة.

ب-الفلسفة الشريدة فلسفة للتاريخ

إن فلسفة الشريدة هي بمثابة طريق لبناء فلسفة للتاريخ يكون الغرض منها كما تصورها صاحبها قراءة في التراث والتاريخ العربيين، والبحث عن مكانة وموقع للحضور الفلسفي العربي ضمن كونيته.

ولبلوغ الهدف المسطر لم يخف التريكي موقفه من القراءات الاندفاعية والحماسية التمجيدية للتاريخ والتراث العربي، بل حتى الاستشراقية الغربية والعربية المستشرقة كما يحلو له وصفها، ونقد الأستاذ سامي النشار بذلك في اختفائه تحت عباءة رينان[34] وحتى الوضعية الخطية مبنيا ذلك التحول الذي أحدثته دراسات الأستاذين طيب التزيني وحسين مروه في تغير الاتجاه في البحث داخل تاريخ الفلسفة بصور واستنطاقات جديدة تنزح كلها إلى نقد المركزية الأوربية مبينة الأصول المذهبية للفلسفة العربية من خلال إحياء التراث والتاريخ الفلسفي العربي، أو كما يعبر عنها التريكي نفسه بأنهما بثُ لروح جديدة داخل التراث العربي.

علما أن قراءته لا تأتي مناقضة لمجهود هؤلاء بقدر ما تهدف للخروج عن تلك العملية الحصرية للفلسفة بمعني أن هدفه كما يصرح به كان لتجاوز حصر الفلسفة في المذاهب الكبرى مع الأخذ « بعين الاعتبار تنوع التفكير والمناهج والمواضيع »[35] معتمدا في بناء فلسفة على ممارستين: الممارسة الداخلية للفلسفة والممارسة الخارجية مرتكزا على الخصوصية والتنوع في الأفكار الفلسفية كما يُفترض أن يكون عليه الأمر أمام أي قراءة للتراث والتاريخ. خيار عدم الانغماس في النمطية الغربية المؤسسة على منطق العقل الموحد وتبني منطق التنوع المؤسس على النقد والاختلاف والحرية.

ولبسط هذه الفلسفة كرس الأستاذ التريكي نفسه لبناء شبكة من المفاهيم يراها مؤسسة للفهم والتصور النابعين من التراث الفلسفي العربي وفي توافق تام مع معطيات التراث الفلسفي العالمي حيث يتضح المجهود بكثرة في عمله المتميز حول تأسيس مفهوم العقل والحرية والذي كان نتيجة لكتابه العقل والحرية الصادر سنة 1998 حيث يصرح في بدايته بما يلي « وأكاد أجزم أن قضية التعقل والحرية هي أساس كل القضايا المطروحة لأنها ستنير السبيل لكل من يعمل على تحريك الواقع العربي الحالي، وذلك إذا تحرر الإنسان العربي من معاناة الآثار النفسية والاجتماعية التي تشده إلى طرح القضية طرحا مغلوطا فيستمر في عدم الانتباه إلى أساس فكرة الحرية وجوهرها ويتوجه بالدرس والتنقيب نحو الكيفيات والأنواع والنتائج فقط»[36]

لم يلجأ فتحي التريكي بالدعوة إلى النكوص أو الانتحار بقدر ما مكنته منطلقاته فلسفية من الإبقاء على وميض الحياة مشتعلا.

إن الاستراتيجية الخطابية التي اتبعها التريكي لها مميزاتها في بناء المفهوم، بل تأصيل المفهوم لبعث الأمل في الحياة وخلق التلاحم بين متطلبات الواقع والفكر في حد ذاتها وهذا ما يؤكده في قوله « سيكون البحث في قضية التعقل والحرية من خلال نماذج التفكير التحديثي مفجرا للقدرات العربية التي تتمكن لا من معرفة تصورات الحرية على المستوي الذهني فقط بل وكذلك من خلال ممارسة مسؤولة للحريات السياسية والاجتماعية والسيكولوجية. بذلك فقط تتكون عندنا تقاليد اجتماعية تتأسس على احترام الذات بجميع تشكلاتها»[37].

وفقا لفلسفة التنوع المبنية على رفض منطق العقل الموحد المؤسس على فهم وتصور للمعقولية والتي كما أوضحنا سابقا تكون نتيجة للممارسة العملية. يذهب التريكي للبحث عن تصور جديد للعقل من داخل التراث الفلسفي مفهوم يجمع بين الجانب العملي والأخلاقي إنه مفهوم **التعقلية** La **Raisonnabilité**

حيث يشرح الخيار المفاهيمي الجديد للتعقلية بغية توسيع مداركنا « ما نريد اقتراحه هنا هو مفهوم جديد لم يُستعمل بعد في خضم مفاهيمنا الفلسفية العربية نحاول التعبير عنه عن توجه عملي وأخلاقي مفتوح للعقل ونعني بذلك التعقلية»[38].

مستلهما ذلك من الفارابي في رسالته في العقل وفصول منتزعة أين جمع الفارابي بين الجانب العملي والجانب الأخلاقي للعقل الشيء الذي ميز في نظره الفارابي عن تلك الأطر الأرسطية لتصبح التعقلية كما يقول «»من مشمولات الإيطيقا، إن ما يميز العقلانية والمعقولية والتعقلية رغم أنها نابعة من العقل حيث أن العقلانية تفيد « مذهبا جدليا يقر ويفند ما سواه (و) تفيد المعقولية ما يجعل الشيء قابلا لأن يعرف بواسطة العقل ومن خلال قواعد المنطق وتفيد التعقلية قابلية السلوك البشري العام وممارساته المختلفة لأن تتحدد بواسطة التعقل»[39].

وبهذا الطرح يستثمر فتحي التريكي التاريخ بحيث لم يعيد بعث مفهوم كان مندسا في تراثنا فقط، بل عمل على فتح وتوسيع الإدراك لبسط العقل في مجال التعامل اليومي. والتعقلية لا تلغي مفهوم المعقولية والعقلانية كما يؤكد على ذلك، بقدر ما تعمل على «تأنيس العقل وفتح المعقولية على الأخلاق والايطيقا حتى ترتبط الحقيقة بالجدوى فينتج عن ذلك عمل إنساني في جوهره و يكون العقل مرتبطا بالتسامح والحوار والسلم»[40].

وهي المهمة التي تصبح من واجبات الفلسفة كما يبين ذلك في كتابه التفلسف والعيش معا philosopher le vivre--ensemble أين تصبح تعقلية الفارابي طريقا لمفهوم العدالة من خلال مفهوم المحبة والأنس « والتي **حسب مسكويه يمكن أن تنحصر في الحب العاطفي، العشق، في الحب الصدقاتي، الصداقة والحب الجنوني، الولع، وفي عاطفة... المودة** »[41] والتي نجدها واضحة أكثر كما يذكر ذلك عند التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة حيث تعني في رأيه الأشكال الجمالية والأخلاقية للعيش معا ، مما يتوافق مع ذلك الفهم الذي يعطيه دولوز للفلسفة والذي ذكرناه في الأول إلا أن التريكي يقفز على المفهوم المؤانسة كما ورد عند التوحيدي إلى مفهوم التأنس لما في ذلك من عمق في تحديد علاقة الأنا بالآخر، علاقة التبادل في ظل الاحترام لأن المؤانسة كما وردت عند التوحيدي تفترض تلين لجانب علائقي من جهة واحدة ولذلك ربطه التوحيدي بالامتاع بينما التأنس نابع من التعقلية في الفلسفة الفارابية يشترط علاقة التساوي والعدالة وذلك ما حرص التريكي على توضيحه وإبرازه.

إن دور المفهوم هنا لم يكن لدي الأستاذ التريكي لذاته بقدر ما كان في اتجاهين: الأول هو إعادة بعث المفهوم ليكون من بين مهام الفلسفة، وثانيا أن هذه العملية الانبعاثية تكون لغاية كسر وتقويض الفلسفة الكونية النظامية بهذا التنوع الحاصل ضمن التراث الإنساني، ليصب في محاولة لفهم الفلسفة من خلال صور الممارسة للفعل الفلسفي وهي التي تسعى إليها فلسفة التنوع أو الفلسفة الشريدة.
عندئذ يمكن أن نقول، وفي هذا المستوي أن القراءة التي يقدمها التريكي للتراث والتاريخ العربي لا تدخل ضمن تلك الإحيائية التمجيدية الرسمية، بقدر ما هي في أبعادها تحيل على فلسفة لبناء المستقبل.

ج-الروح التاريخي تصور فلسفي للتاريخ.

إن الفهم الذي يحيلنا التريكي عليه في تصوره للفلسفة ، أي البناء الداخلي والخارجي، تظهر أهميته مرة أخرى في تلك الدراسات التي قام بها على بعض النماذج من تراثنا التاريخي ونعني الكتابة التاريخية العربية بداية من عمله الأول الروح التاريخي في الحضارة العربية والإسلامية، إلى الأعمال الجانبية في دراساته حول المقدسي، والبيروني، وابن خلدون، والسخاوي، حيث عمل على الكشف عن بعض الجوانب الخفية في هذه النماذج،

بل أنه بث الروح فيها بتلك القراءات الجديدة، لأن تصبح مجال تفكير لإرهاصات فلسفة تاريخ ذات منطلقات لها خصوصيتها العربية لا من حيث المكان فقط بل من حيث الزمن في تمايزها عن فلسفات التاريخ الاعتيادية.

ولذلك نجده يؤكد على أصالة التفكير التاريخي العربي حينما يقول» فلا غرابة إذن أن تظهر في منطقة الفكر التاريخي العربي تاريخ من نوع خاص لا يلتزم السرد المسترسل للأحداث، ولا الرجوع إلى الماضي لتتبع صيرورة الحدث، ولا يلصق التاريخ بدولة أمير أو بحكم عائلة، بل ينظر إلى الحدث بعين الباحث المتعطش إلى معرفة (الأمور على وجهها) فلا يهمه الماضي بقدر اهتمامه بالحاضر ولا يهمه الأمير بقدر اهتمامه بالمجتمع والدين»[42].

تلك إذن أصالة التفكير التاريخي العربي التي لا يتوان التريكي في تقديمها ضمن قراءة جديدة وفق ما يمكن أن نسميه بالفهم الخارجي للفلسفة، حيث تبدو أهمية تصوره للفلسفة في تلك الصور التي يلخص فيها التصور الخاطئ الذي تقدمه بعض الدراسات عن فلسفة ابن خلدون فتنكر عليه فلسفته في التاريخ، باسم تلك المماثلة والمطابقة مع فلسفة التاريخ الهيجلية أو غيرها واتطالب ابن خلدون أن يكون مثلها، وإلا لا يمكن أن يكون فليسوفا للتاريخ حينما يقول « والغريب في الأمر أن كل هؤلاء يطلبون من ابن خلدون أن يكون (هيجليا) قبل الأوان. فلا يجب أن نحدد ما لم يقم به ابن خلدون كي نعتبره فليسوفا في تصوره للتاريخ. فالطريقة الأنجع هي أن نحدد كيفيات تدخل العقل التاريخي في منهجية ونمطية ركيزته الزمنية»[43].

إن هذا التصور في رأينا ما كان ليحصل لولا عاملين: أما العامل الأول فيكمن في أن صاحبه قد حدد من البداية فضاء للفلسفة نعتبره جديدا، وإن كان من صلب الفلسفة كما يبين ذلك، في الجانب الخارجي للفلسفة حيث أوجد للتفلسف مجال الانطباقية وبالتالي تخلص من تلك الطريقة الحصرية التي قدمتها الفلسفة الغربية من خلال منطق العقل الموحد بحيث أصبح إمكان الكلام عن العقل غير محدود في التصور الغربي فقط.

من جهة ثانية أن صاحبه لم يبق على نفسه محصورا في القول بالنسق، بل وسع نظرته لتصبح الفلسفة هي البحث خارج الأسوار التي رسمت لها بمعني أصبحت الفلسفة تنبني على التنوع ولم تصبح فلسفة عنصرية محدودة بجغرافية مما دفعه، أي التريكي، لأن يجد للكتابة التاريخية العربية خارج الفهم النظامي للفلسفة إمكانية البروز والظهور وهنا كذلك تظهر لنا أهمية فلسفة التنوع في قراءة تراثنا وتاريخنا العربي.

إن فلسفة التنوع التي ترفض منطق العقل الموحد، ترفض كل بناء سياسي أو اجتماعي ينبني أو يتبنى التصور الكلياني بمعني أنها رفض لوحدوية الفكر، وتقر بالتنوع الحاصل ضمن الفكر وتعمل على أن يصبح الإيمان به وسيلة للتحرر. كما أنها تبدو، أي فلسفة التنوع، كذلك وسيلة لإعادة التفكير في معطياتنا السياسية واجتماعية في عاملنا العربي الذي يحلم بوحدة عربية، بالضغط أحيانا على معطيات الواقع والقفز عليه لبناء الفكرة الواحدة والمجتمع الواحد والقرار الواحد.

إن المواجهة التي نحي ضمنها أفرزت انعكاسات لا على المستوي الداخلي للدولة الواحدة بقدر ما أنعكس ذلك على حلم الجماهير العربية في وحدتها الوجودية، والسبب في ذلك أن المعطيات الحقيقة لذلك التنوع الحاصل على مستوي كل قطر لم تأخذ بعين الاعتبار في كل مشروع وحدوي ولذا تغدو فلسفة التنوع إستراتيجية العمل العربي للخروج من التخلف في كل مستوياته ففلسفة « التنوع توضح لنا على الصعيد السياسي طريقة إنتاج حركة سلطوية تحررية و ديمقراطية تضمن تمثيل الجماهير العربية ديمقراطيا وتعبر عن إرادتها وتطلعاتها و اختلافاتها مع الحذر من الانقلاب إلى مؤسسة تقمع أعضاءها »([44]) ولمتابعة العمل نفسه نجد تصوره لا يقف عند هذا الحد من تحليلاته للماضي فقط بقدر ما أنه يسهم في بناء الحاضر وفهم أطروحاته.

يتبين لنا ذلك في تلك المتابعة التي يقوم بها من خلال التغيرات الحاصلة في العالم للتوجيه مرة، وللإعادة بناء تصورات متبنيا مواقف وناقدا لبعض الآخر كما هو الحال في كتابه إستراتيجية الهوية أين يقدم الأبعاد الميتافيزيقية والنفسانية والسياسية والتاريخية لمفهوم الهوية لا لهدف سوي لأنه وكما يصرح في الخاتمة بأن « حضورنا في العالم يدفع المثقف لإعادة التفكير في قاموس المفاهيم والمعاني التي نستعملها لنتعارف ونعرف محيطنا»[(45)]

إن فلسفة التاريخ التي يمكن الحديث عنها ضمن التصور الذي يقدمه التريكي لا يمكن في رأينا فهمها وفهم دلالتها إلا في ضوء تصور وإيمان بفلسفة التنوع كنتيجة للمصير الذي عرفته الفلسفة في طابعها المعاصر ألا وهو الفلسفة الشريدة، وهو خيار وإن كان ذو أهداف كونية لأنه نابع من هذا الفهم للعقل والحرية فإنه ضمان لنا كعرب وبدون نزعة شوفنية للدخول في حلبة الفضاء الفلسفي.

إن الأستاذ التريكي وفق تصوره يعمل على إدماج الخطاب الفلسفي العربي ضمن تلك الحركة الكونية التي تعرفها الفلسفة في القرن العشرين حتى لا تبقي بعيدة عن طروحات

وطموحات القرن القادم فإلى جانب الفلاسفة العرب المعاصرين هناك عمل جديد للبحث الفلسفي يتطور ويعمل مباشرة على إشكالات حضورية في مستوي عالمي، وبالخصوص الذي يسمح بدمج كل التطبيقات الفلسفية بعيدا عن الحيز الثقافي المندمجة فيه وهو العقل و العقلانية (أنظر أعمال على ظاهر و فتحي التريكي) ([46]).

الخاتمة

لم أريد في حقيقة الأمر أن تكون هناك خاتمة لهذه الدراسة و نحن نأمل مع الفيلسوف فتحي التريكي لبناء أسس لمشروعية حلم في فكرنا الفلسفي العربي ، لأن دراسة فلسفة فتحي التريكي تفتح الشهية للحديث عن مقدمات أخري، وأقصد مقدمات ضرورة الانتباه إلى إعادة النظر في تأسيس السؤال الفلسفي لا في خصوصيته فقط ولكن التأسيس من خلال ذلك الاستثمار المعقول و الهادف للماضي في كونيته دون نسيان الخصوصية التي نعمل على إبرازها بالانتباه مرة ثانية إلى حمولة النصوص الفلسفية العربية الإسلامية دون الانغماس فيها بدعوى أنه لدينا في ماضينا ما يقوله الآخر اليوم، ولكن بدعوى أن الفلسفة في ذاتها اليوم تعيد إنتاج أطروحاتها باستمرار. ولعل القوة الوحيدة التي تمكننا من ذلك والتي لا تقبل جغرافية كما يقول أستاذنا التريكي هي العقل، وهو النداء نفسه الذي أنصت له فلاسفتنا في القديم من أمثال الكندي و الفارابي و ابن رشد و حتى ابن خلدون، فكم هي الضرورة ملحة الآن أن ننصت إلى هذا النداء لنؤمن بالاختلاف والحرية والحوار والاتصال.

1- فتحي بن الهادي بن أحمد بن عبد السلام التريكي من مواليد سنة1947 بصفاقس الجمهورية التونسية. أستاذ فلسفة مميز بجامعة تونس عضو قار بأكاديميّة بيت الحكمة بتونس وصاحب كرسي اليونسكو للفلسفة بالعالم العربي والمنسق العام لمعهد تونس للفلسفة. عميد سابق لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، محصّل على الدكتوراه مرحلة ثالثة في الفلسفة السياسية حول «فكرة الحرب في الفلسفة السياسية المعاصرة» ودكتوراه الدولة حول «الروح التاريخي في الحضارة العربية والأسلامية من جامعة باريس الصربون، فرنسا. له عدّة بحوث وكتب باللغتين العربية والفرنسيّة وترجم بعضها إلى الأنجليزية والألمانية والإيطالية. نذكر من بينها قراءات في فلسفة التنوع: طبعة أولى، الدار العربية للكتاب 1986 و الفلسفة الشريدة: مركز الإنماء القومي، بيروت 1987 و فلسفة الحداثة (بالاشتراك مع رشيدة التريكي): مركز الإنماء القومي، بيروت 1988 و فلسفة الحياة اليومية، الدار المتوسطية للنشر، تونس وبيروت 2009 و تحريرا لكيان دار لوسيل للنشر الدوحة 2018 و الذاكرة والمصير، الدار المتوسطية للنشر، تونس وبيروت 2020

عاصر مجموعة من الفلاسفة يمكن ذكر أبرزهم: فرانسوا شاتلية، جون توسان دوسنتي، وميشال فوكو. يمكن تتبع مسار حياته العلمية والنضالية في كتابه الذاكرة والمصير. وممن تخرجوا على يده يمكن أن نذكر على سبيل المثال: بغورة الزواوي، فتحي المسكيني، سالم العيادي، عبد العزيز العيادي، محمد جديدي، بن شرقي بن مزيان وغيرهم...

2– وهو من بين المفاهيم التي يقترضها فتحي التريكي من فلسفة ميشال سار M.Serres

3– جيل دولوز و فليكس غتاري « ما هي الفلسفة » ترجمة مطاع صفدي و فريقه (ط 1) مركز الإنماء القومي ، بيروت ، لبنان ، سنة 1997 ص 30

4– نفس المرجع، ص 33 .

5–يمكننا أن نؤرخ لهذه الفترة من فلسفة فتحي التريكي بداية من كتابه فلسفة العيش معا أي الفترة التي قدم فيها مفهوم التَعقُّلية La raisonnabilité

6– يذكر فتحي التريكي في مؤلفه الذاكرة والمصير العديد من المواقف التي تمثل في رأينا هذا الجانب المهم من حياته ولعل أبرزها: موقفه من القضايا الثورية التحريرية تونس، الجزائر وفلسطين، كما يذكر دفاعه ووقوفه إلى جانب شقيقاته مما زرع فيه مبكرا روح الإيمان بحقوق الانسان وحقوق المرأة، وكذلك مواقفه النضالية التي كلفته في الكثير من الأحيان أتعاب مهنية.

7– لم يكن إقرار كرسي الأنيسكو للفلسفة في العالم العربي تحت عنوان فلسفة العيش المشترك سوى صورة ماثلة لهذا الايمان لديه بأن تكون الفلسفة بنت الحوار والنقاش بين الشعوب.

8- D.Desanti. et J. T.Desanti et. La liberté nous aime encore. Odile Jacob. 2001 Version electronique. P 290

9– فتحي التريكي، فلسفة الحياة اليومية، ط1، دار المتوسطية للنشر، تونس، 2009، ص 23

10- M.Foucault.Le Discours philosophique. Ed Gallimard. Paris. 2023 Paragraphes.7-8-80-92-93.

11– فتحي التريكي، فلسفة الحياة اليومية، مرجع سبق ذكره، ص 50

12–يمكن العودة على سبيل الحصر لكتاب فلسفة الحياة اليومية على الأقل فيما ورد من الصفحة 48 إلى55

13– نقصد كتاب الفلاسفة والحرب، أو كتاب الروح التاريخية في الحضارة العربية والإسلامية والذي تُرجم بالروح التاريخي في الحضارة العربية والإسلامية. يقول فرانسو شاتلية في تصدير كتاب الفلاسفة والحرب ما نصه»» حين أتاح لنا فتحي التريكي النّظر في المجهودات التي بذلها الفلاسفة للتّفكير في الحرب، فإنّه حملنا على توسيع نطاق البحث وعلى أن نتساءل حول شرعيّة العرف، عرف غالبًا ما يكون منمّقًا، نصنع من خلاله مفاهيم من الطّبيعة نفسها كالثورة، ولكن أيضًا الدّولة، وحقوق الانسان، والشّغل، والنظام... استعمال يقود أحكامنا السّياسية وافعالنا.»» أنظر تصدير كتاب فتحي التريكي، الفلاسفة والحرب، تعريب زهير المدنيني، ط الأولى، ابن النديم للنشر والتوزيع، بيروت لبنان ، ص 27 . وهو ما سيشكل جزءا مهما من كتابه فلسفة الحياة اليومية خاصة الباب الثاني من الكتاب. كما يحرص في الكتاب الثاني والذي هو في الأصل

أطروحته في الدكتوراه التي ناقشها بجامعة السربون بباريس سنة .... على تناول مفهوم التاريخ الحضوري كما لو أنه فلسفة للتاريخ.

14– رغم أن كتاب الفلسفة الشريدة ظهر في طبعته الأولى بأربع سنوات قبل أن يظهر كتاب ما الفلسفة في طبعته الأولى بالفرنسية.

15– موسى وهبة « ابن رشد و إمكان القول الفلسفي بالعربية اليوم» ص 116 ضمن مجلة الفكر العربي المعاصر العدد 108 /109 لسنة 1999 مركز الإنماء القومي _ بيروت _ لبنان

16– التريكي فتحي، الفلسفة الشريدة ، ط1، مركز لأنماء القومي _ بيروت ، لبنان 1987، ص 13.

17– نستعمل ها هنا مفهوم الطبقات التاريخية ليس بالمعني الماركسي بل بالمعني الذي يستعمله ميشال فوكو بداية من الكلمات والأشياء ليوفر لنا القاعدة النظرية التي يمكن أن نفهم من خلالها مفهوم التاريخ الحضوري محور أطروجة فتحي التريكي حول الروح التاريخي في الحضارة العربية والإسلامية حيث يقول ما نصه» نرى أنّ هذا البحث في تكوين الرّوح التّاريخي عند العرب يُجيب عن مشروع التفكير في تاريخانيّة الانسان العربي، وعن هاجس ربط كينونته بتأسيس أصيل يظل طامحًا إلى تحول بِنْيَات حياته. ويجيب هذا البحث أيضًا عن مشروع تنضيد العالم العربي الإسلامي للدلالات الثقافية والتقليدية، ولرواسب الثقافة العربية بمختلف مظاهرها وتشكلاتها بحسب العصور والأماكن. وعليه، فإننا نستطيع أن نفكر، من خلال هذا البحث، في مختلف بِنْيَات المعرفة، ومكونات العلوم في هذه الثقافة، تفكيراً قد يُساعدنا في عرض تصميم أوّلّي لوضع نظام مختلف طبقات هذه الثقافة، ولِلُعبة العلاقات الّتي تربطه بمختلف ممارسات الخطاب.» فتحي التريكي، الروح التاريخي في الحضارة العربية والإسلامية، تر زهير المدنيني ونور الدين السافي، ط1، دار المتوسطية للنشر، تونس 2019. ص 20 . ويذكر ميشال فوكو ما نصه «»من الممكن تماما كتابة تاريخ للفكر في العصر الكلاسيكي بأخذ هذه المساجلات كنقاط انطلاق، أو كموضوعات. لكننا لن نصنع آنذاك سوى تاريخ الآراء، أي تاريخ اختيارات تمت حسب الأفراد والأوساط والجماعات الاجتماعية، وههنا منهج كامل في الاستقصاء مفترض ضمنياً إذا أردنا الشروع في تحليل أركيولوجي للمعرفة نفسها، فإنه ليست هذه السجالات الشهيرة التي يجب أن تستخدم كخط موجه وكمفصل للكلام، بل يجب إعادة تكوين النسق العام للفكر الذي تجعل شبكته، في ايجابيتها، ووضعيتها، لعبة الآراء المتزامنة والمتناقضة ظاهريا ممكنة. إن هذه الشبكة هي التي تحدد شروط الامكانية لمساجلة أو مشكلة، إنها هي الحاملة لتاريخية المعرفة. ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، تر مطاع صفدي وآخرون، د.ط، مركز الانماء العربي، بيروت، لبنان، 1990، ص82.

18– نفسه، ص 15.

19– نفس المرجع، ص 17

20– نفس الرجع، ص 17

21– نفس المرجع، ص 31

22– نفس الرجع ص 28

23– نفس المرجع ص 34
24– التريكي فتحي « قراءات في فلسفة التنوع» (ط1،) الدار العربية للكتاب تونس 1988 ص 20
25– المرجع نفسه ص 10
26– نفس المرجع ص 16
27– نفس المرجع ص 61
28– فتحي التريكي « الفلسفة الشريدة » مرجع سابق ص 8
29– نفس المرجع ص 9
30– نفس الرجع ص 10
31– نفس المرجع ص 11
32– نفس المرجع ص 12
33– انظر الصفحة 29 من كتابه الفلسفة الشريدة
34– نفس المرجع ص 33
35– التريكي فتحي « العقل و الحرية » (ط1) دار تبر الزمان ، تونس 1998 ص 8
36– المرجع السابق ص ، ص 8 ، 9
37– نفس المرجع ص 38
38– نفس المرجع ص 39
39– نفس المرجع ص 55
40- Triki Fethi. Philosopher le vivre – ensemble collection penser . Ed l'or du Temps. Tunis. 1998
41– التريكي فتحي « العقل و النقد في فلسفة التاريخ عند العرب» ص 39 ضمن مجلة الفكر العربي المعاصر العدد 88 / 89 – 1991 مركز الأنماء القومي ، بيروت ، لبنان.
42– التريكي فتحي « ابن خلدون و الزمنية التاريخية العربية » ص 78 ضمن مجلة الحياة الثقافية العدد 63 سنة 1992 وزارة الثقافة التونسية ، تونس
43– التريكي فتحي « قراءات في فلسفة التنوع » مرجع سابق ص 17
44- Triki Fethi La Stratégie De L'identité Ed Arcantéres , Paris 1998 P133
45- Encyclopédie philosophique universelle – Le Discours PHilosophique— ed P.U.F. 1998. P 355

روضة غنايم

حيفا في الذاكرة الشفوية
أحياء وبيوت وناس

ذاكرة فلسطين



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

من نقد العقل إلى نقد الحضارة: قراءة في تصور الجيل الأول لمدرسة فرانكفورت

سارة دبوسي

جامعة المنار / تونس

ملخص: سنعمل ضمن هذا البحث على تقديم قراءة نقدية تحليلية لتصور الرواد الأوائل ومؤسسي معهد البحوث الاجتماعية الذي أصبحت تسميته فيما بعد بمدرسة فرانكفورت، حيث سنركز على مجمل تصوراتهم النقدية للعقل الغربي الحديث وكيف راهنوا على إرساء جملة من النظريات النقدية من خلال بحثهم النقدي الدؤوب في البحث عن شروط إمكان تحقيق التقدم بالعقل إلى إرساء نقد يبحث في التاريخ والثقافة عن شروط التقهقر والهمجية بماهي مجموعة من الوقائع التاريخية والقيم الثقافية.

الكلمات المفتاحية: النقد– العقل– الحضارة الغربية– الجيل الأول– مدرسة فرانكفورت– التاريخ– الثقافة– التقهقر– التقدم.

مقدمة:

مثل العقل مقولة أساسية في تصورات أبناء الجيل الأول لمدرسة فرانكفورت النقدية،وهو ما نلحظ صداه ضمن مختلف كتاباتهم النقدية. ويبدو أن الارتقاء من معقولية الواقع المعيش إلى ما نصبو إليه بالعقل يخلف عناء كبيرا نتيجة ما نلاحظه من هشاشة للعقل في الواقع.وهو ما يطرح مشكل العلاقة بين المعقولية والعقل، ويتعلق ذلك بتصورنا للمعنى الموضوعي للعقل.

هذا وتمثل مسألة العقل موضع اهتمام خاص لمدرسة فرانكفورتلذلك راهن ممثلي الجيلالأول الذي ضم مجموعة من المفكرين كان في طليعتهم ماكس هوركهايمر وتيودور أدرنو وهربرت ماركوز ومجموعة من الفلاسفة الآخرين، حيث أخذ هؤلاء على عاتقهم

مواصلة المشروع النقدي الكانطي ولكن بتصور جديد يقوم على نقد جذري للعقل والحضارة الغربيين، وذلك في محاولة منهم لإنقاض الإنسان الغربي من براثين الهيمنة والانحطاط التي فرضتها الفلسفة الوضعية والتجريبية علي عقله وحولته عقله عقل أداتي خاسف، لذلك كان لابد من مساءلته ووضعه على محك النقد منذ اللحظة الكانطية التي راهنت عل قدرة العقل على إخضاع كل شيء للنقد، وقد مثل النقد السمة الأساسية لرواد هذه المدرسة.

كما هو معلوم فإن تأثير المشروع النقدي الكانطي بين في فكر هؤلاء، ولكن بتصور جديد يتماشي والواقع الحضاري الغربي منذ عصر الأنوار وبداية الحداثة الغربية، حيث راهن هؤلاء على إرساء نقد جذري للحضارة الغربية. هذا وقد سعى أبناء الجيل الأول إلى نقد عقلانية عصر التنوير والمؤسسات السياسية والثقافية والاقتصادية المتصلة به، بالاستناد في ذلك إلى عمق التراث الفكري الغربي.

هذا ويعد مفهوم العقلانية من أبرز المفاهيم التي شكلت المشروع الحضاري الغربي منذ فجر الأنوار، ويمثل كل من روني ديكارت وفرنسيس بيكون أبرز ممثليه، حيث يعتبر ديكارت مدشنا لحظة بداية هذه العقلانية منذ صياغته لعبارة الكوجتو، وهي لحظة تاريخية تعتبر أن غاية المعرفة العلمية والتقنية السيطرة على الطبيعة ليكون بذلك الإنسان سيدا عليها ويتجاوز بالتالي ضعفه أمامها، « فالطبيعة التي كانت عند اليونانيين السيدة المطاعة تصبح عند ديكارت الخادمة التي تنحني لرغبات الإنسان بفضل علمه»[1] ، وهذا ما نجد صداه أيضا في تصور بيكون « لا يمكن السيطرة على الطبيعة إلا بمعرفة قوانينها»[2].

تمثل إذن العقلانية ضربا من المعرفة القائم على الملاحظة والتجريب وقد ارتبطت بالتقنية كأداة لتحقيق النجاعة والسرعة في بلوغ الهدف، لذلك كانت أداتية ضيقة الأبعاد باعتبارها تسعى جاهدة نحو السيطرة على الطبيعة بدرجة أولى وعلى الإنسان ثانيا وهو ما دفع برواد مدرسة فرانكفورت إلى نقدها وتعرية خطابها الاستبدادي.

ما لا يجب أن يغيب عن بالنا، هو أن اتساع دائرة العقلانية الأداتية قد أفضى إلى خلق أفق حياتي ضيق حيث لم يعد للحرية والاستقلالية الذاتية من معنى باعتبار أنالفرد ينزع دائما نحو الحرية والاستقلالية، لذلك راهن أبناء النظرية النقدية على الإهتمام بمصير الإنسان الغربي آنذاك الذي بات يعيش في أفق يزعم التحرر والتقدم في حين أنه يمارس على الأفراد السيطرة والقهر، حيث تحولت الدول الغربية المتقدمة تكنولوجيا إلى دول شمولية تمارس القمع والقهر على مواطنيها، وهو ما نلحظ صداه خاصة بعد صعود النازية إلى الحكم في ألمانيا وما حل بأروبا بصفة عامة من وحشية وبربرية حولت التقدم إلى انتكاسة ترتبت عنها مأساة الحرب العالمية الثانية ومخلفاتها المدمرة.

ولأجل إنقاض المشروع الحضاري الغربي من الانهيار وتجاوز أزماته راهن مفكرو الجيل الأول لمدرسة فرانكفورت على وضع العقلانية النقدية في مقابل العقلانية الأداتية، وقد جعلوا من النقد المقوم الأساسي لها انطلاقا من الواقع الاجتماعي المعيش فجعلوا بالتالي

من النقد يرتبط بالممارسة. ففيما تمثلت إذن أهم طروحاتهم النقدية؟ وهل استطاعوا فعلا تجاوز منطق العقلانية الضيق بالعقل؟ وهل تمكنوا من تحقيق الحرية الفعلية للفرد الغربي المعاصر؟ وهل استطاعوا فعليا تعقل الأزمة الضاربة في عمق المجتمعات الغربية؟

1- قراءة في مشروع عصر التنوير

مثل عصر التنوير حركة ثقافية تاريخية ظهرت بأوروبا في القرن الثامن عشر قامت على العقلانية، تجاوزت التصور الديني للحياة بالمراهنة على الأخلاق والمعرفة، إنه لحظة تأسيسية للحداثة الغربية التي قامت على جملة من الأسس والمبادئ المنادية بضرورة الاستعمال الخصوصي للعقل وبالتالي الخروج من أفق الوصاية على الأفراد إلى الاعتماد على العقل الذي رادفته جملة من المفاهيم الأخرى كالحرية والاستقلالية والإرادة، وبالتالي تجاوز مرحلة سيطرة الكنيسة على المجتمعات باعتبارها كانت تفكر لوحدها وتعتبر أفكارها مقدسة وحول سؤال ماهي الأنوار؟ يجيب كانط بأنها « خروج الإنسان من القصور الذي هو مسؤول عنه، لأن سببه يكمن ليس في عيب في العقل، بل في الافتقار إلى القرار الشجاع في استعماله دون إشراف الغير، تجرأ على استعمال عقلك أنت: ذاك هو شعار الأنوار»[3].

سعت الفلسفة الكانطية ضمن مشروع الحداثة الغربية إلى بناء الفلسفة نسقيا، وذلك من خلال مراهنتها على العقل باعتبار أن كانط قد أعاد له مكانته حينما غير محور البحث عن الماهيات والجواهر من العالم الخارجي إلى العقل البشري، فقد ساهم في تحرير العقل بالمجتمع وأخرجه من سلطة الكهنوت ورفعه إلى مرتبة عليا وجعل منه المرجع الرئيسي للإنسان لأجل تجاوز واقع الوصاية عليه. فالفرد سيد ذاته ولا حاجة له بمن يفكر بدلا عنه، لقد جعل من الذات تمثل مركز الحقيقة.

فالتنوير بالمعنى الكانطي هو تحرر الإنسان من الوصاية المفروضة عليه وقدرته على استعمال عقله الخاص وبالتالي تجاوز وصاية الآخر عليه، وهو ما يجعله قادرا على استعمال عقله الخاص بكل حرية ومسؤولية ما يعني خروج الإنسان من مرحلة القصور الذي هو مسؤول عنه.

نخلص هنا إلى القول بأن التنوير قد رفع حجاب القصور الذي يرتديه الإنسان لأنه لم يكن يعاني من نقص عقلي وإنما من نقص في الشجاعة والجرأة على اتخاذ قراراته بمفرده، وذلك لأن وصاية الآخرين عليه تفضي إلى تحقيق السيطرة على كل قاصر على استعمال عقله الخاص، باعتبار أن الأوصياء يتمكنون من بسط نفوذهم حينما يجدون الشخص العاجز عن استعمال عقله الخاص والحال أنه لا يوجد شيء يتطلبه مشروع التنوير بقدر حرية الاستخدام العلني للعقل لكل إنسان.

ومن أبرز سمات عصر التنوير هو انتشار النزعة العقلانية التي اعتبرت أن العقل هو المصدر الوحيد للمعرفة وأولته اهتماما كبيرا بلغ حد التقديس وبالتالي نبذت الفكر الميتافزيقي

والأسطوري، ومن ثمة أوكلت للعقل مهمة إدراك وفهم الظواهر الطبيعية والاجتماعية. وبذلك قامت فلسفة عصر التنوير على مفهوم التقدم المنبثق من الإيمان بقدرة العقل البشري على التغير والتطور نحو الأفضل، وبالتالي استطاع الإنسان السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لصالحه. إذن مثل العقل السمة الأساسية لعصر التنوير ومقولة من مقولاته الرئيسية، وهو ما أفضى إلى تمركز الذات حول نفسها، مما حاد بها إلى ترويض العالم وجعل الطبيعة تحت سيطرة الإنسان، إلا أن هذا التصور لم يدم طويلا حيث هيمن العلم على الإنسان وجعله مغتربا. ورغم أن كانط قد راهن على ضرورة تجاوز وضع القصور الفكري وتحقيق السلام الدائم، إلا أن ما بلغته الإنسانية الحديثة كان عكس ذلك حيث انتشرت النزعة الفردية وأصبح العقل أداتيا مما جعل من المجتمع الأوروبي يعاني العديد من الاحراجات كالحروب والاقتتال والأوبئة.

ما لا يجب أن يغيب عن بالنا، أن مشروع عصر التنوير قد فشل بسبب اعتماد العقل البشري على العلم بصفة مطلقة وأهمل الجانب الإنساني له، مما جعله ينحرف عن مساره من خلال انتاجه لشتى أنواع البربرية والتوحش البشري، حيث غاب العقل وانقلب التقدم إلى انحطاط شامل، وهذا ما جعل من العديد من الفلاسفة وخاصة رواد مدرسة فرانكفورت ينتقدونه بشدة. غير أن السؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو كيف نفسر تدمير العقل التنويري لنفسه؟ بمعنى كيف تحول من عقل متحرر إلى عقل مهيمن عليه؟وفيما تمثلت قراءة الجيل الأول لمدرسة فرانكفورت لمشروع عصر التنوير الأوروبي؟

2- **في نقد عقلانية التنوير**

إن الأمل في تغيير حياة البشر نحو الأفضل الذي بشر به عصر الأنوار، لم يدم طويلا وإنما كان شبيها بأضغاث الأحلام باعتبار أن كل ذلك قد أفضى إلى أزمة اجتماعية خانقة جراء سيطرة الخطاب الوضعي والتجريبي على العقلانية الغربية بحيث تتحول هاته العقلانية إلى أداة تخدم جملة من الأهداف المنافية للقيم الإنسانية النبيلة، مما يجعل من الوجود الإنساني يعاني من اللامعنى ويتجه نحو المجهول. وهو الأمر الذي دفع برواد الجيل الأول لمدرسة فرانكفورت النقدية إلى إرساء فلسفة نقدية تحررية كسبيل للخروج من الأزمة التي تتخبط فيها العقلانية الغربيةمن خلال ما سموه بالنظرية النقدية التي كرس لها هؤلاء أغلب كتاباتهم.

كان رواد جيل التأسيس أول من دعا علنا إلى نقد العقل لأجل إنقاذه من براثين الهيمنة التي كرستها الفلسفة الوضعية والإمبريقية، مما ساهم في تشويه العقل وتحويله من عقل موضوعي إلى عقل أداتي خاسف يعمل لأجل إيجاد وسائل في خدمة الغايات، لذلك راهن هؤلاءعلى الإلمام بكل جوانب العقل واخضاعها إلى النقد من خلال ربطها بواقع الحياة داخل كيان الحضارة الغربية المعاصرة، ربطا مباشرا يشد الأفراد بواقع حضارتهم من صلة وأعراف وعادات وعلاقات تشد الفرد إلى المجموعة طوعا أو كرها.

لا يمكن فهم أفكار مفكري النظرية النقدية إلا بربطها بالسياق التاريخي والثقافي الذي

عايشوه، فقد عايشوا مناخا تاريخيا متغيرا سيطرت عليه فلسفة الأنوار والفلسفة الماركسية من جهة، وهيمنت عليه الفلسفة الوضعية من جهة ثانية، إضافة إلى النضالات العمالية والطلابية وواقعها الاجتماعي المتردي بألمانيا. «إن المشروع الفلسفي النقدي لمدرسة فرانكفورت لم يكن منفصلا عن السياق التاريخي والاجتماعي الذي عرفته المجتمعات الغربية،...منها اندلاع الحرب العالمية الأولى والبلشفية في روسيا،وإخفاق الثورة في ألمانيا،وعجز الحركات الاشتراكية الراديكالية في أروبا الغربية،...والنظم الفاشية والنازية في إيطاليا وألمانيا،وهيمنة النظم الرأسمالية وتعزيز سيطرتها الاقتصادية والإيديولوجية خاصة بعد خروجها من الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي مرت بها المجتمعات الغربية في الثلاثينات من القرن العشرين»[4].

معلوم أن رواد مدرسة فرنكفورت النقدية قد جعلوا من الفلسفة تتحمل هموم المجتمع وتنخرط في قضاياه لتكون الأفق الحاضن لتوتراته، لذلك سميت فلسفتهم بالفلسفة الاجتماعية وذلك لأنها تعبر عما عرفته المجتمعات الحديثة من تحولات اقتصادية واجتماعية وسياسية، هذا فضلا على كون هاته الفلسفة تمتاز بمقاربتها الأخلاقية للوقائع الاجتماعية ولنا في النظرية النقدية التي راهنوا على إرساها خير شاهد على ذلك، باعتبارها تبحث في العلاقة التحديدية بين الفكر والمجتمع لأجل تحرير الإنسان من شتى أشكال العبودية التي تكبل حياته.

أ – تصور هوركهايمر وأدرنو

إذا كانت الحداثة منذ بداية تشكلها وانتشارها في سياقها الغربي عامة والأوروبي خاصة قد رفعت شعار الإنسان وقيمه العليا مثل الحرية والمساواة، ولما كانت الحداثة كما عرفها ماكس فيبر هي «الحداثة هي نزع السحر عن العالم»، فإن هذا المفهوم قد تغير وانقلب لعدة أسباب مع بداية القرن العشرين ونشأ على أنقاضه مفهوم فلسفة ما بعد الحداثة « وهي فلسفة نقدية لمجمل مرحل الحداثة وفلسفاتها التي سيطرت على الحضارة الغربية بعد عصر النهضة والثورة الصناعية وتركزت على فكرة التحكم بالطبيعة ومواردها والتحكم بالبشر والمجتمعات لكنها من وجهة نظر أخرى قد تكون فلسفية بحتة هي تقديم فلسفة الحداثة بأسلوب إنساني مفهوم وواضح ومرتبط ببساطة مع هوية المفكر والمفكر فيه والمفكر له»[5].

وفي هذا الصدد نجد كل من هوركهايمر وأدرنو الذين سعا إلى إرساء فلسفة اجتماعية ذات بعد نقدي لا تسلم بنظم المجتمع والانتماء له، بل تنتقده وتظل خارجة عنه، متوجهة موضوعيا إلى تغييره كاشفة عن مصادر العطب والخلل الذي أصابه.وأمام ضياع بوصلة الحضارة وغياب الشرط الإنساني من العلاقات الحديثة بين الأفراد، فقد عمل الفيلسوفان على ضرورة ايجاد هذا الإنسان ومحاولة استرجاع شرطه المفقود المتمثل في العقل.

معلوم أن النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت قد قدمت تصورا فلسفيا جديدا يهتم بقضايا

الإنسان المعاصر ومشاغله،وما باتيهدد وجوده وكينونته منذ العقود الأخيرة التي شهد فيها العالم جملة من التطورات والإنجازات العلميـة الرهيبة التي ابتدعها الإنسان لأجل تسـهيل حيـاته إلا أنها سـاهمت فـي تضييق الخناق عليه وكبلت حياته حينما أخضعته للسيطرة. ولهذا جعل أبناء الجيل الأول للمدرسة النقدية هـدفهم الأساسي هو طرح القضايا الإنسانية الحارقة لأجل مقاومة بؤس الواقع السائد وتحرير الإنسان.

وعليه فإن ضياع الإنسان وفقدانه لإنسانيته بالإضافة إلى تحوله إلى أداة للتبادل قد كان أيضا من بين أهم الأسباب التي عايشهاالفيلسوفان ودفعت بكليهماإلى كتابة **جدل التنوير** الذي كان بمثابة الثورة الفكرية ضد كل مظاهر الهيمنة والاستلاب العقلي آنذاك، باعتباره يمثل أهم نص فلسفي ممثل للجيل الأول لهذه المدرسة. وهو ثمرة جهد مشترك بين الفيلسوفان، تزامنتكتابته مع جملة من الأحداث التاريخية الصعبة التي شهدتها ألمانيا في حقبة الأربعينات كصعود النازية إلى سدة الحكم والملاحقات التي تعرض لها الكثير من المثقفين من ذوي الأصول اليهودية وهجرة أغلبية مفكري المدرسة إلى مختلف بلدان العالم وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية» لقد أنجز كتاب جدلية التنوير بين سنة 1941 وسنة 1944. ونشر في أمستردام سنة 1947 وتمت إعادة نشره في ألمانيا سنة 1969 بعد أن أصبح مرجعا كلاسيكيا»[6]، هذا فضلا على الحروب التي شهدتها أروبا في تلك الفترة. كما كتب أيضا في الفترة اللاحقة مجموعة من الكتابات الأخرى، شأن كتابهوركهايمر **خسوف العقل**(1974)، وذلك برغبة منه في إعادة إعطاء معنى وقيمة لهذا الكائن المفكر «الإنسان» وأدرنو **الجدل السالب** (1966).

حاول كل من هوركهايمر وأدرنو تشخيص أزمة العقل وتحليلها منذ بداياتها الأولى باعتبار أن مستقبل الإنسانية بات في خطر وهو ما صرح به هوركهايمر في تصدير كتابه خسوف العقل «بأنه عبارة عن ردة فعل عن المآزق الواقعية في التفكير الفلسفي آنذاك مما جعل مستقبل الإنسانية أيضا في مأزق»[7].

ومن مظاهر الأزمة الضاربة في عمق الحضارة الغربية نذكر ما اتفقا على تسميته في كتابها المشترك **جدل التنوير** كل من هوركهايمر وأدرنو «بجدلية العقل واللاعقل» وذلك لأن العقل الذي لطالما رفض الفكر الأسطوري وعمل على اجتثاث أسسه لأجل مساعدة الإنسان على تجاوز مرحلة الخوف من الأساطير وبلوغ الرشد لكي يتمكن من السيطرة على الطبيعة وبالتالي يتجاوز واقع الخوف منها، فقد فقدا قداسته جراء هيمنة النزعة العلمية والإمبيريقية عليه وذلك لأنه بات التحكم فيه علميا وتقنيا من أيسر الأمور، «أعطت الإحيائية روحا للشيء، أما الانتماء للصناعة فقد حول روح الإنسان إلى شيء»[8].

يبدو إذن بحسب هوركهايمر وأدرنو من الصعب تحرير الإنسان من جميع السلطات المتحكمة فيه في ظل طغيان العقلانية الأداتية على حياته كما وعد بذلك عصر التنوير، وهذا ما جعل من العقل يحطم نفسه ويتحول بالتالي إلى أسطورة أي لاعقل، وهو ما يتأكد من خلال

قولهما» كما أن الأساطير قد أكملت التنوير، فإن هذا التنوير قد ارتبك أكثر فأكثر في الأساطير. استقى التنوير جوهر مادته من الأساطير مع أنه كان يريد القضاء عليها، وحين مارس وظيفة الحكم ظل واقعا أسير سحرها. زعم الخروج من السيرورة التي تورط القدر وذلك عبر ممارسة الثأر على هذه السيرورة بالذات»[9].

وهكذا، فإن الأزمة تبدو بحسب تشخيص هوركهايمر وأدرنو عميقة، باعتبار أن عقلانية عصر التنوير تحولت إلى أسطورة بسطت نفوذها على الطبيعة الداخلية والخارجية للإنسان، أي أن العقل هنا أصبح أداتي غائي وفي تقديرنا فإن ذلك هو ما ساهم في انهيار موقع ومكانة الفرد بالمجتمعات الغربية. باعتبار أن العقل المفكر الحر أصبح أداتي تقني قام على التكميم والقياس وموجه نحو كل ما هو عملي نفعي، « وذلك أن حركة التنوير، حتى وإن ادعت تحرير الإنسان من عبودية الخوف والأساطير وأدخلت العقل كأداة حاسمة في التعامل مع الأشياء والعلاقات والطبيعة والتاريخ، فإنها، في نهاية المطاف استسلمت لأساطير من نوع جديد»[10].

فالعقل الغربي قد اختزلته النزعة الوضعية في كونه معطى تجريبي يخضع للملاحظة والتجريب واعتبار الرياضيات آلة أو نسقا يفسر ماهو معطى لأجل تحقيق المنفعة البراغماتية الضيقة، ومن ثمة وقع اقصاء القيم الأخلاقية والجمالية والفلسفية للحياة واعتبرها مجرد قيم ميتافزيقية بعيدة كل البعد عن المعرفة العلمية والتقنية وهو ما ساهم في بروز العقل الأداتي واعتباره النموذج الوحيد للحقيقة.

فهذا العقل الأحادي الجانب(الأداتي) قد أفضى إلى حتمية السيطرة على كل شيء، بما في ذلك الإنسان الذي أصبح شبيها بالأشياء ومن الممكن استخدامه من قبل المؤسسات الاقتصادية السياسية الرامية إلى تحقيق الهيمنة والمصلحة بصورها المختلفة.« فمع تشيؤ العقل تصبح العلاقات بين الناس وعلاقة الإنسان بذاته بمثابة علاقات مسعورة. إن الفرد الذابل يصبح نقطة التقاء ردات الفعل والسلوكات الانتقائية المنتظرة منه عمليا»[11].

ما لا يجب أن يغيب عن بالنا، أن نقد هوركهايمر وأدرنو للعقلانية الغربية والمعرفة العلمية لا يعني أنهما ضد العقل والعلم، وإنما وجهت نقودهما بالأساس للانحرافات التي ترتبت عن هذه العقلانية باعتبارها ساهمت في شقاء الإنسان وسلبت حريته وأوقعت به في البربرية والتوحش من جديد.

وبحسب الفيلسوفان لا يمكن تجاوز هذا الوضع الكارثي إلا بممارسة النقد الفلسفي الجذري، لذلك اتجها نحو تعرية الخطاب التنويري الاستبدادي وراهنا على كشف هيناته انطلاقا من فضح وتعرية العقل الأداتي الضيق وتبيان أهدافه وغاياته المحدودة الأمد، لهذا تتبع فكرة السيطرة انطلاقا من ملحمة الأوديسة لهوميروس والتي تعد كما هو معلوم مرجع ثقافي أساسي مؤسس للحضارة الغربية إلى الأزمنة الحديثة والمعاصرة.

بين إذن أن هوركهايمر وأدرنو قد تمكن من فضح وتعرية خطاب التنوير الاستبدادي الذي أخذ طابعا أداتيا ونقده لأجل كشف مكامن الخلل والمعاثر التي وقع فيها، حيث ساهم جدل

التنوير في كشف التأثير العميق الذي جسدته العقلانية الأداتية على مسار الحضارة الغربية وما أفضت إليه من تسلطا على الطبيعة والإنسان الذي بات يعاني من التشيؤ والاغتراب وضياع المعنى.
لقد ربط الفيلسوفان عصر التنوير بانتشار الكوارث في جل المجالات الحياتية للمجتمعات الغربية الحديثة والمعاصرة، حيث يرى أن ظهور العقل في عصر التنوير والتحرر من الأساطير لم يؤد بالضرورة إلى نتائج إيجابية، فقد تحول إلى قوة غير عقلانية تسيطر على الطبيعة وعلى الإنسان معا، وهو ما يفضي إلى طمس الفرد مما يجعل من البشرية في طريقها إلى البربرية والهجنة والتوحش.
فالعقل بحسب هوركهايمر وأدرنو لا يستطيعتجسيد نفسه إلا حينما يقوم بالغاء المطلق المزيف، الذي هو مصدر كل هيمنة مسلطة عليه، ما يعني أن عقلانية عصر التنوير يجب أن تكون إنسانية بدرجة أولى، أي تتخلى عن كل قوة وسيطرة على العقل البشري الحر ولا تكبله وهذا هو المطلب الذي لأجله راهن هوركهايمر وأرنو على النقد كما راهن من قبلهم كانط.

ب- هربرت ماركوز

يعتبر ماركوز واحدا من أهم رواد الجيل الأول لمدرسة فرانكفورت النقدية، اتسمت فلسفته بالرفض واتجاهه التشاؤمي، ورغم ما قدمه من أفكار إلا أنه لم يرتقي إلى مصاف هوركهايمر وأدرنو إلا في المرحلة الثانية من تطور النظرية النقدية وهو ما يتجلى أساسا في تأثيره على الحركات الطلابية والشبابية في ستينات القرن الماضي.
أسس ماركيوز مشروعه النقدي حول مفهوم السلب، وقد ربطه بمفهوم الجدل عند هيجل و مفهوم السلب عند ماركس، و بهذا فقد جمع بينهما في معنى النفي وقد أخذ النفي معهالمعنى الكلي والشامل لذلك دائما يؤكد على أن تجاوز الواقع لا يمكن إلا من خلال نفيه، «إن العقل هو السلطة الهدامة في المعادلة (العقل =الحقيقة = الواقع) التي تجمع بينالعالم الذاتي والعالم الموضوعي في وحدة متناحرة فهو يمثل بوصفه عقلاعمليا في آن واحد «سلطة النفي» التي تقرر الحقيقة بالنسبة إلى البشر والأشياء أي تقرر الشؤون التي يمكن فيها للبشر والأشياء أن يصبحوا ما هم كائنون عليه فعلا»[12].
أكد ماركيوز شأن هوركهايمر وأدرنو بأن الفلسفة الوضعية هي سبب ضياع الإنسان وابتعاده عن الأخلاق، وبالتالي باتت هاته الفلسفة وسيلة للتحكم والسيطرة، ومن ثمة فالعقلانية التكنولوجية بما قامت عليه من معرفة علمية وتكنولوجية بالمجتمعات المتقدمة صناعيا قد ارتبطت بمشروع السيطرة على الطبيعة والانسان معا، « إن مفهوم العقل تقني قد يكون ايديولوجيا ذلك أن التكنولوجيا أصبحت تمثل السيطرة على الطبيعة والإنسان بطريقة منهجية وعلمية وهذا من خلال مشروع تاريخي واجتماعي»[13].
سعى إذن ماركوز إلى إرساء نقد جذري للعقلانية التكنولوجية التي ارتكزت على أساليب

جديدة للتحكم الأداتي في الإنسان المعاصر، إنها سيطرة شاملة ضربت كل الجوانب الحياتية للإنسان المعاصر لم تترك له حتى الاحتفاظ ببعده الداخلي (حياته النفسية والعقلية والعاطفية الخاصة).

ما تجدر الإشارة إليه هنا، هو أن النظرية النقدية قد سعت إلى تحقيق غايات أساسية أهمها التحرر أو الانعتاق لذلك كانت دائما تناشد التغيير وتؤمن بالممارسة وتتحدث باسم المستقبل إلا أنها ورغم الحلول التي قدمها كل من هوركهايمر وأبناء جيله بشأن أسباب أزمة المجتمع الغربي إلا أنهم بلغوا الأفق المسدود.

3- من نقد العقل إلى نقد الحضارة

تبين مما سبق أن رواد مدرسة فرانكفورت وخاصة هوركهايمر وأدرنو قد أخذوا من النقد سبيلا لأجل الخروج من الأزمة التي يتخبط فيها العقل والحضارة الغربية ككل، وذلك من خلال ربطهم النقد بالدفاع عن المجتمع وعن الإحراجات الضاربة في عمقه. لذلك كتب جدل التنوير لأجل التعبير عن الأزمة الناجمة عن التنوير والتي من أبرز مظاهرها تحطم العقل وغياب التفكير النقدي.

يعتبرا صاحب جدل التنوير أن مسار التنوير خاطئ، وأن الخطأ لصيق بالعقل منذ ولادته لدى الإغريق باعتباره قد اتبع مسارا خاطئا، وهنا يقف الفيلسوفان في موقف معارض للتصور الكانطي الذي يبشر بالتفاؤل بمستقبل أفضل للعقل، ليقف في صف هيغل الذي وصف التنوير بالابتذال والسطحية.

هذا ولم يتأتي نقد هوركهايمر وأدرنو لعصر التنوير من فراغ، وإنما مرده إلى تحطم العقل وما أفضى إليه من كوارث، جراء نزوع الإنسان الدائم نحو الهيمنة على الطبيعة والإنسان معا، وضمن هذا المستوى كتب هوركهامير في كتابه خسوف العقل» لو كان بإمكاننا الحديث عن مرض يصيب العقل، يصبح من الضروري فهم أن هذا المرض لم يصبه خلال فترة تاريخية معينة وإنما كان نابعا من طبيعة العقل في الحضارة كما عرفناها إلى حدود أيامنا هذه. مرض العقل هو أنه ولد من ميل انفعالي من قبل الإنسان نحو الهيمنة على الطبيعة. ويتوقف « تعافيه» على معرفة طبيعة أصل المرض بدل إشفائه من العلامات المرضية الأشد تأخرا»[14].

يبدو إذن إقرار هوركهايمر بمرض العقل الغربي منذ ولادته ، برهان قاطع يعكس تشخيصه للأزمة العقلانية الغربية، على أنها أزمة عميقة باعتبار أن المرض قد أصاب العقل منذ ولادته ولا أدل على ذلك من اعتماده رفقة أدرنو في جدل التنوير على نص الإلياذة والأوذيسة لهوميروس وتوظيفه كشهادة حاسمة على المرض الذي أصاب العقل والقدر الذي يترصده منذ ولادته.

ما لا يجب أن يغيب عن بالنا أن هوسرل قد سبق هوركهايمر وأدرنو في التفطن للأزمة

الضاربة في عمق الحضارة الغربية، ففي كتابه **أزمة العلوم الأوروبية والفينومنولوجيا الترانسندتالية** يرى هوسرل أن الأزمة التي تعيشها البلدان الغربية هي أزمة العقلانية التي وقعت في قبضة الفلسفة الوضعية والإمبيريقية التي راهنت على جعل الإنسان سيد على الطبيعة وجعلها خادمة له منذ بروز الثورة العلمية في القرن السابع عشر، وهذا ما يعني أن العقلانية التي تبلورت ضمن عصر الأنوار هي انحراف نحو النزعة الوضعية باعتبار أن طغيان الخطاب الوضعي على العقلانية الغربية هو المحرك الرئيسي للأزمة الغربية ككل، وهذا ما يعني بحسب هوسرل « أن كل العلوم دخلت في نهاية الأمر في أزمة فريدة من نوعها، إنها أزمة لا تمس العلم المتخصص في نجاحاته النظرية والعملية، لكنها مع ذلك تهز كل معنى حقيقته في الأعماق»[15].

هذا ويندرج نقد هوسرل للفلسفة الوضعية في إطار الكشف عن إخفاقها وعجزها عن بلوغ الحقيقة الجوهرية ، حيث أن الأزمة الناجمة عنها هي أزمة معنى تمس وجود الإنسان في الكون، ومن هنا راهن هوسرل على تأسيس منهج فلسفي جديد وسمه بالفينومنولوجيا يكون مختلفا عن الفلسفة الوضعية « إن المطلوب إذا هو فينومنولوجيا، أي في ما نحن بسببيله فينومنولوجيا المعرفة بوصفها نظرية في ماهية الظاهرات المعرفية المحضة»[16].

وبالعودة إلى التصور النقدي لرواد الجيل الأول للمدرسة النقدية وخاصة هوركهايمر وأدرنو، نجد أن حركة النقد قد تمت على مرحلتان، مرحلة نقد العقل ومرحلة نقد الحضارة أي من نقد يبحث في أسباب خسوف العقل واخفاقه إلى نقد يبحث شروط التقهقر والتوحش.

ما تجدر الإشارة إليه هو أن جيل التأسيس قد كانت لهم إرادة قوية في إظهار مدى توحش العقلانية وضحالتها وانحطاطها، لذلك سعوا إلى نقدها وتعرية خطابها الإستبدادي، وهو ما نتبينه من خلال رغبتهمالجارفة في الانتقام من الحضارة الغربية الحديثة وإظهارها في شكل مارد جبار ومجرمة في حق الأفراد.

نتبين أيضا من خلال تجربة النقد التي أقامها هؤلاء على خطى التجربة النقدية الكانطية، كيف تمكنوا من كشف الواقع الحضاري والمعرفي والاجتماعي لأوروبا آنذاك وألمانيا خاصة. عبر النقد الذي مثل السلاح الوحيد الذي عبره استطاع أن يدافع عن العقل وعن الفلسفة بما هي ميدان للنقد. وأنه بالنقد يستطيع الفيلسوف أن يتجاوز الإحراجات والإشكاليات التي يزخر بها واقعه الملموس.

معلوم أن تطرق هوركهايمر وأدرنو إلى معالجة مفهوم العقلانية الذي قامت عليه الحضارة الصناعية المعاصرة، وكيف حاول الدفاع عن الإنسانية في ظل واقع همجي انتشرت فيه الغطرسة والهمجية وشهد فيه المجتمع الغربي أزمات متعددة. هو ما جعل من فلسفتهم ترسم أفقا جديدا في التفكير يساعدنا على تجاوز وطأة الانتماء المشوه إلى واقعنا المليء بالانحطاط والزيف، من خلال اعتماد النقد بمفهومه الواسع، وأخذه كقاطرة للتحول من أجل العبور وتجاوز منعطف اللامعنى والمجهول.

خاتمة:

نخلص هنا إلى القول بأن ما جاء به عصر التنوير من حركة ثقافية ساعية إلى تجاوز التصور الديني للحياة من خلال مراهنته على الأخلاق والمعرفة، قد كان بمثابة اللحظة التأسيسية للحداثة الغربية التي قامت على جملة من الأسس والمبادئ المنادية بضرورة الاستعمال الخصوصي للعقل لأجل الخروج من أفق الوصاية على الأفراد وإلى الاعتماد على العقل الذي رادفته جملة من المفاهيم الأخرى كالحرية والاستقلالية والإرادة، ومن ثمة تجاوز مرحلة سيطرة الكنيسة على المجتمعات وبالتالي تجاوز مرحلة الفكر الواحدوقدرة الإنسان على التفكير لوحده عن طريق استعمال عقله الخاص، إلا أن ذلك لم يدم طويلا وسرعان ما تمت السيطرة على العقل بفضل التطور التقني والتكنولوجي الناجم عن الثورة العلمية.

لقد أفضت الفلسفة الوضعية والإمبيريقية إلى الهيمنة على العقل والسيطرة عليه، بل وتحويليه إلى ميثولوجيا مما دفع برواد الجيل الأول لمدرسة فرانكفورت النقدية إلى اتباعالمنهج النقدي الجدلي كسبيلا لتشخيص ومعالجة الأزمة الضاربة في عمق المجتمعات الغربية الحديثة، والذي هدفوا عبره إلى جعل النظرية النقدية تتحد مع الممارسة العملية للأفراد. علاوة على تقديمهم لنظرية نقدية للمجتمع تستطيع محاربة فكرة التسلط والاضطهاد والعنف، وتسعى في الآن إلى جعل الفكر النقدي حرا. وإلى جانب كل ذلك تستطيع هاته النظرية مجابهة الصراع الاجتماعي الواقعي ولا تخجل من أية سلطة كانت عليها حريتها. إضافة إلى سعيها إلى الاستقلالية وإلى رغبتها في تحقيق سلطة الإنسان على حياته الخاصة من دون أي رقابة خارجية.

ورغم ما قدموه هؤلاء من نظرية نقدية سعوا من خلالها إلى تحقيق غايات أساسية أهمها التحرر أو الانعتاق لذلك كانوا دائما يناشدون التغيير ويؤمنون بالممارسة،إلا أنهم ورغم الحلول التي قدموها بشأن أسباب أزمة المجتمع الغربي بلغوا الأفق المسدود لأنهم راهنوا على النقد وزايدوا عليه فأجهضوه. وفي تقديرنافإن هذا ما يفسر بروز الجيل الثاني المتمثل في هابرماس وأبناء جيله والذي حاول تجاوز إختناق الفكر النقدي لدى سابقيه من خلال تغيير براديغم الوعي الذاتي ببراديغم الوعي الحواري الذي يستمد معانيه من منجزات فلسفة اللغة وذلك إيمانا منه في إيجاد مخرج لهاته الأزمة من داخل مدرسة فرانكفورت.

قائمة المراجع:

الخوني محسن ، **التنوير والنقد،: منزلة كانط في مدرسة فرانكفورت**، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، 2006.

أفاية محمد نور الدين، **الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة: نموذج هابرماس**، ط2، إفريقيا الشرق، بيروت، 1998.

بومنير كمال، **النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث**،

بيروت،الدارالعربية للعلوم ناشرون،2010.
حسيبة مصطفى ، **المعجم الفلسفي**، عمان، دار أسامة للنشر والتوزيع ، 2009.
زيناتي جورج ، **رحلات داخل الفلسفة الغربية**، بيروت، دار المنتخب العربي، 1993.
كانط إيمانويل، **ماهي الأنوار؟** ط1، ترجمة محمود بن جماعة، دار محمد علي للنشر، تونس.
ماركوز هربرت، **الإنسان ذو البعد الواحد**، ترجمة جورج طرابيشي، منشورات دار الآداب، بيروت، 1988.
هوركهايمر ماكس و أدرنو تيودور، **جدل التنوير**، ترجمة جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2006.
هوسرل إدموند ، **أزمة العلوم الأوروبية والفينمنولوجيا الترانسندتالية**، ترجمة إسماعيل مصدق، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008.
هوسرل إدموند ، **فكرة الفينومنولوجيا**، ترجمة فتحي إنقزو، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007.
Francis Bacon, *Novum Organum*, trad. Michel Malherbe et Marie Pousseur, Paris, PUF, 1986.
Max Horkheimer, ***Éclipse de la Raison***, Trad,Jacques Debouzy, Paris, Payot, 1974.

1– جورج زيناتي، رحلات داخل الفلسفة الغربية، بيروت، دار المنتخب العربي، 1993، ص 134.
2- Bacon Francis, Novum Organum, trad. Michel Malherbe et Marie Pousseur, Paris, PUF, 1986, p.101.
3– إيمانويل كانط، ماهي الأنوار؟ ط1، ترجمة محمود بن جماعة، دار محمد علي للنشر، تونس، ص85.
4–كمال بومنير،النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث،بيروت،الدارالعربية للعلوم ناشرون،2010،ص40.
5– مصطفى حسيبة ، المعجم الفلسفي،عمان، دار أسامة للنشر والتوزيع ، 2009ص. 460.
6– محسن الخوني، التنوير والنقد،: منزلة كانط في مدرسة فرانكفورت، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، 2006، ص132.
7- Horkheimer Max, Éclipse de la Raison, Trad, Jacques Debouzy, Paris, Payot, 1974, p. 9.
8– ماكس هوركهايمر وتيودور أدرنو، جدل التنوير، ترجمة جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2006، ص50.
9– ماكس هوركهايمر وتيودور أدرنو، جدل التنوير، ترجمة جورج كتورة، دار الكتاب الجديد

المتحدة، بيروت، 2006، ص32.

10- محمد نور الدين أفاية، الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة: نموذج هابرماس، ط2، إفريقيا الشرق، بيروت، 1998، ص30.

11- ماكس هوركهايمر وتيودور أدرنو، جدل التنوير، ترجمة جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2006، ص50.

12- هربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، منشورات دار الآداب، بيروت، 1988، ص163.

13- هربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، منشورات دار الآداب، بيروت، 1988، ص169-168.

14- محسن الخوني، التنوير والنقد،: منزلة كانط في مدرسة فرانكفورت، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، 2006، ص161.

نقلا عن:

Horkheimer Max, Éclipse de la Raison, Trad, Jacques Debouzy, Paris, Payot, 1974, p182..

15- إدموند هوسرل، أزمة العلوم الأوروبية والفينمنولوجيا الترانسندتالية، ترجمة إسماعيل مصدق، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008، ص53.

16- إدموند هوسرل، فكرة الفينومنولوجيا، ترجمة فتحي إنقزو، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص84.

د. يوسف حطيني

موسوعة الرواية الفلسطينية

دار بعل
للطباعة والنشر والتوزيع

تأثير الفكر الليبراليّ على المثليّة الجنسيّة

سوزان واكيم

باحثة
وأستاذة جامعية

مقدّمة

تشتقّ كلمة المثليّة من «المِثل»، بمعنى أن يشعر الشخص بانجذاب نفسيّ، وعاطفيّ، وجنسيّ، نحو أشخاص من الجنس نفسه. أوّل من استعمل هذا المصطلح، في منشور ألمانيّ عام 1869، الصحفيّ الأستراليّ–الهنغاريّ كارل ماريّا كيرتبيني. وفي عام 1886، استعمل ريتشارد فون كرافت إيبنج[1] المصطلحَين «هوموسكشوال» (مثليّ الجنس) و«هتروسكشوال» (مغايرالجنس). تستعمل اللغة الإنكليزيّة المصطلحات التالية: «كوير» (queer)، "فاغوت» (faggot)، "هومو» (homo)، والأكثر شيوعًا «غاي» (gay)، التي تعني «سعيد أو مرح». ويُستعمل المصطلح «غاي» للإشارة إلى مثليّ الجنس أو مثليّة الجنس. في العالم العربيّ، تتضمّن المصطلحات، التي تُستعمل للإشارة إلى الانجذاب الجنسيّ المثليّ أو الممارسات الجنسيّة المثليّة، تعابير مثل اللواط، والسحاق، والشذوذ، والمثليّة الجنسيّة. وبشكل مشابه، اشتقّ المصطلح «سدوميّة» من سدوم وعمورة في الكتاب المقدّس، العهد القديم. ولكن لم تعد هذه المفردات مقبولة حاليًّا في الوسط العلميّ. وقد جمعت بعض الجمعيّات الأحرف الأولى من المصطلحات لاستحداث الاختصار، فنشأت مفردات جديدة مثل «إل جي بي تي» و «م.م.م.م»[2]. أمّا المصطلح المضادّ للمثليّة الجنسيّة هو المغايرة الجنسيّة، أي الانجذاب إلى الجنس الآخر (المغاير). بالعربيّة، يُستعمل أيضًا المصطلح «سويّ» كمضادّ للمثليّ؛ ويستعمل بالإنكليزيّة المصطلح «ستريت» (straight)، ومعناه الحرفيّ «سويّ، مستقيم"[3]. يقتصر بحثنا على الأبعاد

الفكريّة، والنظرّيات الفلسفيّة الليبراليّة، والنسبيّة الأخلاقيّة، وفلسفة اللذّة والمتعة، ودور الوسائل الإعلاميّة، التي ساهمت، بشكل أو بآخر، في الثورة الجنسيّة، وبخاصّة المثليّة.

الفصل الأوّل: المثليّة الجنسيّة: ظاهرة اجتماعيّة معاصرة

في عالم اليوم، يبرز الإعلام المرئيّ والمسموع كقوّة محرّكة للحياة الإنسانيّة في مختلف أبعادها الفكريّة، والترفيهيّة، والسياسيّة، والاقتصاديّة، والدينيّة، والاجتماعيّة، والعلميّة. إنّه الوسيلة الاجتماعيّة الرئيسيّة للتواصل بين الناس. تتعدّد أنواع وسائل الإعلام من إعلام مكتوب مطبوع كالجرائد والمجلّات، وإعلام مرئيّ كالتلفاز والحاسوب، وإعلام مسموع كالإذاعة أو الراديو، وإعلام تكنولوجيّ مثل الإنترنت، والفيسيوك، والواتساب، وغيرها. تظهر أهمّيته بسبب قدرته، وسهولة وصوله إلى كلّ الناس في كافّة أنحاء العالم، وفي أيّ مكان. يهتمّ في نشر الأخبار، ونقل المعلومات، وموضوعات الحياة الإنسانيّة على نطاق واسع. ويحرص على مُواكبة حاجات الأفراد الفكريّة والمادّيّة، عن طريق تشجيع النشاطات، وتبادل الأفكار، وإقناع الناس فيها، وتوضيح وجهات النظر المُختلفة، واستخدام الإعلان والتسويق للخدمات والأفكار والسلع، والتأثير على الحياة السياسيّة، وصناعة الثقافة التي تُؤثّر بدورها على العلاقات الاجتماعيّة. لذلك، يكافح النشطاء المثليّون في الإعلام، من أجل الدفاع عن حقوقهم والتعبير بحرّيّة عن توجّههم المثليّ.

موضوع المثليّة الجنسيّة هو من أحدث المواضيع الدينيّة، والفكريّة، والاجتماعيّة، التي أثارت اهتمام الناس في عالمنا المعاصر، بسبب انتشارها، وانتقال دعاتها من مرحلة الدفاع إلى الهجوم. لم تعد المثليّة أمرًا مخفيًّا في كثير من المجتمعات والطبقات، بل أصبحت أمرًا مجاهرًا به؛ حتّى إنّ أيّ مراقب يستطيع أن يكتشف الشابّ المثليّ من غيره، بمجرّد مراقبة تصرّفاته ولباسه. يفصحون عن جنسانيّتهم من خلال أسلوب ثيابهم، وحركاتهم، وسلوكهم. يعود هذا الخروج للعلن إلى سعيهم الدؤوب على الصعيد الفرديّ والجماعيّ من أجل دفع الناس إلى تقبُّلهم، مستفيدين من الدعم الذي تُقدِّمه لهم المؤسّسات الدوليّة، وجمعيّات الدفاع عن حقوقهم في العالم. تجلّى هذا الدعم في مواقف عدّة، من بينها: التوعية عبر وسائل التواصل الاجتماعيّ، لإيصال الرسائل إلى الرأي العامّ بشكل علنيّ، أو الاستفادة من الإعلام المرئيّ والمسموع من أجل تغيير طريقة تفكير الناس في هذه المسائل من الناحية الأخلاقيّة، لأنّ الأخلاق قيم متغيّرة في نظرهم، أو تدريب وحدات اجتماعيّة، تهدف إلى المساعدة في التخفيف من العقوبات، وتقبّلهم الطبيعيّ في المجتمع[4].

على مرّ التاريخ، سيطرت المواقف السلبيّة، والاستنكار، والإدانة للعلاقات والنشاطات المثليّة. وفقًا للدراسات التاريخيّة والأنثروبولوجيّة والإثنوغرافيّة، في العالم القديم، عارضت الحضارات والمجتمعات بشدّة المثليّة الجنسيّة، ومالت قوانينها إلى اعتبار الميول أو الممارسة المثليّة مخالفة للمجتمع وجريمة بحقّ الطبيعة[5]. بشكل عامّ، تُعارض الأديان اليهوديّة، والمسيحيّة، والإسلام، المثليّة الجنسيّة أو السلوك الجنسيّ المثليّ. اعتُبرت المثليّة الجنسيّة مرضًا عقليًّا لسنوات عديدة، فجاءت القوانين القديمة مناهضة لها. ولكن منذ منتصف القرن التاسع عشر، ظهرت كتابات تُدافع عن المثليّة الجنسيّة. في عام 1749، كتب توماس كانن[6] أوّل كتاب دفاع جدّيّ ومتوسّع عن المثليّة الجنسيّة في اللغة الإنكليزيّة. بين عام 1864 و1880، قام كارل هاينريش أولريكس[7] بنشر رزمة من أوراق الدعاية التي أطلق عليها عنوان **بحث في لغز الحبّ بين الذكور**. وفي عام 1867، أصبح أوّل مثليّ يدافع علنًا عن المثليّة الجنسيّة، ويُنادي بقرار يحثّ على إلغاء القوانين ضدّ المثليّة الجنسيّة في مؤتمر الحقوقيّين الألمانيّين في ميونخ. في عام 1896، نُشر كتاب **التوجّه الجنسيّ العكسيّ** لهافلوك أليس[8]؛ اعترض فيه على النظريّات التي تقول بأنّ المثليّة الجنسيّة غير طبيعيّة، وأصرّ على ارتباطها بالإنجازات الفكريّة والفنّيّة. أمّا في القرن العشرين، وفي معظم الدول المتقدّمة والعالم الغربيّ، فبدأت القوانين تتغيّر لتتناسب أكثر مع المثليّين جنسيًّا. وبدأ رفع التحريم عن المثليّة الجنسيّة تدريجيًّا، ولم تعد تُصنّف كمرض. وأظهرت تحسّنًا في منح المثليّين حقّهم في التعبير على الصعيد العالميّ. كما ظهرت حركات تهدف إلى زيادة الاعتراف بالمثليّين، وتواجدهم العلنيّ، والمساواة بحقوقهم الشرعيّة، بما فيها حقوق الزواج، والتبنّي، والعمل، والخدمة العسكريّة، والعناية الطبّيّة، وسنّ تشريعات تحمي القاصرين المثليّين[9].

تختلف نسبة النشاط المثليّ بحسب البلدان. لا تمنع معظم الدول في العالم السلوكيّات الجنسيّة التي تُمارَس بالتراضي بين أشخاص يبلغون سنّ الرشد ولا تربطهم صلة قرابة. لا بل تمنح بعض الدول المثليّين الحقوق عينها التي تُمْنَح للمستقيمين جنسيًّا، من حيث الحماية، والامتيازات، وحقوق الأزواج، والامتيازات الزوجيّة. في المقابل، تُجرِّم بعض الدول الممارسات المثليّة، وقد يواجهون عقوبة الإعدام أحيانًا[10]. في العالم العربيّ أخذت هذه الظاهرة تتفشّى في تزايد مستمرّ، وبوتيرة سريعة نسبيًّا، بخاصّة بعد شيوع موضة الكشف عن الهويّة الجنسيّة. إلّا أنّ القسم الأكبر منهم يُفضّل العيش بأسماء مستعارة، لأنّه يُنظر إليها عادةً على أنّها «عمل مشين»، أو «سلوك شاذّ»، وظاهرة مستغربة، غير مقبولة، لا تجوز دينيًّا، أو مستوردة من الغرب، كما تقول نهى القاطرجي في كتابها

الشذوذ الجنسيّ في الفكر الغربيّ وأثره على العالم العربيّ[11]. في هذا السياق، يرسم براين ويتاكر[12]، في كتابه **الحبّ الممنوع: حياة المثليّين والمثليّات في الشرق الأوسط**[13]، صورة أشخاص يعيشون حياة سرّيّة، يعتريها الخوف في كثير من الأحوال، صورة أبناء وبنات يتعرّضون للضرب وتنبذهم عائلاتهم، أو يُرسَلون لتلقّي علاج نفسيّ «ليبرأوا»، وصورة رجال يُحتجزون ويُجلدون «لتصرّفهم كالنسوة»، أو آخرين قد سُجِنوا فقط، لأنّهم حاولوا العثور على الحبّ عبر الإنترنت.

يعتبر المثليّون بأنّ العوامل البيولوجيّة تُحددّ التوجّهات الجنسيّة. يُمكن تصنيفها ضمن ثلاث دراسات رئيسيّة: دراسة تركيبة الدماغ، ودراسة التوائم، ودراسة علامات الجينات وترابطها[14]. من جهة، يؤكّدون أنّهم أناس في نهاية المطاف، ذو ميول جنسيّة خاصّة، يولدون كذلك، ولم يختاروا واقعهم البيولوجيّ. من جهة أخرى، يرون الحياة الجنسيّة شكلًا من أشكال الحريّة الشخصيّة. بالتالي، لا يجوز معاقبتهم، أو تعرّضهم إلى التمييز. لذلك، بدأوا يطالبون بحقوقهم، وتغيير القوانين المانعة، وحريّة التعبير والمعتقد، التي يضمنها القانون ويحميها. في الواقع، لم يتمّ إثبات أيّ تفسير من التفسيرات التي اقتُرِحت، وليس من الواضح إن كانت هذه السمات مُسبّبة للمثليّة أو تعبيرًا عنها، أي أنّ علاقة السبب والنتيجة غير واضحة. تُعاني معظم هذه الدراسات من العيوب المنهجيّة. كما يتساءل الباحثون عن صحّة هذه الدراسات التي تفتقد إلى الصدقيّة العلميّة. في المقابل، أظهرت بعض الدراسات النفسيّة والعلوم الاجتماعيّة وجود علاقة بين المثليّة والتجارب الاستثنائيّة، والعوامل البيئيّة، والتربويّة، والصدمات في فترة الطفولة. تدعم هذه النظريّات الفكرة القائلة بأنّ التنشئة غير الطبيعيّة، مثل التحرّش الجنسيّ، أو أيّ تجربة حياتيّة مؤذية أخرى في الطفولة، قد تؤثّر سلبًا على التوجّه الجنسيّ للشخص[15]. ويبقى السؤال مطروحًا عن دور الإعلام والثقافة الليبراليّة في التشجبع على انتشار هذه الظاهرة. ما الذي يدفع الإنسان إلى تبنّي سلوك معيّن في ظرف معيّن؟ هل هي العادة؟ هل هي المكاسب؟ هل هي السهولة؟ هل هي اللذّة؟ هل هي المبادئ والقيم والأخلاق؟ هل هو الفكر والثقافة؟ أو أنّ الإنسان مجرّد ماكينة تتلقّى الإيعازات بشكل أوامر عصبيّة، وهورمونات، وإفرازات، ورموز في الجينات والكروموزات، حاملات الصفات الوراثيّة للكائن البشريّ؟

الفصل الثاني: المثليّة الجنسيّة: دعوة إلى الحرّيّة الفرديّة المطلقة

يرتبط سلوك الإنسان بعوامل كثيرة متعدّدة، تُقرّر نوعيّة وحدته واتّجاهه. وقد حاول

الفلاسفة وعلماء النفس وضع معادلات وقواعد لربط هذه العوامل. من أشهر هذه التفاسير فلسفة الرواقيّين، ونظريّة اللذّة والألم، ونظريّة قانون التأثير، والسلوكيّة الآليّة، والحتميّة، والإرادة الحرّة. في جزء كبير من رؤيتهم الثقافيّة، ينطلق المثليّون من النزعة الليبراليّة الغربيّة، التي طغت على أشكال الثقافة الأوروبيّة المعاصرة ومضامينها، لا سيّما تشكّلاتها الأخيرة تحت اسم «ما بعد الحداثة». لذلك ليس انتشار المثليّة الجنسيّة مجرّد مشكلة أخلاقيّة وحسب، بل قضيّة فكريّة، مرتبطة بالفكر الليبراليّ، الذي ساهم بأبعاده كالحرّيّة الفرديّة، والأخلاق النسبيّة، ومفهوم اللذّة، في الدفاع عن التوجّه الجنسيّ بشكل عامّ، وعن المثليّة الجنسيّة بشكل خاصّ. قوّضت هذه الليبراليّة، وفق ادّعاءاتها الأيديولوجيّة، الكثير من الأخلاق، والقيم، وصور الحياة الموروثة من الأجيال السابقة. ودعت إلى التعاطف مع الحرّيّة الجنسيّة بكامل أبعادها، على أنّه لا يحقّ للسلطات المدنيّة مساءلة الفرد عن ميوله الجنسيّة، لأنّ الحكومات لا تُمثّل الخالق على الأرض، وليس لها حقّ التصرّف على أنّها تمثّله. يستطيع الله وحده أن يعاقب أو يغفر إذا كان هناك من إله. في هذا الإطار، لم يعد معيبًا أن يظهر إنسان على شاشات الفضائيّات ويقول إنّه «مثليّ». بل لم يعد غريبًا أن يُدافع هذا الإنسان عن سلوكه، ويُبرّره بشكل طبيعيّ، بما يتوافق وحقوقه كإنسان أوّلًا، لأنّه لا يعتبر سلوكه شاذًّا، بقدر ما هو إحساس طبيعيّ، لديه حرمة التقاليد والأعراف، ويُمكنه التعبير عنه، أو الاستمتاع بإحساسه هذا.

الحرّيّة مكوّن أساسيّ من مكوّنات الليبراليّة. الليبراليّة هي الفكر الذي يركّز على أهمّية حرّيّة الفرد غير المحدودة، واستقلاله عن أيّ مؤثّر من كلّ أنواع السيطرة. ويصبو، على نحو خاصّ، إلى التحرّر من التسلّط بأنواعه السياسيّة، والاجتماعيّة، والدينيّة، والأخلاقيّة. ركّزت الليبراليّة على نظريّة حرّيّة الفرد المطلقة، وحاولت تعميق اتّجاهه نحو التفرّد، وإشباع الغرائز، التي لا تنضوي تحت أنساق أخلاقيّة. ازدهرت هذه الأفكار في كتابات الفكر الفرنسيّ في عصر الأنوار. ووجدت تعبيرها الأكثر ديمومة مع روسو، الذي اعتبر سلطات المجتمع فاسدة، إذ جعل المجتمع الناس أقلّ سعادة وأقلّ حرّيّة. «تلك المؤسسات السخيفة التي تدعى الكلّيّات». يُمكن للأفراد أن يكونوا أحرارًا بشرط أن يحكموا أنفسهم. وقد انتقد مونتين جميع أنواع السلطات. ووصف رابليه الليبراليّة بأنّها وضعت حياة الفرد خارجًا عن القوانين، والأنظمة، والقواعد، والقيم الاجتماعيّة، وجعلت الفرد وحرّيّته المطلقة فوق كلّ سلطة، انطلاقًا من مبدأ «اصنع ما شئت، لأنّك تتمتّع بالحرّيّة». ودعا جون ستيوارت ميل في كتابه **الحرّيّة والنفعيّة والحكومة النيابيّة**، إلى الاستناد على الواقع في إصدار الأحكام على الأشياء، لأنّ الحرّيّة الليبراليّة في جوهرها، هي إطلاق العنان للناس ليحقّقوا

خيرهم بالطرق التي يرونها. ويقول آدم سميث، أبو الليبراليّة، بأنّ السلوك الإنسانيّ يخضع لبواعث عدّة كحبّ الذات، وعشق الحرّيّة، والولع بالملكيّة، والسعي إلى العمل، والميل المتبادل. الفرد هو أفضل حَكَم على مصلحته الخاصّة. ويرى جون لوك أنّ الحكومة المدنيّة لها وظيفة وحيدة، وهي تحقيق العدالة، بضمان قدسيّة الحرّيّة الفرديّة وحماية الملكيّة الخاصّة، ومن ثمّ، فإنّه لا يجوز للدولة التدخّل فيهما، أو تغييرهما لتطبيق العدالة. تُصنَّف الوجوديّة على أنّها الأكثر ليبراليّة، لأنّها تُمثّل ردّ فعل ضدّ كلّ الفلسفات التقليديّة والحديثة. لا يُمكن فصل الحرّيّة عن الكائن. الحرّيّة مطلقة. قد يؤدّي تعليم شخص إلى الحدّ من حرّيته في الاختيار. هدف الوجوديّة هو تحرير الأفراد من عزلتهم، وتحرير عقولهم من الالتباسات، وتشجيعهم على فهم وضعهم وأنفسهم. جادل سارتر الذي طوّر الفكر الوجوديّ بأنّ الحياة لا تقوم إلّا على القرار الحرّ المطلق لكلّ فرد[16].

بين الليبراليّة ونظرة المثليّين للحرّيّة والقانون الطبيعيّ، تكشف مقارنة سريعة أنّ المثليّين ينطلقون في تبريراتهم الأخلاقيّة من الفكر الليبراليّ والحرّيّة الشخصيّة. يُشدّدون على أنّه، إذا أردنا مواكبة الحداثة والتطوّرات المذهلة التي تحدث في العالم من حولنا، وتخطّي حالة التخلّف والهوان، التي نعيشها اليوم وحالة الافتقار للتنمية بكافّة أشكالها، يجب علينا إعادة النظر في الكثير من معاييرنا الأخلاقيّة، التي تعاني من الاهتراء والاختلال. يُركّزون على أنّ كلّ إنسان خُلق عاقلًا، ويستطيع إحسان التصرّف، ويملك حقًّا في أن يعيش مستقلًّا عن الآخرين، في كلّ ما يتعلّق بذاته، وأن يُنظّم حياته الشخصيّة كما يشاء، بما فيها توجّهه الجنسيّ؛ فربطوا القيم الأخلاقيّة بالمنافع الفرديّة، وجعلوها مجرّد قيم متقلّبة مع المصالح. ووجدوا المنظوماتِ القِيَميّة، وسموّ الأخلاق، والقيم، والمعتقدات السائدة، والشرائع الدينيّة، والأعراف الاجتماعيّة، كلّها سدًّا منيعًا أمامهم، بل عدوًّا لهم. لذلك لا يهتمّ الفكر المثليّ الليبراليّ بأفعال غيره، لأنّها لا تَعنيه. ويُطالب، في الوقت نفسه، بأن لا يتدخّلوا في حياته الخاصّة، وحياته الجنسيّة، وتوجّهاته، وميوله، وتصرّفاته[17]. وهذا مَكْمن الخلل في مفهومه للحرّيّة؛ لأنّه لا يُدرك لوازم الأفعال؛ ولأنّ الأفكار لا تنضبط، ولا يُعرف صحيحها من خطئها إلّا بمجموع أفعال أصحابها. إذا حُصر الإنسان في فعله، ولم يُعط له الحقّ في فعل غيره، يُصبح مفهوم الحقّ والصواب عنده ملتبسًا، ويكون الناس بهذا في حيرة من أمرهم؛ لأنّ كلًّا منهم يُحدّد الحقّ من زاويته، ويُفسّره على مقاسه، بالإضافة إلى فتح باب العلاقات على مصراعيه من دون قيود. المطلوب في الفعل الجنسيّ هو تحقيقه لمبدأ الحرّيّة، والمطلوب من المادّيّ هو تحقيقه للذّة والمنفعة، ولو أدّى ذلك إلى الإضرار بالغير مادّيًا ومعنويًا.

أطلقت الليبراليّة الفورة الجنسيّة على مصراعيها. فتمّ استخدام تعبير «الثورة الجنسيّة» للإشارة إلى تحرّك اجتماعيّ سياسيّ ظهر خلال الستّينات من القرن الماضي، وامتدّ حتّى يومنا هذا. وغالبًا ما يعود استخدامها إلى التأثّر بكتابات فرويد حول التحرّر الجنسيّ، والقضايا الجنس—نفسيّة. أحدثت هذه الثورة تغييرات واسعة بخصوص الطريقة، التي ينظر بها المجتمع إلى الحياة الجنسيّة؛ ومنها إعلان عصر جديد من إلغاء التعصّب المرتبط بالجنس في بعض النواحي، وتنحية طريقة التفكيرالتقليديّة[18]. كما يرجع تعبير «الثورة الجنسيّة» إلى كتاب عالم النفس، ومؤسّس العلاجات النفسيّة البدنيّة فيلهلم رايش[19].
نقد فيلهلم الأخلاق الجنسيّة المنتشرة في عصره، ورأى أنّها مغلوطة وكاذبة. بنظره، تأتي الأخلاق التقليديّة وكبت الفطرة الجنسيّة بتشوّهات في الشخصيّة، وتُفضي إلى الباطنيّة، والازدواجيّة في التصرّف الأخلاقيّ. ويعتقد أنّ مواقف السلوك الجنسيّ التقليديّة السابقة، التي كان يتّخذها المجتمع تجاه الموضوع، كانت منافقة، ومنحازة للذكور.
أدّت هذه الثورة إلى نشوء تشريعات جديدة بشأن السلوك الجنسيّ. فبعثت بثقافة جديدة هي «الحبّ الحرّ»، حيث اعتنق ملايين الشبّان مذهب «الهيبّيز»، وأخذوا ينشرون أفكارهم عن قوّة الحبّ وحرّيّة الجنس، كجزء فطريّ من الحياة الطبيعيّة. يؤمن الهيبّيز بأنّ الجنس ظاهرة بيولوجيّة فطريّة لا يجب إنكارها أو كبتها. وفتح لهم التحرّر الجنسيّ المجال للإتيان بأمور وتوجّهات جديدة منها: حرّيّة الجنس، وسائل منع الحمل، العري العلنيّ، حركة تحرير المثليّين الجنسيّين، الدعوة إلى تحرير الرغبة بالإجهاض، حقوق المرأة وتحريرها أو الأنثويّة. بدأ استغلال ما كسبه المجتمع من حرّيات جنسيّة جديدة عبر استثمارات كبيرة، تتمثّل ببدء ظهور المواد الإباحيّة والفاضحة علنًا.
لا يقوم التغيّر الأساسيّ، الذي أحدثته الثورة الجنسيّة، في أنّ الناس أصبحوا يمارسون الجنس أكثر من قبل، أو أصبحوا يمارسون أنواعًا مختلفة من الجنس، بل، ببساطة، أنّهم أصبحوا يتحدثّون عنه علنًا وبحرّيّة، أكثر من الأجيال السابقة. الأمر الذي يصفه المؤرّخون المؤيّدون بأنّه ثوريّ بحدّ ذاته. يقول هيكمان بأنّ الثورة الجنسيّة تجلّت وقت ظهور ما كان مخبأً بشأن الجنس ما قبل الزواج، الاستمناء، الخيالات الشهوانيّة الجامحة، استخدام الموادّ الإباحيّة، والممارسات الجنسيّة على أنواعها. مع بداية السينما، بدأ المجتمع في صراع ثقافيّ بين ما يُشاهد على الشاشات، من مشاهد فيها نساء فاتنات، وتقبيل، ومعانقة، وممارسة مشاهد جنسيّة، وعلاقات جنسيّة فاضحة. استمرّ الأمر، ونما بقوّة بعد اختراع التلفاز، الذي أصبح موجودًا في البيت العائليّ. ومع مرور الوقت وتطوّر وسائل التواصل الاجتماعيّ، انتشرت أكثر من خلال الإنترنت ووسائله المتعدّدة، وازدهرت

صناعة إباحيّة إعلاميّة، من أفلام، ومجلّات، وقصص، وصوَر[20].

الفصل الثالث: المثليّة الجنسيّة: مشكلة أخلاقيّة

تتجسّد الأخلاق عامّة في الحياة الاجتماعيّة، مدنيّة كانت أو دينيّة، وتُعتبر صدًى للمبادئ الإنسانيّة، التي يعيشها الإنسان في وسطه الاجتماعيّ. يتردّد هذا الصدى في داخلنا، فيأمرنا بفعل الخير، وينهانا عن فعل الشرّ. الخير هو ذلك الفعل الجميل، الذي يترك أثرًا حسنًا على النفس الفاعلة والمتلقّية في آن واحد. الخير هو البرّ، والعمل الصالح، ورفع الأذى والظلم، وزرع البسمة، والمحبّة، وغيرها من الفضائل الجميلة، التي تُلقي بظلالها الحسنة على الإنسان. والخير هو ما تفيض به النفس على ذاتها لتسمو في سماء الحرّيّة، وترتفع في آفاقها. يظهر أثر الخير على النفس في شعورها باللذّة. ولا يُمكن إيقاظ جذوة الخير يقول أرسطو بأنّ إتيان الفعل الفاضل في سرور أمر هامّ، ومثله الأعلى الإنسان. ويرى أفلوطين بأنّ الخير هو المصدر أو المبدأ الأوّل للوجود، وهو فوق كلّ وصف أو تعريف[21].

في الواقع، خلقت الليبراليّة إشكاليّة لمعتنقيها في المفهوم والمبادئ، فيما يتعلّق الأمر بالأخلاق عامّة، والأخلاق الجنسيّة خاصّة، جعلت النفعيّة مبدأ، والغريزة مقصدًا، فأخذت تخوض معركة الأخلاق مع ذاتها، وتدخل مجتمعاتها ومعتنقيها في دوّامة من القلق لتفاوتهما، وعدم وجود معيار يحكمهما، ولو وضعيّ، يتّفق عليه الليبراليّون. فجعلت الإنسان كائنًا معزولًا غير اجتماعيّ؛ لأنّ تفكيره ينحصر في دائرة ذاته واهتماماته الشخصيّة، من غير أن يتأثّر بأحد، أو يؤثّر على أحد، ولا يعني غيره ما يفعله هو. ولكن ألا تتشكّل المسائل الأخلاقيّة من خلال علاقة الناس بالآخرين، بحيث إنّ الإنسان إذا ما عاش وحيدًا فريدًا لا يكون لديه مفهوم حول الأخلاق، وإنّ بعض المفاهيم الأخلاقيّة لها موارد في سلوك الإنسان حتّى لو عاش منفردًا؟ ألا تتجلّى أعظم المسائل الأخلاقيّة، أكثر في عمليّة علاقة الأشخاص مع بعضهم البعض؟ ما هي القيمة الأخلاقيّة للحياة الاجتماعيّة؟ هل هي حسنة أم سيّئة؟

يقسم فلاسفة الأخلاق الأخلاق إلى قسمَين: فرديّة واجتماعيّة. تدخل في الإطار الفرديّ للسلوك في كثير من الفضائل والرذائل الأخلاقيّة، التي لها جوانب فرديّة، مثل الصبر والجزع، والشجاعة، والخوف، والمشاجرة، والكسل، وغيرها من الحالات النفسيّة والصفات، التي تفرضها حالات الصراع مع الطبيعة. بينما تعود كلّ الأُسس الأخلاقيّة إلى العلاقات الاجتماعيّة مع الآخرين، لأنّه لو انعدم المجتمع، وعاش الإنسان وحيدًا فريدًا أو

مستقلًّا عن الآخر، لا يعرف عنه شيء، فلن يكون هناك مفهوم للأخلاق أصلًا. الحسد، والتواضع، والكِبَر، وحُسن الظنّ، والعدالة، والجَور، والعفّة، والكَرم، كلّها من المسائل الّتي لا يتجلّى مفهومها إلاّ بوجود المجتمع خاصّة، وتعامُل الناس مع بعضهم البعض. بناءً على هذا، فإنّ الإنسان من دون المجتمع، يساوي الإنسان من دون أخلاق[22]. لذلك يدور السؤال حول قيمة الأخلاق الاجتماعيّة. هل الإنسان مجبر على الحياة الاجتماعيّة أم يحقّ له اختيار أخلاقه الفرديّة؟

يركّز فلاسفة علم الاجتماع على أنّ الحياة الاجتماعيّة ضرورة طبيعيّة للإنسان إذ يتحتّم وجوده في نطاق المجتمع. تتحقّق هويّة الفرد في إطار المجتمع وفي أنّ وجوده تابع لوجود المجتمع. مع التأكيد على أنّ كلّ فرد هو موجود مستقلّ ذو روح مستقلّة، وإرادة، ومعرفة، وقادر على اختيار مناهج مختلفة في حياته. وهو بوسعه ربط حياته بحياة أفراد من الناس، وبوسعه قطع هذه الروابط. تُمثّل الأُسرة النواة الأُولى والأساس للحياة الاجتماعيّة. في حين تربط العوامل العاطفيّة حياة الفرد مع سائر الأفراد. أمّا العوامل العقليّة فتجعل الإنسان يدرك بعقله أنّه عاجز عن توفير متطلّبات حياته بنفسه. فهو بحاجة إلى التعاون مع الآخرين في توفير الحياة المادّيّة كالملبس، والمسكن، والمأكل، والحياة المعنويّة، والإنسانيّة، والنفسيّة، والجنسيّة. لذا يحكم العقل بضرورة معاشرة الآخرين، وربط الحياة بحياة الآخرين، والتعاون معهم في حلّ مشكلات الحياة.[23]

حينما ينفصل الفرد عن المجتمع يكون بمثابة موجود ميت ينسلخ عن الوجود الإنسانيّ؛ ولو بقي حيًّا فإنّ حياته لا تتخطّى الحياة الحيوانيّة. يُمكن أن يكون الفرد ذا استقلال محدود داخل المجتمع بأن ينفصل عنه، ولكن قد يتحوّل إلى عضو ميت، كالغصن الذي ينفصل عن الشجرة، أو العضو الذي يُقطع من جسم الإنسان. قد يعزم أن يعيش وحيدًا في زاوية بعيدة عن الآخرين في غابة، ولا يعاشر أحدًا، ولا يتكلّم، ولا يتعامل مع أحد، ويقتات على الأعشاب الصحراويّة وثمار الغابة، ويصون جسمه من البرد والحرّ كما يحبّ، ويواصل حياته الفرديّة النسكيّة. ولكن هل يريد المثليّون أن يعيشوا الحياة النسكيّة في المجتمع؟ هل يحقّ لهم رفض كلّ القيم الاجتماعيّة ويعيشون كلّ بحسب رأيه، انطلاقًا من مفهوم الحرّيّة الفرديّة؟ هل هذه هي الحياة الإنسانيّة في جوهرها بأن يعيشوا في انعزال عن القيم الأخلاقيّة الاجتماعيّة؟

في المقابل، يتبنّى أنصار المثليّة الجنسيّة تعاليم النسبيّة ليدافعوا عن وجودهم وميولهم الجنسيّة[24]. تؤكّد النسبيّة بأنّ الأخلاق لا تقوم على أيّ مبدأ مطلق، بل تعتمد الحقائق الأخلاقيّة المتغيّرة بتغيّر الزمان والمكان واختلاف الثقافات وتطوّرها، لأنّها تخضع لواقع

الناس وفهمهم لها. كما يحكمها الواقع الاجتماعيّ المتغيّر، والواقع الاقتصاديّ، وسلوك وآداب تتحكّم فيها الأنماط التربويّة والعادات الاجتماعيّة المختلفة. مثلًا، تلعب العادة دورًا مهمًّا في اعتياد الشيء، الذي يؤهّله لأن يكون ثابتًا ومقبولًا، حتّى لو تعارض مع مفهوم أخلاقيّ متّفق عليه في مجتمع آخر، أو في زمن آخر. لذلك يدعو أنصارالمثليّة إلى اعتبار فكرة «على المرء ألّا يصدر أحكامًا أخلاقيّة على أفعال أشخاص من ثقافات أخرى». ويجب عليه احترام القرارات الأخلاقيّة الخاصّة بالآخر، أي ينبغي ألّا يمرّر أحكامه الأخلاقيّة من خلال معتقداته الخاصّة أو العامّة، وينبغي له عدم الحكم على تصرّفات الناس المغايرة لمعتقداته الأخلاقيّة. ويدّعي مناصروها بأنّ المعتقدات الأخلاقيّة مجرّد عادات تشرّبها الإنسان عبر الوقت وفي المجتمع. وليس هناك من صواب أو خطإ مطلق، بل كلّ شيء هو نسبيّ. يستندون في دفاعهم على فكرة «التسامح»، انطلاقًا من أنّ مواجهة شخص ما بأنّ أخلاقيّاته غير صحيحة هو عدم تسامح.

فهل يجب التسامح مع الخطإ؟ كيف ينبغي للمرء أن يفكّر ويتصرّف عندما تتصادم الآراء من الناحية الأخلاقيّة؟ ما هي المبادئ التي يجب أن تسود؟ كيف يمكن أن نقرّر؟ هل ينبغي ألّا نتسامح مع التنوّع بسبب مشاكل النسبيّة الأخلاقيّة؟ ويبقى السؤال الرئيسيّ من يجب أن يقرّر؟ المحامون، العلماء، أو رجال الدين؟ أيّة قيم ينبغي أن نعلّم؟ هل هي مطلقة؟ من أين أتت القيم؟ وهل تتواجد بعيدًا عن التقليد الدينيّ؟ أيّة مبادئ يجب أن تعتمد في مجتمع متعدّد الثقافات؟

يعترض الكثيرون على القول بنسبيّة الأخلاق، ويعتبرون القيم الأخلاقيّة مبادئ عامّة وثابتة، وأنّه لا يمكن أن يختلف اثنان على أنّ القتل، والظلم، والسرقة، والاحتيال، والغشّ، وغيرها من أعمال الشرّ، هي أعمال غير أخلاقيّة. تُعرّف الأخلاق على أنّها مجموعة الطباع والسجايا في الشخص، ومنظومة من القيم، التي تُنظّم سلوك الناس، وعلاقاتهم ببعضهم وبمجتمعهم، والتي أجمع الناس عليها في مجتمع ما، في زمن ما، على أنّها تلك المعايير، أو تلك المرجعيّة، أو تلك القواعد، التي يُحكم ويُقاس عليها أفعال، وصفات، وسلوكيّات. وهي تختلف عن القوانين، لأنّها لا تقع على مخالفها بالضرورة مسؤوليّة قانونيّة. ليس كلّ ما يتعارض مع الأخلاق يكون متعارضًا مع القانون، وليس كلّ ما يتعارض مع القوانين بالضروره يتعارض مع الأخلاق[25]. علاقة الأخلاق بالدين هي علاقة وثيقة وقديمة في تاريخ البشر، على الرغم من أنّ الدين والأخلاق مفهومان مختلفان. الدين عبارة عن معتقدات وطقوس تُنظّم علاقة الإنسان بمقدّساته وخالقه. وسبب توثّق تلك العلاقة هو أنّ الأديان قد أخذت بالقيم الأخلاقيّة العامّة وجعلتها من صميم تعاليمها، ونصوصها، وتشريعاتها،

وربطتها بمفهوم العقاب والثواب والشرائع الإلهيّة. كما أعطت لنفسها الحقّ في بعض الأحيان في صياغتها وقولبتها بما يتناسب مع خطوطها، ونهجها، ومصالحها، فأصبحت الأخلاق دينيّة. لكن هذا لا يعني أنّ الأخلاق محصورة في الدين، لأنّها مقترنة به منذ فترة طويلة من التاريخ، وإن كانت تبدو لمعظم الناس كذلك[26].

انعكس الفكر النسبيّ على المثليّة الجنسيّة وخلق مجموعة من المخاطر والانتقاد، لأنّ النسبيّة تضع حظرًا شاملًا على انتقاد سلوك الفرد ومعتقداته الأخلاقيّة والدينيّة. وقد وفّر ذلك عذرًا لسلوك المثليّين وتبريراتهم الفكريّة. كما جرّدتهم من الأسباب المنطقيّة التي تدعوهم إلى التصرّف بشكل أخلاقيّ، وقضت على أيّ سبب موضوعيّ للتصرّف بشكل لائق، أو التعبير عن الرفض للأعمال الأخلاقيّة، لأنّه لو كانت الأخلاقيّة تتعلّق بما يفعله الناس ببساطة، فليس هنالك من سلطة موضوعيّة نسترشد بها. جعل هذا الواقع الناس في حيرة، وصراع، وضياع بين مفهوم الحقيقة الأخلاقيّة، والاجتماعيّة، والحرّيّة الفرديّة المطلقة. لذلك يروّج المثليّون لحقيقة بأنّ رفض المثليّة هو سبب التخلّف، ولا يُمكن أن يتطوّر الإنسان إلّا بتجاوزه للقيم التقليديّة، وتشكيكه في التعاليم الدينيّة، وزعزعة الثقة بها، بمختلف الأسباب والطرق. بالإضافة إلى ذلك يعملون بوعي أو لا وعي على نشر فكر جنسيّ، يؤدّي إلى تفلّت الضوابط الأخلاقيّة، وانتشار الممارسات الجنسيّة بجميع أنواعها. ليس هنالك من مشكلة في فعل أيّ شيء يحلو للفرد، فيجد نفسه متسامحًا مع الممارسات الجنسيّة على أنواعها، انطلاقًا من المبدأ القائل: «على المرء ألّا يصدر أحكامًا أخلاقيّة على أفعال أشخاص من ثقافات أخرى».

تُفسّر المذاهب الأخلاقيّة المادّيّة، والمثليّة الجنسيّة بالذات، الأخلاق تفسيرًا مادّيًّا ووفقًا لقانون طبيعيّ، فيتحكّم منطق الحاجة الطبيعيّة المباشرة في الأخلاق الإنسانيّة. وتُنادي بأنّ الشيء الوحيد الذي يجدر بالإنسان أن يسعى إليه هو الخيرات المادّيّة التي تجود بها الحياة. وتردّ الشعور والأحاسيس الإنسانيّة والإحساس بالجمال إلى المبدإ المادّيّ الواحد. فقامت بتطبيع الإنسان، إذ رأته كائنًا طبيعيًّا مادّيًّا بسيطًا وحسب، ونظرت إليه باعتباره مادّة نسبيّة صرفة لا قداسة لها. على سبيل المثال، الإباحيّة هي جزء من الهجوم على الطبيعة البشريّة وعلى قداسة الإنسان، ومحاولة تفكيكه. تجريد جسد الإنسان من ملابسه هو نوع من نزع القداسة عنه حتّى يتحوّل الإنسان، صورة الله في الأرض وفق الإيمان المسيحيّ، ومركز الكون في الرؤى الإنسانيّة، إلى مجرّد لحم يُوظَّف، ويُستغلّ، بحيث يصبح مصدرًا للذّة[27].

لا يُمثّل الدفاع الشرس عن المثليّة الجنسيّة، والدعوة إلى التسامح معها، وتفهّم وضع المثليّين بعيدًا عن هذا الواقع. وقد يبدو هجومًا على الطبيعة البشريّة كمرجعيّة نهائيّة

ومعيارًا ثابتًا، يُمكن الوقوف على أرضه، لإصدار أحكام وتحديد ما هو إنسانيّ، إذ تحاول المثليّة الجنسيّة إلغاء ثنائيّة إنسانيّة أساسيّة هي ثنائيّة الذكر والأنثى، التي تستند إليها الطبيعة البشريّة. الإنسان الذي يُطالب بحقوقه هو وحدة مستقلّة بسيطة أحاديّة البُعد، لا علاقة له بأسرة أو مجتمع أو دولة، هو مجموعة من الحاجات المجرّدة، التي تُحدّدها الاحتكارات، وشركات الإعلانات والأزياء، وصناعة اللذّة، التي لا همّ لها إلّا تعظيم الربح. والحقوق الإنسانيّة التي يتمّ الدعوة لها هي حقوق تتجاوز المجتمع ومنظومته الأخلاقيّة والروحيّة. أكّد على هذا المعنى الفيلسوف الفرنسيّ ميشال فوكو، حينما تحدّث عن تغييرات كبيرة حصلت للمجتمعات الغربيّة في التعاطي مع الأسرة والعلاقات الجنسيّة، من التحريمات الكبرى إلى الفوضى الجنسيّة، مشدّدًا على أهمّها «الجسد» الذي تحوّل إلى «شيء» أو مادّة يمكن أن تنتج وتستهلك[28].

لا تقوم المشكلة فقط في الدفاع عن حقوق المثليّين، الذين يرون الأمور بمنظارهم الخاصّ، وبشكل مختلف عن الواقع التقليديّ، أو بالتعدّي على نمط حياتهم الخاصّ، بل بقبول الاختلافات، لأنّه قد يكون صعبًا ومخادعًا عندما تُتّخذ قرارات بشأن القضايا الأخلاقيّة. على الرغم من أنّ العديد من الناس لديهم ممارسات أخلاقيّة مختلفة، إلّا أنهم يتشاركون في مبادئ أخلاقيّة عامّة. مثلًا، يتّفق مناصرو الإجهاض ومعارضوه أنّ القتل أمر خاطئ، ولكنّهم يختلفون حول ما إذا كان الإجهاض يُعتبر قتلًا أم لا. يدَّعي البعض أنّ الظروف المختلفة تستلزم أخلاقيّات متغيّرة، أيّ أنّه في مواقف معيّنة يستلزم التصرّف بطريقة معيّنة ربّما لا تكون صحيحة في مواقف أخرى.

في النهاية، يجب ألّا تتوقّف الأخلاقيّة الجنسيّة على رأي ذاتيّ، بل يجب أن تكون قابلة للجدل، وإعطاء الأسباب، وتقديم الأدلّة. الاحترام الحقيقيّ للناس يعني الانخراط معهم، والتساؤل بجدّيّة حول قراراتهم الأخلاقيّة: لماذا تعتقد ذلك؟ كيف يُمكنك تبرير ذلك الفعل؟ ما هي العواقب المترتّبة على القرارات الأخلاقيّة الفرديّة؟ لذا من المستحسن أن لا يتمّ تبنّي كلّ أفكار الأخلاق «الجديدة» أو «العصريّة» كما هي من دون مساءلة. كما يجب ألّا يتمّ نبذ مأثورات الأخلاق التقليديّة، واعتبارها مجرّد تشوّشات ذهنيّة، أو مجرّد إسقاطات نفسيّة لعواطف قديمة غير عقلانيّة، أو قبولها كمسلّمات وبديهيّات لا يُقبل النقاش فيها. بعيدًا عن المناهج المعرفيّة، التي تُناقش الأخلاق كقيم مطلقة أو كقيم جاهزة منجزة لم تخضع لعمليّات النشوء والتطوّر التاريخيّ، تظهرالأخلاق كنتاج الظروف الاجتماعيّة الإنسانيّة والفعل الإنسانيّ، لأنّ الإنسان ليس كائنًا مجرّدًا جاثمًا في مكان ما خارج العالم، بل الإنسان هو عالم الإنسان.

الفصل الرابع: المثليّة الجنسيّة: سعادة في اللذّة

اللذّة مذهب قديم جديد، تأسّس في العهد اليونانيّ القديم. ظهر كعامل حيويّ في تحريك السلوك منذ عهد أريستيبيوس، وأفلاطون، وأرسطو، وأبيقورس[29]. لم يهتمّ أبيقور بالفلسفة النظريّة التي كان معاصروه يهتمّون بها. فتوجّه إلى البحث عن سرّ السعادة البشريّة، لا سيّما أنّ الحياة اليونانيّة الوثنيّة لا تهتمّ بالحياة الآخرة، وليس فيها أيّ قوانين خلقيّة روحيّة. وجد أبيقور سرّ السعادة في اللذّة، التي لا تعني إلّا الخير. واعتبر أنّ اللذّة وحدها هي الخير والفضيلة، وأنّها خير على الدوام، والألم هو الشرّ والرذيلة. اللذّة هي إقصاء الألم وحينما ينقضي الألم، يمكن للذّة أن تتنوّع، ولكن لا يُمكن أن تزيد في مقدارها. اللذّة إمّا أن تكون لذّة جسميّة تبلغ أعلى صورها في الصحّة الجسميّة الكاملة، وإمّا عقليّة إذا كانت متحرّرة من الخوف والقلق. لكن مع أنّ جميع اللذّات هي خير في ذاتها، تستتبع بعض اللذّات الألم. لذلك ينبغي علينا أن نختار بعض أنواع اللذّة من دون غيرها. تُختصر الأفكار الأساسيّة بأنّ اللذّة هي وحدها الخير، وهي خير الدوام، ولا توجد اللذّة إلّا من خلال إقصاء الألم وكلّ ما يعكّر صفو العقل. لا يستطيع الإنسان أن يحيا حياة سعيدة ما لم يقضِ هذه الحياة في كلّ ما هو فاضل بالفعل، والحياة الفاضلة هي مصدر اللذّة. اللذّة هي الشيء الوحيد الذي «هو خير في ذاته». والألم هو الشيء الوحيد الذي هو «شرّ في ذاته»، والسعادة تشمل اللذّة والتخلّص من الألم، وأنّ رجحان كفّة اللذّة يعني صيرورة حياة الإنسان مصدرًا للمزيد من اللذّة[30]

ظهر مفهوم اللذّة بثوبه الجديد في القرنين السابع والثامن عشر من خلال كتابات ديكارت وهوبس، ثمّ في مذهب المنفعة الذي نادى به فلاسفة أوروبّا في العصر الحديث[31]. أكّد بنتام على أنّ الطبيعة قد وضعت البشريّة تحت حكم سيّدين: الألم والمتعة. إنّها تحكمنا في كلّ ما نقوم به، في كلّ ما نقول، وفي كلّ ما نفكّر فيه. على الفرد وحده أن يشير إلى ما يجب القيام به، ولتحديد ما يجب أن يفعل. ورأى بأنّه مهما كانت الأسباب التي يتصرّف الناس بموجبها أو يفكّرون بها، تحكمها المنفعة في نهاية المطاف، لأنّها توفّر معيارًا للصواب والخطإ. لذلك، تُصبح الأمور جيّدة أو سيّئة انطلاقًا من المتعة أو الألم. وعارض جون لوك نظريّة الحقّ الإلهيّ، واعتبر أنّ فكرة الخير يجب أن تُعرّف بأنّها هي نفسها كلمة اللذّة، وأنّ الاختيار هو أساس المعرفة، لكي يتمّ على حساب ذلك العودة إلى المفاهيم اليونانيّة الوثنيّة القديمة للذّة والانسجام مع الطبيعة. ومع فرويد سيطرت نظريّة اللذّة الجنسيّة على واقع الإنسان وسلوكه. وأكّدت تجارب بافلوف على الحيوانات على أنّ المكافأة تُعزّز من اتّجاه الحيوان نحو عادة معيّنة، وعدم المكافأة كالحرمان أو الألم،

تؤدّي إلى نسيان العادات القديمة وضمورها. وقال فخنر عالم الجمال بأنّ اللذّة تنجم عن الحالات التي تساعد على الاستقرار.

يُشدّد المثليّون على أنّه لا بدّ من أن تحلّ معرفة القوانين الطبيعيّة محلّ تعسّف القوانين الدينيّة. ولكي يعيش الإنسان بانسجام مع الطبيعة ينبغي أن يتبع نظام الأشياء الطبيعيّ الخاصّ باللذّة وقواعد الذوق. وهذا ما يجب أن ينجز في النظام الجماليّ والنظام الأخلاقيّ. وهو ما سمّاه جان إرار حلم القرن الكبير، أي الحلم بإنسانيّة متصالحة مع نفسها ومع العالم متوافقة مع النظام الكونيّ. وكما أنّ عقل الرياضيّ متوافق مع القوانين العامّة للطبيعة الفيزيائيّة، فإنّ الإنسان يتوصّل إلى حقيقة الجمال المطلق، والانسجام السماويّ للمثال الجماليّ المتوافق مع قوانين اللذّة[32]. لذلك، لا تتكلّم المثليّة الجنسيّة على الإنسان من الناحية الروحيّة، ولا تهدف إلى إصلاح نفسه، بل تكتفى بالتركيز على الجانب الغريزيّ وتحقيق الرغبات. وتنظر إلى الكائن الإنسانيّ كجسد، من دون أن تضع في الاعتبار الأبعاد المعنويّة في حياته. فانطلقت من الثورة الجنسيّة وجعلت اللذّة والحرّيّة الفرديّة أساسًا لتعليمها وتوجّهاتها التي ما لبثت أن اصطدمت بالقيم الأخلاقيّة وعارضتها في كثير من الأحيان.

تبنّى المثليّون أخلاق مذهب اللذّة وذهبوا إلى أنّ السعادة هي أساس الأخلاق ومعيارها، أي تحقيق أقصى ما يمكن من المنافع والسعادة واللذّات، لأنّ أهمّ عامل في الشؤون الأخلاقيّة هو نيّة الإنسان ودافعه. إذ لا يمكن تقويم عمل ما من دون الأخذ بنظر الاعتبار الدافعَ في أدائه[33]. يعتقدون بأنّ حقوقهم كأفراد أذكياء تشمل الحقّ في إنشاء قيمهم الخاصّة، وبأنّ الأخلاق المناسبة لا بدّ من النظر إليها على أنّها مستقلّة عن الدين أو ما يُسمّى «الأخلاق العلمانيّة». فاستفادوا من الرجوع إلى كتابات العصور الإغريقيّة والرومانيّة (المكوّنات الأساسيّة للثقافة الغربيّة).

في تلك العصور، برزت رموز جنسيّة وآلهة للحبّ مثل «إيروس» التي اشتقّت منها كلمة «إيروتيك» و»كيوبيد» رمز المحبّين والعشّاق في عيد الحبّ. تقوم هذه الشخصيّات وغيرها في الميثولوجيا الإغريقيّة بالإغراء والجنس والإغواء حتّى الاغتصاب في صور جميلة وممتعة. وعليه، بناء على هذه الأرضيّة الفكريّة، روّج المثليّون هذه الأفكار في الكتب، ووسائل الإعلام، ومؤسّسات التربية والتعليم، واعتبروا المعارض لها متخلّفًا. صاحب ذلك تبريرات فلسفيّة خاصّة، تعتبر الحرص على الحداثة، ونبذ القديم أمرًا ضروريًّا. ترسّخ في مخيّلتهم بأنّ كلّ حرّيّة هي ذات قيمة إيجابيّة، وأنّ كلّ ما هو أوامر وقيم قد يكون ذا قيمة سلبيّة. في نهاية المسار الذي ساروا فيه، يرفضون التقاليد الاجتماعيّة، ويتخلّون عن

الروح الدينيّة والقيم الأخلاقيّة المتّبعة، ويبرّرون ذلك بالرجوع إلى الأفكار الثوريّة التي سادت أوروبّا في عصر النهضة، مرورًا بعصر الأنوار إلى عالمنا المعاصر[34]. ويعتبرون بأنّ رفض فكرة المثليّة الجنسيّة هو من أعظم الخطايا. فعلى الجميع الامتثال والسير معهم، والدفاع عنهم سواء أكانوا محقّين أو مخطئين، لأنّ الصراحة تُصبح تحدّيًا خطيرًا للمبادئ المثليّة من ناحية، وعلامة عُقِد وتخلّف ضدّ الانفتاح الأخلاقيّ والفكريّ من ناحية أخرى. فالاعتقاد الأساسيّ هنا هو أنّ كلّ ما يُعبّر عن الحرّيّة الفرديّة أو اللذّة يُعتبر معيارًا مقدّسًا لا يجوز التفريط به مهما كانت الأسباب، والدوافع الخارجيّة، أو الحوافز الداخليّة[35]. لذا يتجلّى صراع المثليّين مع المجتمع وقيمه الأخلاقيّة بين وجهة النظر التقليديّة المعنيّة بمفهوم الإنسانيّة والتغيير الذي حدث تجاه الأخلاقيّة نفسها وتطوّرها. ويزيد الارتباك نفسه من خلال الممارسة اليوميّة، في استبدال القيم الأخلاقيّة والاجتماعيّة السائدة بنوع من الأفكار العلمانيّة الفرديّة وغير الدينيّة. فيُفقدون الدين وظيفته كوسيط أخلاقيّ للمجتمع، لتُسيطر الأفكار الليبراليّة. ولكن إذا كانت اللذّة هي المحرّك الأساسيّ للسلوك، فهل يعني بأنّ الإنسان يعيش ويتحرّك في عالم من المتع المادّيّة فحسب؟ كيف نُفسّر سلوك من يموت في المعركة سعيدًا دفاعًا عن الوطن؟ أو من يُضحّي بمتاع الدنيا من أجل عبادة الله؟

يُعبّر الأخذ بمبدأ اللذّة كمقياس أخلاقيّ مطلق عن تصوّر أنانيّ وشخصيّ للقيم الأخلاقيّة، ويؤدّي إلى اختلاف الناس في تحكيمه. ليس كلّ لذّة خيرًا، وليس كلّ ألم شرًّا؛ إضافة إلى أنّ ربط القيم الأخلاقيّة باللذّة هو انتقاص من قيمة الأخلاق، وسموّها، وقدسيّتها. ليس الطريق إلى اللذّة طريقًا واحدًا، حتّى لو اختلفت وسائل اللذّة، لأنّ اللذّة لا تعني المتعة الحسّية—المادّيّة فقط، بل الشعور الذاتيّ بالرضا، والاسترخاء، والسعادة. هناك لذّة أخلاقيّة حقيقيّة لمن يتمسّك بمبادئ الأخلاق، ولمن يُفضّل الإخلاص على الخيانة، ولمن يؤثر الدخل المحدود على السرقة والرياء. وهناك لذّة عقائديّة—فكريّة، أو أيديولوجيّة وسياسيّة، فيجد الإنسان لذّة في الانتماء إلى أحزاب وجماعات اجتماعيّة—إنسانيّة، أو الاضطهاد، والمشقّات، والسجن، والتعذيب، كي يحقّق هدفه المنشود[36].

أنتج هذا التيّار لذّة مادّيّة أحاديّة خالصة كمقياس أخلاقيّ، بعد أن ألغى مفهوم القيم الروحيّة من حساباته. فتداخل مفهوم اللذّة بشكل مباشر في فهم الحياة وهويّتها لدى الإنسان الحديث، بينما كانت السعادة هي منطلق الإنسان في العالم القديم، عالم ما قبل الحداثة في النظر إلى العالم والحياة. لقد كان هذا الإنسان يبتكر حتّى خرافاته

من أجل أن يحصل على سعادته في بلوغ حالة من اليقين بمظهر وجوده وحقيقته، بينما الإنسان الحديث يبرّر كلّ خطاياه للحصول على لذّته. صار النصر يورث اللذّة الدمويّة في العالم الحديث، وليس السعادة بالقوّة في العالم القديم، ثمّ اللذّة بالمخدّرات، وآخرها اللذّة في الحياة الجنسيّة المثليّة. كان الحبّ يمنح السعادة في ثقافة العالم القديم. وهو ما يُفسّر ذلك الوله الإنسانيّ بقصص الحبّ القديمة، والرومانسيّة الرائعة التي تلاشت مع الواقعيّة المادّيّة في حضارتنا الحديثة، والتي سوّغت مفهوم اللذّة بمنتجاتها، وصنعت من الاستهلاك الجنسيّ ثقافة في اللذّة، وروّضت البشر في الحديث عن ثقافة اللذّة في المعنى المادّي، بديلًا من ثقافة السعادة في المعنى الإنسانيّ. فصنعت من العلاقة الجنسيّة مفهومًا في اللذّة، تمكّنت من خلالها استباحة كلّ القيم والمبادئ والأسس الإنسانيّة، بعد أن مهدّت تلك الأفكار بإحلالها اللذّة محلّ السعادة في العلاقات الجنسيّة. وكان واحدًا من تمهيداتها هو البحث المتعاطف وغير الموضوعيّ مع العلاقات الجنسيّة المثليّة، ومحاولة تصويرها على أنّها مورست بشكل واسع في مختلف الثقافات.[37]

تُبيّن بعض القرائن التاريخيّة بأنّ ممارسة المثليّة تظهر في مراحل تراجع الدور الحضاريّ وانهيار الشخصيّة الذكوريّة القويّة في الدول التاريخيّة. يتحدّث تولستوي في رواية **الحرب والسلام** عن انهيارات البلاط القيصريّ الروسيّ، وظهور راسبوتين، شخص مخنّث في البلاط، أثار تخنّثه استياء بطل الرواية وخيبة أمله، وأثار الجدل في البلاط القيصريّ الروسيّ، تعبيرًا عن سخف هذا البلاط وانهياراته. وقد اقترن بظهور مجموعة من المخنّثين والمثليّين من أمراء البلاط. كما يُمكن القول بأنّه منذ القديم يُعاني الفرد من صراع مستمرّ بين الحياة الفرديّة والحرّيّة المطلقة من جهة، وبين الحياة الاجتماعيّة والقيم الإنسانيّة والأخلاقيّة من جهة أخرى. الإنسان مدنيّ بطبعه لكونه يعيش في وسط اجتماعيّ حيث يتعّهده المجتمع بالتربية والتثقيف، فيُنمّي استعداداته الفطريّة ودوافعه النفسيّة وملكاته العقليّة. لذلك ينشأ الفرد وهو مدين للجماعة بكلّ شيء. الحياة الجماعيّة هي البيئة الأولى التي يتربّى فيها، والمناخ الذي تتطوّر فيه القيم، والأحكام، والسلوك. لا يعيش الإنسان لذاته، ولا في عزلة عن غيره، بل تؤثّر أفعاله في الآخرين كما يتأثّر بأفعالهم؛ إن كانت خيرًا أو شرًّا له. انطلاقًا من هذه المسلَّمة، يؤكّد علماء الاجتماع بأنّ الأخلاق ظاهرة اجتماعيّة تتميّز بشروطها الموضوعيّة، وتجب دراستها دراسة وضعيّة قائمة على ربط الظاهرة بعواملها الخارجيّة والداخليّة. الواجب الاجتماعيّ إلزاميّ وَضَعه المجتمع وعلى الفرد أن يمتثل لهذا الواجب باعتباره عضوًا في جماعة. يقول إميل دوركايم، بأنّ الأخلاق ظاهرة اجتماعيّة. ذلك أنّ الأخلاق تبدأ حيث التعلّق بجماعة، والفرد يجدها تامّة

التكوين في المجتمع الذي يكون فيه، يكتسبها عن طريق التربية التي تمنحه المبادئ والأخلاقيّة. ليس هناك سوى قوّة أخلاقيّة واحدة تستطيع أن تضع القوانين للناس هي المجتمع. فالأخلاق ظاهرة اجتماعيّة لها قوانينها. وليست القيم سوى مظهر للجماعة تابع لمعتقداتها، وعلومها، وفنونها، وعلاقاتها بالجماعات الأخرى[38].

يبدأ الفرد باكتساب المعايير التي بها يقيّم أفعاله وتصرّفاته، ويحكم بها على أفعال الغير، ابتداءً من احتكاكه مع الغير، والتراكمات التي يكتسبها داخل مجتمعه. فالفرد، قبل قيامه بأيّ فعل، يرجع إلى القوانين التي اكتسبها من الجماعة، والتي تقيّد حرّيّته نوعًا ما، وهي التي تساعده، في الوقت نفسه، على عيش حرّيّته والحفاظ عليها. اعتقد كانط بأنّ البشر يميلون إلى الشرّ. لم يعن بذلك الشرّ الكامن في إيذاء الآخرين وتعذيبهم، بل كان يفكّر في الميل البشريّ للاستسلام للرغبات والأهواء، بدلًا من الواجبات (الأخلاقيّة). لأنّ الأخلاق، بالنسبة إلى كانط، هي القوّة القادرة على إغلاق هذه الهوّة، وعلى ردعنا إذا ما أمرتنا النفس بالسوء. ورأى أنّ الجنس مدان أخلاقيًّا بشكل خاصّ، لأنّ الشهوة تركّز على الجسد، لا على شخصيّة أولئك الذين نرغبهم جنسيًّا، فنحن نختزلهم ليصبحوا مجرّد أدوات لإشباع رغباتنا لا غير.

بقدر ما يكون الارتباط وثيقًا بقدر ما يكون التشبّع بالقيم الأخلاقيّة قويًّا لدى الأفراد. من لا يرتبط بالعروة الوثقى للجماعة لا يكون لنفسه مرجعًا، ولن تكون لديه أيّ قيم أخلاقيّة، بل لا يمكن وصفه حتّى بالكائن الأخلاقيّ. بالضمير الجماعيّ، يستطيع الإنسان أن يتعايش مع المجموعة، التي تُعِدّ البيئة والمناخ الذي يعيش فيه. لقد ذهب الاتّجاه العقليّ إلى أنّ الإنسان كائن عاقل بالدرجة الأولى وعقله ليس ملكة للفهم والمعرفة فحسب، بل هو مصدر الفعل الأخلاقيّ، وهذا ما عبّر عنه كلّ من أفلاطون وديكارت. لكنّ الأخلاق بالمنظور العقليّ متسامية وغاية في التجريد، إذ هي منفصلة عن التجربة الواقعيّة للإنسان، وتقصي العواطف والميول لديه، مع أنّ الواقع يقرّر في كثير من الأحيان بأنّ السلوك الذي ينبع من الوجدان قد يكون أنبل من ذلك الذي ينبعث من العقل بأحكامه المطلقة من دون اعتبار للظروف الاستثنائيّة.

خاتمة

قد يُشعل هذا البحث رسالة صارخة على واقع المثليّة الجنسيّة في عالمنا العربيّ، إن على الصعيد المدنيّ أو الدينيّ. وقد يُثير غضب المثليّين، ومن يدينون بهذه الأفكار، وما يمكن تسميته بتيّار «المثليّة الجنسيّة». لسنا في واقع التهجّم على أحد، كما نمقت أعمال

التمييز الأعمى النابع عن قناعة مُسبّقة ضدّ الأفراد أو الجماعات، أو التعدّي على حقّ الفرد في الاختيار وحرّيّة التصرّف، أو التعرّض للاضطهاد، أو الملاحقة القانونيّة، بسبب أصله القوميّ، أو العرقيّ، أو اللون، أو العقيدة، أو المعتقدات الدينيّة، أو الأخلاقيّة، أو ميوله الجنسيّة. لذلك، حياتهم هي ملك لهم، ويحقّ لهم عيشها، كما لهم حقّ الاختيار، الذي شرّعه القانون العالميّ لحقوق الإنسان. حياتهم شكل من أشكال الحياة الجنسيّة، تولّد الشعور بالسعادة أو الألم، بالراحة النفسيّة أو بالقلق، باللذّة الجنسيّة أو العاطفيّة مع أبناء جنسهم وليس مع الجنس الآخر. لديهم الآن سنويًّا «مسيرة للمثليّين» في العديد من الدول مع كامل التغطية التلفزيونيّة والوسائل الإعلاميّة المقروءة والمسموعة. كما يبذلون كلّ جهدهم وطاقاتهم في سبيل نشر تعاليمهم، وتقديم أفكار جديدة ومستقلّة، من أجل احتضانهم، وتطوير قناعات تبنّيهم، وإزالة التعصّب والتحامل عليهم. بالإضافة إلى ذلك، يحاولون الاستفادة من الحرّيّة الفكريّة والروح العلمانيّة في الكلّيّات والجامعات، في سبيل تعزيز قيمهم والدفاع عن مساواتهم، وإخراج القيم الاجتماعيّة والبعد الدينيّ من المعادلة الأخلاقيّة والروحيّة، وحصرها في العبادة والمعابد فقط. ويواجه المثليّون في كثير من الأحيان أولئك الذين يعارضون سلوكهم المثليّ، ويكيلون الاتّهامات شمالًا ويمينًا لإخفاء هذه الحقيقة، ولمحاولة وقف مناقشة عقلانيّة علميّة وإنسانيّة للقضيّة من خلال تحويل التركيزعلى حجج الحرّيّة الفرديّة والسلوك الطبيعيّ والحقوق القانونيّة وغيرها من التبريرات، لأنّهم في الواقع يخشون الإدانة حتّى من أنفسهم فيعملون على إدانة الآخرين. ولكنّ هذا لن يقلّل من ضعف حججهم في سبيل تبرير سلوكهم. ولكن يحقّ لنا أيضًا الاعتراض على محاولة الإقناع بصوابيّة حياة المثليّة الجنسيّة في تبريراتها، وتحويلها إلى قضيّة وطنيّة. كما يحقّ لنا المقاومة، والدفاع، والحفاظ على قيمنا السامية، ضدّ أيّ هجوم. ليست هذه المقاومة عدوانًا ضدّ أيّ فرد أو مجموعة، أو أيّ توجّه خاصّ، بل ضدّ الترويج لأفكار نعتبرها خاطئة، وتخالف مبادئنا، وتعاليمنا. لا تكمن خطورة المثليّة في وجودها بالدرجة الأولى، بل في محاولة نقل تجربتها إلى المجتمع اللبنانيّ، والسعي لإسقاطها على مجتمعاتنا كما هي، والدعوة إلى شرعنتها من الناحية الدينيّة والقانونيّة. كما تكمن مشكلتها في رفض أيّ مناقشة بمنطق سليم علميّ، وأخلاقيّ، واجتماعيّ، تناقض توجّهاتهم، لأنّهم يظنّون أنّهم على حقّ، ومن يخالفهم الرأي إمّا هو تقليديّ ومتعصّب، إمّا متديّن ضدّ الحرّيات الشخصيّة خارج السلطات الدينيّة، إمّا متخلّف عن الحضارة العصريّة وعن الحداثة وما بعد الحداثة.

نحن ملتزمون بالحفاظ على التوازن بين حقّ الفرد والمجتمع، وعلى وحدة الأسرة

وقيمها، وحمايتها على أنّها نواة الحياة الاجتماعيّة الأساسيّة، وعلى قدسيّة الزواج بين الرجل والمرأة. لا يزال ينبغي أن ندعم مؤسسّة الزواج الطبيعيّة حيث يعيش الأطفال الأمن، والاستقرار، والتربية الأخلاقيّة، والإنسانيّة في الأسرة الطبيعيّة. يوجد علاقة متينة بين سلوك الطفل الأخلاقيّ، والعاطفيّ، والنفسيّ، وبين مفهوم الأبوّة والأمومة.

مراجع باللغة العربيّة

– براين ويتاكر (2007) **كتاب الحبّ الممنوع حياة المثليّين والمثليّات في الشرق الأوسط**. دار الساقي.
– بيتر دركر (2012) التطبيع المثليّ والتحوّل الشاذّ. زابرودر وورلد.
– عبد اللطيف، عبد الحكيم محمّد (2003) **جريمة الشذوذ الجنسيّ وعقوبتها في الشريعة الإسلاميّة والقانون**. جامعة نايف العربيّة للعلوم.
– كولن ويلسن (2007) **سياسات ال م.م.م.م. والتحرّر الجنسيّ**. مجلّة الاشتراكيّة العالميّة.
– نزار صاغية (2010) **أقواس القزح أمام أقواس المحاكم: المثليّون في قانون العقوبات**. جمعيّة حلم.
– نهى القاطرجيّ (2017) **الشذوذ الجنسيّ في الفكر الغربيّ وأثره على العالم العربيّ**. مركز الفكر الغربيّ.

مراجع باللغة الأجنبيّة

- Aldrich, R (2006) *Gay Life and Culture: A World History*. Thames and Hudson, Ltd.
- Barash, David P (2012) The Evolutionary Mystery of Homosexuality. The Chronicle of Higher Education.
- Boehm, C (2012) Moral Origins: The Evolution of Virtue, Altruism and Shame. New York: Basic Books.
- Borchert, Donald (2006) Pleasure. 2nd edition, Macmillan Encyclopedia of Philosophy. Mamillan.
- Diggs, J (2004) The homosexual lifestyle. Tufts University.
- Driver, Julia (2014) The History of Utilitarianism. Stanford University.

- Dynes, W and al. (1992) Homosexuality in the Ancient World. Garland Publishing.
- Fares, Georges (Fr.) (2008) The Challenge of the University in the New Millennium. La Sagesse University. Beirut.
- Fares, Georges (Fr.) (2012) Homosexuality. University La Sagesse. Beirut.
- Feldmen, Fred (2006) Pleasure and the Good Life: Concerning the Nature, Varieties, and Plausibility of Hedonism. Oxford University Press.
- Fischer, R and al (2011) Does social context affect value structures? Testing the within-country stability of value structures with a functional theory of values. Journal of Cross-Cultural Psychology.
- Foucault, Michel (1986) The History of Sexuality. Pantheon Books.
- Haidt, J and Hersh, M.A (2001). Sexual morality: The cultures and emotions of conservatives and liberals. Journal of Applied Social Psychology.
- Heaven, P. C. L., & Oxman, L. N. (1999). Human values, conservatism and stereotypes of homosexuals. Personality and Individual Differences, 27, 109–118.
- Hickman, T (1999) The Sexual Century. London.
- Hope, Debra A (2009) Contemporary Perspectives on Lesbian, Gay and Bisexual Identities. Nebraska Symposium on Motivation. Vol. 54.
- James R. Lehman and al (2019) The Equal Curriculum: The Student and Educator Guide to LGBTQ Health. Springer Naturep.
- Kitcher, P (2011) The Ethical Project. Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Ladd, John (1973) Ethical Relativism. Belmont, Calif., Wadsworth Pub. Co.
- MacAskill, William (2020) Elements and Types of Utilitarianism: Hedonism and Theories of Welfare. Introduction to Utilitarianism. Oxford.
- Moore, Andrew (2019) Hedonism. Stanford University.
- Murray, Stephen O (2000) Homosexuality. Chicago: University of Chicago Press. p. 394.
- Norton, Rictor (2016) Myth of the Modern Homosexual. Bloomsbury Academic.

- O’Keefe, Tim (2005) Epicurus on Freedom. Cambridge University Press.
- Onfray, Michel (2002). L’invention du plaisir: fragments cyréaniques. Le Livre de Poche.
- Pallies, Daniel (2021) An Honest Look at Hybrid Theories of Pleasure. Philosophical Studies. 178 (3): 887–907.
- Schroeder, Mark (2016) Value Theory. Stanford University.
- Singer, Peter; de Lazari-Radek, Katarzyna (2017) Utilitarianism: A Very Short Introduction. Oxford: Oxford University Press.
- Spencer, C (1995) Homosexuality in History. New York: Harcourt Brace and Company.
- Sweet, William (2021) Jeremy Bentham: 4. Moral Philosophy. Internet Encyclopedia of Philosophy.
- Younger, John G (2005) Sex in the Ancient Word from A to Z. London. Routledge.

1– ريتشارد فون كرافت إيبنج طبيب نفسيّ ألمانيّ ولد في مانهايم، في 14 آب 1840. هو مؤلّف العديد من الكتب، ويأتي في مقدّمتها، كتاب الاعتلال النفسيّ الجنسيّ الذي صدر عام 1886. ويُعدّ أوّل كتاب مكرّس كلّيًّا لتناول الشذوذ الجنسيّ على أنواعه.

2– تعني الحروف الأولى من الكلمات "lesbian"، "gay"، "bisexual"، "transgender" (LGBT) وهو مصطلح اختصار للمثليين، المثليّات، المزدوجين، والمتحوّليّن.

James R. Lehman and al (2019) The Equal Curriculum: The Student and Educator Guide to LGBTQ Health. Springer Nature, p. 5-6.

3- Eric B. Shiraev; David A. Levy (2016) Cross Cultiral Psychology: Critivcal Thinking and Contemporary Applications. 6th Edition. Taylor, and Francis. p. 216.

4- Norton, Rictor (2016) Myth of the Modern Homosexual. Bloomsbury Academic.

5- Dynes, W and al. (1992) Homosexuality in the Ancient World. Garland Publishing.

Younger, J.G (2005) Sex in the ancient world from A to Z. London, Routledge.

6– Thomas Cannon توماس كانن، كاتب ومؤلف من المملكة المتحدة ولد سنة 1720.

7– هاينريش أولريكس Karl Heinrich Ulrichs (1825 - 1895)، كاتب ومحامي وصحفي ألماني، يُنظر إليه اليوم كرائد حركة حقوق المثليين الحديثة في أوروبا.
8– هافلوك أليس Henry Havelock Ellis (1939-1859)، طبيب، كاتب، ومصلح اجتماعي بريطاني وأحد علماء النفس الذين درسوا الجنس.
9- Spencer, C (1995) Homosexuality in History. New York: Harcourt Brace and Company.
10- Hope, Debra A (2009) Contemporary Perspectives on Lesbian, Gay and Bisexual Identities. Nebraska Symposium on Motivation. Vol. 54.
11– تناولت نهى المثليّة الجنسيّة عبر التاريخ، وتطوّر المسار التشريعيّ من الإدانة إلى الإباحة ثمّ المباركة في الفكر الغربيّ. وتوسّعت في ما تسبّبه هذه الظاهرة من أمراض نفسيّة وجسديّة. ثمّ درست العوامل الفكريّة، والاجتماعيّة، والقانونيّة المساهمة في انتشار المثليّة الجنسيّة في العالم العربيّ. وتحدّثت عن مدى انتشارها في الدول العربيّة، وعن مدى تحريمها، وعن أبرز المناطق التي يرتادها المثليّون. وأوضحت كيف أثّرت الروايات العربيّة، والمسرحيّات، والأفلام، ومواقف الفنّانين، ووسائل التواصل الاجتماعيّ على انتشارها.
12– براين ويتاكر Brian Whitaker (1947–) صحافي بريطاني، عمل مراسلاً لصحيفة الغارديان في الشرق الأوسط.
13– الكتاب غنيه بالمعلومات، وهو بحث ميدانيّ ورصد لواقع حياة المثليّين في الشرق الأوسط، ومعاناتهم، واضطهادهم، ومآلات حياتهم، من خلال مقابلات معهم. والكتاب زاخر بالتجارب المرّة التي وصل بعضها إلى الانتحار. نذكر عناوين بعض الفصول لأهمّيتها. الفصل الأوّل: مسألة شرف، الفصل الخامس: هل أقتل نفسي؟ الفصل السادس: جنس وحساسيّة.
14– Fares, Georges (Fr.) (2012) Homosexuality. University La Sagesse. Beirut. P. 81-84.
15- Ibidem, p.133-148.
16- Fares, G (Fr.) (2008) The Challenge of the University in the New Millennium. La Sagesse University. Beirut. P. 287-300.
17- Driver, Julia (2014) The History of Utilitarianism. Stanford University.
18- Foucault, Michel (1986) The History of Sexuality. Pantheon Books.
19- فيلهلم رايش Wilhelm Reich (1897 – 1957) طبيب نمساويّ ومحلّل نفسيّ، من أعضاء الجيل الثاني من المحلّلين النفسيّين بعد سيغموند فرويد. ألّف العديد من الكتب، أبرزها تحليل الشخصيّة (1933)، علم النفس الجماعيّ للفاشيّة (1933)، والثورة الجنسيّة (1936).
20- Hickman, T (1999) The Sexual Century. London.
21- Boehm, C (2012) Moral Origins: The Evolution of Virtue, Altruism and Shame. New York: Basic Books.

22- Schroeder, Mark (2016) Value Theory. Stanford University.
23- Kitcher, P (2011) The Ethical Project. Cambridge, MA: Harvard University Press.
24- Ladd, John (1973) Ethical Relativism. Belmont, Calif., Wadsworth Pub. Co.
في كتابه، يشرح لاد معظم المفاهيم الذاتيّة مثل النسبيّة العدميّة، النفعيّة، الوجوديّة، الفرديّة، الحرّية المطلقة.
25– Fischer, R., Milfont, T. L., & Gouveia, V. V. (2011) Does social context affect value structures? Testing the within-country stability of value structures with a functional theory of values. Journal of Cross-Cultural Psychology, 42, 253–270.
26- Haidt, J., & Hersh, M. A. (2001). Sexual morality: The cultures and emotions of conservatives and liberals. Journal of Applied Social Psychology, 31, 191–221.
27- Moore, Andrew (2019) Hedonism. Stanford University.
28- Foucault, Michel (1986) The History of Sexuality. Pantheon Books.
29- Pallies, Daniel (2021) An Honest Look at Hybrid Theories of Pleasure. Philosophical Studies. 178 (3): 887–907.
30- O'Keefe, Tim (2005) Epicurus on Freedom. Cambridge University Press. p. 133-140.
31- Singer, Peter; de Lazari-Radek, Katarzyna (2017) Utilitarianism: A Very Short Introduction. Oxford: Oxford University Press. p. 46–56.
32- Borchert, Donald (2006) Pleasure. 2nd edition, Macmillan Encyclopedia of Philosophy. Mamillan.
33- Feldmen, Fred (2006) Pleasure and the Good Life: Concerning the Nature, Varieties, and Plausibility of Hedonism. Oxford University Press.
34- Murray, Stephen O (2000) Homosexuality. Chicago: University of Chicago Press. p. 394.
35- Greenberg, D. F (1995) The pleasures of homosexuality. In P. R. Abramson & S. D. Pinkerton (Eds.), Sexual nature, sexual culture. The University of Chicago Press, p. 223–256.
36- Onfray, Michel (2002). L'invention du plaisir: fragments cyréaniques. Le Livre de Poche.
37- MacAskill, William (2020) Elements and Types of Utilitarianism: Hedonism and Theories of Welfare. Introduction to Utilitarianism. Oxford.

38- Kitcher, P (2011) The Ethical Project. Cambridge, MA: Harvard University Press.

1 نؤكّد – في هذا المقام الهرمينوتيقيّ – على التمييز بين الإله؛ God, Dieu, Gott، والألوهة؛ Deity, Déité, Gottheit. وبالتالي، فإنّ تأويليّتنا لا تتعلّق بإله الأديان والمعتقدات، بل تتعلّق بإلهيّة أخرى للإلهيّ، فلا شيء يربطنا بالإله كما وقع استدعاؤه في الأنظومات الميتافيزيقيّة والثيولوجيّة.

2 فتحي المسكيني، **الإيمان الحرّ أو ما بعد الملّة: مباحث في فلسفة الدين**، ط 1، بيروت، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، 2018، ص 291.

3 المرجع نفسه، ص 294.

4 جان غرايش، **العوسج الملتهب وأنوار العقل: ابتكار فلسفة الدين – المجلّد الأول (إرث القرن التاسع عشر ووَرَثته)**، ترجمة: محمد علي مقلّد، مراجعة: مشير باسيل عون، ط 1، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2020، ص 241.

5 **الإيمان الحرّ**، مرجع سابق، ص 206. ويمكن القول، تبعًا للتنظير الفلسفيّ عن الوضعيّة التأويليّة لـ «إيمان ما بعد الملّة» عند المسكيني، أنّ الملّة هي نظام حُكم مشتقّ من حقبة تكريس القانون الأبويّ القمعيّ، والحُكم الاستبداديّ الشرقيّ المرتبط بالتوسّع الامبراطوري في منطقة الشرق الأوسط القديم المتأخّر؛ هذا النظام هَيْكَلَ جميع دلالات الألوهة في أفقنا، وما زال يُهَيْكلها إلى اليوم.

6 فتحي المسكيني، «**مَن هو إله الفلاسفة إذًا؟**»، ضمن كتاب جماعي إلكتروني بعنوان: **فلسفة الدين: قراءات في النظريّة والإشكال**، إشراف وتنسيق: الطيّب بو عزّة ومولاي أحمد صابر، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 2020، ص 617.

7 المرجع نفسه، ص 626.

8 فتحي المسكيني، «**كيف دخل الله إلى الفلسفة؟**»، مقال منشور على الموقع الإلكتروني لمؤسسة مؤمنون بلا حدود بتاريخ 26 سبتمبر 2018. https://www.mominoun.com

9 **الإيمان الحرّ**، ص 280.

10 الثيوديسيا هي الخطاب الفلسفيّ العقلاني في البرهنة على عدالة الإلهيّات أو خَيْرنة الآلهة في وجه معضلة الشرّ الإلحاديّة.

11 **العوسج الملتهب**، مرجع سابق، ص 427 – 430.

12 محمد الحبيب عزّ الدين، **إشكاليّة ملاءمة العقيدة للعقل في الفلسفة الحديثة: بيير بايل في مواجهة ليبنتز**، ط 1، بيروت، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، 2019، ص 215.

13 **الإيمان الحر**، ص 283.

14 **العوسج الملتهب**، ص 140.

15 المرجع نفسه، ص 143.

16 **الإيمان الحرّ**، ص 283.

17 فتحي المسكيني، **الهجرة إلى الإنسانيّة**، لبنان، ط 1، منشورات ضفاف والاختلاف والأمان وكلمة، 2016، ص 25.

18 لقد انتهى النقد الكانطيّ إلى تحويل معنى الألوهة إلى فكرة ترنسندنتاليّة (متعالية) ينطوي عليها العقل البشريّ كمصادَرة قَبليّة، يمكنه التفكير penser حولها، ولكنه لا يملك حولها أيّ نوع من المعرفة con-naître. يقول فتحي المسكيني: «بيّن كانط أنّ الإله ليس سوى فكرة من أفكار العقل البشريّ؛ بمعنى هي ليست سوى نتيجة ترنسندنتاليّة لطبيعة البشر في التفكير، وليس وضعًا أنطولوجيًّا قائمًا بنفسه، ومستقلًّا عنّا. وهي فكرة لا يمكن للفيلسوف أن يقبل بها إلّا بوصفها مثلًا أعلى للعقل يستعمله في نمط مخصوص من التفكير، هو ذاك الذي يدفعه إليه السؤال عمّا يمكن أن يكون السبب الأوّل لهذا العالم». (**من هو إله الفلسفة إذًا؟**، ص 621) ممّا تقدّم، يتّضح لنا أنّه ليس لفكرة الإله بصفتها فكرة ناظمة؛ أي «مثالًا أعلى متعاليًا بصفته حارسًا لوحدة المعرفة

وكليّتها»، إسهامٌ في المعرفة الموضوعيّة، فهي ضروريّة لتمرين العقل، وليس لتعيين الواقع الموضوعيّ. «إنّ وظيفة الأفكار المتعالية تنظيميّة محض وليست تأسيسيّة»، كما يشرح غرايش. (**العوسج الملتهب**، ص 431) النتيجة الحاسمة هنا هي أنّ مفهوم «الوجود» التأسيسيّ، السببيّ، الذي يمثّل البنية الصلبة لكلّ لاهوت فلسفيّ وعقائديّ، وللأدلة العقليّة على وجود الله، لا يستوفي معنى الألوهة التي نشرئبُّ نحوها في هذا المقال.

19 **الإيمان الحرّ**، ص 283 – 284.

20 «**من هو إله الفلاسفة إذًا؟**»، مرجع سابق، ص 616.

21 **العوسج الملتهب**، ص 415.

22 جون غرايش، **العيش بالتفلسف: التجربة الفلسفيّة، الرياضات الروحيّة، وعلاجيّات النفس**، ترجمة: محمد شوقي الزين، ط 1، بيروت، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، 2019، ص 472.

23 المرجع نفسه، ص 487.

24 **الإيمان الحرّ**، ص 213.

25 **العيش بالتفلسف**، ص 471.

26 فريدريش نيتشه، **العلم المرح**، ترجمة: علي مصباح، منشورات الجمل، ط 1، بيروت – بغداد، 2017، ص 164.

27 المرجع نفسه، ص 165.

28 صار ممكنًا أن توجد فكرة «المقدّس» خارج الدين، واعتبار الدين أحد المقدّسات. ويؤكّد فتحي المسكيني على الفصل المنهجيّ المعاصر بين الدينيّ والمقدّس. إنّ متابعة مغامرة المقدّس في الأفق المعاصر تقتضي العزوف عن «الادغام المتعمَّد بين الدينيّ والمقدّس، والحال أنّهما يطرحان في الفكر المعاصر مشكلين متباينَيْن». (انظر: فتحي المسكيني، «**حدود العلمانيّة: ملاحظات على كتاب عزمي بشارة الدين والعلمانيّة في سياق تاريخيّ**»، ملف: ندوة تقديم ومناقشة كتاب الدين والعلمانية في سياق تاريخيّ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، تونس، 5 فبراير/ شباط، 2016، ص 7)

29 فريدريتش نيتشه، **في جنيالوجيا الأخلاق**، ترجمة: فتحي المسكيني، مراجعة: محمد محجوب، ط 2، بيروت، مؤمنون بلا حدود ومعهد تونس للترجمة، 2017، ص 129.

30 المرجع نفسه، ص 123.

31 المرجع نفسه، ص 129.

32 المرجع نفسه، ص 124.

33 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

34 مقتطف من حوار أجرته جيهان خليفة مع الفيلسوف التونسي فتحي المسكيني، نشر على موقع أنباء إكسبريس الإلكتروني بتاريخ 26/ 1/ 2023 على الرابط التالي: https://anbaaexpress.ma

35 **العلم المرح**، مرجع سابق، ص 110.

36 المرجع نفسه، ص 172.

37 المرجع نفسه، ص 174.

38 المرجع نفسه، ص 174.

39 المرجع نفسه، ص 277.

40 المرجع نفسه، ص 279.

41 المرجع نفسه، ص 176.

42 المرجع نفسه، ص 177.

43 عبد الجواد ياسين، **اللاهوت: أنثروبولوجيا التوحيد الكتابي**، ط 1، بيروت، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، 2019، ص 10.

44 كارل شميت، **اللاهوت السياسي**، ترجمة: رانية الساحلي وياسر الصاروط، ط 1، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018، ص ص 108، 113.

45 المرجع نفسه، ص 116.

46 يُقدّر المفكّر والمؤرّخ **عبد الله العروي** العهد الهلّستيني بحوالي ألف سنة، وهي الفترة الممتدّة من فتوحات الاسكندر المقدوني (بداية القرن الرابع قبل الميلاد) إلى ظهور الإسلام (أواسط القرن السادس بعد الميلاد). (انظر: عبد الله العروي، **السنّة والإصلاح – دين الفطرة: جان جاك روسّو**، بيروت – الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2018، ص 17) أمّا مؤرّخ الأديان العراقي **خزعل الماجدي** فإنّه يؤرّخ للحقبة الهلّستينيّة بكونها المرحلة التي تلت وفاة الإسكندر المقدوني وانتهت بقيام الدولة البيزنطيّة؛ أي ما بين 323 ق. م و 330 للميلاد. وهذه المرحلة – بحسب الماجدي – تمّ فيها بشكل حاسم التحوّل الكبير من الأديان المتعدّدة الآلهة إلى الأديان الموحّدة. إنّ العولمي للمرحلة الهلّستينيّة (بفترتَيْها الاغريقيّة والرومانيّة) والتي استمرَّت ستّة قرون فاعلة فاعلة كانت بمثابة الرحم أو الحاضنة التي أنجبت الأديان التوحيديّة. «فبعد أن استقرّت الهيمنة الحضارية – يكتب الماجدي – للغرب على الشرق، وأصبح هناك امبراطوريّة عالميّة واحدة ظهرت الحاجة إلى إله واحد». (انظر: خزعل الماجدي، **كشف الحلقة المفقودة بين أديان التعدّد والتوحيد**، ط 1، بيروت - الدار البيضاء، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع والمركز الثقافي العربي، 2014، ص ص 12 – 14 – 279 – 281)

47 **السنّة والإصلاح**، ص 82.

48 المرجع نفسه، ص 82.

49 يقول العروي: «من المتّفق عليه أنّ أتباع عيسى كانوا لا يفهمون على الفور عباراته. لم يكن كلامه بيّنًا بالنسبة لهم. ولم يعد مفهومًا إلّا في لغة بولس، وهذا كان بدون نزاع ذا ثقافة هلستينيّة». (المرجع نفسه، ص 83)

50 المرجع نفسه، ص 94.

51 المرجع نفسه، ص 97.

52 المرجع نفسه، ص 165.

53 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

54 المرجع نفسه، ص 166.

55 **اللاهوت**، مرجع سابق، ص 214.

56 Françoise Dastur, ***Dieu(x)***, La Religion, ALTER: révue de phénoménologie, N° 28, 2020, p. 102.

57 Ibid, p. 99.

58 رشيد بو طيّب، **نقد الحريّة: مدخل إلى فلسفة إيمانويل ليفيناس**، تقديم: آكسيل هونيث، ط 1، لبنان، منشورات ضفاف والاختلاف، 2019، ص 136.

59 **اللاهوت**، مرجع سابق، ص 60.

60 سيوران، **تمارين في الإعجاب**، ترجمة: آدم فتحي، ط 1، بيروت – بغداد، منشورات الجمل، ط 1، 2021، ص 40.

61 تقول أطروحة المذهب الربوبيّ Déisme بأنّ الإله خلق العالم وتركه يعمل بقوانينه المستقلّة؛ أي مسيّرًا ذاته بذاته، وهو ما ينفي مفهوم العناية الإلهيّة الأساسيّ في ديانات التوحيد.

62 جورج غوسدورف، **الإنسان الرومنطيقيّ**، ترجمة: محمد آيت ميهوب، مراجعة: محمد محجوب، ط 1، تونس، معهد تونس للترجمة ودار سيناترا، 2018، ص 224.

63 بول ريكور، **الوجود والماهيّة والجوهر لدى أفلاطون وأرسطو (درس ألقي في جامعة سترازبورغ سنة 1953 – 1954)**، ترجمة: فتحي إنقزّو، محمد بن ساسي، حبيب الجربي، ومحمد محجوب، إشراف: محمد محجوب، ط 1، تونس، المركز الوطني للترجمة ودار سيناترا، 2012، ص 217.

64 المرجع نفسه، ص 149.

65 مارتن هايدغر، **الأسئلة الأساسيّة للفلسفة: مشكلات مختارة من المنطق – محاضرة فرايبورغ لدورة الشتاء 1937/ 38**، ترجمة: إسماعيل المصدق، مراجعة: مشير عون، ط 1، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2018، ص 115.

66 المرجع نفسه، ص ص 114 – 115.

67 فريدريش نيتشه، **نقيض المسيح**، ترجمة: علي مصباح، ط 1، بيروت – بغداد، منشورات الجمل، 2011، ص 48 – 49.

68 المرجع نفسه، ص 107. والتشديد من عندنا.

69 فريدريش نيتشه، **ماوراء الخير والشر: توطئة لفلسفة مستقبليّة**، ترجمة: علي مصباح، ط 1، بيروت – بغداد، منشورات الجمل، 2018، ص 84.

70 سيوران، **رسالة في التحلّل**، ترجمة: آدم فتحي، ط 1، بيروت – بغداد، منشورات الجمل، 2021، ص 36.

71 المرجع نفسه، ص 16.

72 المرجع نفسه، ص 168.

73 **ماوراء الخير والشر**، مرجع سابق، ص 94.

74 **الوجود والماهيّة والجوهر لدى أفلاطون وأرسطو**، مرجع سابق، ص 141.

75 جرالد ل. برونس، «**تذكّر اللغة: مدخل إلى شعريّة غادامير**»، وهو ملحق ضمن كتاب: **مَن أنا ومَن أنت (تعليق حول باول تسيلان)**، هانز جورج غادامير، ترجمة: علي حاكم صالح وحسن ناظم، ط 1، بيروت – بغداد، منشورات الجمل، ط 1، 2018، ص 243.

76 جورج غوسدورف، **أصول التأويليّة**، ترجمة: فتحي إنقزّو، ط 1، بيروت، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، 2018، ص 446.

77 هنس زند كولر، **المثاليّة الألمانيّة (مج. 2)**، تر: أبو يعرب المرزوقي وفتحي المسكيني وناجي العونلي، ط 1، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2012، ص 938.

78 المرجع نفسه، ص 937.

79 المرجع نفسه، ص 941.

80 **المثالية الألمانية (مج. 1)، ص 104.**

81 **المثالية الألمانية (مج. 2)**، ص 939.

82 المرجع نفسه، ص 945.

83 **أصول التأويليّة**، مرجع سابق، ص 481.

84 فريدريش شلايرماخر، **في الدين: أحاديث إلى المثقّفين من بين منكريه**، ترجمة وتقديم: فتحي إنقزّو، ط 1، الكويت، صوفيا للنشر، 2021، ص ص 61، 64.

85 المرجع نفسه، ص 156.

86 المرجع نفسه، ص 30.

87 المرجع نفسه، ص 132.

88 **رسالة في التحلّل**، ص 52.

89 راينر ماريا ريلكه، **كتاب الساعات وقصائد أخرى**، ترجمة وتقديم: كاظم جهاد، ط 1، بيروت – بغداد وأبو ظبي، منشورات الجمل وكلمة، 2009، ص 204.

90 **رسالة في التحلّل**، ص 35.

91 ويليام جيمس، **تنويعات التجربة الدينيّة**، تر: إسلام سعد وعلي رضا، ط 1، بيروت، مركز نهوض

للدراسات والنشر، 2020، ص 462.

92 **رسالة في التحلّل**، ص 35.

93 **كتاب الساعات وقصائد أخرى**، ص 55.

94 جاك دريدا، **غشلخت III: الجنس، العِرْق، الأمّة، الإنسانيّة**، تر: عزالدين الخطّابي، ط 1، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2020، ص 162.

95 من ناحية إتيمولوجيّة تقف الباحثة الفرنسيّة **فرنسواز داستور Françoise Dastur** على أحد الجذور الهندو-أوروبيّة التي جاءت منها مفردة Dieu، وGod، وGott وهو جذر deiwos، وهو ما يعني بالفرنسيّة lumière؛ أي الضوء أو النور. (**Dieu(x),** Ibid, p. 93)

96 **كتاب الساعات وقصائد أخرى**، ص ص 260، 262، 263.

في الطريق إلى ألوهة تجرُؤُ على الضّعف (توطئة فلسفيّة – شعريّة)

يحيى خالد ملص

طالب دكتوراه

«يقول الأتقياء عن الإله: إنّه كائن الآن، ويقول عنه الأفراد الحزانى: إنّه كان، ولكنّ الفنّان يقول: إنّ الإله سوف يكون». (ريلكه **Rilke**)

كلّما ازدادتْ الألوهة [1] ضعفًا ازدادتْ إلهيّةً! وبتعبير آخر: كلّما تجرّأتْ الألوهة على الضعف ازدادتْ نُضْجًا لنا! وحدَها ألوهة قادمة من الشعر تتفوَّق في هذا الضعف! ولا شيء يقف حائلًا دون تسريح ظهور هذه الألوهة الضعيفة سوى الغطرسة المفهوميّة عند إله الفلاسفة الميتافيزيقيّين، والثيوقراطيّة – الأبويّة للإله التوحيديّ عند الإبراهيميّين! سيدفع هذا المقال بهذا الافتراض إلى تخومه القصوى.

ومن هذا الافتراض، يتبيّن لنا أنّنا نفكّر ونستشكل في سياق فلسفيّ مخصوص أطلق عليه الفيلسوف الإيطاليّ **جانّي فاتّيمو Gianni Vattimo** اسم «الفكر الضعيف أو المخفَّف weak thought»؛ وهذا النوع الجديد من الفكر – بحسب الفيلسوف التونسيّ **فتحي المسكيني** – «ليس ضعيفًا، أو واهنًا إلّا في أمر واحد هو العزوف عن الرغبة في التأسيس الأنطولوجيّ لأيّ خطاب حول حقيقة الكينونة» [2].

تحاول تأويلات المسكيني، في هذا الصدد، تخريج طرافة هذا الفكر على أنّه نزعة «لا تأسيسيّة في الفلسفة ما بعد الحديثة»، وفكر«ما بعد ميتافيزيقيّ» في تصوّر الحقيقة؛ بمعنى أنّها ليست

حقيقة «تطابُق» بين الحُكم والشيء، بل هي ضرب من «المشاركة» أو «انصهار آفاق» المعنى. خطورة هذا الفكر هي في كونه لا يطمع في تحقيق أيّ مكاسب معرفيّة؛ أي أنّه غير معنيّ بإنتاج تصوّرات موضوعيّة، ميتافيزيقيّة، تأسيسيّة حول الحقيقة. يقول المسكيني: «لا تنتج الفلسفة بعد الميتافيزيقا معرفة أكثر حقيقة؛ بل طريقة أكثر ملاءمة لعصرنا في الحديث عن أنفسنا» [3]. ويذهب المسكيني — وفقًا لطرح فاتّيمو — إلى اعتبار هذا الفكر مناسَبة للتحرّر من الثقل السياسيّ لخطاب الميتافيزيقا في الحديث عن حقيقة الكينونة، ومن ثمّ عن معنى الألوهة.

تقصِدُ هذه الشذرات الهرمينوتيقيّة إلى تحرير طريقة جديدة وجذريّة في احتمال التفكير في ألوهة لا تنخرط في مشاكل إبستيمولوجيا الاعتقادات الدينيّة؛ إذ لا شيء يُملي علينا أن نعدّ المفهوم الفلسفيّ للألوهة، والإشكاليّات العقلانيّة المتّصلة بالأدلّة العقليّة على وجود اللّه، بوّابة رئيسيّة للدخول إلى حقل فلسفة الدين المعاصرة، لا سيّما بعد عصر الفيلسوف الألماني **إيمانويل كانط Emanuel Kant** الذي هو — بتعبير **جان غرايش Jean Greisch** — «عصر الموت النظريّ للّه» [4]. وبالتالي، كيف نفكّر في «الألوهة» بعد التجاوز الكانطيّ لكلّ إبستيمولوجيا لاهوتيّة، ولكلّ لاهوت فلسفيّ/ عقلانيّ؛ أي ما يُدعى باللاهوت الطبيعيّ؟

إنّنا نستأنف تساؤلات المسكيني التي تطالعنا في كتاباته من قبيل: «كيف نفكّر في اللّه ما بعد الملّة؟» [5]، مَن هو الإله بعد الإقرار بفشل مفهوم الإله السببيّ في تخريج معنى الألوهة فلسفيًّا؛ «والحال أنّ هذا المفهوم عن الإله هو الذي سيطر على تاريخ السؤال عن الألوهيّة في فلسفة الدين الغربيّة إلى حدّ الآن»؟ [6]، كما سنعمّق استشكالات من قبيل: هل ثمّة ألوهيّة بعد إعلان نيتشه موت الإله؟ وبأيّ وجه يمكننا افتتاح فنون التألّه الما بعد دينيّ؟ [7]. بصياغة أخرى يتساءل المسكيني: هل الإلهيّ ما يزال ممكنًا ما وراء حدث موت الإله التوحيديّ؟ وهو ما يعني عنده محاولة «استكشاف ميدان الألوهيّة كما هي تجربة ممكنة في أفق البشر، وليس كما ترويها السرديّات الدينيّة التي فقدت شطرًا حاسمًا من وجاهتها» [8].

وإذا كان الإله الأخلاقيّ هو وحدَه الذي مات — بحسب تخريج المسكيني لبعض شذرات نيتشه الأخيرة — أليس ثمّة معنى لأن نفكّر في إله ما وراء الخير والشرّ؟ [9]؛ أي ما وراء المزاعم الثيوديسيّة للاهوت الفلسفيّ، تلك التي أعلن كانط إخفاقها النظريّ في دراسته الشهيرة التي عنوانها «بحث في إخفاق كلّ المحاولات الفلسفيّة في الثيوديسيا

«théodicée»[10]، وفيها تخلّى كانط عن ثيوديسيا **لايبنتس Leibnz**[11]؛ «آخر إنجيل الميتافيزيقيّين»، على حدّ تعبير **بيير لونفري Pierre Lanfrey**[12].

علينا أن نفكّر في ألوهة غير معنيّة بمواصلة التقابُل الأنواريّ بين الإيمان والمعرفة Foi et Savoir, Glauben und Wissen. كيف نفكّر في ألوهة غير ميتافيزيقيّة تستغني عن وسائل العقل السببيّ، طالما أنّ «الميتافيزيقا لا يمكنها أن تتصوّر الإله إلّا بوصفه سببًا»؟[13] هل يمكن تحرير اللّه من الوجود؟؛ وهو ما أصبح يمكن التعبير عنه بعد **مارتن هيدغر Martin Heidegger** بـ «تحرير الألوهة من الرداء الإلزاميّ للأنتوثيولوجيا»[14].

إنّ الميتافيزيقا بعد التفكيك الهيدغريّ ليست فقط أنتولوجيا؛ أي التفكير في الوجود من جهة ما هو موجود، أو الكائن بما هو كائن، بل الميتافيزيقا هي أيضًا «أنتوثيولوجيا»، لأنّها تفكّر في الكائن انطلاقًا من كائن أعلى هو «علّة ذاته causa sui». وعلى ذلك، طفق هيدغر الثاني يستجلي تأويليّة «الإله الأخير» der letzter Gott، بوصفه إلهًا لم تُفسده الكينونة، أو إله غير مُلوّث بالوجود بعد. أصبح من غير الممكن أن نُطابق الإله الأخير الهيدغريّ مع إله الفلاسفة الميتافيزيقيّين — علّة ذاته — الخاصّ بالأنتوثيولوجيا[15].

ولكنّ الامتناع الفينومينولوجيّ عن التفكير في الألوهة بوسائل الميتافيزيقا ليس سلبيًّا بالضرورة[16]؛ أي ليس إلحادًا مناضلًا، ولا «مراهقة ملحدة» بحسب تعبير للمسكيني[17]. بل هو إقرارٌ يحمل على عاتقه كلّ ما تمّ فلسفيًّا بعد كانط[18] ونيتشه وهيدغر، بأنّ الإلهيّ «إذا كان يجب التفكير فيه، فإنّه لن يستطيع أن يجد أيّ فضاء نظريّ على مقاسه»[19]؛ هذا التصريح يمثّل في فلسفة المسكيني رهانًا هرمينوتيقيًّا يؤدّي إلى البحث عن صيغ جديدة للتفكير الموجِب والجذريّ في معنى الألوهة[20]. والمهمّة التي يوجّه إليها المسكيني عقولنا هي: ابتكار مفردات تألّه لمعجم ما بعد ميتافيزيقيّ لم ينشأ بعد! ونعني بـ «ميتافيزيقي» في هذا السياق: ما هو **مطلق**، و**نهائيّ**، و**تأسيسيّ**. ويذهب غرايش إلى أنّه «لا يُقال عن فكر إنّه ميتافيزيقيّ إلّا إذا عرف كيف يجمع بين هذه المفردات الثلاث»[21].

المثير الآن هو أنّ «ألوهة ضعيفة» لا ينفيها إعلان «موت الإله»، بل هو يزيد من أفق إمكانها. ويتأتّى ذلك بالإقلاع عن محاولات الزجّ بصرخة «مُختَبَل نيتشه» في معارك إلحاديّة مع براهين إثبات وجود اللّه الكلاسيكيّة. واتساقًا مع ما سبق، نؤوّل — وفقًا لهيدغر — أنّ الإله الذي يعلن المتحمّس موته هو إله الميتافيزيقا التي تتطابق مع الأنتوثيولوجيا[22]. هذا التأويل يُشرّع الباب أمام قراءة أنّ نيتشه «كان يحلُم في الحقيقة بقدوم أشكال

جديدة من الإلهيّ. لكن على الخلاف من رتابة التأليه اليهوديّ — المسيحيّ [التوحيديّ]، يتعلّق الأمر — لدى نيتشه — بإلهيّ متعدّد الوجوه» [23]. وهنا يتنزّل تأويل المسكيني في حقّ «زرادشت الذي أضاع إلهه في طريقه إلى نفسه. لا يعني ذلك — يقول المسكيني — أنّه كافرٌ بالمعنى الديني؛ بل فقط أنّ إلهه القديم لم يعد ممكنًا. هذا التشخيص الذي رسمه نيتشه عن وضع الإله المسيحيّ في القرن التاسع عشر هو نموذج سرديّ عن كلّ أنواع الألوهيّة التي فشلت في مرافقة الإنسان خارج أفق الملّة الدينيّة» [24].

يَرِدُ تعبير «إن الله قد مات» في الفقرة 125 من **العلم المرح**، والسؤال الوجيه الذي يتوجّه به نيتشه إلى الملحدين، وليس إلى المؤمنين، كما بيّن غرايش، هو ليس «هل يوجد إله؟»، ولا حتّى «من هو الإله؟»، بل «أين هو الإله؟» wohin ist Gott? [25]. إذن، صرخة نيتشه على لسان المختبَل هي صرخة باحث عن الإله؛ «وهو يصيح: أبحثُ عن الله! أبحث عن الله!» ثمّ تتوالى صيحات الآخرين من قبيل: «أتُراه ضاع؟ (...) أتُراه تاه مثل طفل؟ (...) أتُراه أخفى نفسه؟ هل هو خائفٌ منّا؟»، ولكنّ المُختَبَل سرعان ما يصرخ فيهم: «أين ذهب الربّ؟» [26]. الآن ما هي التعزية التي يقترحها نيتشه بعد موت الله؟ ما هي الكفّارة التي ستمسح دمه عنّا «نحن الذين قتلناه!»؟ إنّ كفّارة جريمة قتل الإله لا تكون — من وجهة نظر نيتشه — في استعادة أمجاد الإله المسيحيّ — التوحيديّ، ولا باستنقاذه عبر أبولوجيا إبستيمولوجيّة، بل إنّ نيتشه يذهب شأوًا بعيدًا ما وراء الدين والإلحاد باقتراحه كفّارة ابتكار ألعاب مقدّسة ما بعد دينيّة؛ يقول: «أيّة ألعاب مقدّسة علينا أن نبتكر؟» [27]. في ضوء هذه التعزية نتساءل: أيّة لعبة لغوية علينا ابتكارها من أجل استجلاء المقدّس ما بعد الديني؟ [28]

إنّ تعبير «موت الإله» أو «قتل الإله» هو حركة أجهزتْ على أحد أوجه الإلهيّ، أو على إحدى تأويلات الألوهة، ونحن نراها حركة أكثر جذريّة وإيجابيّة من الإلحاد السالب؛ إذ لمّا كان هذا الأخير ينظر إلى إله مِلّة دينيّة بعينها على أنّه هو الإله الوحيد الممكن، لاذَ باعتقاد أنّه لم تعُد هناك آلهة جديدة ممكنة، ولكنّ نيتشه يستحضر في الفقرة 23 من المقالة الثانية لكتاب **في جنيالوجيا الأخلاق** فكرةً أكثر هرمينوتيقيّة يقول فيها نيتشه: «أنّ ثمّة أنواعًا أكثر نُبْلًا من الاستعمال لاختراع الآلهة»؛ وهو ما يعني بحسب تعقيب مترجم هذا النص: «أنّ ثمّة طرُقًا أخرى للتألّه ولاستعمال الآلهة في مغامرة الحياة على الأرض (...) وأنّ هناك ديانات فاعلة ومُثبِتة للحياة ومن ثمّ أنّ ثمّة آلهة غير ارتكاسيّة، دون حاجة إلى جهاز الذنب أو الضمير الشقيّ أو الاضطغان. هنا يصبح الدين أداة

لإرادة الحياة وليس غاية في ذاته»[29]. وهكذا تفسح لنا كلمات نيتشه الطريق إلى آلهة متحرّرة من سرديّات الصلب، والتدنيس، والضمير المعذَّب، ومن «الشعور بأنَّ لنا ديونًا إزاء الآلهة»[30]. يتحرّر نيتشه من الاستعمال المسيحيّ الحزين للآلهة، بتعبير آخر: ألوهة نيتشه تصبو إلى آلهة بهيجة غير آلهة الأحزان والآلام، كآلهة أولئك «الإغريق [الذين] لطالما استخدموا آلهتهم رأسًا من أجل أن يقفوا على مسافة من الضمير المعذّب، حتّى يظلّوا قادرين على الابتهاج بحريّة أنفسهم»[31]. ما يمنعنا نيتشه منه هو الرضوخ إلى فكرة أنّ «مجيء الإله المسيحيّ [وبالتالي، التوحيديّ/ الأنتوثيولوجيّ/ اليهو—إسلاميّ..] الذي تمّ البلوغ إليه إلى حدّ الآن»[32]، هو أقصى ما يمكن من الإله، وأكثر ما يمكن من الألوهة!

إجمالًا، إنّ إلحاد نيتشه، أو بعبارة أكثر دقّة «لا تألُّهِ» المسيحيّ، التوحيديّ، الأنتوثيولوجيّ، هو تخليصٌ للإنسانيّة من الشعور بالدَّيْن تجاه بداياتها، تجاه الـ causa prima (علَّتها الأولى) التي تدين لها بوجودها. وهكذا يعتبر نيتشه أنّ «الإلحاد [أو اللاتأليه أو رفض السرديّة الأنتوثيولوجيّة في التأليه] ونوعٌ من البراءة الثانية إنّما ينتميان إلى معدن واحد»[33].

إنّنا لا نسعى في هذه التوطئة سوى إلى استشراف ألوهة غير توحيديّة، غير ميتافيزيقيّة، غير أنتوثيولوجيّة، ألوهة خارج كل ما قيل عنها في طروس وكتب ووحي تلك السرديّات! ألوهة ضاقت ذرعًا من السيرة الإبراهيميّة في التأليه؛ أي سرديّة الإله التوحيديّ، هذا الأخير هو إلهٌ غير ممكن من دون دِين يُدرَك ويُمارَس بوصفه «طاعة روحيّة بموجب نوع مخصوص من الديون الميتافيزيقيّة تجاه إله محدّد هو الإله الخالق الذي أقام مع البشر علاقة شخصيّة وصلت إلى حدّ مكالمتهم والوحي [إليهم]، و[إثابتهم ومعاقبتهم] بل حتّى رؤيته في اليوم الأخير من تاريخ أنفسهم في آخرة أو حياة أخرى. الدين علاقة طاعة مع إله خالق لدينا ديون تجاهه لا يمكن تسديدها بشكل دنيويّ، ومن ثمّ جاءت فكرة إنشاء مكان مميّز جدًّا لملاقاته، مكان مقدّس؛ أي معزول عن بقيّة الأمكنة باعتباره حالة استثنائيّة من العلاقة بالمكان بعامّة»[34].

آن الأوان أن نبحث عن إله أكثر ألوهة un Dieu plus divin من الإله التوحيديّ Monothéiste، والإله الأنتوثيولوجيّ. ألوهة أشبه بـ «شيء غير متحقّق، شيء في طور التجريب، وفهمه غير ثابت على نحو يقينيّ، شيء غير شعبيّ بالمرّة»[35]. ألوهة مُغايرة لذلك «الشرقيّ السماويّ الغيور»[36]؛ إله المُقاضاة؛ المفرِط في اليهوديّة[37]، والمفرِط في شرقيّته[38]. وبدلاً من «أن يجعل من عدم إيمانه إيمانًا جديدًا»[39]؛ نعني

بدلًا من الإلحاد الكسول الواقع فيما سمّاه نيتشه «عدميّة الإيمان بعدم الإيمان» [40]، يقترح علينا فيلسوف المطرقة التدرّب على فنّ خلق الآلهة، واسترجاع وثنيّة القدرة الفائقة لتعدّد الآلهة، وذلك على الضدّ من التوحيد الذي يمثّل عند نيتشه «الخلاصة المتحجّرة لمذهب الإنسان الحقيقيّ الواحد الوحيد — أي الإيمان بإله حقيقيّ لا يوجد إلى جانبه غير آلهة كاذبة — ربّما أكبر خطر على الإنسانيّة إلى حدّ الآن»؛ ويُعاين نيتشه جنيالوجيا العنف التي انبثقت منها عقيدة التوحيد بالقول: «كان ابتكار الآلهة والأبطال والكائنات فوق البشريّة من كلّ نوع، كما الكائنات شبه البشريّة ودون البشريّة، والأقزام، والجنيّات، والمخلوقات الخرافيّة بأجساد نصف بشريّة — نصف حيوانيّة، والعفاريت والشياطين، كانت تلك الابتكارات كلّها تمثّل تمارين لا تُقدَّر بثمن، ومقدّمات تهيئ لتبيرير النزوعات الفرديّة واستقلاليّة الفرد: وتلك الحريّة التي كان يمنحها الأفراد لإله ما تجاه بقيّة الآلهة، إنّما كانت بالنهاية حريّةً يمنحها كلّ فرد لنفسه تجاه قوانين وأخلاقيّات الجار» [41].

ما يقوله نيتشه هو أنّ اختراع توحيد الآلهة ما لبث أن غادر السماء ليتسلّط على رقاب الآخرين بتنصيب ذات، واحدة، متسيّدة، منتصرة، جامدة، ثابتة، وأبديّة على الدوام، على صورة الإله الواحد السيّد الأبديّ. بينما «كان تعدّد الآلهة يحمل في طيّاته صورة أوّليّة عن حريّة الفكر وتعدّديّة التفكير لدى الإنسان: القدرة على أن يخلق الإنسان لنفسه عينين جديدتين وشخصيّتين، وعلى جعلها على الدوام أكثر جدّة وأكثر تفرُّدًا» [42].

يصعب الفصل إذن، بين الخصائص السلطويّة ونسق التأليه التوحيديّ ليس فقط «بفعل وجود المؤسّسة الدينيّة وتداخلها العضويّ أو الوظيفيّ مع الدولة التي ظلَّت تحافظ على ارتباطها التقليديّ بالدين» [43]؛ بل لأنّ «التوحيد [في البدء] قد انبثق مشكلة سياسيّة من التعديل الهلّيني للإيمان اليهوديّ بالله»، بحسب قراءة **كارل شميت Carl Schmitt** [44]، و«حيث الصوغ النهائيّ لوحدة صور العالم الميتافيزيقيّة دومًا ما تكون محدّدة مسبقًا ومرتبطة مع القرار عن احتمالات الوحدة الساسيّة» [45].

ولنشحذْ حسّنا التاريخيّ بتولية عقولنا شطر مؤرّخي الأديان الذين يقرّون بأنّ الثيولوجيا التوحيديّة لم تكن مفصولة تمامًا عن السياسة، فقد نضجت تلك الثيولوجيا وتَنَسْقَنَتْ مفاهيميًّا في الفضاء الهلّستيني [46] الإمبراطوريّ الذي وحَّد كل شواطئ المتوسّط طوال ألف سنة، كانت فيها اللغة اليونانيّة هي الوسيط للتلاقح والتأثير المتبادَل بين الثقافتين الهلّينيّة والساميّة. [47] وهكذا، كان كلّ توحيد في المجال السياسيّ، في تلك الحقبة، يُمهِّدُ لمجيء توحيد دينيّ. [48] في هذا الفضاء تَهليَنَتْ اليهوديّة، والمسيحيّة [49]،

والإسلام؛ حيث انعكست في هذا الأخير ثقافة هلّستينيّة «اتّجهتْ اتّجاهًا لا رجعة فيه نحو التوحيد في مجال العقيدة، التعميم والقطع في مجال الفكر، الإطلاق والاستبداد في مجال السياسة»[50]. إنّ ما يطبع الحقبة الهلّستينيّة — وفقًا للعروي — هو التيار الجارف نحو فكرة التوحيد على جميع المستويات[51]، وهكذا قاد حُكمُ الواحد المستبدّ إلى فكرة الله التوحيديّ!

لا يجد العروي علاقة أبْيَن وأوضح من تلك التي تربط التوحيد والاستبداد. يقول: «في السماء إله واحد وفي الأرض حاكمٌ مطلق السلطة»[52]؛ يؤدّي كلٌّ منهما إلى الآخر! و«من البدء يرتدي السلطان لباس القداسة»[53]. يترصَّد العروي حُكم الواحد على طول التجارب السياسيّة التي عرفها التاريخ القديم، وينتهي إلى الإقرار أنّ هذا النمط من الحُكم هو الذي هيَّأ الأذهان في المدار المتوسّطي إلى اعتناق عقيدة التوحيد[54]. وهكذا نشأ ارتباطٌ وثيق بين التوحيد في مجال الديانة وبين الحُكم الاستبداديّ في مجال السياسة؛ «فالمؤسّسات السياسيّة لشعب من الشعوب تُقابِل باستمرار تصوّراته الدينيّة»[55].

من العسير أيضًا، تخليص النسق التوحيديّ من العناصر الأبويّة أو الآبائيّة la familialisme، وقد تكرَّست صورة الإله — الأب في جميع الأديان الكبرى في اللحظة نفسها التي فرض فيها «النظام الأبويّ» patriarcal نفسه بشكل نهائيّ[56]. إنّ تحرير الألوهة من صورة «الإله — الأب»، يعني تحريرها أيضًا من شموليّة «الإله — الحاكم» أو «الإله — السيّد» le Dieu souverain[57]. إذن، ليس كافيًا مع الإله التوحيديّ إخضاعه لتفكيك أنتوثيولوجيّ، صار المطلوب إِرْفاد التفكيك الأنتوثيولوجيّ بتفكيك «أنتوثيوسياسيّ»، بحسب عبارة نستلّها من معجم **جاك دريدا J. Derrida**[58].

صار ممكنا بالنسبة إلينا الآن القول بأنّ ألوهة جديرة بالضعف هي ألوهة لم تتعرّض للإفساد الأنتوثيولوجيّ والأنتوثيوسياسيّ. يترتَّب عن هذا التفكيك، تذويب الفارق الفلسفيّ المعهود بين إله الفلسفة والله التوحيديّ، ليس فقط في المنظومات الثيولوجيّة في طورها التنظيريّ المتأخّر؛ حيث ظهر التبلور النظريّ للديانات التوحيديّة في سياق الهيمنة الكاملة للتفكير اليونانيّ[59]. بل إنّنا نفترض، أنّ الإله السببيّ؛ أي الإله بوصفه سببًا؛ وعلّة — ذاته؛ أي الإله المفهوميّ conceptual، بحسب المعجم الإغريقيّ الوثنيّ، قد تمّت ترجمته بـ «الإله — الخالق» في معجم توحيديّ إبراهيميّ. عبارة «الخَلْق» هي إذًا، ترجمة كتابيّة رعَويَّة، أو مجاز تخييليّ سرديّ عن مبدأ «العلّة الأولى» المفهوميّ الأرسطي. إذن، هو الجهاز السببيّ نفسه مُعبَّرٌ عنه تارةً بشكل مفهوميّ بـ «علة أولى/ قصوى»، ومعبَّرٌ عنها تارةً

أخرى يشكل مجازيّ، سرديّ، استعاريّ بـ «إله الخلق والتكوين». هذا الإله لا يستنفد ما هو إلهيّ؛ فقد انتهى به المطاف سجينًا مُبتَذَلًا لدى الدول والأديان؛ «مُختَزَلًا — ولنستعمل هنا مفردات **إميل سيوران Emil Cioran** — في مجرّد إسمنت للبنيان السياسيّ، وفي الوظيفة الاجتماعيّة التي ينهض بها: خلاصة هجينة من الاهتمامات النفعيّة، والإملاءات الثيوقراطيّة»[60].

لا يغني من جوع في هذا المقام، أن نستنقذ بإله ربوبيّ Déiste[61]؛ لأنّ همّ الإله الربوبيّ، في عصر الأنوار، إنحصر في إنقاذ العالم الغاليليّ — النيوتنيّ السببيّ من إله المعجزات الكتابيّ biblique، وليس إنقاذ الألوهة نفسها من «إمبرياليّة العقل الذهنويّ intellectualiste»، على حد عبارة **جورج غوسدورف G. Gusdorf** البليغة[62]. إنّ التنوير الربوبيّ أوقعنا في قبضة إله هندسيّ/ رياضيّ ميّت، وأشدّ الآلهة برودة! ويمكن القول عطفًا على ما سبق، أنّ عجز البنية الخطابيّة للملل التوحيديّة عن استيعاب البنية البرهانيّة للمفاهيم الفلسفيّة؛ وأوّلها هنا: مفهوم الجوهر الأوّل أو المحرّك الأوّل الأرسطيّ، هو ما حمل تلك السرديّات التوحيديّة على اجتراح طُرُق تخييليّة، عامّيّة، من أجل تبيئة مفاهيم العقل الأرسطيّ اليونانيّ. وبالتالي، جاءت السرديّة الربوبيّة الأنواريّة كمحاولة لنزع الأسطرة التخييليّة التي أقحمتْ فيها الملّة مفهوم «العلّة الأولى»، وإرجاعه إلى بنيته السببيّة المفهوميّة المحضة. وهكذا فإنّنا منذ الإغريق؛ وتحديدًا منذ ميتافيزيقا **أرسطو** التي قرّرت أنّ «الأنطولوجيا هي ثيولوجيا»، و«فلسفة أولى»[63]، ومرورًا بالثيولوجيّات التوحيديّة، وصولًا إلى الإله الربوبيّ لدى المحدثين، لم نجرؤ بعد على مجاوزة الأفق الأنتوثيولوجيّ للألوهة.

أرسطو — على وجه الخصوص — هو الذي أقدَمَ على «تأسيس المطابقة العميقة بين الأنطولوجيا والثيولوجيا على العقل، بين الموجود بما هو موجود والجوهر الأوّل»[64]. وإنّنا لا نزال نراوح في لحظة أرسطو، مهما تصارعت تأويلات الفلسفة والثيولوجيا؛ أي أنّ المفهوم الأنتوثيولوجيّ للإله هوعينه، سواء تُرجم بطريقة استعاريّة — تخييليّة تواءم الأنثروبولوجيات الكتابيّة المختلفة، أو رُتِّبَ أكسيوميًّا وصوريًّا بطريقة برهانيّة. وعلى ذلك لا فرق كبير بين الإله بوصفه سببًا أو خالقًا طالما هما مُؤَسَّسان داخل الهيئة الأنتوثيولوجيّة التي تكرَّست بفعل الضخّ الهلّستيني في التنظير الثيولوجيّ اليهوديّ — المسيحيّ — الإسلاميّ طوال قرونٍ عدّة.

منذ تكريس مسار التأليه الأنتوثيولوجي والأنتوثيوسياسيّ في تاريخ الكينونة لدينا،

ونحن نُكابد، منذ زمن بعيد، وضعيّة تأويليّة شخّصها هيدغر بأنّها «حالة هرب الآلهة من الإنسان» [65]؛ واستوقفت هيدغر كثيرًا كلمات نيتشه، ومن قبله **هولدرلين Hölderlin**، التي تُكابِد مِحنة انسحاب الآلهة الناجمة عن «تعطيل القدرة المشكّلة للآلهة»، حيث لم يستطع الإنسان الغربيّ منذ ألفَيْ سنة أن يُبدع أيّ إله [66]. إنّ هيدغر هنا يُحيل على ما كتبه نيتشه في الفقرة 19 من **الأنتيكريست Der Antichrist**؛ أي **نقيض المسيح**: «قرابة الألفَيْ سنة وما من إله جديد! بل دومًا، وإلى الآن، لا شيء غير ذلك الإله البائس للرتابة التوحيديّة المسيحيّة، كما لو كان يقف ثابتًا هناك بموجب حقّ، كشرط نهائيّ وحدّ أقصى لابتداع الآلهة، وللإبداع الروحانيّ في الإنسان» [67]. وعلى ذلك، فاستهلاك وإنهاك المرء نفسه في صراعات الإيمان بوجود الله أو عدم وجوده ليس أمرًا كافيًا لاستحقاق الحريّة. إنّه لا يكفي أن تكون ملحدًا صَلِفًا كي تصبح حرًّا. والإلحاد المناضل مثله مثل الإيمان الدينيّ من حيث تورّطهما في تعطيل القدرة على ابتداع آلهة جديدة، لأنّ «ما يميّزنا — يكتب نيتشه — لا يتمثّل في كوننا لم نعثُر على إله، لا في التاريخ، ولا في الطبيعة، أو حتّى فيما وراء الطبيعة، بل كوننا **لا نرى في ما ظلّ يُعبَد كإله شيئًا إلهيًّا**» [68]. ليس ما ظلّ يُعبَد كإله Gott/ Dieu بحسب مسار إكراه التهويد، والتمسيح christianisa-tion، والأسلمة الطويلة للإلهيّ هو أقصى حدّ للألوهة Gottheit/ Déité الإلهيّة؛ وأنّه بالإمكان ابتكار أو ابتداع ألوهة لا وجه لردّها إلى ماهو أنتوثيولوجيّ أو أنتوثيوسياسيّ! إنّ واقعة «امتناع الإلهيّ» — كما رصدها هيدغر ونيتشه وهولدرلين — المعاصرة حدثت لدينا — نحن الحاليّين — جرّاء نضوب وانعدام شاعريّة ابتكار أشكال جديدة من التألّه!

كيف يمكن للتألّه أن يستعيد شاعريّته؟ كيف يمكن للإنسان الدينيّ أن يعود — كما حدّثنا نيتشه — فنّانًا من الفنّانين، بل صاحب المرتبة الأعلى بينهم؟ [69] حسبُ الشعر أنّه لا يُثبت للألوهة مضمونًا بعينه؛ «عُذْر الشعر — يكتب سيوران — شأنه في ذلك شأن الحياة، أنّه لا يُثبِتُ شيئًا» [70]، ولا يصلبُها على جدار البداهة، ولا يُواريها في مقبرة الحدود والتعريفات! يكتب سيوران: «تحت كلّ صيغة ترقد جثّة» [71]. إنّ إلهًا موضَّحًا تمام التوضيح، ومُصاغًا بنسقيّة تامّة، هو إله يصلُح للدول والأديان، ولا يصلُح للشعر! يستَقدِمُ الشعر ألوهة عصيَّة على الضبط، والتحديد، والمفهمة، وبالتالي، يصعب امتلاكها، وترويضها لصالح أيّ دعوة دينيّة. يقول سيوران: «الشعر يُعبّر عن جوهر ما لا يمكننا امتلاكه» [72]! لنقل: شعريّة الألوهة مبدؤها النيتشويّ الوحيد هو أنّ «ما يغدو واضحًا، يكفُّ عن كونه يعني لنا شيئًا» [73]!

إنّنا لو تأمّلنا مع **بول ريكور Paul Ricœur** في مشكل «الإلهيّ» في الفلسفة السابقة على سقراط، وبالتالي قبل كلّ مأثور أفلاطونيّ، وأرسطيّ، وقبل كلّ مأثور ساميّ، وهلّينستيّ، سنجد عند معظم السابقين على سقراط أنّ المبدأ الذي حاز على شرف «الإلهيّ» كان قد كُتِبَ أوّل ما كتب بأسلوب شعريّ نشيديّ [74]. إنّ المنشأ الشعريّ الأوّل للإلهيّ يوفّر سبيلًا إلى استحضار présentation الألوهة، ممّا ينأى بها عن مفهوم التمثُّل représentation، ويُعتِقُها من قبضة كلّ تحدّد مفهوميّ، ويُسرّحُها في فضاء من اللاتحدُّد أو اللاتعيُّن المفتوح الذي لا يطمع في السيطرة المفهوميّة على الألوهة، بل يتركها «تُومئ برقّة ليس من اليسير تدوينها» [75]. إذن،على الضدّ من كلّ أَكْسَمة ذهنويّة للإلهيّ، يتيح الشعر للألوهة عالمًا «لا يتقايس ولا يُستوفى» [76].

صار واضحًا التآصل بين هذه الألوهة والرومنطيقيّة؛ فعند الرومنطيقيّين الألمان الأوائل «الدين شعريّ بالطبع» [77]. ولا تعني دينيّة الدين في الفكر الرومنطيقيّ سوى أنّ الدين هو ما ينبغي اختراعه، لا الامتثال له؛ فـ «الدين بقدر التحرُّر»، و«كلّ تصوّر [للإله] لم يصنعه الإنسان بنفسه صنعًا حرًّا ليس إلّا وثنًا» [78]! لا يقيم الرومنطيقيّ وزنًا لدينٍ يثبُتُ في قوانين شرعويّة، وعقائد جامدة، لأنّه يتصوّر الإلهيّ بوصفه «متغيّرًا وغير تامّ» [79]؛ بمعنى أنّ «الألوهيّة تتجلّى في قوى لا متناهية، وبكيفيّات لا متناهية» [80]. ومن هنا المراهنة الرومنطيقيّة على دور الملكة الشعريّة الخلّاقة في ابتكار «دين فنّي» [81]، يصدح مع **نوفاليس Novalis** أحد الشعراء الرومنطيقيّين: «اتركوا الدين حرًّا، وستبدأ إنسانيّة جديدة» [82]. إذن، الدين بالمعنى الرومنطيقيّ هو الدين المفضَّل لألوهة حرّة من الدين؛ أي من الملّة التي هي التجسيد الجماعويّ، واللاهوتيّ — السياسيّ للدين.

ما معنى دين رومنطيقيّ؟ يعتبر **جورج غوسدورف** أنّ كتاب **فريدريش شلايرماخر F.D.E.Schleiermacher** المعنون بـ **في الدين: أحاديث إلى المثقّفين من بين منكريه** (1799) يمثّل «البيان الدينيّ الرومنطيقيّ، مُستقلًّا تمام الاستقلال عن كلّ نزعة أرثوذكسيّة» [83]. وتكمن نموذجيّة هذا الكتاب في كونه يعبّر أحسن تعبير عن دين رومنطيقيّ منشقّ عن «الملّة المسيحيّة»، خصوصًا من جهة إنكار شلايرماخر للدين في أشكالة الوضعيّة الخارجيّة، ومن ثمّ تمييزه بين الوجود الفعليّ للدين أو الأديان الوضعيّة (أديان الوحي) بما فيها الملل والنِّحَل والمذاهب والأشكال التاريخيّة، وبين مفهوم للدين يتعالى عن التصاريف الدنيويّة، لا يُطلَب إلّا بحدس خاصّ وتجربة مباشرة [84]. ينبذ شلايرماخر، بشكل واضح، مبدَأَيْ النسقيّة والطائفيّة اللذان تقوم عليهما كلّ ملّة، كما ينفر

شلايرماخر اللاهوتيّ من الذين يتصوّرون الدين كتلةً متجانسةً من العقائد اللاهوتيّة، أو يتصوّرونه بوصفه مدوّنة شرعيّة حاوية للقوانين. إنّ شأن الدين الرومنطيقيّ عنده هو كونه لا يحتمل الاكتمال، إنّما هو «لا مُتناهٍ من الوجوه كافّة» [85]. أمّا محاولات الاستكمال للملل والأنساق der Glaubenslehren und der Systeme؛ فليس فيها – بحسب شلايرماخر – شيء ممّا هو تقريبٌ من الدين أصلًا [86]. ويقيم هذا المفكّر تعارضًا أصليًّا بين الدين والنسق؛ وبالتبعيّة بين الدين الرومنطيقيّ والملّة. يقول: «الدين هو بحسب جماع ماهيّته أبعد ما يكون عن كلّ ما هو نسقيّ». [87] هناك وجاهة شعريّة تدفع إلى القول بألوهة في صيرورة مضادّة للنسق؛ سواء جاء هذا النسق على شاكلة ثيولوجيّة، أو فلسفيّة. هذه الألوهة هي ممكنة في الشعر؛ «الشعر الذي هو مناخ اللامُكتمِل» بتعبير سيوران [88]، بقدر ما هي مستحيلة في الأديان!

كتب الشاعر النمساويّ **راينر ماريا ريلكه Rainer Maria Rilke** (1875 – 1926) في **يوميّات فلورنسيَّة**: «الله أقدم صنيع فنّي» [89]! علينا أن نتساءل: ما الذي انزاح بهذه الصنيعة الفنيّة إلى صنيعة فقهيّة عقديّة استحالتْ فتيلًا لما لا حصر له من احتمالات الكارثة؟! هل لأنّ هذه الفكرة خرجت من صمت الشاعر إلى ثرثرة الداعية؛ هذا الذي «أناه تحبّ صيغة الجمع (...) وكلّ مَن يتكلّم – بحسب سيوران – باسم الآخرين هو دجَّال على الدوام» [90]! وعلى العكس من هؤلاء تحبّ «صحراء الألوهة الصامتة» [91]؛ والعبارة للمتصوّف الألماني المسيحيّ **ميستر إيكهارت Maître Eckhart** (1260 – 1328)، الشاعر لأنّه وحدَه يتحمَّل مسؤوليّة أناه، ووحده يتكلّم باسمه، ووحده يملك الحقّ في ذلك؛ كتب سيوران: «الفنان هو الوحيد المستثنى من الكذب الشامل لأنه لا يخترع إلّا ذاته» [92]! لا تحتفي هذه الألوهة إلّا بمن لا ينتمي إلّا إلى ذاته! تُخاصم هذه الألوهة كلّ نبيّ، وكلّ داعية، وكلّ خبير في صناعة القطعان الامتثاليّة. لذلك، فإنّ أكثر ما يُضادّ إله الملّة، ليس مفاهيميّة إله الأنتوثيولوجيا الميتافيزيقيّ القابلة، في النهاية، للاستملاك الميتودولوجيّ، بل شعريّة «إله في صيرورة» كالذي تغنّى به ريلكه في قصيده [93]. فالألوهة في الشعر تمنح التفكير فيما هو غير قابل للتفكير، وعن طريق عدم القابليّة للتفكير يُتاح للفكر تناوله، وإن بشكل غير مفهوميّ، وهكذا يغدو «ما لا يُفكَّر فيه، هو وحده الذي يمنح التفكير» [94]، ويغدو أيضًا الفهم أوسع من المفهوم.

نرنو إلى ألوهة لا تستمدّ ألوهتها من مجرّد تعدّي حدود الكينونة، أو لا تفعل سوى الاستقواء على مجرّد كينونتنا في العالم!

ألوهة لا تُستمدّ من كينونة ذاتويّة (أنانويّة) تطمع بالاستيلاء على صفات الإله التوحيديّ في سرديّة فيزيورياضيّة!

نصبو إلى ألوهة موحشة جدًّا، مستحيلة جدًّا، لا يمكن تملّكها ضمن أيّ منظومة عقديّة، ألوهة متحرّرة من الحقيقة؛ من حيث هي المطابَقة القضويّة بين الفكر والواقع، ومن «الثيوس théos» بكلّ تلويناته الفلسفيّة والثيولوجيّة! ألوهة هاربة خارج نسق علاقات التراتب العموديّ، والسطوة السببيّة، والكُليّة totalité الحاكميّة! ألوهة بدون سلطة! ألوهة في سيلان هيراقليطيّ دائم! ألوهة حرّة حتّى من إلهيّتها! ألوهة غير مُكرَهة على الانضواء تحت أيّ ماصَدَق extension موضوعيّ، ولا يترتّب عنها أيّ نتائج أنتولوجيّة!

ألوهة لا تومئ إلّا إلى ما يذهب بها إلى أبعد من نفسها، ومن مخيّلتنا الكسولة! ألوهة من دون ثقل أيّ دينونة؛ لا تُجهِدُ نفسها سوى في تعلُّم أنين الدموع الغارقة في الظلمة! ألوهة لا يمجّدها سوى غربتها، والشاعريّة الصامتة القادرة على نفيها! أيّما ألوهة لا تقبل عدم كفايتها لنفسها، ومن ثمّ لا تعثُرُ على خصاصة (فقر) ماهيّتها، محكومٌ عليها بالرداءة!

ويلٌ لآلهة لم تعد ترغب بنا!

ويلٌ لآلهة حريصة كلّ الحرص على تشييد الدول والأديان!

ويلٌ لآلهة لم تعد تخفقْ مع رقصة إنسان ما بعد الدين، ما بعد عصر سيادة الدولة — الأمّة، وويلٌ لآلهة لا تعلن الفرح بآتٍ venir— خالٍ من القصص الكبيرة، وحكايات الأصول، والعلل الأولى!

وفي خاتمة هذا المطاف، ويلٌ لآلهة لم تبلغ إليها صلاة الشاعر **ريلكه** التي كتب فيها:

«أهُناكَ أغنيةٌ صغيرةٌ متألّمة
تُثيرُك حتّى لتعجز عن أن تسمعني؟
أنا أيضًا أغنيةٌ فلتَسمَعْها
أغنيةٌ متوحّدةٌ لا يريد سماعها أحد
ما بَرِحتُ ذلك الذي كان مرارًا
يسألك في الضيق مَن أنت؟
كلّ غروب شمس كان يتركني
مُجرَّحًا ويتيمًا
شاحب الوجه منفصلًا عن كلّ شيء

مطرودًا من كلّ جماعة؛ كلّ الأشياء
كانت تنتصبُ أديرةً أكون فيها سجينًا!
فمَن أنادي إن لم يكن **المُظلم**
الأكثر ظلامًا من الظلام؟ [95]
المتوحّدُ السّاهر بلا قنديل
دونما خشية؛ **الهاوية التي لم يُشوّهها نورٌ بعد،**
والتي أعرفها لأنّها تنبثق من التربة برفقة الشجر
ولأنّ أريجها يتصاعد من الأرض
ليغسل وجهي المُنحني
بلا صخب..
وأحيانًا أتمنّى أن ترجع إلى داخلي
إلى هذه الظلمة التي أَنْضَجَتْك». [96]
ويلٌ لآلهة هجرتْ ظلمة الشاعر إلى نورِ غيره؛ فربّما ضياؤنا الأكبر في الاهتداء بظلماته!...

1– نؤكّد – في هذا المقام الهرمينوتيقيّ – على التمييز بين الإله؛ God, Dieu, Gott، والألوهة؛ Deity, Déité, Gottheit. وبالتالي، فإنّ تأويليّتنا لا تتعلّق بإله الأديان والمعتقدات، بل تتعلّق بإلهيّة أخرى للإلهيّ، فلا شيء يربطنا بالإله كما وقع استدعاؤه في الأنظومات الميتافيزيقيّة والثيولوجيّة.

2– فتحي المسكيني، الإيمان الحرّ أو ما بعد الملّة: مباحث في فلسفة الدين، ط 1، بيروت، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، 2018، ص 291.

3– المرجع نفسه، ص 294.

4– جان غرايش، العوسج الملتهب وأنوار العقل: ابتكار فلسفة الدين – المجلّد الأول (إرث القرن التاسع عشر ووَرَثته)، ترجمة: محمد علي مقلّد، مراجعة: مشير باسيل عون، ط 1، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2020، ص 241.

5- الإيمان الحرّ، مرجع سابق، ص 206. ويمكن القول، تبعًا للتنظير الفلسفيّ عن الوضعيّة التأويليّة لـِ "إيمان ما بعد الملّة" عند المسكيني، أنّ الملّة هي نظام حُكُم مشتقّ من حقبة تكريس القانون الأبويّ القمعيّ، والحُكم الاستبداديّ الشرقيّ المرتبط بالتوسّع الامبراطوري في منطقة الشرق الأوسط القديم المتأخّر؛ هذا النظام هَيْكَلَ جميع دلالات الألوهة في أفقنا، وما زال يُهَيْكلها إلى اليوم.

6- فتحي المسكيني، "مَن هو إله الفلاسفة إذًا؟"، ضمن كتاب جماعي إلكتروني بعنوان: فلسفة الدين: قراءات في النظريّة والإشكال، إشراف وتنسيق: الطيّب بو عزّة ومولاي أحمد صابر، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 2020، ص 617.

7- المرجع نفسه، ص 626.

8- فتحي المسكيني، "كيف دخل الله إلى الفلسفة؟"، مقال منشور على الموقع الإلكتروني لمؤسسة مؤمنون بلا حدود بتاريخ 26 سبتمبر 2018. https://www.mominoun.com

9- الإيمان الحرّ، ص 280.

10- الثيوديسيا هي الخطاب الفلسفيّ العقلاني في البرهنة على عدالة الإلهيّات أو خَيْرنة الآلهة في وجه معضلة الشرّ الإلحاديّة.

11- العوسج الملتهب، مرجع سابق، ص 427 - 430.

12- محمد الحبيب عزّ الدين، إشكاليّة ملاءمة العقيدة للعقل في الفلسفة الحديثة: بيير بايل في مواجهة ليبنتز، ط 1، بيروت، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، 2019، ص 215.

13- الإيمان الحر، ص 283.

14- العوسج الملتهب، ص 140.

15- المرجع نفسه، ص 143.

16- الإيمان الحرّ، ص 283.

17- فتحي المسكيني، الهجرة إلى الإنسانيّة، لبنان، ط 1، منشورات ضفاف والاختلاف والأمان وكلمة، 2016، ص 25.

18- لقد انتهى النقد الكانطيّ إلى تحويل معنى الألوهة إلى فكرة ترنسندنتاليّة (متعالية) ينطوي عليها العقل البشريّ كمصادَرة قَبليّة، يمكنه التفكير penser حولها، ولكنه لا يملك حولها أيّ نوع من المعرفة connaître. يقول فتحي المسكيني: "بيّن كانط أنّ الإله ليس سوى فكرة من أفكار العقل البشريّ؛ بمعنى هي ليست سوى نتيجة ترنسندنتاليّة لطبيعة البشر في التفكير، وليس وضعًا أنطولوجيًّا قائمًا بنفسه، ومستقلًّا عنّا. وهي فكرة لا يمكن للفيلسوف أن يقبل بها إلّا بوصفها مثلًا

أعلى للعقل يستعمله في نمط مخصوص من التفكير، هو ذاك الذي يدفعه إليه السؤال عمّا يمكن أن يكون السبب الأوّل لهذا العالم". (من هو إله الفلسفة إذًا؟، ص 621) ممّا تقدّم، يتّضح لنا أنّه ليس لفكرة الإله بصفتها فكرة ناظمة؛ أي "مثالًا أعلى متعاليًا بصفته حارسًا لوحدة المعرفة وكليّتها"، إسهامٌ في المعرفة الموضوعيّة، فهي ضروريّة لتمرين العقل، وليس لتعيين الواقع الموضوعيّ. "إنّ وظيفة الأفكار المتعالية تنظيميّة محض وليست تأسيسيّة"، كما يشرح غرايش. (العوسج الملتهب، ص 431) النتيجة الحاسمة هنا هي أنّ مفهوم "الوجود" التأسيسيّ، السببيّ، الذي يمثّل البنية الصلبة لكلّ لاهوت فلسفيّ وعقائديّ، وللأدلة العقليّة على وجود الله، لا يستوفي معنى الألوهة التي نشرئبُّ نحوها في هذا المقال.

19- الإيمان الحرّ، ص 283 - 284.

20- "من هو إله الفلاسفة إذًا؟"، مرجع سابق، ص 616.

21- العوسج الملتهب، ص 415.

22- جون غرايش، العيش بالتفلسف: التجربة الفلسفيّة، الرياضات الروحيّة، وعلاجيّات النفس، ترجمة: محمد شوقي الزين، ط 1، بيروت، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، 2019، ص 472.

23- المرجع نفسه، ص 487.

24- الإيمان الحرّ، ص 213.

25- العيش بالتفلسف، ص 471.

26- فريدريش نيتشه، العلم المرح، ترجمة: علي مصباح، منشورات الجمل، ط 1، بيروت - بغداد، 2017، ص 164.

27- المرجع نفسه، ص 165.

28- صار ممكنًا أن توجد فكرة "المقدّس" خارج الدين، واعتبار الدين أحد المقدّسات. ويؤكّد فتحي المسكيني على الفصل المنهجيّ المعاصر بين الدينيّ والمقدّس. إنّ متابعة مغامرة المقدّس في الأفق المعاصر تقتضي العزوف عن "الادغام المتعمَّد بين الدينيّ والمقدّس، والحال أنّهما يطرحان في الفكر المعاصر مشكلين متباينَيْن". (انظر: فتحي المسكيني، "حدود العلمانيّة: ملاحظات على كتاب عزمي بشارة الدين والعلمانيّة في سياق تاريخيّ"، ملف: ندوة تقديم ومناقشة كتاب الدين والعلمانية في سياق تاريخيّ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، تونس، 5 فبراير/ شباط، 2016، ص 7)

29- فريدريش نيتشه، في جنيالوجيا الأخلاق، ترجمة: فتحي المسكيني، مراجعة: محمد محجوب، ط 2، بيروت، مؤمنون بلا حدود ومعهد تونس للترجمة، 2017، ص 129.

30- المرجع نفسه، ص 123.

31- المرجع نفسه، ص 129.

32- المرجع نفسه، ص 124.

33- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

34- مقتطف من حوار أجرته جيهان خليفة مع الفيلسوف التونسي فتحي المسكيني، نشر على موقع أنباء إكسبريس الإلكتروني بتاريخ 26/ 1/ 2023 على الرابط التالي: https://an-baaexpress.ma

35- العلم المرح، مرجع سابق، ص 110.

36- المرجع نفسه، ص 172.

37- المرجع نفسه، ص 174.

38- المرجع نفسه، ص 174.

39- المرجع نفسه، ص 277.

40- المرجع نفسه، ص 279.

41- المرجع نفسه، ص 176.

42- المرجع نفسه، ص 177.

43- عبد الجواد ياسين، اللاهوت: أنثروبولوجيا التوحيد الكتابي، ط 1، بيروت، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، 2019، ص 10.

44- كارل شميت، اللاهوت السياسي، ترجمة: رانية الساحلي وياسر الصاروط، ط 1، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018، ص ص 108، 113.

45- المرجع نفسه، ص 116.

46- يُقدّر المفكّر والمؤرّخ عبد الله العروي العهد الهلّستيني بحوالي ألف سنة، وهي الفترة الممتدّة من فتوحات الاسكندر المقدوني (بداية القرن الرابع قبل الميلاد) إلى ظهور الإسلام (أواسط القرن السادس بعد الميلاد). (انظر: عبد الله العروي، السنّة والإصلاح - دين الفطرة: جان جاك روسّو، بيروت - الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2018، ص 17) أمّا مؤرّخ الأديان العراقي خزعل الماجدي فإنّه يؤرّخ للحقبة الهلّستينيّة بكونها المرحلة التي تلت وفاة الإسكندر المقدوني وانتهت بقيام الدولة البيزنطيّة؛ أي ما بين 323 ق. م و 330 للميلاد. وهذه المرحلة - بحسب الماجدي - تمّ فيها بشكل حاسم التحوّل الكبير من الأديان المتعدّدة الآلهة إلى الأديان الموحّدة. إنّ العولمي للمرحلة الهلّستينيّة (بفترتَيْها الاغريقيّة والرومانيّة) والتي استمرَّت

ستّة قرون فاعلة فاعلة كانت بمثابة الرحم أو الحاضنة التي أنجبت الأديان التوحيديّة. "فبعد أن استقرّت الهيمنة الحضارية — يكتب الماجدي — للغرب على الشرق، وأصبح هناك امبراطوريّة عالميّة واحدة ظهرت الحاجة إلى إله واحد". (انظر: خزعل الماجدي، كشف الحلقة المفقودة بين أديان التعدّد والتوحيد، ط 1، بيروت — الدار البيضاء، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع والمركز الثقافي العربي، 2014، ص ص 12 — 14 — 279 — 281)

47— السنّة والإصلاح، ص 82.

48— المرجع نفسه، ص 82.

49— يقول العروي: "من المتّفق عليه أنّ أتباع عيسى كانوا لا يفهمون على الفور عباراته. لم يكن كلامه بيّنًا بالنسبة لهم. ولم يعد مفهومًا إلّا في لغة بولس، وهذا كان بدون نزاع ذا ثقافة هلستينيّة". (المرجع نفسه، ص 83)

50— المرجع نفسه، ص 94.

51— المرجع نفسه، ص 97.

52— المرجع نفسه، ص 165.

53— المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

54— المرجع نفسه، ص 166.

55— اللاهوت، مرجع سابق، ص 214.

56- Françoise Dastur, Dieu(x), La Religion, ALTER: révue de phénoménologie, N° 28, 2020, p. 102.

57- Ibid, p. 99.

58— رشيد بو طيّب، نقد الحريّة: مدخل إلى فلسفة إيمانويل ليفيناس، تقديم: آكسيل هونيث، ط 1، لبنان، منشورات ضفاف والاختلاف، 2019، ص 136.

59— اللاهوت، مرجع سابق، ص 60.

60— سيوران، تمارين في الإعجاب، ترجمة: آدم فتحي، ط 1، بيروت — بغداد، منشورات الجمل، ط 1، 2021، ص 40.

61— تقول أطروحة المذهب الربوبيّ D´isme بأنّ الإله خلق العالم وتركه يعمل بقوانينه المستقلّة؛ أي مسيّرًا ذاته بذاته، وهو ما ينفي مفهوم العناية الإلهيّة الأساسيّ في ديانات التوحيد.

62— جورج غوسدورف، الإنسان الرومنطيقيّ، ترجمة: محمد آيت ميهوب، مراجعة: محمد محجوب، ط 1، تونس، معهد تونس للترجمة ودار سيناترا، 2018، ص 224.

63- بول ريكور، الوجود والماهيّة والجوهر لدى أفلاطون وأرسطو (درس ألقي في جامعة سترازبورغ سنة 1953 - 1954)، ترجمة: فتحي إنقزّو، محمد بن ساسي، حبيب الجربي، ومحمد محجوب، إشراف: محمد محجوب، ط 1، تونس، المركز الوطني للترجمة ودار سيناترا، 2012، ص 217.

64- المرجع نفسه، ص 149.

65- مارتن هايدغر، الأسئلة الأساسيّة للفلسفة: مشكلات مختارة من المنطق - محاضرة فرايبورغ لدورة الشتاء 1937/ 38، ترجمة: إسماعيل المصدق، مراجعة: مشير عون، ط 1، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2018، ص 115.

66- المرجع نفسه، ص ص 114 - 115.

67- فريدريش نيتشه، نقيض المسيح، ترجمة: علي مصباح، ط 1، بيروت - بغداد، منشورات الجمل، 2011، ص 48 - 49.

68- المرجع نفسه، ص 107. والتشديد من عندنا.

69- فريدريش نيتشه، ماوراء الخير والشر: توطئة لفلسفة مستقبليّة، ترجمة: علي مصباح، ط 1، بيروت - بغداد، منشورات الجمل، 2018، ص 84.

70- سيوران، رسالة في التحلّل، ترجمة: آدم فتحي، ط 1، بيروت - بغداد، منشورات الجمل، 2021، ص 36.

71- المرجع نفسه، ص 16.

72- المرجع نفسه، ص 168.

73- ماوراء الخير والشر، مرجع سابق، ص 94.

74- الوجود والماهيّة والجوهر لدى أفلاطون وأرسطو، مرجع سابق، ص 141.

75- جرالد ل. برونس، "تذكّر اللغة: مدخل إلى شعريّة غادامير"، وهو ملحق ضمن كتاب: مَن أنا ومَن أنت (تعليق حول باول تسيلان)، هانز جورج غادامير، ترجمة: علي حاكم صالح وحسن ناظم، ط 1، بيروت - بغداد، منشورات الجمل، ط 1، 2018، ص 243.

76- جورج غوسدورف، أصول التأويليّة، ترجمة: فتحي إنقزّو، ط 1، بيروت، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، 2018، ص 446.

77- هنس زند كولر، المثاليّة الألمانيّة (مج. 2)، تر: أبو يعرب المرزوقي وفتحي المسكيني وناجي العونلي، ط 1، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2012، ص 938.

78- المرجع نفسه، ص 937.

79- المرجع نفسه، ص 941.

80- المثالية الألمانية (مج. 1)، ص 104.

81- المثالية الألمانية (مج. 2)، ص 939.

82- المرجع نفسه، ص 945.

83- أصول التأويليّة، مرجع سابق، ص 481.

84- فريدريش شلايرماخر، في الدين: أحاديث إلى المثقّفين من بين منكريه، ترجمة وتقديم: فتحي إنقزّو، ط 1، الكويت، صوفيا للنشر، 2021، ص ص 61، 64.

85- المرجع نفسه، ص 156.

86- المرجع نفسه، ص 30.

87- المرجع نفسه، ص 132.

88- رسالة في التحلّل، ص 52.

89- راينر ماريا ريلكه، كتاب الساعات وقصائد أخرى، ترجمة وتقديم: كاظم جهاد، ط 1، بيروت - بغداد وأبو ظبي، منشورات الجمل وكلمة، 2009، ص 204.

90- رسالة في التحلّل، ص 35.

91- ويليام جيمس، تنويعات التجربة الدينيّة، تر: إسلام سعد وعلي رضا، ط 1، بيروت، مركز نهوض للدراسات والنشر، 2020، ص 462.

92- رسالة في التحلّل، ص 35.

93- كتاب الساعات وقصائد أخرى، ص 55.

94- جاك دريدا، غشلخت III: الجنس، العِرْق، الأمّة، الإنسانيّة، تر: عزالدين الخطّابي، ط 1، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2020، ص 162.

95- من ناحية إتيمولوجيّة تقف الباحثة الفرنسيّة فرنسواز داستور Françoise Dastur على أحد الجذور الهندو-أوروبيّة التي جاءت منها مفردة Dieu، وGod، وGott وهو جذر deiwos، وهو ما يعني بالفرنسيّة lumi re؛ أي الضوء أو النور. (Dieu(x), Ibid, p. 93)

96- كتاب الساعات وقصائد أخرى، ص ص 260، 262، 263.

الأخلاق بين حديّ الفكاهة والتفاهة في عصر التواصل والإعلام الرقمي

إيمان خالد
أحمد إبراهيم

طالبة الدكتوراه في الجامعة اللبنانية

السؤال الأخلاقي مطروح للنقاش في كل عصر من العصور، وفي عصر الشاشة الرقمية الناقل الأوّل للأخبار والمعلومات والوسيط أسرع للتواصل مع الآخرين، ومع تخطي التواصل الرقمي حدود المكان والزمان، من الطبيعي أنّ هذا السؤال لم يغب بل أخذ يطرح نفسه كمعيار لتقييم السلوك الإنساني في استخدام التقانة التواصلية المعاصرة.

في عصر التواصل والإعلام الرقمي وجدت المؤسسات الإعلامية في الفضاء الرقمي منصات أجدى للنشر لأنّها تحظى بشعبية أكبر فيما بين أبناء الجيل الحالي، وذلك على الرغم من تنوّع وسائل الإعلام من مرئية ومسموعة ومكتوبة، إلّا أنّ الساحة التواصلية قد فرضت وسائل تواصل واتصال حديثة على المجتمع من الهاتف إلى الكمبيوتر إلى الشبكة العنكبوتية (الانترنت) التي أحدثت ثورة في فضاء التواصل الرقمي، حيث غدا العالم قرية صغيرة على ما يمكن أن يطلق عليه منصات وسائل الإعلام الاجتماعية كالفيسبوك وتويتر وانستاغرام... ولقد أتاح هذا التمرّكز المعلوماتي فرصًا لا حصر لها لإقامة تواصل خلاّق بين الأفراد والجماعات، مع القدرة على تبادل كمّ هائل من المعلومات المتنوعة والمتجددة المساهمة في تنشئة المجتمع وتثقيفه وتعليمه وتوجيهه سلوكيًا والتأثير عليه أخلاقيًا...

ولمّا غدا الإنسان العاقل المفكّر أكثر انشغالًا بأموره اليومية التي أدخلته بروتين مقيت حيث بدأ معها في البحث عن أساليب تنفّس عنه وتريحه من ضغوطات عمله وروتينه اليومي، وجد في

وسائل التواصل المعاصرة متنافسًا للتسلية والترفيه عن النفس والخروج من ضغوطاته اليومية... إلّا أنّ الصيغة المبتذلة للرفاهية التكنولوجية جعلت من مسألة الحراك الثقافي المعاكس (السلبي) سببًا للحديث عمّا يمكن تسميته في زمن التفاهة الرقمية. فالتواصل الرقمي جعل من الفرد فاعلاً ومتفاعلًا في الفضاء الافتراضي وذلك على الرغم من أنّ منصات التواصل الاجتماعي قد جوبهت بالرفض وتعرّضت للنقد اللاذع في مرحلة ظهورها الأوّل، إلّا أنّها غدت مقبولة ومنتشرة بين كلّ الأجيال، فكلّ منصّة جوبهت بالرفض في البداية مثل الفيسبوك وتويتر وانستغرام وتيك توك وذلك تحت الذريعة الأخلاقية ولكنّ سرعان ما انتشرت وأغلب من رفضها عاد واستخدمها ربما لما وجده من محتوى جامع للثقافة والأخبار والمعلومات والرفاهية...

سمحت المدوّنات الالكترونية ومواقع التواصل الاجتماعي لكلّ الأفراد في التعبير عن أفكارهم والتواصل فيما بينهم، ونشر المحتوى الثقافي والترفيهي وغيره من دون اللجوء إلى القنوات التقليدية الإعلامية، ما أتاح المجال أمام حريّة التعبير التي تمثّل أساس منظومة حقوق الإنسان. وعلى الرغم من وجود ضوابط معينة لمنصات التواصل الاجتماعي لناحية عدم نشر المحتوى العنفي والتنبيه منه، إلّا أنّه من اليسير تجاوز الخطوط الحمراء اجتماعيًا وسياسيًا وأخلاقيًا...، فلا حدود للتعبير على وسائل التواصل الاجتماعي في سبيل إيصال الأفكار بشتى الطرق التي تسمح بذلك، وعند هذا الحد يكون النقد الجدار الذي يعترض لكل ما يتنافى مع القيم والمبادئ الأخلاقية وما يخالف الذوق العام وسياسة البلاد والمعتقدات... ويأخذ هذا النقد بالمعايير الأخلاقية، حيث أنّ فلسفة الأخلاق في تقييم المحتوى المنشور على منصات التواصل والإعلام الرقمي تكون أمام منحيين: منحىً موجب، ومنحىً سالب؛ والتقييم يشمل كل ما يظهر على الأفراد من سلوكيات وتصرفات إن كان بالأفعال أو الأقوال أو ردّات الفعل المختلفة...

من المعلوم أنّ الفعل الأخلاقي قد يكون خيرًا أو شرًا، فضيلة أو رذيلة، مستحسنًا أو مستقبحًا... وهذا الطرح الأخلاقي ما زال يصلح في كل وقت وفي كل عصر من العصور وفي العصر الرقمي باتت فلسفة الأخلاق الموضوع الإشكالي والشائك في تفسير أي سلوك يظهر على وسائل التواصل الرقمي، بالتأكيد لكلّ عصرٍ فكره وفلسفته وفي هذا العصر الرقمي تأخذ فلسفة المحتوى المنشور على منصات التواصل والإعلام الرقمي مداها من القبول والرفض والمدح والذم والنقد البناء والنقد السلوكي والأخلاقي... والإشكال الأساسي إشكال أخلاقي، ففي عصر التقانة والتواصل الرقمي تموضعت المسألة الأخلاقية كقضية رأي عام؛ فعلى الرغم من الإطار الإيجابي الذي حمله العصر الرقمي من سهولة

ومنفعة وبالأخصّ على صعيد التواصل الإنساني، إلّا أنّ الابتذال والسخافة والتفاهة والبله والأسلوب الهابط الذي يعتمده بعض المؤثرين على منصّات التواصل والإعلام الرقمي، وذلك تحت شعار الانفتاح على الآخر وحرية التعبير عن الرأي وبحجّة تبدّل ذهنية المتلقي في ظلّ التقدّم العالمي...، قد أدى إلى طرح سؤال مدى نجاعة التواصل والإعلام الرقمي في التأثير على السلوك الأخلاقي لرواد منصّاته على اختلافها؟!

بالتالي، إنّ المعيار الأخلاقي في العصر الرقمي يأخذ بميزان ما تنشره وسائله ووسائطه —عبر منصات الشاشة الرقمية— من ثقافة وعلوم وتداول للمعلومات والأخبار ومنصات للتسلية والترفيه عن طريق بثّ الصور والمقاطع الفكاهية... ولكن ما تقدّمه وسائل التواصل والإعلام الرقمي من محتوىً «فكاهي وتافه» يُزان في الميزان الأخلاقي ومقاييس المجتمع الذي يتلقاه ويستند المعيار إلى البيئة والثقافة والتقاليد والعادات والمعتقدات... وإنّ فلسفة الأخلاق بما تحمله من فضيلة وخير مجتمعي تجد نفسها أمام حملٍ ثقيل في الفضاء الرقمي، لأن أي حكم أخلاقي فيما يخصّ المحتوى الذي تقدّمه منصات التواصل والإعلام الرقمي قد يكون عرضةً للذمّ على الرغم من صوابيته.

أولًا: البُعد الأخلاقي للفكاهة الرقمية

الفكاهة والضحك لا يتعارضان مع الأخلاق فالإنسان يحتاج دائمًا إلى جرعة من الفكاهة تنسيه هموم الحياة ومشاغلها، وهذا ما أشار إليها صامويل جونسون حيث أنّه «على الرغم من أنّ البشر كائنات حكيمة وتتجلى حكمتهم في طرق مختلفة، إلّا أنّهم يضحكون بالطريقة ذاتها، لكن لا يزال هذا غير مؤكّد. فالضحك عبارة عن لغة تعبّر عن نفسها في العديد من الأساليب المميزة والمختلفة: الابتسامة، القهقهة، الهأهأة، الإنتاغ، الصراخ...» (إيغلتون، صفحة 11) فحكمة الإنسان لا تتعارض مع روح المرح والفكاهة وأسلوبه في الضحك. ووفق للفيلسوف إميل سيوران إنّ الضحك هو المبرر الكبير للحياة، حيث أنّه في أعماق لحظات اليأس، تتهيّأ القدرة على الضحك، هذا ما يميز الإنسان عن الحيوان، الضحك ظاهرة عدمية، تمامًا كما يمكن للفرح أن يكون حالة مأتمية. فالموقف الفكاهي والمضحك يخرج الإنسان من دوامة الكآبة والمعاناة ويضفي على الحياة حياة...

وطالما أنّ منصّات التواصل الرقمي اليوم قد هيّأت الوسائل للتعبير عن الآراء والمواقف والهموم والترفيه عن النفس بأسلوب «الفكاهة» والضحك، وحيث أنّها تعيد نشر كل ما تبثّه وسائل الإعلام التقلدية من قنوات متلفزة وإذاعية وما تنشره الصحف والمجلات من برامج وفقرات كوميدية وفكاهية على وجه التحديد نظرًا لأهمية الشاشة الرقمية لدى كل

الفئات والأعمار... بات كل تنشره من محتوىً خاضعًا للمعيار الأخلاقي من قبل المتابعين، وذلك نظرًا للمحتوى اللاأخلاقي الذي تقدّمه بعض تلك البرامج وبعض المؤثؤين على مواقع التواصل الاجتماعي إن كان لناحية الانحدار اللفظي والسلوكي الخادش للحياء الذي يتعارض مع قيم المجتمع ومبادئه الأخلاقية في ما يقدّمونه من فكاهة.

من هذا المنطلق –وعلى الرغم من أهمية الفكاهة والضحك– يمكن الإشارة إلى عدّة نقاط سالبة للفكاهة الرقمية على منصّات التواصل والإعلام الرقمي:

1– بالفعل تساعد وسائل الإعلام على تشكيل الرأي العام عبر ما يُقرأ في الصحف، وما يُسمع في الراديو، وما يُشاهد على التلفاز من برامج إخبارية؛ فالرأي العام ثمرة الاتصال الجماهيري بواسطة وسائل الإعلام المختلفة (خليل، صفحة 5)، وما تعرضه وسائل الإعلام بات موجودًا على مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة. إلّا أنّ القالب الكوميدي والترفيهي الذي تقدّمه بعض المنصّات على مواقع التواصل والإعلام الرقمي يكون تأثيرها مباشرًا على الجماعات والأفراد، وذلك نتيجة للتفاعل السريع معها وانتشار السكيتشات الكوميدية على وسائل التواصل الاجتماعي فيكون تأثيرها على سلوك الأفراد وأخلاقهم أقوى. هذا التأثير أكثر فاعلية من البرامج والدراسات والندوات المتصلة مباشرة بالمواضيع المطروحة، على أنّ الأثر سواء أكان مباشرًا أو غير مباشر قد يظهر على المدى الطويل ومن دون وعي من المتلقي أو المستقبِل لها (خليل، صفحة 5).

2– إنّ الفكاهة والضحك لا يبرران المحتوى الهابط أخلاقيًا، لأنّ هذا المستوى المنحدر أخلاقيًا يصل إلى كل الفئات العمرية لأنّ وسائل الفضاء الرقمي لا حدود لها وعدم استدارك الأهل لذلك ووضعهم لضوابط في استخدامه يضع تربية الأجيال الناشئة على المحك الأخلاقي، لأنّ الجيل الصاعد يتلقى هذه الفكاهة كأمر اعتيادي يقلّده لاحقًا، وهذا الجيل يقع حاليًا تحت تأثير من يسمون أنفسهم بالمؤثرين على منصّات التواصل الاجتماعي الذين يقدّم بعضهم حياته اليومية بقالب فكاهي ساخر وتافه، ويعكسون ما هو أبعد من الواقع اليومي للمتابعين وهذا ما يؤثر أخلاقيًا ونفسيًا عليهم...

3– كما أنّ بعض المؤثرين والإعلامين على منصّات التواصل الاجتماعي يقدّمون الفكاهة بمحتوى ناقد وساخر من الآخر وما يرافقه من تنمّر تجاه الأفراد بطريقة مؤذية ومهينة، وهذا الذي ينتشر بشكل سريع بين الأطفال والمراهقين... وينبغي الانتباه إلى أنّ المحتوى اللاأخلاقي ليس فكاهيًا فحسب إلّا أنّنا هنا نحصرها بالفكاهة.

4- إنّ الجوانب السلبية لوسائل التواصل والإعلام الرقمي على سلوك الأفراد وأخلاقهم تتجسّد فيما ينشر بحجة الترفيه والضحك ويتضمن في نفس الوقت مشاهد من العنف وأساليب الصراع والخصام والتنمّر، وهذا ما يترك آثارًا سلبية على ذهنية المتلقي وخصوصًا الأطفال الذي باتت الوسائل التقنية متوافرة بين أيديهم ويشاهدون معظم ما تعرضه وسائل التواصل والإعلام الرقمي، إذ تشير إحدى الدراسات إلى أنّ تأثير العنف على الأطفال أكثر منه على الشرائح العمرية الأخرى ونذكر منها (بيرغر، الصفحات 171-172):

- العنف في وسائل الإعلام قد يؤدي إلى سلوك عدواني لدى الأطفال.
- ببلوغ سنّ الثامنة عشرة قد يكون الطفل الأمريكي مثلاً قد شاهد 16 ألف جريمة قتل ونحو 200 ألف مشهد من مشاهد العنف على التلفاز.
- يضرّ عنف وسائل الإعلام خصوصًا بالأطفال الصغار السنّ (تحت الثامنة)، لأنّهم لا يستطيعون التمييز بين الحياة الواقعية والخيال.

هذا العنف ينمّي لدى الأطفال روح الأنانية والمصلحة الذاتية، ما يجعلهم في المستقبل لا يجدون في ممارسة العنف أي خطأ، وأنّ التنمّر على الآخرين أمرٌ عرضي لا غبار عليه... وما ينطبق على الأطفال يصلح لكل الأجيال، بالتالي إنّ الرقابة على ما تقدّمه هذه الوسائل من محتوى بات ضروريًا نظرًا للانحدار الأخلاقي والسلوكي الذي أنشأ جيلاً يدّعي الانفتاح والتقدّم لكنّه قد تخلى عن الأخلاق وما يلزمه من فضيلة ولباقة وأفعال حسنة.

5- إنّ استغلال الفكاهة لإظهار نقص الآخرين وعيوبهم والتنمّر عليهم يعدّ سلوكًا انحداريًا رذيلًا، وعليه إنّ استغلال منصّات التواصل الرقمي جعل هذا النوع من الفكاهة رائجًا رغم رفضه أخلاقيًا، ولكن حجة الترفيه عن النفس أو المزاح درع يحتمي به الهازئون والمتنمرون. ولقد كتب أفلاطون عن الكوميديا النابعة من السخرية الخبيثة «في فيليبوس»، وكما اعتبر أرسطو أنّ الفكاهة مؤذية في الغالب على الرغم من أنّه يسمح بنوعٍ غير مؤذٍ منها أيضًا، ويمنع الضحك على بلايا الآخرين بدقة سياسية معصومة عن الخطأ (إيغلتون، صفحة 49)، فالاستهزاء بالآخرين بهدف إضحاك آخرين أمرٌ غير مقبول أخلاقيًا وقمة الرذيلة بحق الآخر نظرًا للأذى النفسي الذي قد يتعرض له بسببها. وفي هذا الباب، من الملحوظ أنّ عدد من المؤثرون على مواقع التواصل الإجتماعي والإعلاميون في برامجهم الفكاهية على المنصّات الرقمية يستغلّون جروح الآخرين ومعاناتهم لكي يكونوا ترند ويكسبوا مزيدًا من الشهرة، وهذا هو الواقع فكما قيل «قد

يضطر البعض للبكاء لكي يتمكّن آخرون من الضحك من كلّ قلبهم» (إيغلتون، صفحة 50) وهذا هو معنى الانحطاط الأخلاقي وإنّ استغلال الأحزان للضحك يعكس النقص لدى الإنسان ويعكس أنانيته التي شوهت إنسانيته، وعلى سبيل المثال لا الحصر النكات التي راجت بعد الزلزال في تركيا وسوريا فجر السادس من شباط 2023 بيّنت المستوى الشنيع للا—إنسانية الإنسان، وهذا يستحضر ما قاله المعرّي «وضحكنا، وليس ما يوجب الضحك لدينا بل ما يهيج انتحابا»، فالفكاهة والضحك لا تستسيغه كل المواقف والأحداث. ونظرًا لإدمان الإنسان للشاشة الناقلة لهذه الفكاهة السخيفة المنسوجة على حزن الآخر وجراحه، غدا معها كل ما يشهده جزء من يومياته دون أن يكون ردّ فعله على قدر الفعل ذاته وغالبًا ما يكون أدنى بكثير منه، وهذا ما سمح برواج هذا النوع من الفكاهة رغم الانتقاد الذي يوجه إليها إلّا أنّ توق المؤثرين والإعلاميين على المنصات الرقمية للترند يعمي بصيرتهم الأخلاقية.

6— من النقاط السلبية للفكاهة على منصّات التواصل والإعلام الرقمي تشويه صورة الآخرين وإظهار عيوبهم ونقاط ضعفهم لإسعاد وإضحاك أناس آخرين حيث أنّ «روح الدعابة تمكننا من مسح موقف ما كتابة نص جديد. ويمكن تعرية الوجهاء والشخصيات المرموقة وغمسهم في الفكاهة بشكل قاسٍ» (دونو، صفحة 253)، هذا النوع من الفكاهة مقبول وغير مقبول أخلاقيًا في آن واحد، مقبول إذا كانت لم تتخطى تلك الفكاهة والدعابة الحدود الأخلاقية لجهة الألفاظ المستخدمة أو الكلام المكتوب أو الفيديو الفكاهي، غير مقبولة إذا كان تقدّم محتوىً فيه تجريح بالآخر وإهانة دنيئة وشتم حتى لو كان يستحق الإهانة...

هذه بعض النقاط السالبة للفكاهة على منصّات التواصل والإعلام الرقمي، إلّا أنّه على الرغم من أنّ الربط بين الفكاهة والانحطاط الأخلاقي قد شوّه صورة الفكاهة الهادفة إلى الترويح عن النفس والتسلية وإزاحة الهموم، لكن ينبغي إنصاف الكوميديين من مؤثرين وإعلاميين الذين يدخلون البهجة والسرور دون تجاوز الحد الأخلاقي...

ثانيًا: البُعد الأخلاقي للتفاهة الرقمية

إنّ كلمة تفاهة بحدّ ذاتها تدلّ على المستوى الدنيء والسخيف والهابط، وعصر التقانة والتواصل الرقمي ولّد الكثير من المؤثرين والإعلاميين التافهين، ولا يدخل عملهم في

السلّم الأخلاقي لأنّ تفاهتهم أدنى من مستواه. وعليه فيما يلي عدد من النقاط السالبة للتفاهة على منصّات التواصل والإعلام الرقمي:

1- هناك من يربط التفاهة بالفكاهة إلّا أنّه ليس بالضرورة بأن تكون الفكاهة تفاهة وليس بالضرورة بأن تكون التفاهة فكاهة، يمكن أن تكون النكات والسكيتشات الكوميدية تافهة دون أن تكون فكاهية. فالعديد من المؤثرين التافهين لا يخرجون بقالب كوميدي فكاهي لأنّ تفاهتهم في طرح القضايا والمواضيع لا ترقى إلى مستوى رسم البسمة والضحك بسببها، وحيث أنّ الفكاهة مقبولة في حدودها الأخلاقية أمّا التفاهة فلا يمكن قبولها لإنحدارها الأخلاقي الكامل، لأنّ التافهين لا يقدّمون محتوىً هادف وغايتهم استجداء مشاهدين والحصول على مكاسب الشهرة.

2- تمثّل التفاهة معيار النجاح لدى رواد منصّات التواصل والإعلام الرقمي، فما يسمى بالمؤثرين جائعو الشهرة يحولون تفاهتهم كمصدر للنجاح عبر الترند السخيف التافه، دون مراعاة للقيم الأخلاقية والهبوط والانحلال الأخلاقي شعار أغلبهم... ووفق آلان دونو في هذا الزمن قد حسم التافهين المعركة لصالحهم في هذه الأيام، فقد تغيّر الزمن، زمن الحق والقيم، ذلك أنّ التافهين أمسكوا بكلّ شيء بكل تفاهتهم وفسادهم، فعند غياب القيم والمبادئ الراقية يطفو الفساد المبرمج ذوقًا وأخلاقًا وقيمًا. فالنجاح والشهرة في زمن التافهين معيارها يتنافى مع الأخلاق والقيم والمعتقدات الراسخة عنها، فالنجاح لم يعد يرتبط بالرقيّ والسمو الأخلاقي والمعلومة الهادفة والسلوك القويم وبات معيار النجاح التفاهة وما يرافقها من انحلال لقيم الحق والخير والجمال.

3- قمة التفاهة تأتي مع استبداد الفضاء الرقمي بالإنسان عبر إتاحة الفرصة للتجسس على الآخرين ومراقبتهم ومتابعة يومياتهم بتفاصيلها المملة أحيانًا، وعليه هذا الاستبداد الرقمي «جعل التوزيع الهائل لأنواع المعلومات متاحة كلها لأيّ كان، وأنتج مشاهدين منفصلين عن المجتمع» (ملكاوي، صفحة 204) وذلك وفق كيركغارد في إشارته إلى التلفاز، ولكن هذا القول نجد انعكاسه على المشاهدين المنفصلين عن المجتمع في الفضاء الرقمي لأنّهم قد شكّلو عالمهم الخاص خلف الشاشة الرقمية فقد أتاحت وسائل التواصل والإعلام الرقمي لكلّ المستخدمين القدرة على المشاركة والنشر والمحادثة والتعليق على مختلف المواضيع دون أن يكون لديهم إلمام بها أو خبرة فيها أو خلفية سابقة عنها، ما يجعل الفضاء الرقمي مفتوحًا أمام الجميع فئة المؤثرين والمتابعين

الذين يعززون التسطيح الفكري وما يرافقه من تفاهة وسخافة في الردّ. فمن يجلسون وراء الشاشة ويعلّقون ظنًّا منهم أنّهم يمتلكون العالم بأسره، ولديهم السلطة الكافية لنشر الأخبار المغلوطة وتداول معلومات ملفقّة أحيانًا دون ضوابط أخلاقية وقانونية.

4– تتحلى التفاهة الرقمية في التقنيات المتاحة التي تأتي تحت مظلة احترام الخصوصية إلّا أنّها تتعدى تلك الخصوصية عندما تستخد لغايات غير أخلاقية مسيئة، وجد جاك غوردون أنّ «تقانة الاتصال الرقمي تمكّن شبكة الانترنت من أن تكون مجالًا عامًا، لا مركزيًا، ومفتوحًا، ومتحررًا من رعاية أي سلطة، وقليل التكاليف، مع إمكان إخفاء الهوية، ومن خلال هذه الخصائص، يمكن الانترنت حقيقة أن توفّر الأسس التي يقوم عليها المجال العام الذي يقارب مفهوم هابرماس» (ملكاوي، الصفحات 161–160)، فالفضاء العمومي الرقمي مكّن المستخدم وإخفاء هويته، إلّا أنّ استغلال هذه الميزة لتقمّص شخصية لتشويه سمعتها أو للدخول في سجالات أو نشر أخبار ومعلومات ملفقّة وكاذبة قد أساء لهذه الميزة وجعلها نقمة بحقّ كل من تضرر منها.

5– وجد آلان دونو أنّ مواقع التواصل نجحت في ترميز التافهين، أي تحويلهم إلى رموز، صار يمكن لأية جميلة بلهاء أو وسيم فارغ، أن يفرضوا أنفسهم على المشاهدين، عبر عدة منصّات تلفزيونية عامة، هي في أغلبها منصّات هلامية وغير منتجة، وهذه لا تخرج لنا بأي منتج قيمي صالح لتحدي الزمان. فقد فرضت هذه المنصّات نفسها بتفاهتها، إنّها غير منتجة من الناحية الثقافية والفكرية بالنسبة للمتابع في حين أنّها منتجة بالنسبة للمؤثرين والإعلاميين الذين يستخدمونها كوسيلة ربحية نظرًا لقدرتهم على التأثير دون إعطاء الأولوية لأي معيار أخلاقي.

6– كما أنّ ما يؤكّد على الدور السلبي لوسائل التواصل والإعلام الرقمي على صعيد الأخلاق، ما توصّل إليه هربرت ماركيوز في رأيه عن الحداثة، فيما يخصّ تحديدًا التلفاز الذي وجد فيه مجالًا للتقوقع على الذات والابتعاد عن الناس. ما أحال الإنسان إلى مجرّد متلقٍ غير فاعل في أي حوار أو نقاش أثناء مشاهدته التلفاز، حيث ابتعد الناس عن اللقاء والتلاقي مفضلين مشاهدة التلفاز عن الحديث والتحاور مع غيرهم. كما أكّد في كتابه «الإنسان ذو البُعد الواحد» بأنّ وسائل الإعلام الجماهيري هي أداة للتلاعب تسعى إلى جعل المجتمعات غير منطقية ولاعقلانية، بشكل متكامل وسلبي كما لم تكن أبدًا. تقنيات

التواصل الموحّدة، بالنسبة له، وسيلة للغوغائية والتوسّط مميزة ما يفرّق ويقسم على حساب ما يوحّد. إنّها تبثّ ثقافة جديدة منومة للعقول، مشجعةً أكثر على الهرب من مواجهة الواقع (Kortenhorst). ففي زمن التفاهة العقل المستنير غير مرغوب فيه والتسطيح الفكري هو الأساس والنظر إلى القشور أهم من اللب وهذا ما يمكن ملاحظته بالمحتوى الهابط الذي يسوّق له من يسمون أنفسهم المؤثرين على مواقع التواصل والإعلام الرقمي حيث أنّ تأثيرهم بالغ الأثر على الأجيال الشابة والأطفال.

7– وبما أنّ مساهمة وسائل التواصل والإعلام الرقمي في تشكيل الرأي العام مهمّة، فإنّ فكرة الحوار وتبادل الآراء ضرورية فلا يمكن أن تقتصر على متحدث من طرف في حين يبقى الأخرون صامتون، عندها يؤخذ بأحد الآراء على أنّه الرأي السائد (بيرغر، صفحة 237)، إلّا أنّه على الرغم من أهمية الحوار البناء وكشف كل الآراء إلّا أنّ ما يعزّز تفاهة المحتوى الحواري الذي وصلت إليه منصّات التواصل والإعلام الرقمي المتمثّل بالبرامج الحوارية التي تسيء إلى مفهوم الحوار ذاته، حيث أصبح هدف هذه البرامج إظهار مدى الخلاف السياسي أو الاجتماعي أو الديني، وتبيان مدى التباعد الفكري لدى المتحاورين، ويكون دور المحاور إشعال فتيل الخلاف بهدف استقطاب المشاهدات. ولقد ظهر في بعض حلقات هذه البرامج مدى الانحطاط الثقافي والأخلاقي لدى المتحاورين، من خلال الشتم والقدح والذمّ لبعضهم وصولًا إلى حدّ العراك بالأيدي والسفاهة في القول...

هذه بعض النقاط وغيرها فيما يخصّ التفاهة الرقمية وما يرافقها من هبوط في السلّم الأخلاقي على منصّات التواصل والإعلام الرقمي تتطلب نهضّة فكرية توعوية لرواد هذه المنصّات، لأنّ الامتثال إلى نظم أخلاقية ضابطة لسلوك المستخدم في الفضاء الرقمي تضاهي تلك الضوابط في الحياة اليومية.

في المحصّلة، إنّ حدي الفكاهة والتفاهة في عصر التواصل والإعلام الرقمي لامسا الواقع الأخلاقي المنحلّ، ما يتطلّب إعادة هيكلة للبناء الأخلاقي أو السلم الأخلاقي المجتمعي، فالأجيال الناشئة قادرة على الوصول إلى كل ما يُعرض ويُنشر في الفضاء الرقمي بالتالي لا يمكن الإبقاء على هذا الفضاء مفتوحًا دون ضوابط أخلاقية، وتبقى مهمة الفلسفة الأخلاقية إعادة رسم لوحة الأخلاق الأفلاطونية من حكمة وشجاعة وعفة وعدل، والعودة إلى الفضيلة الأرسطية الوسط بين رذيلتين، فإنّ دور الفلسفة الأخلاقية النهوض من

جديد ونفض غبار الانحلال السلوكي لوضع الضوابط والمعايير الأخلاقية الملاءمة مع العصر الرقمي... وبناءً على ذلك، تكمن نقاط قوّة فلسفة الأخلاق في فضاء التواصل الرقمي، وتحت لواء قيم الحق والخيروالجمال، يمكن استنتاجها بالثلاثية التالية:

– التواصل الرقمي حقّ من حقوق الأفراد والجماعات في ظلّ التطور التواصلي العالمي.

– إنّ استخدام الفضاء الرقمي فيه من الخير العام لإيصاله الأفكار وإجراء الحوارات ونقل المعلومات وهذا يتطلب وعيًا ومهارة ودقة في النقل، لأنّ أي هفوة أو أخذها على محمل التفاهة لا يمكن تطويقها بسرعة كسرعة نقلها وانتشارها.

– الرفاهية التي تقدمها الكوميديا البيضاء والفكاهة الخفيفة المسلية مقبولة لترسيخها مفهوم الجمال التواصلي.

المراجع

Kortenhorst, R. (1999, nov 6). les Medias, ou la manipulation de l’opinnion. Récupéré sur http://www.fnb.to.com

إيغلتون، ت. (2019). فلسفة الفكاهة. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.

بيرغر، آ. آ. (2012, 386). وسائل الإعلام والمجتمع وجهة نظر نقدية. سلسلة عالم المعرفة، .pp. 171–172

خليل، ر. ح. (2011). البرامج الحوارية ودورها في تشكيل اتجاهات الرأي العام من وجهة نظر طلبة الإعلام. بغداد: الجامعة العراقية، كلية الإعلام.

دونو، آ. (2020). نظام التفاهة. بيروت: دار سؤال للنشر.

ملكاوي، أ. ح. (2017). أخلاقيات التواصل في العصر الرقمي–هبرماس نموذجًا. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

الحبّ في حدود الكمّوميّة: مقاربة علميّة – وجوديّة

باميلا فاخوري

طالبة

مقدمة

عندما ترتسم المشاعر الإنسانيّة في هالةً علويّةً تقتفي أثر نورٍ، أثر موجةٍ ،تتمدّد في فضاءات العلائق الإنسانيّة وتدغدغ وجدان الإنس، وتُخلدُ النّفس إلى طمأنينتها، فتسبح النّفس في تفكّك عقدها وفي انتماء اللّانتماء، لتنشد السّبب الّذي به ومن أجله تتمدّد فيه بالحرّيّة وتذوب وتتناغم في أثير اللّايقين. إنّه الحبّ، على قدر بساطته تتعقّد مكتنزاته، تتعدّد تعبيراته، وتتبدّل مسارته. فإذا به يشكّل الوقود الذي يسيّر النّشاط الإنساني ويكون في الوقت عينه غايته. وهنا تتبدّى لنا النّزعة الغائيّة— الأنطولوجيّة للإنسان الّذي يتسامى في مشاعره ويرهف في الإحساس ليشعر بالإمتلاء، فيكونُ اكتمالٌ. اكتمالٌ في ما هو قابل للإكتمال بالوحدة، بالمطلقيّة النّزوعيّة للذّوبان عن طريق الإنصهار بالآخر. وبهذا يشكّل الآخر تمركزًا لموضوع الرّغبة وانبثاقًا لها أو بالأحرى تجلّيًا لها خارج الذّات الإنسانيّة المفكّرة والحاسّة. وعلى كلّ حال، يبقى الحبّ لغز الكينونة الإنسانيّة وصلب دهشتها ومحرّك أسئلتها. والسّؤال الأكبر المتشّعب يطرح نفسه مليكًا على الأسئلة الوجوديّة برمّتها : ما هو الحبّ؟ كيف يمكن تفسيره؟ كيف يتجلّى في حياتنا الإنسانيّة وهل بالإمكان التّحكّم به وبمساراته؟ هل له قوانين؟ كيف يمكن لشعورٍ بسيطٍ ونقيّ أن يترجم في السّلوك الإنساني بجملةٍ من النّواقص؟ هل من إمكان لدراسة الحبّ كموضوع خارج عن الذّات الإنسانيّة،

عن الوعي الإنساني، كعمليّة مفكّر في موضوعها؟ حاولت العلوم الإنسانيّة والطّبيعيّة والعلوم الحديثة تفسير الحبّ لكنّها أخفقت في كثيرٍ من الأحيان في تمثّل هذا الإحساس ووصفه على وجه كبيرٍ من الدّقة والأمانة. هل يمكن لأحد أوجه العلوم الإنسانيّة ، الفلسفة، مصاحبة أحد العلوم الحديثة ، ميكانيكا الكمّ، والتعاون والتكافل لإعطاء تفسيروجودي—علمي للحبّ؟ وإلى أي مدى يمكن ذلك؟ سنحاول في بحثنا التّطرّق إلى نظرية الكمّ عند هايزبرغ عبر تشبيه الحبّ للضّوء كما سنلج إلى نظريّة التّشابك الكمّي كوجه من أوجه التّلاقي بين المحبّين ونخلص نهايةً إلى تطبيق تجربة شقيّ يونغ على الحبّ.

كوانطيّة الحبّ

إذا كان الحبّ أسمى المشاعر الإنسانيّة على الإطلاق وأغربها تفسيرًا من منطلق علمي، فإنّه بإمكاننا تطبيق مبدأ ميكانيكا الكمّ لإستجلاء الحبّ كطاقة ضوئيّة انطلاقًا من تفسير فلسفة الكمّ للعالم الفيزيائي والمفكّر الألماني هايزبيرغ، حيث أسهب في كتابه **الطّبيعة في الفيزياء المعاصرة** في مقاربة الضّوء وتمدّده من منطلق كمّي. وها نحن نقيم هنا الشّبه بين نظريّة هايزنبرغ والحب لتكميمه. على غرار الضّوء المكوّن من النّار واللّهب يمكننا أن نقيم شبهًا بين الحبّ كطاقة، كنار تلهب الصّدر وتحرق الأخضر واليابس، فتحترق الكينونات بالحبّ وتنصهر وتذوب في بعضها البعض، فيقترب الواحد من الآخر ويسعى لإخراج وإفراغ إحساسه من الدّاخل ليتمثّله في موضوع الرّغبة والّذي هو الحبيب. ويقول هايزبرغ في هذا الصّدد « لا يعقل أن نشكّ في أنّ الضّوء مؤلّف من حركة مادّة ما. لأنّنا لو نظرنا في توليده لوجدنا، عندنا على الأرض، أنّه يصدر رئيسيًّا عن النّار واللّهب وهما يحويان بلا ريبٍ أجسامنا في حركة سريعة لأنّها تذيب وتصهر عدّة أجسام ذات صلابة كبيرة، فإذا أمعنّا النّظر في آثاره نرى أنّ الضّوء عندما يجتمع، كما في المرآة المقعرة، يكتسب خاصّة الحرق كما تفعل النّار، أي أنّه يفكّك أجزاء الأجسام، لما يدلّ على الحركة بالتّأكيد» [1] (ص.166). والحبّ كالمرآة يعكس من خلاله الحبيب نفسه ويحرّك وجدناه ووجدان محبوبه في حيّز الزّمكان. فيكون الحبيبان في الوقت عينه موضوعًا وذاتًا في كعالمين متوازيين parallel universes، يلتقيان في لحظات وعيٍ ولاوعيٍ عاطفي ويؤثّر الواحد منهما بالآخر دون أن يهتزّ هو كعالمٍ قائمٍ بذاته. يرسل الحبيب إحساسه بتعبيراتٍ شتّى لمحبوبه فيتلقّى هو الأخير هذا الإحساس ويفعّل في نفسه شعورًا ينعكس بالتّالي على حبيبه. يبقى أنّ الحبيبَ محبوبٌ والمحبوب حبيبٌ وما بينهما حبٌّ يصهر ما لا يصهر بغير الحبّ. حركة دائريّة لانهائيّة وهذه الحركة غير ممكنة إلّا بالطّاقة. ولإيضاح

كيفيّة تفعيل الحبّ كطاقة في حياة الإنسان الوجدانيّة متمثّلة في السّلوك الإنساني نجد أنّه يشكّل الدّافع الّذي من أجله تتركّز الر غبة بالحبيب وبالإتّحاد به والتّعبير له عن مشاعره إن عبر الكلام أو لغة الجسد. هذا ويكون البعد الأقصى سلوكيًّا لترجمة الحبّ عبر العلاقة الجنسيّة والتي لا تؤخذ بالمعنى الشّهواني الغرائزي، إذ إنّ العلاقة ما هي إلّا رمزٌ للإلتحام بالآخر وما النّشوة إلّا لحظة مترنّحة بين الوعي واللاوعي يقف فيها الحبيبان كعالمين انسجما ليعودا وينفصلا ويبقيا متوازيين. فيكون الحبّ كموجةٍ ضوئيّة لها ارتدادها ولا تنتهي بعد أوّل إفراغ للرّغبة، ويضحى الحبّ كطاقةٍ متجدّدة لا تنفذ، وإذا فعلت فلا تكون حبًّا بالمعنى اللّصيق للحبّ، على قدر ما هي اعوجاجٌ للحبّ مستورٌ بغشاء من المخاوف متجلّيّة بالأنانيّة.

كوانطيّة الحبّ من منطلق هايزنبرغ

على مقلبٍ آخر يبرز الضّوء عند هايزنبرغ على أنّه كالموجة التي نلاحظها في الماء عندما نرمي حجرًا فيها، فيكون لهذه الموجة ارتدادات [1] (ص.168)، والحبّ كذلك، فعندما يرمى سهم الحبّ ويخترق معقل الوجدان الإنساني، تمتدّ طاقة الحبّ كهالةٍ محيطة بالحبيب، لتتمدّد باتّجاه المحبوب فتلتقي به وتلامس هالته التّي هي بدورها تتمدّد. عندها، يكون لقاء موجتيهما الإرتداديّتين وحدةً وصلابةً وحرّيّةً، إذ إنّ الطّاقة لا يمكن كبحها، فهي تدخل في الأجسام وتفعل فعلها وتحرّك هذه الأجسام باتّجاه بعضها بعضًا لتتآلف وتذوب وتتّحد في هالة. و على غرار ما يقوله هايزنبرغ عن فكر غاسيندي من أنّ الذّرات لما هي بسيطة وصلبة ولا تقبل الإنقسام مفطورة على النّزوع إلى الحركة ضمن حركيّةٍ تتأرجح بين الوحدة والإنفصال [1] (ص.170) ولكن لا التّداخل. ويردف هايزنبرغ كلامه قائلًا : « ... لا يمكن لجسمين مهما تقاربا أن يحتلّا حيًّا أصغر من الحيّز الّذي يحتلّانه منفصلين... فنحن إذن مدعوون، بشكلٍ يكاد يكون طبيعيًّا، إلى أن نميّز، بالفكر على الأقلّ، نوعين من الإمتداد المكاني : أحدهما لا يقبل التّداخل والآخر موضع الأجسام. وهكذا، فبالرّغم من أنّ عدم قابليّة التّداخل موجودة بالضّرورة في الفكرة التي نشكّلها عن أجزاء المادّة، إلّا أنّها خاصّيّة نسبيّة، أي أننا لا ندركها إلّا عندما نعتبرها شيئًا متميّزًا عن الإمتداد وأن نعتبر الإمتداد شيئًا منفصلًا عنها، رغم أنّ عدم قابليّة التّداخل افتراض ضروري لتشكيل فكرة عن المادّة.» [1] (ص.175). تمامًا في الحبّ لا يمكن للحبيبين يتّحدا بكليّتهما لأنّهما ليسا فقط طاقة لا بل إنّهما جسدٌ وطاقة، فيكونان بجسديهما على مستوى الزّمان والمكان منفصلين—متّصلين، وعلى مستوى الطّاقة لكلٍّ

منهما على حدا هما منفصلان ومتّصلان، فضلًاعن المستوى الوحدوي للهالات. نجد هنا إذا الأحبّاء عوالم متوازية ومتراصّة فوق بعضها في آنٍ واحد.
بالنّسبة لهايزنبرغ إنّ الضّوء بتمظهره الثّنائي كموجة وكحبيبات (فوتونات) تمتصّ وتنتشر عبر بوّابة المادّة و يخلص إلى أنّ الأمواج والحبيبات متّحدة معًا في الطّبيعة، وتاليًا فإنّ حركة الطّبيعتين للمادة مرتبطتان ومتداخلتان ولا يمكن إذ ذاك افتراض أنّ الواحدة منهما يمكنها العمل بدون الأخرى أو أنّهما لا يؤثّران ببعضهما البعض [1](ص.210). بالمقارنة نجد أنّ الحبّ لا يمكنه أن يكون مصيّرًا بالفعل من دون الحيّز المكاني والزّماني المتجلّي بالمادّة. وقد نذهب إلى فكرةٍ مفادها أنّ الزّمكان لما هو بعدٌ هو شرطٌ ضروري لتبلور البعد الرّوحي المتمثّل بالحبّ. من هنا لا يمكننا أن نتبصّر الحبّ في بعدٍ واحدٍ ظنًّا منّا أننا ننزّهه عن البعد المادي، ولعلّ السّبينوزيّة الأجدر على تقريب هذه الكوانطيّة للحبّ وإن لم تكن مرتكزةً إلى علمٍ محض قائمٍ على قوانين ومعادلات حسابيّة دقيقة. ففلسفة سبينوزا تتمحور بشكل رئيسي حول الجمع بين الطّبيعتين الرّوحيّة والمادّيّة وهما على حدّ قوله ينتميان إلى بعدٍ واحد أشمل وهو بعدٌ كوسمولوجي. ونشير أيضًا غلى أنّ نيلز بور العالم الفيزيائي الكمّي الشّهير يصبّ في المذهب الفكري نفسه إذ يقول بنظريّة التّكامل بين الطّبيعة المادّيّة والأخرى الموجيّة وهو أيضًا ما يدعم طرحنا في تنظيرنا للحبّ الكوانطي [2]. وعلى خطٍّ موازٍ يذهب هايزنبرغ إلى مبدأ اللّيقين في عدم القدرة على تحديد مسار الجسيمات بطبيعتيها المادّيّة والموجيّة. وهذا يحيلنا إلى عدم قدرتنا على التّنبّؤ بمسار هذه الجسيمات ما يسقط مبدأ الحتميّة في الوقت الرّاهن. ولكي لا نسترسل في منزلقات فيزياء الكمّ بعيدًا من موضوعنا الرّئيس، نستشفّ بأنّ الحبّ لا يمكن التّحكم بمساراه، فلا يمكننا أن نقرّر أن نحبّ بشكلٍ واعٍ، إذ الحبّ كناية عن صيرورة وطاقة حرّة تتبدّد وتنسلك على سجيّتها إذا صحّ التّعبير. و في حال أردنا مقاربة الحبّ من منطلق بور فنجد بأنّه تطوّر سائر باتّجاه نقطة معيّنة محدّدة في الزّمان والمكان. وهذا ما يوجزه بور بمبدأ التكامليّة حيث يعتبر أنّ الجسيم بطبيعته الموجيّة والمادّيّة يكملان بعضهما بعضًا وعليه ويلتقيان في الزّمان والمكان [3] (ص.31). على أنّ مبدأ التّكامل الذي قال به بور ما هو إلّا نوع من التّعميم المُجرى تعقيبًا على مبدأ عدم اليقين عند هايزنبرغ [4] (ص.35). وفي كلي الحالتين لا يمكن معرفة بدقّة مكان وسرعة الإلكترون كونه يغيّر في سرعته وبمكانه ويبثّ كمّيّة ضئيلة من الطّاقة. أمّا في الحبّ فإنّه أيضًا لا يمكن للمرء أن يرصد مشاعره كاملةً في لحظةٍ الوعي بخاصّةٍ في حالات انتشاء. إذ إنّ الوعي يكون في حالةٍ ملاصةٍ للالوعي وحتى متشابك معه وهذا ما يمكن أن نصفه بالتّشابك الكمّي في الحبّ.

الحبّ كوجه من التّشابك الكمّي

إن أردنا إيجاز ما تتّسم به نظريّة التّشابك الكمومي فيمكننا القول إذًا أنّها نظريّة تبيّن أنّ جسيمين وإن كانا بعيدين عن بعضهما فإنّ لهما تأثيرًا على بعضهما البعض. فنعتبر مثلًا أنّ هنالك جسيمًا في الصّين وآخر في إفريقيا وكلّ منهما له حركة دائريّة معيّنة. فيدور الأوّل على غرارعقارب السّاعة فيما الآخر يدور باتّجاه معاكس. وحين نتطلّع ونتفحّص مسار الواحد منهما نجد أنّه وفي نفس اللّحظة يدوران باتّجاه معاكس وهذ ا الأمر غريبٌ للغاية [5] (ص.1). إنّما إذا كانت نظريّة التّشابك الكمي تعتبر بأنّ الجسيمات وتأثيرها على بعضها بعضًا مقرون بكونها مربوطةً ببعضها البعض من خلال الرّسائل التي يرسلها جسيمٌ منها إلى الآخر على حدّ اعتبار أينشتاين وغيره من الفيزيائيين فإنّه يمكننا اعتبار أنّ الكمّيّة توضح بأنّ التّشابك هذا هو الأكثر انطباقًا على مشاعر الحبّ. والدّليل الحالات الكثيرة من التّخاطر الذّهني الحاصل بين المحبّين، بغضّ النّظر عن التّفسيرالنّفسي، فقد يكون هنالك بعدٌ لم نلمّ به، أو بالأحرى فضاء نجهله وماهيّته وآليّة عمله وكيفيّة إرسال الإشارات. يمكننا أن نقول إنّ المحبّين يشعرون ببعضهم البعض، وهم في ذلك لا يمكنهم إعطاء أي تفسير علمي تجريبي لما يحسّونه لكونه مجرّد شعور والشّعور لا يمكن تمثّله بشكل حرفيّ. فالشّعور هو تأثير رسالة وصلت إلى النّفس الإنسانيّة وأفرزت فيها انطباعًا يمكن القول فيه إنّه كوانطي. وها إنّ العلم قد عجز عن تفسير حالات التّخاطر الذّهني فترك آنئذٍ إلى مصافي الفيزياء الكمّيّة أو إلى علم النّفس. على مقلبٍ آخر فلسفي، يظهر التّخاطر كحالةٍ وجوديّة كبيرة محصورة بلحظة وعي فلسفي كبير ودهشة بالمحبوب ليشعرا بقيمة الإتّصال بينهما فيكون التّخاطر بمثابة دليلٍ زمني ومكاني على علاقة التّرابط بينهما ليمسي هو نقطة الإلتقاء ووقود الغوص أكثر فأكثر بالعلاقة. فالتّخاطر ليس مجرّد حالةٍ من الوعي بالآخر إنّما هو وعيٌ للذّات أيضًا بما هي مرسل ومتلقّي في آن. إذ يجمع الحبيب أيضًا صفة المحبوب، فهو عندما يتلقّى الرّسالة يكون محبوبًا وهو في الوقت عينه حبيب لانّه فاعلٌ في عمليّة الحبّ هذه.

مقاربة فلسفيّة لتجربة شقّي يونغ في الحبّ

بإمكاننا أيضًا على صعيدٍ آخر الولوج إلى تجربة شقّي يونغ كنظريّة مختلفة أو بالأحرى كمنظار كوانطي جديد لفيزياء الكمّ نسعى من خلاله إلى بلورة نظريّتنا في الحبّ. وباختصار، فإنّ تجربة شقيّ يونغ كناية عن إرسال موجات ضوئيّة وخروجه من شقّين، وانعكاسه على شاشة معيّنة. منطقيًّا إذا وددنا النّظر إلى انعكاس الضّوء من الشّقّين

فيترتّب عن ذلك أن نلحظ هدبين اثنين للضّوء، لكن الواقع أتى معاكسًا لذلك. فالضّوء المنعكس من الشّقيّن تبدّى لنا على شاكلة أهداب متوازية عديدة تترنّح بين أهداب ضوئية ومعتمة متعاقبة. فيبدو الضّوء هنا كحضورٍ وغياب [6]. أمّا السّبب الّذي من أجله انعكس الضّوء على هذه الشّاكلة فقد يكون نظريّة لم تبرهن بعد ولكنها قيد الدّراسة والإختبار والتّحليل والبحث وهي نظريّة العوالم المتعدّدة. وهذه النّظريّة تقول بإنّه إذا ما وجد شيءٌ ما في عالمٍ ما، فهو كذلك موجودٌ في عالمٍ آخر موازٍ له ولكنه ضمن شكلٍ مختلف. هذا على نطاق فيزياء الكمّ أمّا في ما يخصّ الحبّ، فإنه بمقدورنا أن نبني منطلقًا فلسفيًّا لتفسير الحبّ كحضور وغياب في ضوء نظريّة يونغ الكمّيّة. لنعتبر أنّ الحبّ كالموجة الضّوئيّة الّتي اخترقت وعيين إنسانيّين، تلقّفا هذا الحبّ فانعكس تاليًا في تعبيراتهما بين حضورٍ وغياب. فعلى غرار المقولة الشّهيرة "Suis−le il te fuit, fuis le il te suit" هكذا فإنّ شعور الحبّ الّذي نحسّه يصل إلى أوجّه في حضورٍ كامل ريثما يعود ويختفي ليعود ويظهر من جديد. والسّبيل لبرهنة مقولتنا يكمن في العلاقة الشّغوفة بين حبيبين، فريثما يعبّران عن حبّهما بعلاقةٍ جسديّة على سبيل المثال، فإنّهما يميتان الرّغبة داخلهما عن طريق إخراجها وتمثّلها في الواقع المحسوس، في الشّريك. فتكون الحالة القصوى من الحضور والمتمثّلة بالنّشوة بداية موت الرّغبة وبالتّالي حالة موتها هو ولادة جديدة لها. هذا ما يضمن استمراريّة الحبّ، ليتّبع مسارًا يمكن القول فيه Trajectoire sinusoidale continue. فيكون الحبّ في الحضور حيًّا− ميتًا وفي الغياب ميتًا − حيًّا.

خاتمة

عصارة القول تكمن في أنّ الحبّ كنايةٌ عن دورةٍ دائمة، من التّجدّد والتّمدد في الوجود الإنساني، وهو العطش الأكبر للرّوح الإنسانيّة. الحبّ هو نقطة البداية والرّكيزة الأساسيّة الّتي تبنى عليها الحياة الإنسانيّة. فالحبّ حرّيّة،انطلاقة في الوجود، ارتياحٌ وتسليم للايقين، إنّه اللّحاق بالموجة الرّاكبة . وما شكله وتعبيراته المنحرفة في النّفس الإنسانيّة إلّا وليدة مخاوف جمّة ومختلفة تنبري من طمأنينة النّفس وتضعها في قوالب وتحدّها فيما الحبّ في جوهره غير مشروط. الحبّ عندما يكون منحرفًا لا يمكننا القول إنّه ليس حبًّا، على الأقلّ هو مخبّأ بغشاء من المخاوف أبرزها الخوف على الذّات من الإلغاء والذّوبان في الآخر، فتشعر النّفس أنّها تمّحى لأجل الآخر، ولا تتواءم وتتناغم معه. النّفس الخائفة تستميل الحبيب بأكثر الأساليب التواءً، أي عبر شدّه بالرّغبة والإثارة أو محاولة لعب دور الضّحيّة للإحتماء أو ربّما دور المخلّص ليكون الآخر ملاذًا لها وشفاءً. لكن في

الواقع الحبّ الحقيقي يتمثّل بشخصين كانت لهما رغبة صادقة وأصيلة في تقبّل الذّات بالدّرجة الأولى، والإقتناع بعدم الضّرورة لتغيير الذّات والعيش بمنطق يخالف طبيعتها إرضاءً للآخر لإبقائه متعلّقًا. الحبّ حالةٌ من الدّهشة بظللمات الحبيب قبل نوره، واحتواءٌ لمخاوفه وعيوبه الّتي ليست في الواقع إلّا نتيجة الخوف. والخوف لا يُحارب على قدر ما يحتضن. على كلّ حال فإنّ المخاوف لن تزول، إنّما بالمحبّين أن يحملوها بتأنٍّ وتؤدة، أن يلاطفوها، فتكون نقطة قوّةٍ وحافزًا لمزيدٍ من الإحتواء. ليغدو الآخر مرآة الذّات الّتي ترى فيه أجمل صورةٍ لها فيلتقيان بشرارة قويّة ترتدّ عليهما وتضمن استمراريّتهما مع بعضهما البعض. ويبقى الحبّ أخيرًا ارتواءً في العطش وتناغمًا في النّشاز. وختام الكلام يصبو إلى أنّ الحبَّ انعتاقٌ أبديٌ من سجن العبوديّة للخوف.

المراجع

[1] ف. هايزنبرغ، الطّبيعة في الفيزياء المعاصرة، ترجمة الدّكتور أدهم السّمّان، دمشق: طلاس للدراسات والتّرجمة والنّشر .

[2] د. بشارة، الكون الحيّ بين الفيزياء والميتافيزياء.

[3] ع. ح. موسى، قرن الفيزياء.

[4] M. Bunge, «La philosophie de Niels Bohr,» Horizonz philosophiques, vol. 2, no. 2, pp. 27–50.

[5] ن. ا. ب. رمضان, "التّشابك الكموميّ," الباحثون السّوريّون.

[6] F. Legrand, "Interferences de young," Licence Creative Commons, pp. 1–15.

[1] مبدأ عدم اليقين هو نظريّة في فيزياء الكمّ قال بها العالم فيرنير هايزنبرغ ويشير فيها إلى أنه لا يمكن التّحكّم بمسار الإلكترونات أو معرفة مسارها. فهي تقفز من مستوى طاقة معيّن إلى مستوىً آخر بشكل غير متوقّع من الباحث.

الذكاء الاصطناعي المفهوم والأهداف مع رؤية شرعية

نزهان مصلح مرمي

كلية الآداب/
جامعة الجنان

المستخلص:
أصبح الذكاء الاصطناعي جزءًا أساسيًا من حياتنا اليومية ولم يعد مجرد خيال علمي. يشكل الآن أساسًا لاقتصاديات الدول وميزانيات الحكومات. المدن الذكية والمركبات ذاتية القيادة مثل (AV) والطائرات بدون طيار تظهر تطورًا ملحوظًا في هذا المجال. الروبوتات المستقلة التي تتعلم وتتكيّف ذاتيًا ستغير وجه الخدمات المهنية والشخصيَّة في المستقبل القريب.
هناك قضايا فقهية وقانونية تتعلق بتطور الذكاء الاصطناعي، خصوصًا مع تطور الروبوتات التي تُظهر مستوىً عاليًا من الذكاء والاستقلال في التصرف، ممَّا يجعل بعض المحللين ينظرون في إمكانية منحها حقوقًا قانونية.
الهدف من البحث هو فهم الرؤية المعمَّقةوالمفهوم الخاص بالذكاء الاصطناعي، تقنياته، أبعاده وتأثيره وحكمه من منظور الفقه الإسلامي. فهناك اهتمام خاص بتحديد موقف الشرع الإسلامي من الذكاء الاصطناعي وتطبيقاته. وتقوم الفرضية الرئيسية للبحث على أن التطبيقات الخاصة بالذكاء الاصطناعي متوافقة مع الأحكام الشرعية طالما أنها تسعى للمنفعة ولا تسبب ضررًا.
وقد خلص البحث إلى أن مشروعات الذكاء الاصطناعي تهدف لنفع الإنسانية أو هكذا ينبغي، ولكن قد تحدث انحرافات، وأن

النوايا والمقاصد والمرامي في الإسلام تعتبر محورية في تحديد قبول أو رفض استخدام الذكاء الاصطناعي. ويجب أن يحافظ الإنسان على استقلاليته ولا يعتمد بشكل كامل على التكنولوجيا.

Artificial Intelligence: The Concept and Objectives with a Sharia Perspective.

ABSTRACT

Artificial intelligence has become an essential part of our daily lives and is no longer just science fiction. It now forms the foundation for the economies of countries and government budgets. Smart cities, self-driving vehicles like (AV), and drones demonstrate significant advancements in this area. Independent robots that learn and adapt on their own will transform the landscape of professional and personal services in the future.

There are jurisprudential and legal issues related to the development of artificial intelligence, especially with the advancement of robots that exhibit a high level of intelligence and independence in their actions, leading some analysts to consider the possibility of granting them legal rights.

The research's objective is to understand the concept of artificial intelligence, its techniques, and its impact from an Islamic jurisprudential perspective. There is a particular interest in determining the Islamic law's stance on artificial intelligence and its applications. The main hypothesis of the research is that applications related to artificial intelligence are consistent with Islamic rulings as long as they aim for benefit and do not cause harm.

The research concluded that artificial intelligence projects aim for the benefit of humanity, but deviations can occur. Intentions in Islam are central in determining the acceptance or rejection of using artificial intelligence. Humans must maintain their independence and not rely entirely on technology.

مقدمة

لم يتوقع أن يأتي يوم يجد فيه الفقهاء والقانونيون أنفسهم مطالبين بالبحث عن تكييفات فقهيَّة، وطبيعة قانونية لآلات جامدة باتت تحمل من الذكاء الاصطناعي والتعلم والتعليم الآلي والقرار الذاتي ما يجعلها قادرة على محاكاة السلوك البشري، ولربما التفوُّق في أشياء كثيرة، والقيام بما يقوم به الإنسانِ من وظائف وأعمال.

فالذكاء الاصطناعي اليوم لم يعد ضرباً من ضروب الخيال العلمي، ولم يعد البحث فيه وفي أحكامه نوعًا من أنواع التَّرف الفكري، بل إنه بات حقيقة واقعة يتَّجه العالم إليها بقوة، وستبنى عليه في السنوات القادمة اقتصاديات دول وميزانيات حكومات، فالمدن الذكية التي تُطوّر هنا وهناك، والمركبات المستقلة أو (AV) المركبات ذاتية القيادة (Autonomous Vehicles) التي يتوقع لها أن تستحوذ على مكانة رئيسة في النقل والمُوَاْصَلات في السنوات القليلة القادمة، والطائرات بدون طيار (Drones واستعمالاتها المدنيّة والتجاريّة التي انتشرت مؤخراً، والتي ستسيطر في المستقبل القريب على مجال الشحن والتوصيل، بعد أن سُمِح لشركات التجزئة وشركات البريد باستخدامها في مجال توصيل البضائع والطرود البريدية، وظهور الجيل الثاني من هذه الطائرات ذاتي التشغيل والتوجيه والتنفيذ (Autonomous Drones) ومايثيره من القضايا الأخلاقية والشرعية والقانونية المتعلقة بالتسليح، والحدود الفاصلة بين المشروع منه والمحظور، وانتشار الوكلاء الأذكياء في التجارة الإِلِكتِرُوْنِيَّة والاعتماد عليهم في إبرام العقود وتنفيذ المعاملات، وتطوير الروبوتات المستقلة التكيُّفِيَّة القادرة على التعّلم الآلي والتكّيف الذاتي والتطور الاجتماعي، والتي ستقتحم مجال الخدمات المهنية والمنزلية والشخصية في السنوات القادمة، وما تثيره هذه الروبوتات من قضايا فقهية وَقانونية تتعلق بتكييف طبيعتها الفقهية، وسط ما ينادي به بعض القانونيين اليوم من إضفاء صفة الشخصية القانونية والأهلية على هذه الروبوتات، نظرًا لما تحويه من ذكاء واستقلالية في التصرف يجعلها مغايرة تمام المغايرة لغيرها من الآلات التقليدية والأجهزة الصمّاء، وما تثيره هذه الروبوتات من مسائل تتعّلق بالمسؤولية والضمان في حال ما لو انفلتت فأحدثت ضررًا في نفس أو عضو أو مال، وما تثيره هذه الروبوتات robots من قضايا وأحكام، إلى غير ذلك من القضايا الأخرى المتعلقة بالذكاء الاصطناعي وتطبيقاته المختلفة، والتي فرضت كثيرًا من المسائل والمستجدات، في هذا البحث أردت أدلي بشيء من التوضيح على مفهوم الذكاء الاصطناعي إضافهإلى مشاريعه وتقنياته وتبيين أنواعه ومراحل تطوراته.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في أنَّ الذكاء الاصطناعي يعتبر من المواضيع المعاصرة والحديثة جداً، بل ربما هو أحدث ما توصل إليه العلم الحديث، وله آثاره على عدة أصعدة، ونحاول في هذا البحث تسليط الضوء قدر المستطاع على مايتعلق بمفهومه وتقنياته وأهدافه إضافة إلى مشاريعه ومراحل تطوراته وتكييفهبالمنظور الفقهيالإسلامي

هدف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تحديد المفهوم الخاص بالذكاء الاصطناعي وتقنياته الأساسية وأنواعه وحكمها في الشريعة الإِسْلَاْمِيَّة

مشكلة البحث:

أدى انتشار الذكاء الاصطناعي وتطبيقاته وتداخلها في مجالات عديدة في الحياة اليوميةإلى إثارة التساؤل حول رأي الشريعة الإسلامية فيذلك، وأصبح من المهم تبيان الرأي الشرعي لاستخدامه

فرضية البحث: لا تتعارض تطبيقات الذكاء الاصطناعي الخاصة وأنواعه مع الأحكام الشرعية ما دامت ضمن الشروط الشرعية التي تؤدي إلى المنفعة ولاتسبب الضرر.

هيكل البحث:

قسمت هذه الدراسة إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة، أما المقدمة فقد تكلمت فيها عن أهمية البحث وخطة الدراسة فيه، وأما المبحث الأول فقد تطرق الىالتعريف بالثورة الصناعية الرابعة المعاصرة وأهم تقنياتها، وأما المبحث الثاني فكان حول مشاريع الذكاء الاصطناعي وأنواعه ومراحل تطوره.

المبحث الأول

الثورة الصناعية الرابعة المعاصرة وآثارها وتقنياتها:

يركز العالم اليوم اهتمامه على ما يسمى (بالثورة الصناعية الرابعة) وتقنياتها وآثارها التي اجتاحت شتى جوانب الحياة، وغيرت كثيرًا من حاضر البشرية اليوم، وربما ستغيّر على المدى القريب كثيرًا من مستقبلها.

فابتداءً وتحديداً في عام ١٧٧٥م اخترع **جيمس واط** المحّرك البخاري الذي يعتمد على قوة الماء والبخار في تشغيل الآلات، ليكون هذا الاختراع أساسًا وانطلاقة لثورة صناعية عرفت باسم الثورة الصناعيّة الأولى، والتي نشأ في ظلها كثير من المشاريع الصناعيّة الكبرى التي تعتمد على الماكينات والآلات البخاريّة، بدلاً من الاعتماد على الأيدي البشريّة العاملة.

ثم في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ظهرت المحركات الكهربائية ومحطات توليد الكهرباء، ليحلَّ بظهورها المحرك الكهربائي محل المحرك البخاري في تسيير القاطرات والناقلات، وتشغيل الماكينات والآلات، ونظرًا لما أحدثته الكهرباء من تغيير كبير في المجتمعات، عرفت طفرتها باسم الثورة الصناعية الثانية.

ثم في الثلث الأخير من القرن الماضي وبالتحديد في عام ١٩٦٩م، ظهرت الحواسيب الإلِكتِرُوْنِيَّة،المتصلة فيما بينها عبر شبكة الاتصالات (الإنترنت (التي تعدُّ من أعظم الاكتشافات في مجال الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات، والتي أحدثت طفرة عالمية في شتّى مناحي الحياة، وتمركزت حولها جميع القطاعات في العالم، وقد عرفت طفرتها باسم الثورة الصناعية الثالثة، أو الثورة الرقمية، التي تحولت المجتمعات فيها إلى الاعتماد على المعلومات أكثر من اعتمادها على الآلات.

إلاّ أنَّ الحواسيب الإلِكتِرُوْنِيَّة التي أحدثت هذه الثورة الثالثة، وإن كانت تمتلك القدرة على معالجة الكم الهائل من البيانات والحسابات والعمليات الرياضية بسرعة تفوق قدرة البشر ملايين المرات، لم تزل عاجزة عن القيام بأبسط الأمور التي يقوم بها طفل صغير، كالتخاطب والتواصل مع الآخرين بواسطة اللغات الطبيعية، وكالتفكير والإدراك والتعلم الذاتي، واتخاذ القرارات المناسبة، والتعرّف على الأشياء المحيطة في البيئة الخارجية.... ونحو ذلك، لأنَّ الحاسوب وكما يفهم من اسمه فإنه يتعامل مع الحسابات والأرقام دون تفكير أو إدراك.

تفاعل الإنسان مع الآلة:

لم يقنع العلماء والمتخصصون من الحواسيب بذلك القدرالذي وصلوا إليه، وتحمسوا إلى مجيء يوم يتفوَّق فيه ذكاء الآلة على ذكاء الإنسان، مثلما تفوقت قوة الآلة الميكانيكية من قبل على قدرات الإنسان الجسدية، فركزوا أبحاثهم —منذ سنوات— على جعل الحواسيب الإلِكتِرُوْنِيَّة والآلات تفكر وتدرك، وتحس وتستشعر، وترى، وتتعّلم ذاتيًا، وتتخِذ قرارات، وتتواصل مع بعضها البعض، وتتخاطب مع البشر بلغاتهم الطبيعية، وتشعر بما حولها،

وتفهم الفعل، وتقوم بردة الفعل، وتحاكي في سلوكها الاصطناعي السلوك البشري تمامًا، بحيث تقرر كمايُقرر البشر، ومن ثم تتصرف كما يتصرفون، حتى قطعوا في ذلك شوطًا كبيرًا، وما زالوا مستمرين، فعولجت اللغات الطبيعية وأصبح من الطبيعي الآن إجراء حوار بين الإنسان والآلة بأي لغة من اللغات الطبيعية، بدًلا من لغات البرمجة التي لا يفهمها إلا المتخصصون، وهذا ما يسمى في علم الذكاء الاصطناعي باسم: (تفاعل الإنسان مع الآلة (Man Machine Iteraction (MMI)
وتمكنت الحواسيب والآلات من رؤية الاشياء المحيطة، والتعرف عليها، والاستشعار بها عن بعد من خلال التقنيات المسماة بـ (الرؤية الحاسوبية) أو رؤية الكمبيوتر (Computer Vision)، حتى أصبح الذكاء الاصطناعي اليوم قادرا —وبكل سهولة— على تمييز الصور، والوجوه، والتمييز بين الأشخاص، والتفرقة بين الأشياء، وتمييز الأصوات المسموعة، ومحاكاتها، وتحويلها إلى نصوص مكتوبة، وتحويل النصوص المكتوبة إلى نصوص مقروءة، واستطاعت الآلات والأجهزة من خلال تقنيات الذكاء الاصطناعي تلك التمييز بكل سهولة بين ملايين البشر باستخدام بصمات الأعين والأصابع وملامح الوجوه.

تقنيات انترنت الاشياء:

كما تقدمت بإزاء ذلك تقنياَت إنترنت الأشياء (IOT)nternet of things)) التي تعتمد على فكرة اتصال جميع الآلات والأجهزة الماديّة من حولنا بشبكة الإنترنت من خلال تقنيات ذكَية ورقائق مدمجة ملحقة بهذه الأشياء، بحيث تكون هذه الأشياء قادرة على التواصل فيما بينها بطريقة تمكنها من تبادل البيانات، واتخاذ القرارات، حتى أصبح الإنترنَت اليوم بمثابة الروح التي تبث في هذه الأجهزة الصمّاء والآلات الجامدة، لتجعلها تحسّ وترى وتسمع وتسجّل وتتواصل وتتفاعل من خلالبرمجيّات ذكيّة تحكم عملها.

الروبوتات:

ونتيجة لهذه التقنيات المتطوّرة صُمّمت الروبوتات التي تحاكي في تصرّفاتها وسلوكها سلوك البشر وتصرّفاتهم، وتقوم بالعديد من الوظائف والمهام التي كانت إلى وقت قريب حكرا على الإنسان، حتى زاحمت الروبوتات البشر وحلّت محلّهم في أداء كثير من الوظائف والمهام في شتّى القطاعات ومختلف المجالات، فاقتحمت مجال الطب والجراحة وتشخيص الأمراض، وَطَرَقَت مجال التعليم والصحافة والإذاعة وتأليف الكتب والروايات، ونافست العمال في مجالات التصنيع المختلفة، واعتمدت عليها الدول والحكومات في

أنظمة الدفاع والتسليح والعمل الشرطي والمدني، وأُوكلت إليها مهام قيادة الطائرات والسيارات والشاحنات وغيرها منوسائل النقل والمواصلات، فطورت الطائرات بدون طيار (Drones) المستخدمة في الأعمال العسكريّة والاستخباراتيّة الدوليّة، وفي الأغراض الحكوميّة المدنيّة كتقديم الإسعافات الأولية عن بعد، وإدارة الكوارث الطبيعية، وسمح لها مؤخّرًا في بعض البلدان بالعمل في مجال الشحن والتوصيل في مجال التجارة الإِلِكتِرُوْنِيَّة، والخدمات البريدية، كما طوّرت المركبات المستقلّة Autonomous vehicles))، وهي سيارات ذاتية القيادة تقل راكبيها من مكان لآخر دون تدخل ممن يستقلها، فبدلاً من أن يستخدم الإنسان خرائط جوجل (Google maps) للاستدلال على الطرق أثناء قيادة سيارته –كما هو متاح لنا الآن–، تقوم السيارات المستقلة بهذا الأمر بدلاً منه حتى توصله إلى الوجهة المطلوبة، وامتد الأمر ليشمل جميع شاحنات النقل العملاقة كالقطارات والسفن البحرية وغيرها من وسائل النقل والمواصلات.

تقنية الطباعة الثلاثية الابعاد:

وبإزاء هذه التطورات والتقنيات ظهرت وتطوّرت تقنيات أخرى هائلة، تعدُّ –بجانب الذكاء الاصطناعي– من أهم أدوات الثورة الصناعية الرابعة، وقد أحدثت هذه التقنيات طفرة هائلة في تطبيقات الذكاء الاصطناعي ومشاريعه المختلفة، بسبب التقارب والاندماج الحاصل بين جميع هذه التقنيات.

فظهرت تقنية الطباعة الثلاثية الأبعاد D printing 3ا) للطباعة المجسّمة، والتي يمكن أن يتم من خلالها تصنيع أي منتج ثلاثي الأبعاد، مجّسم وملموس، وذلك من خلال تصميمه على الحاسوب، ثم طباعته أو تصنيعه بالطابعة ثلاثية الأبعاد، بدلاً من التصنيع عن طريق القوالب أو النَحت، ليتم استخدامها في مجالات متعددة، كاستخدامها في صناعة مجّسمات بشرية كأجسام الروبوتات، أو استخدامها في مجال التشخيص الطبي في علم الأجنة، لطباعة الجنين في صورة مجّسمة من أجل الكشف المبكر عن التشوهات وسلامة الأعضاء، أو طباعة الأجهزة والأعضاء البشرية المريضة من أجل التشخيص الدقيق للأمراض المعقدة، أو تصنيع أطراف صناعيّة بديلة كالمفاصل والعظام، أو تصنيع أجهزة وخلايا بشرية، وأنسجة حّية كالجلد، لزرعها في جسم الإنسان بدلًا من الأعضاء والأنسجة التالفة، وهو ما يعرف باسم الطباعة الحيوية (bioprinting)، وقد نجح العلماء بالفعل من خلال تقنية الطابعة ثلاثية الأبعاد في طباعة طبقة للخلايا الجذعية البشرية، وطباعة الدعامات الطبية التي تستخدم في العمليات الجراحية

تقنيات النانو تكنولوجي:

كما تقدمت أيضًا تقنيات النانو تكنولوجى (Nanotechnology) وتقنيات التكنولوجيا الحيوية (Biotechnology)، التي أفادت الذكاء الاصطناعي في إنتاج روبوتات ذكَية نانوية (متناهية الصغر) يتم زرعها في الأجسام البشرية لتنطلق في شرايين الجسم لأغراض متنوعة ومختلفة، كما أفادت في إنتاج بدائل طبية تحل محّل العقاقير والأدوية، وفي تصنيع أعضاء بشرية اصطناعية بديلة يتم زرعها في الجسدعوًضا عن الأعضاء التالفة.

تقنيات الحوسبة الكمية:

كما تطوَّرت بشدة تقنيات الحوسبة الكمية والبيانات الضخمة التحليلية Big Data Analytics)) التي تعتمد عليها البرمجيات الذكَية والآلات المتعّلمة في التعّلم الآلي؛ لضبط سلوكها والحصول على تنبؤات مستقبلّية دقيقة وقرارات صحيحة، حتى أصبحت هذه البيانات بمثابة النفط للقرن الحادي والعشرين الذي تتكالب على جمعه والمتاجرة فيه كبرى الشركات العالمية، وتتنافس عليه الدول والحكومات، وأصبحت —نتيجة لذلك— البيانات الشخصية لملايين البشر محلاً لهذهالمتاجرات والاحتكارات.

تقنية سلاسل الكتل وشبكات البلوك تشين:

كما ظهرت في هذا العصر تقنية سلاسل الكتل وشبكات البلوك تشين (Blockchain) التي من المتوقع لها أن تغّير في السنوات المقبلة واقع العقود والمعاملات؛ نظرا لماتتميزبه هذه الشبكات من قدرة هائلة على حفظ المعاملات وتوثيقها بصورة آلية تشفيرية يستحيل معها التلاعب أو التزوير، ونظرًا لما تتيحه هذه الشبكات من إمكانية تنفيذ عقود المعاملات بصورة آلية ذاتية التشغيل لا يتدخل فيها بشر، الأمر الذي يتوقع معه قريبًا تغيير صورة العقود في المرحلة القادمة، وتحويلها من الصورة التَقليدية الحالية إلى ما يسمى بالعقود الذكَية أو العقودذاتية التشغيل، أو عقود البلوك تشين —كما يسميها البعض(، وما تعتمد عليه هذه المعاملات من تداولات بعملات افتراضية مشفرة (Crypto currencies) يتوقع لها أن تحّل في القريب العاجل محّل العملات الورقية التي بين أيدينا الآن، إلى غير ذلك من تقنيات هذه لثورة الرابعة التي ستغّير حياة الإنسان تغييرا جذريًّا في السنوات القادمة، والتي ستلقى بتطوراتها على كواهل الفقهاء عبئًا ثقيلًا من أجل تكييف مسائلها وتخريج أحكامها،

المبحث الثاني
الذكاء الاصطناعي ومشاريعه المختلفة

أولاً: التعريف بالذكاء الاصطناعي وأهدافه:

يُعدُّ الذكاء الاصطناعي (Arttificial Intelligence) (AI) الركيزة الأساسية للثورة الصناعية الرابعة التي يعيشها العالم اليوم، والعمود الفقري لها، ونقطة التحولالمهمة في هذا العصر، حيث تخطى العالم به عصر تقنية المعلومات، التي يعتمد الإنسان فيها على الَحاسوب في عملّية جمع البيانات واسترجاعها، بينما تتم عملية الاستدلال والاستنتاج واتخاذ القرارات –اعتمادًا على هذه البيانات– من جهة الإنسان نفسه لا من جهة الحاسوب، ليتجاوز العالم اليوم هذه النقطة، وتصير الحواسيب هي التي توجد الحلول وتتخذ القرارات بدلاً من الإنسان، بناءً على العديد من العمليات الاستدلالية المتنوعة التي ُتغذّى بها، حتى صارت الحواسيب قادرة على محاكاة السلوك البشري المتسم بالذكاء.

ففي مثال السيارة الذكَية (ذاتية القيادة): بدلاً من أن يستخدم الإنسان خرائط جوجل Google (maps) والمعلومات التي يقدمها له الحاسوب للاستدلال على الطرق أثناء قيادة سيارته، صارت السيارة ذاتية القيادة هي التي تقوم بهذا الأمر بدلاً منه،اعتماداً على مأْغذّيت به من معلومات وبيانات، وما زودت به من كاميرات ومستشعرات، وهذا ما نعني به الانتقال من عصر المعلومات (الثورة الثالثة) إلى عصر جديد تقوم فيه الآلة بما يقوم به الإنسان، وهو ما يسمى بـ اعصر الذكاء الاصطناعي، ومن أجل ذلك عّرف العلماء الذكاء الاصطناعي بأنه: العلم المتعلق بصناعة الآلات وتصميم البرمجيات التي تقوم بأنشطة ومهام تتطلب ذكاء إذا قام بها الإنسان، أو أنه: العلم الذي يهدف إلى صناعة آلالات وتطوير حواسيب وبرمجيات تكتسب صفة الذكاء، ويكون لها القدرة على القيام بمهام ما زالت إلى عهد قريب حصرًا على الإنسان.

وحتى يقوم باحثُو الذكاء الاصطناعي بتصميم برمجّية ذكّية تحَل محَل الإنسان في مهمة أو نشاط ما، كالانتقال من مكان إلى مكان –كما في مثال السيارة ذاتية القيادة– أو حل لغز أو الإجابة على مسألة رياضيّة معقدة، أو تشخيص طبي لمرضي من الأمراض، أو حراسة أمنيّة كما في روبوتات الحراسة، أو حتى كتابة مقال صحفيّ، أونظم قصيدة شعرية... أو أي نشاط آخر –وجميعها نشاطات تقوم بها الآلات والروبوتات اليوم–، لكي يقوم باحث الذكاء الاصطناعي بذلك، عليه أن يقوم بدراسة جميع العمليات الذهنيّة والحركيّة والحسيّة التي يقوم بها الإنسان عادة لأداء هذه المهمة، ووضع الفروض عمّا

يستخدمه الإنسان للقيام بهذا النشاط من معلومات واستدلالات، ويقوم بإدخالها في برنامج للحاسب الآلي، تُزوّد به الآلة المصممة لتقوم بأداء هذا النشاط بدلًا عن الإنسان2، ولا تكون الآلة ذكية —وكذا لا يكون التطبيق أو البرنامج ذكياً— إلا إذا كان مزوداً بتقنيات الذكاء الاصطناعي التي تجعله قادراً على الاستقلالية في اتخاذ القرار دون اعتماد مباشر على الإنسان، وإلا فما الفرق بين السيارة التقليديّة والسيارة ذاتية القيادة؟!... وهكذا جميع الآلات الذكيّة؛ إذ لا تتسم أي آلة أو برمجية بالذكاء الاصطناعي إلاّ إذا كانت قادرة على التعّلم الذاتي، وجمع البيانات وتحليلها، واتخاذ قرارات بناءً على عملية التحليل بصورة تحاكي طريقة تفكير البشر.

فثمة ثلاث صفات أساسية لا بدَّ من توافرها في الآلة أو البرمجيّة الذكيّة، وهي:

أولاً: القدرة على التعّلم التلقائي أو التعلم الآلي Machine Learning، وذلك بالاستفادة من التجارب والبيانات، واكتساب المعلومات الجديدة، ووضع قواعد لاستخدام هذه المعلومات.

ثانيا: جمع البيانات والمعلومات، وتحليلها، وخلق علاقات فيما بينها، للاستفادةمنها استفادة صحيحة.

ثالثا: اتخاذ قرارات بناءً على عملية تحليل البيانات السابقة.1

بهذه الصفات المذكورة تصير الآلة أو البرمجيّة ذكيةّ وقادرة على القيام تلقائيًا بسلوك غير مبرمج مسبقاً، وتستطيع من نفسها أخذ القرار للتكُيف مع حالتها وحالة البيئة المحيطة بها، إما باستقلاليَّة تامة عن الإنسان، أو باستقلاَلية جزئّية خاضعة لتَحّكم الإنسان، الأمر الذي يوحي بفكرة الحرية المطلقة للآلة في أخذ القرارات في المستقبل القريب، وهو شيء يتخوّف منه العلماء والمفكرون والقانونيون الآن، لأن أبحاث الذكاء الاصطناعي تختلف عماّ عهده العلم التجريبي في المختبرات على مّر العصور السابقة، حيث كان العالم يدرك جيدا هدف وسلوك اختراعه، ويستطيع بكَل سهولة التدخل عند الحاجة للسيطرة على اختراعه، لكن في ظل أبحاث الذكاء الاصطناعي الفائق، والذي يهدف إلى تصميم آلات وربوتات متطورة ومستقلة استقلالية تامة عن الإنسان في اتخاذ قراراتها، قد يجعل الأمر خارج حدود السيطرة، الأمر الذي يستوجب على الدول والحكومات الاتفاق على جملة من المعايير الأخلاقية والقانونية الضابطة لتقنيات الذكاء الاصطناعي ومشاريعه المستقبلية.

ثانياً: أنواع الذكاء الاصطناعي ومراحل تطوره:

لقد كان الذكاء الاصطناعي في بدايته يهدف إلى تقليد الذكاء البشري وفهم قدرته على الإدراك ومعالجة المعلومات واتخاذ القرارات، ومحاولة محاكاة ذلك من خلال أنظمة الحاسوب وبرامجه، لكن الأمر تطوّر بعد ذلك، وتجاوز طموح العلماء فكرة المحاكاة، وفكروا في إنتاج وبرمجة ذكاء اصطناعي يضاهي ذكاء البشر في كل المجالات ويتفوّق عليه، فطمحوا إلى تصميم آلات وبرمجيات تستقَل ذاتيّا في جمع المعلومات عن طريق التفاعل مع العالم الماديِّ المحيط بها، والإدراك الكامل لما فيه من نصوص مكتوبة، سواء كانت في المجلات أو الكتب أو في شبكة الإنترنت، والقدرة على فهم وتوصيف المرئيّات المعروضة في وسائل الإعلام بجميع أشكالها، مما يتيح لهذه الآلات القدرة على التعلم الذاتي، وتطوير ذاتها بعيداً عن تحكّم الإنسان، ومن ثم الاستقلالّية الكاملة في التصرفات واتخاذ القرارات، فبات الأمر يتعلق بالتفكير في تصميم آلات وروبوتات كأنها كائنات جديدة ستشاركنا العيش على هذا الكوكب، الأمر الذي لا يمكن معه أن نعتبر الذكاء الاصطناعي كله على درجة واحدة من حيث قوة مشاريعه وتفوّق أبحاثه وتطبيقاته، ومن أجل ذلك قسم العلماء الذكاء الاصطناعيبحسب قوته وخطورته إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الذكاء الاصطناعي المحدود أو الضعيف:

وهو أبسط أشكال الذكاء الاصطناعي، وهو الذكاء الاصطناعي المنتشر اليوم والموجود حاليّاً على نطاق واسع2، ويهدف هذا النوع من الذكاء إلى تصميم آلات وبرمجيات ذكَية تحاكي العقل البشري في أداء مهمة واحدة من مهامه، وفق برمجيات مسبقة لا يمكن لها أن تحيد عنها بأي حال من الأحوال، لأن تصرفاتها تعَد بمثابة ردود أفعال على مواقف معينة تُم برمجتها عليها مسبقاً، ومن أجل ذلك سميت هذه الأنظمة بالذكاء الاصطناعي المحدود أو الضعيف، لأنها أنظمة لا تمتلك ذكاءً عاماً وإنما تمتلك ذكاءً محدداً يحاكي الذكاء البشري في منطقة محددة، ولا يمكن لها أن تقوم بمهمتها إذا تجاوزت منطقتها، أو خرجت عن القواعد التي فرضت عليها.

ومن أمثلة هذه الآلات والبرمجيات: **الروبوتات الصناعية** المبرمجة على العمل في المصانع لأداء مهامَّ محَددةً ومعينةً، **وأجهزة الصراف الآلي** (ATMs) التي تعمل وفق نظم ذكية محددة المهام،1 ، ومثل **برمجيات الكلام التلقائي، وبرمجيات التعرف على الصور**2، ومثل **الروبوت** اديب بلو Deep Blueالذي صممته شركة IBM وهى شركة

متخصصة في صناعة وتطوير الحواسيب والبرمجيات، والتي صممت هذا الحاسوب من أجل التفوق في لعبة الشطرنج، حتى استطاع بالفعل في سنة ١٩٩٧م هزيمة بطل العالم في هذه اللعبة3، ومن أمثلته الشائعة في حياتنا اليومية أيضا ترشيحات الأخبار المفضلة التي تظهر للمستخدمين على مواقع الإنترنت المختلفة وشبكات التواصل الاجتماعي، بمجرد البحث عن خبر مشابه أو قراءته، وكذا ترشيحات الإعلانات التسويقية للبضائع والمنتجات التي نحتاجها بالفعل ونتفاجأ بعرضها لنا يومّيا على حساباتنا الشخصيّة على المواقع والشبكات، مع أننا لم نقم بالبحث عنها، ولكنه الذكاء الاصطناعي الذي يجمع البيانات والمعلومات عن جميع تصرفاتنا واهتماماتنا على شبكة الإنترنت دون أن نشعر، ويتعلم منها تعلما آليّا يدفعه إلى عرض تلك المنتجات لنا، وكلما زاد حجم البيانات التي يتم جمعها عن المستخدم، كانت النتائج أدق، والترشيحاُت أفضل، وشبيه بذلك أيضاً ترشيحات الأصدقاء على الفيس بوك Facebook وغيره من شبكات التواصل الاجتماعي، فجميعها أنظمة وبرمجيات تعتمد على الذكاء الاصطناعي المحدود،

وغير ذلك من الأنظمة الذكية الموجودة والمنتشرة في عالمنا الآن والتي أثبتت بالفعل كفاءتها وتفوقها على الإنسان في أداء المهمة التي صممت من أجلها، فروبوت التصنيع مثلا تنتمي إلى أنظمة الذكاء المحدود، ومع ذلك تعد من أدق أنظمة الذكاء الاصطناعي التي تقوم بأداء مهامها **بشكل دقيق ومعّقد للغاية، ويتجاوز قدرة البشر أنفسهم، وأنظمة الصراف الآلي والأنظمة الأمنية المميّزة للأشخاص، والأنظمة العاملة في مجال ترجمة اللغات.. وغير ذلك من الأنظمة الذكَية المحدودة قد تفوقت بالفعل على البشر في تلك المهام وأثبتت كفاءتها.**

وهذا ما دفع العلماء والمتخصصين إلى التفكير في عدم الاكتفاء بهذا النوع من الذكاء المحدود، والانتقال من فكرةِ محاكاة الذكاء الإنساني في مجالات محدودة إلى فكرة غرس الذكاء البشري بجميع أشكاله وبكل مجالاته في الآلات والروبوتات، لجعلها قادرة على التعّلم الذاتي، ومستقلة عن الإنسان في قراراتها، الأمر الذي أدى إلى ظهور أنواع جديدة ومتقدمة من الذكاء الاصطناعي، نتعرف عليها في الأقسام التالية.

النوع الثاني: الذكاء الاصطناعي العام أو القوي:

الذكاء الاصطناعي العام أو القوي مصطلح يستخدم لوصف عملية تطوير الذكاء الاصطناعي إلى الدرجة التي تكون فيها الآلة مساوية فكريا ووظيفيّا للإنسان، فهو ذكاء اصطناعي يهدف إلى تصميم آلات وبرمجيات لا تحتاج إلى مثل هذه الإرشادات الواضحة والقواعد

المفروضة في أدوات الذكاء الاصطناعي المحدود، بل يمكنها العمل بالاستناد إلى رؤى تكتسبها بذاتها من البيانات والخبرات والتجارب، بحيث تكون قادرة على الاستقلال في جمع المعلومات وتحليلها، وتحقيق تراكم خبرات من المواقف التي تكتسبها، بحيث يؤهلها لاتخاذ قرارات ذاتية ومستقلة عن الإنسان، فإذا كانت أدوات الذكاء الاصطناعي المحدود تعمل تحت سيطرة الإنسان، فالأمر على النقيض تماما في أدوات الذكاء الاصطناعي العام أو القوي، فإنها تعمل باستقلالية،

وهذا النوع من الذكاء أصبح واقعًا بالفعل، غير أنه لم يحظ بالانتشار الواسع إلى الآن مثلما حظيت به أدوات الذكاء الاصطناعي المحدود، ومن أمثلته الآن: الروبوتات الطبية المستخدمة في التشخيص الطبي، كتلك الآلات الذكَية التي تقوم اليوم بتشخيص الأورام، كالأورام الجلدية وغيرها، اعتماداً على تقنيات التعرّف على الصور الفوتوغرافية للشامات الجلدية المختلفة، وتعطي في ذلك نتائج دقيقة تفوق تشخيصات كثير من الأطباء المتخصصين، وكذا الروبوتات المستخدمة في الطب الإشعاعي، والطب الجراحي، وكذا المركبات المستقلّة ذاتيّة القيادة، والطائرات بدون طيار، ومشروع التاكسي الطائر، وأنظمة الدفاع العسكري، والروبوتات العسكرية والأمنيّة، وروبوتات الدردشة وخدمة العملاء، والروبوتات المختصة بكتابة أنواع معينة من التقارير الإخبارية، وغير ذلك من أدوات الذكاء الاصطناعي التي تعمل باستقلالية تامة في اتخاذ القرارات بعيدًا عن سيطرة الإنسان، والتي تستطيع بسرعة فائقة أن تستجيب للمنبهات والمستشعرات، وأن تعَدل سلوكها وتتكيّف مع محيطها على غرار الإنسان وغيره من الكائنات الحية.

النوع الثالث: الذكاء الاصطناعي الفائق:

يُعدُّ الذكاء الاصطناعي الفائق من أخطر أنواع الذكاء الاصطناعي التي يطمح العلماء الوصول إليها في المستقبل، والتي لا تزال أبحاثهم فيه إلى الآن تحت التجربة، ولم يزل هذا النوع ضربا من الخيال العلمي حتى اليوم، ويهدف هذا النوع من الذكاء إلى تطبيق كل مجالات الذكاء الإنساني بعمقها وتعقيدها على الآلات والماكينات لتصميم آلات تفوق مخ الإنسان وقدراته البيولوجية، وتتفوق عليه في الذكاء والدقة والسرعة والأداء، وقد تزايدت بحوث العلماء في هذا الاتجاه بعد التقدم العلمي الهائل في مجال الهندسة الوراثية، والثورة التكنولوجية التي حدثت في مجالي التكنولوجيا الحيوية Biotech-nology والتكنولوجيا النانوية (النانوتكنولوجي(Nanotechnology، حيث يعمل العلماء منذ سنوات على إجراء هندسة عكسيّة ومسح شامل للمخ البشري باستخدام

بلايين الماسحات أو النانويات متناهية الصغر التي تستطيع أن تتجول داخل الشعيرات الدمّوية لتمسح المخ البشري من الداخل، من أجل فك شفرة المخ، وفهم الدماغ البشري وطريقة عمله بما يحويه من خلايا عصبية، مثلما فعلوا في مشروع الجينوم البشري، ويتوقع بعض علماء الذكاء الاصطناعي أنَّ باستطاعتهم في السنوات القادمة تحديد مئات المناطق داخل المخ البشري التي من الممكن أن يزرعوا بها شرائح نانوية متناهية الصغر، ووسائط غير بيولوجية تعمل بصورة خارقة تفوق عمل الخلايا العصبية الطبيعية (البيولوجية) الموجودة داخل المخ البشري، ويرى العلماء أن ذلك الطموح ليس بعيداً لأنه توجد بالفعل أمثلة لآلات ذكية مزروعة داخل العقل البشري الآن عن طريق زراعة الأعصاب، فقد اخترع (Alim Louis benabid)الطبيب الفرنسي الجزائري الأصل عليم لويس بن عبيد (مولودسنة١٩٤٢م) علاجا لمرض الشلل الرعاش، يتمثل في استبدال الخلايا البيولوجية المدُمرة في المخ بوسائط اصطناعية غير بيولوجية، وقد استطاع أن يقدم عرضاً لحالة يسيطر فيها على الخلايا المزروعة من خلال جهاز تحّكم عن بعد، وعندما يطفئ الجهاز يتصلّب المريض، وعندما يقوم بتشغيله يعود المريض للنشاط الطبيعي مرة أخرى، هذا الأمر الذي جعل العلماء يتوقعون بأن العمليات الطبية التي تعتمدعلى تقنية النانو، ستتمكن في السنوات القادمة من استهداف الأمراض والجينات، وتعويض الأعضاء والخلايا الواهنة منها والمريضة بأجهزة اصطناعية بديلة تؤدي عمل الأجهزة البيولوجية بنفس الدقة والكفاءة، ومن ثُم توقعوا في المستقبل حصولالزيادة في متوسط عمر الإنسان بفضل هذه الأعضاء الإِلِكتِرُوْنِيَّة والروبوتات النانويةالتي سيتم استخدامها داخل جسم الإنسان ككشّافة عن الأعضاء والخلايا المريضة، وبناء أعضاء إلكترونية بديلة، بل إن تفكيرهم تجاوز حدود المرضى من البشر إلى الأصحاء منهم، ففكروا في التهجين بين الإنسان والآلة، والمزاوجة بين الذكاء البيولوجي (الطبيعي) والذكاء الاصطناعي، أو بين التكنولوجي والبيولوجي من خلال زراعة شرائح ذكّية نانوية (متناهية الصغر) داخل المخ البشري لربطه بالسحابة الإِلِكتِرُوْنِيَّة وبشبكات الإنترنت، لرفع مستوى الذكاء والأداء البشري إلى مستويات خارقة.

ويتوقع بعض العلماء العاملين في المجال أنه بحلول عام ٢٠٣٠م سيكون بمقدورهم إرسال بلايين النانويات داخل المخ البشري لتتصل لا سلكياً مع بلايين النقاط المختلفة في المخ، بهدف ربط الذكاء البيولوجي بالذكاء الاصطناعي غير البيولوجي، وأنه سيكون بمقدورهم إنتاج كيانات كاملة غير بيولوجية تحمل نسخا من المخ البشري منتجة عن طريق الهندسة العكسية، وأنه سيكون بمقدورهم تهجين بشر بيولوجيين يحملون في

رؤوسهم بليونات من النانويات لرفع مستوى ذكائهم وأدائهم.هذه المشاريع والأبحاث التي رُوِّج لها في الغرب الآن عدد ليس بالقليل من أنصار حركة (ما بعد الإنسانية) الذين ينادون بالاستفادة بجميع التقنيات التي يتيحها العلم الآن في تعزيز الأجسام البشرية وتضخيم قدراتهم وتعديل جيناتهم، لبناء (إنسان خارق (Cyborg)(تتعدى قدراته الجسدّية إلى ما هو أبعد من القيود البشرية البيولوجية، الشخص الذي يتم ترميم جسمه واستبدال أعضائه التالفة بأعضاء اصطناعية بديلة؛ اعتماداً على تقنيات النانو والطباعة الحيوية والذكاء الاصطناعي، أو يتم تصميمه من البداية بحسب الطلب بالتعديل الجيني عن طريق الهندسة الوراثية (تصميم الأطفال)، أو يتم تهجينه وإخضاعه لتغييرات وتدخلات غير بيولوجية على جسمه بهدف تحسين قدراته، فيكون نصفه إنساناً والنصف الآخر منه آلة، مما يجعله قادراً على تحمّل الألم، ومقاومة المرض، بل ومقاومة الشيخوخة والموت —من وجهة نظر أصحاب هذه الحركة—، التي اعتبرها البعض أنها أخطر فكرة عرفتها البشرية اليوم؛ بسبب ما تدعو إليه من تحدّي الخالق جَلّ وعلا وتشويه الخلق، الأمر الذي يدفع بشّدة إلى المناداة بضرورة وضع مجموعة من المواثيق الدولية والقوانين الأخلاقية الحاكمة لمشاريع الذكاء الاصطناعي وتطوراته، يتفق العالم عليها ويحتكم إليها في تطوير هذه الأبحاث، مثلما اتفقوا من قبل على أخلاقيات البيولوجيا والهندسة الوراثية؛ حتى نضمن أنيعمَل الذكاء الاصطناعي في المستقبل لصالح الإنسانيّة لا على حساب البشريّة.

الرؤيا الشرعية للذكاء الاصطناعي:

إن علوم الذكاء الاصطناعي لاتتصادم مع الدين مادام هناك التزام بالضوابط الشرعية، حيث إنَّ العلم هو خادم لجلب المنفعة ودرء للمفسدة.

كذلك إنَّ الذكاء الاصطناعي لايتعارض بأي وجه من الوجوه مع تفرد الخالق جلَّ وعلا بالخلق، قال تعالى: (**هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**).وليس فيه مضاهاة صفات الخالق سبحانه وتعالى، ذلك أن المضاهاة لكي تكون مضاهاة لابُدَّ فيها من نيّة إيهام الناس إنك عندك قدرة كقدرة الله تعالى ، يقول: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**» ، فإذا خلا قلبك من النيّة فإنَّ هذه الأعمال الفنية أو الخزفية وماشابهها ليس بها تحريم ما دامت كذلك، ويمكن القول أنَّ الذكاء الاصطناعي والإنسان الآلي وماشابهها ليس فيها مضاهاة لخلق الله تعالى لامن

قريب ولامن بعيد.... إلا أنَّه يلزم الاحتراز دومًا والرجوع لقواعد الشريعة الضابطة لسلوك البشر، ثم إن تحقق نماذج لهذا النوع من الذكاء لايُخرج الآلة عن كونها آلة، ولايوفِّر لها صفاتالكائنات الحية، ناهيك عن أهمِّ شيءٍ وهو وجود الروح التي هي من أمر الله تعالى وحده، قال تعالى:(**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**)

الاستنتاجات:

أَوَّلاً: إنَّ الذّكاءَ الاصطناعيَّ هو أساسُ ومرتكزُ الثورةِ الصناعيّةِ الرابعةِ(ثورةُ القرنِ الحادي والعشرين) والتي فرضت على الفقهاءِ كثيرًا من النوازلِ والمستجداتِ التي يجبُ عليهم أن يتصدّوا لبيان وتوضيح أحكامها.

ثانياً: مشاريعُ الذّكاءِ الاصطناعيِّمختلفةٌ ومتنوّعةٌ، وهي في المجمل قد أتت منأجلنفع البشريّة، ولكن ممكن أن تكون أو تحصل هناك انحرافات في أبحاثه (مقصودة أحياناً، وغير مقصودة)

ثالِثاً:إنَّ الغاية والنية في الإسلام تعتبر مهمة في تحديد ما إذا كانت الفعلية مقبولة أم لا. فإذا تم استخدام الذكاء الاصطناعي لأغراض نافعة وجيدة مثل التعليم والطب وتحسين نوعية الحياة فيعتبر ذلك مقبولًا. ولكن إذا تم استخدامه لأغراض ضارة أو محرمة، فيعتبر ذلك مرفوضًا.

رابعاً: يجب أنْلا يصبح الإنسان معتمدًا بشكل كامل على التكنولوجيا حتى يفقد قدرته على القيام بواجباته الدينية أو الأخلاقية

خامساً: هناك بعض القضايا المتعلقة بمحاولة صنع آلات تحاكي الإنسان بشكل كامل في الشكل والسلوك، وهو موضوع قد يثير جدلًا في الأوساط الدينية

سادساً: تتعارض فكرة ما بعد الانسانية مع أصول الشريعة الإِسْلَاْمِيَّة وقواعدها تعارضاً كبيراً، لما تنطوي عليه الفكرة من طمس للفطرة الإنسانية، وتغيير للطبيعة البشرية، وبسبب ما تدعو إليه من تحدّي الخالق جَلّ وعلا.

التوصيات

أولاً:التأكيد على أن مشاريع الذكاء الاصطناعي يجب أن تتطور وفق معايير وضوابط أخلاقية مضبوطة ومصاغة بشكل صارم.

ثانياً:أن مشاريع الذكاء الاصطناعي وأبحاثه تتطور بسرعة فائقة، فينبغي أن تكون البيئة

القانونيـة التي تنظمه مواكبة له ومتناسبة مع تطـورات أبحاثه ومشاريعه.
ثالثاً: التأكـد قدر الإمكان من أثر الروبوتات المسـتقلة بأنواعهـا المختلفة على الإنسان، لضمان السلامة قبل السماح لها بالعمل.
رابعاً: التأكيد على أن مشاريع الذكـاء الاصطناعي وأبحاثه يجب أن تتطور وتتقدم في ظل قانون دولي تتبناه الأمم المتحدة أو غيرها من المؤسسـات والمنظمات المعنية حتى نستطيع أن نسـتغلَّ أحسـن ما في هذه التكنولوجيـا، وأن نطوعها لتعمل لصالحنا، لا على حسـابنا.. ولله سبحانه وتعالى ولي التوفيق والقادر عليه وهو الهادي الى سـواء السبيل.

المصادر والمراجع

1. لاري، هيثواي، 2016م، **إتقان الثورة الصناعية الرابعة**، مقالة منشورة بمجلة فكر الصادرة عن مركز العبيكان للأبحاث والنشر،السعودية، العدد ١٤ أبريل٢٠١٦م،

2.عبد النور، عادل، 2005م، **مدخل إلى عالم الـذكاء الاصطناعي**، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، السعودية،

3.آلان بونيه، 1993م، **الذكاء الاصطناعي: واقعه ومستقبله**، عالم المعرفة، ترجمة: علي صبري.

4.غازي، عز الدين، 2005م، **الـذكاء الاصطناعي، هل هو تكنولوجيا رمزية؟** بحث منشور بمجلة فكر: العلوم الإنسانية والاجتماعية، منشورات فكر، المغرب، العدد السادس، سنة ٢٠٠٥م.

5.خليفة، إيهاب، 2017م، **إنترنت الأشياء: تهديدات أمنية متزايدة للأجهزة المتصلة بالإنترنت**، تقرير ملحق بمجلة اتجاهات الأحداث الصادرة عن مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة– دبي، العدد ١٩،سنة١٧.

6.خليفة، إيهاب، 2019م، **مجتمع ما بعد المعلومات: تأثير الثورة الصناعية الرابعة على الأمن القومي**، دارالعربي للنشر والتوزيع، القاهرة،الطبعة الأولى،

7.كالوس، شواب، 2017م، **الثورة الصناعية الرابعة**، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة، دبي، الامارات العربية المتحدة، ط10.

8.ابراهيم، حسام، 2017م، **التداعيات الأمنية للتحولات التكنولوجية السريعة في العالم**، سلسلة دراسة المستقبل، مجلة اتجاهات الأحداث، مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة– دبي، العدد13.

9.البرعي، أحمد سعد، 2021م، بحث مستقل بعنوان: **تكنولوجيا سلاسل الكتل وأثرها في توثيق المعاملات المدنية وحماية المحررات الرسمية**، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي،الكويت، العدد24،

10.البرعي، احمد سعد، 2020م، بحث مستقل بعنوان: **إنشاء عقود المعاملات وتنفيذها بين الطرق التقليدية وتقنية (البلوك تشين)والعقودالذكية**– دراسة فقهية مقارنة،المجلة العلمية لكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين، القاهرة، المجلد التاسع والثلاثون.

11.**استشراف مستقبل المعرفة**، 2017م، تقرير صادر عن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة والمكتب الإقليمي للدول العربية– برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، الغرير للطباعة والنشر، دبي– الإمارات العربية المتحدة.

12.موسى، عبدالله، 2019م، **الذكاء الاصطناعي: ثورة في تقنيات العصر**، المجموعة العربيةللتدريب والنشر– القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٩م

13.الغبطاني، ابراهيم، 2018م، **فرص وتهديدات الذكاء الاصطناعي في السنوات العشر القادمة**، منشور بملحق تقرير المستقبل الصادر مع مجلة اتجاهات الأحداث الصادرة عن مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة– أبو ظبي، العدد ٢٧، سنة ٢٠١٨م،

14.سامية شهيبيقمورة، باي محمد، حيزية كروش، 2018م، **الذكاء الاصطناعي بين الواقع والمأمول**: دراسة تقنية وميدانية، بحث منشور ضمن أعمال الملتقى الدولي للذكاء الاصطناعي: تحّد جديد للقانون– الجزائر،

15.مذكور، مليكة، 2020م، **دور المنطق المرن في تطوير أبحاث الذكاء الاصطناعي في مجال اللغة**، بحث منشور بمجلةالرك للفلسفة واللسانيات والعلوم ااالجتماعية، العدد ٢٣٧، سنة ٢٠٢٠م،

16.أوسوندي أوسوبا، وليام ويلسر الرابع، 2017م،**الذكاء الاصطناعي: ثورة في تقنيات العصر**، صل٢٩،٣٠، **والذكاء الاصطناعي: ملامح وتداعيات هيمنة الآلات الذكية على حياة البشر** ص٩، **والذكاء الاصطناعي بملامح بشرية: مخاطر التحيز والأخطاء في الذكاء الاصطناعي**، نشر مؤسسة راند، كاليفورنيا.

17.أوسوندي أوسوبا، وليام ويلسر الرابع، 2017م، **الذكاء الاصطناعي: ثورة في تقنيات العصر**، ص٢٩– ٣٠، **والذكاء الاصطناعي: ملامح وتداعيات هيمنة الآلات**، نشر مؤسسة راند، كاليفورنيا،

18.منع سيثباوم، 2019م،**حدوث نهاية العالم بسبب الذكاء الاصطناعي**، ،مقالة منشورة بمجلة فكر– مركز العبيكانللأبحاث والنشر، الرياض، السعودية، العدد ٢٤،سنة ٢٠١٩م،

19.جان غابريال غاناسيا، 2018م، **الذكاء الاصطناعي بين الأسطورة والواقع**، مقال منشور بمجلة رسالة اليونسكو،

20.راي كورزويل،2001م، **مستقبل الإنسانية في ضوء مشاريع الذكاء الاصطناعي الفائق، الذكاء الاصطناعي: مالمح وتداعيات هيمنة الآلات الذكية على حياة البشر، وداعا للبيولوجيا مرحبا بالبرمجيات**، مقال منشور بمجلة، رسالة اليونسكو– أغسطس٢٠٠١م،

21.روبوتات وبشر، فانسيا إيفرس، 2018م، **مقالة منشورة بمجلة رسالة اليونسكو**، ص1 ،والبرعين أحمدسعد، وآخرون، 2022م، **بحث بعنوان: التعديلات البيولوجية على الجسدالإنساني من خلال الذكاء الاصطناعي، منظور ديني**، مجلة جامعة الملك فيصل للعلوم الإنسانية والإدارية– السعودية، مجلد٢٣،

22. الادريسي، خالدميار، 2018م،**معجم الذكاء الاصطناعي**، مجلة رسالة اليونسكو– سبتمبر ٢٠١٨م.

23. المصدق، حسن، 2006م، **آفاق علم السبرنطيقا في عصر إنسان السيبورغ**، بحث منشور بمجلة مدارات فلسفية، الجمعية الفلسفيةالمغربية– عدد ١٤،سنة٢٠٠٦ م،

24.كحيل، مصطفى، 2018م، **معجم الذكاء الاصطناعي**، بحث منشور بمجلة إسلامية المعرفة– المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الاردن، مجلد ٢٤، عدد ٩٥، سنة ٢٠١٩م،

المواقع الاجنبية

The Age of Spiritual Machines,Ray Kurzweil, Viking 1999, USA, Page 161

مواقع الانترنت https://www.marefa.org/

1– جيمس واط (1736–1819 م) مخترع اسكتلندي أعطى للعالم إحدى أعظم الآلات في التاريخ(المحرك البخاري المكثف) التي فجرت الثورة الصناعية، https://www.marefa.org/

2– ينظر: بتصرف: لاري، هيثواي، 2016م، إتقان الثورة الصناعية الرابعة، مقالة منشورة بمجلة فكر الصادرة عن مركز العبيكان للأبحاث والنشر، السعودية، العدد ١٤ أبريل٢٠١٦م، ص 112–113.

3– ينظر: بتصرف:عبد النور، عادل، 2005م، مدخل إلى عالم الذكاء الاصطناعي، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، السعودية، ص57.

4– ينظر بتصرف: آلان بونيه، 1993م، الذكاء الاصطناعي: واقعه ومستقبله، عالم المعرفة، ص27، ترجمة: علي صبري.

5– ينظر: غازي، عز الدين، 2005م، الذكاء الاصطناعي، هل هو تكنولوجيا رمزية؟ بحث منشور بمجلة فكر: العلوم الإنسانية والاجتماعية، منشورات فكر، المغرب، العدد السادس، سنة ٢٠٠٥م، ص٧١.

6– خليفة، إيهاب، 2017م، إنترنت الأشياء: تهديدات أمنية متزايدة للأجهزة المتصلة بالإنترنت، تقرير ملحق بمجلة اتجاهات الأحداث الصادرة عن مركز المستقبل للأبحاث والدراسات

المتقدمة– دبي، العدد ١٩،سنة١٧ ٢٠م،ص٥٩.

7– ينظر: خليفة، إيهاب، 2019م، مجتمع ما بعد المعلومات: تأثير الثورة الصناعية الرابعة على الأمن القومي، دارالعربي للنشر والتوزيع، القاهرة،الطبعة الأولى، ص9، 10

8– كالوس، شواب، 2017م، الثورة الصناعية الرابعة، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة، دبي، الامارات العربية المتحدة، ط1ن ص10.

9– ابراهيم، حسام، 2017م، التداعيات الأمنية للتحولات التكنولوجية السريعة في العالم، سلسلة دراسة المستقبل، مجلة اتجاهات الأحداث، مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة– دبي، العدد24، ص13.

10– البرعي، أحمد سعد، 2021م، بحث مستقل بعنوان: تكنولوجيا سلاسل الكتل وأثرها في توثيق المعاملات المدنية وحماية لمحررات الرسمية، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي،الكويت، العدد24، ص107إلى141.١٤١

11– البرعي، أحمد سعد، 2020م، بحث مستقل بعنوان: إنشاء عقود المعاملات وتنفيذها بين الطرق التقليدية وتقنية (البلوك تشين)والعقودالذكية– دراسة فقهية مقارنة،المجلة العلمية لكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين، القاهرة، المجلد التاسع والثلاثون، ص30، 32.

12– استشراف مستقبل المعرفة، 2017م، تقرير صادر عن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة والمكتب الإقليمي للدول العربية– برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، الغرير للطباعة والنشر، دبي– الإمارات العربية المتحدة، ص3 وما بعدها.

13– ينظر بتصرف: آلان بونيه، 1993م، الذكاء الاصطناعي: واقعه ومستقبله، عالم المعرفة، ص11، ترجمة: علي صبري

14– موسى، عبدالله، 2019م، الذكاء الاصطناعي: ثورة في تقنيات العصر، المجموعة العربيةللتدريب والنشر– القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٩م، ص20

15– الغبطاني، ابراهيم، 2018م، فرص وتهديدات الذكاء الاصطناعي في السنوات العشر القادمة، منشور بملحق تقرير المستقبل الصادر مع مجلة اتجاهات الأحداث الصادرة عن مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة– أبو ظبي، العدد 27، سنة 2018 م، ص 102

16– ينظر: سامية شهيبي قمورة، باي محمد، حيزية كروش، 2018م، الذكاء الاصطناعي بين الواقع والمأمول: دراسة تقنية وميدانية، بحث منشور ضمن أعمال الملتقى الدولي للذكاء الاصطناعي: تحّد جديد للقانون– الجزائر، ص 1 وما بعدها

17– ينظر: مذكور، مليكة،2020م، دور المنطق المرن في تطوير أبحاث الذكاء الاصطناعي في مجال اللغة، د. مليكة مذكور، بحث منشور بمجلةالرك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجْتِمَاْعِيَّة، العدد 237، سنة 2020 م، ص 28

18- ينظر: أوسوندي أوسوبا، وليامويلسر الرابع، 2017م،الذكاء الاصطناعي: ثورة في تقنيات العصر، صل 29،30، والذكاء الاصطناعي: ملامح وتداعيات هيمنة الآلات الذكية على حياة البشر ص9، والذكاء الاصطناعي بملامح بشرية: مخاطر التحيز والأخطاء في الذكاء الاصطناعي، صر4، نشر مؤسسة راند، كاليفورنيا.

19- ينظر: أوسوندي أوسوبا، وليامويلسر الرابع، 2017م، الذكاء الاصطناعي: ثورة في تقنيات العصر ص 29-30، والذكاء الاصطناعي: ملامح وتداعيات هيمنة الآلات،نشر مؤسسة راند، كاليفورنيا، صر9.

20- ينظر: أوسوندي أوسوبا، وليامويلسر الرابع، 2017م، الذكاء الاصطناعي بملامح بشرية: مخاطر التحيز والأخطاء في الذكاء الاصطناعي،نشر مؤسسة راند، كاليفورنيا، ص4.

21- ينظر: أوسوندي أوسوبا، وليامويلسر الرابع، 2017م،الذكاء الاصطناعي: ملامح وتداعيات هيمنة الآلات الذكية على حياة البشر، نشر مؤسسة راند، كاليفورنيا،ص29.

22- نفس المصدر السابق، ص30.

23- منع سيث باوم، 2019م، حدوث نهاية العالم بسبب الذكاء الاصطناعي، مقالة منشورة بمجلة فكر- مركز العبيكانللأبحاث والنشر، الرياض، السعودية، العدد ٢٤،سنة ٢٠١٩م، ص١٣٦.

24- جان غابريال غاناسيا، 2018م، الذكاء الاصطناعي بين الأسطورة والواقع، مقال منشور بمجلة رسالة اليونسكو، ص9.

25- راي كورزويل، 2001م، مستقبل الإنسانية في ضوء مشاريع الذكاء الاصطناعي الفائق ص 148، الذكاء الاصطناعي: ملامح وتداعيات هيمنة الآلات الذكية على حياة البشر ص9 وداعا للبيولوجيا مرحبا بالبرمجيات، ، مقال منشور بمجلة، رسالة اليونسكو- أغسطس2001م، ص 85.

26- The Age of Spiritual Machines,Ray Kurzweil, Viking 1999, USA, Page 161.

تمت الترجمة من قبل الباحث

27- روبوتات وبشر، فانسيا إيفرس، 2018م، مقالة منشورة بمجلة رسالة اليونسكو، ص1،وراي كورزويل، عصر الآلات الروحانية، ص 163 The Age of Spiritual Machines, Ray Kurzweil, Page 163. (4 ينظر: البرعي،أحمد سعد، وآخرون، 2022 م، بحث بعنوان: التعديلات البيولوجية على الجسدالإنساني من خلال الذكاء الاصطناعي، منظور ديني،البرعي، مجلة جامعة الملك فيصل للعلوم الإنسانية والإدارية- السعودية، مجلد 23، صفحة 7-9.

28- يسعى أنصار هذه الحركة إلى الوصول إلى وضع (ما بعد الإنسانية) من خلال التخلص من الإعاقة البدنية والألم والمرض والشيخوخة بل والموت، بفضل التضافر بين تكنولوجيا النانو والتكنولوجيا الحيوية والذكاء الاصطناعي، ومن ثم يدعون إلى ممارسة الاستنساخ البشري، والتهجين بين الإنسان والآلة وغير ذلك من الطفرات العلمّية التي تسمح أو سوف تسمح في

المستقبل بالوصول لفكرتهم، ويرى أصحاب هذه النظرية أن تكنولوجيا النانو والذكاء الاصطناعي وتكنولوجيا علم الوراثة هي العلوم المشّكلة للتحول إلى ما بعد الإنسان. ينظر: الادريسي، خالدميار، 2018م، معجم الذكاء الاصطناعي، مجلة رسالة اليونسكو– سبتمبر 2018م،ص 4.

29– سايبورغ: هو مصطلح منحوت من كلمتين، الأولى كلمة سيبرانطيقا (Cybernetique) وتعني بالفرنسية علم التحكم الذاتي، أو الكلمة الإنجليزية(cybernetics) وتعني علم الضبط الإلكتروني أو التحكم الذاتي، وبين كلمة)Organisme) والتي تعني بالإنجليزية كائنا، لتدل هذه الكلمة المنحوتة على كائن بشري هجين، نصفه آلة باعتبار الشرائح الإلكترونية المزروعة بداخله، والنصف الآخر آدمي باعتبار أصل طبيعته البشرية)

ينظر: المصدق، حسن، 2006م، آفاق علم السبرنطيقا في عصر إنسان السيبورغ، بحث منشور بمجلةمدارات فلسفية، الجمعية الفلسفيةالمغربية– عدد ١٤،سنة٢٠٠٦ م، ص٠ ١٤)

30– ينظر: كحيل، مصطفى، 2018م، معجم الذكاء الاصطناعي، بحث منشور بمجلة إسلامية المعرفة– المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأردن، مجلد 24، عدد 95، سنة 2019م، صل 115 وما بعدها

31– سورة لقمان، الآية: 11

32– صحيح البخاري، باب كيف بدء الوحي، ج1، ص6، رقم الحديث:1

33– سورة الإسراء، الآية: 85

الحرب التجارية بين الصين والولايات المتحدة الأمريكية وانعكاساتها

عبدالله نجم

أستاذ جامعي

الحرب التجارية هي تعبير عن سياسات حمائية تجارية تقوم بها الدول لتحقيق اهداف اقتصادية وسياسية ، تستخدم فيها الرسوم الجمركية وإجراءات غير جمركية مثل تحديد حصص الأستيراد وفرض شروط ادارية بهدف عرقلة واعاقة دخول البضائع المنافسة الى أسواقها ، مثل الرسوم الجمركية وحظر الأنشطة المصرفية والتحويلات المالية والمقاطعة الاقتصادية وسياسات الاحتكار لبعض السلع التي تحتاجها الدولة الأخرى. والصراع التجاري بين الدول للهيمنة على حركة الأسواق التجارية والتبادل السلعي والاقتصادي قد يصل الى صراعات مفتوحة بين الدول على جميع المستويات ، وهذا ما شهدناه من اسباب للحربين العالميتين الأولى والثانية ، وما نشهده اليوم من صراع تجاري واقتصادي بين الدول الصناعية الكبرى ونشوء التكتلات اقتصادية دولية متنافسة ، ومن صراع محتدم بين الصين والولايات المتحدة قد يؤدي الى صراع مفتوح على مختلف الصعد فماهي أوجه هذا الصراع وماهو واقع العلاقات التجارية بين البلدين وولمصلحة من سيحسم هذا الصراع وماهي انعكاساته على النظام العالمي ؟

الحرب التجارية بين الصين والولايات المتحدة

الحرب التجارية بين الصين والولايات المتحدة الامريكية بدأت منذ مدة طويلة وتصاعدت مع وصول الرئيس ترامب الى الحكم، الذي اتبع سياسة شديدة ضد الصين وفرض تعريفات جمركية

كبيرة على المنتجات والسلع الصينية ، وقابلتها بكين بتعريفات مماثلة . كما تدور حرب خفية بينهما حول الذكاء الاصطناعي ، حيث تحاول الصين السيطرة على هذا السوق . رغم هذه الحرب القاسية شهد حجم التبادل التجاري بين الصين والولايات المتحدة الامريكية نمواً سريعاً منذ بداية سبعينات القرن العشربن ، وتسارع نمو هذا التبادل بعد انضمام الصين الى الى منظمة التجارة العالمية العام 2001 وأصبحت الولايات المتحدة والصين من اهم الشركاء التجاريين . واستوردت الولايات المتحدة اكثر مما صدرت الى الصين ، مما أدى لارتفاع العجز التجاري للولايات المتحدة مع الصين الى 375،6 مليار دولار العام 2017 . وعمد خلال هذه الفترة الرؤساء الأمريكيين جورج بوش الأبن وباراك أوباما الى فرض رسوم جمركية على المنتوجات الصينية لحماية المنتجيين المحلين وأتهام الصين بتطوير هذه المنتجات بأسعار الأغراق التجاري ، وبدأت في عهد ترامب تحقيقات لمكافحة الأغراق الذي تمارسه الصين حيث بدأت الولايات المتحدة في 24 – 9 – 2018 بوضع رسوم على البضائع الصينية بقيمة 200 مليار دولار تشمل 800 صنف ، كما حضّر الرئيس ترامب من تكثيف العقوبات بشكل تدريجي على بضائع تبلغ قيمتها 450 مليار دولار . رغم ذلك استمرحجم التبادل التجار في النمو بين البلدين. ((ووصل حجم هذا التبادل عام 2018 الى 737 مليار منها 1790 مليار صادرات أمريكية مقابل واردات من الصين بلغت 558 مليار أي بعجز بلغ 378 مليار))1 ، في العام 2020 بلغ اجمالي تجارة السلع والخدمات بين البلدين ما يقدر ب615،2 مليار دولار وبلغت الصادرات 164،9مليار دولار بينما بلغت الواردات 450،4 مليار دولار وفق بيانات التجارة الأمريكية ، كما ارتفع حجم التبادل بين البلدين في العام 2021 بنسبة 28،7 ليصل الى 755،64 مليار دولار وحافضت الولايات المتحدة على مكانتها كأكبر شريك تجاري للصين بعد أسيان والاتحاد الأوروبي ، وفي العام 2022بلغ حجم التبادل التجاري690،6 ملياراً.

تصاعد الصراع التجاري بين البلدين

تصاعدت الحرب التجارية بين البلدين مع وصول الرئيس ترامب الى رئاسة الولايات المتحدة في عهده صدر عن مكتب الممثل التجاري للولايات المتحدة وبعد التحقيق في الممارسات الاقتصادية الصينية في جوانب عديدة في السياسة التجارية الصينية بالأخص في نقل التكنولوجيا انه يكلف الولايات المتحدة 22550مليار دولار و600 مليار سنوياً، واعتبر الرئيس ترامب أن التعريفات الجمركية الصينية تكلف الاقتصاد

الأمريكي مئات مليارات الدولارات سنوياً بسبب الممارسات التجارية غير العادلة بعد فرض التعريفات الجمركية .((واعتبرت الولايات المتحدة ان الصين تحتفظ بسياسة النقل القسري للتكنولوجيا ، الى جانب ممارسته رأسمالية الدولة التي تتضمن شراء شركات التكنولوجية الأمريكية واستخدام الأنترنات لكسب التكنولوجية . وفي العام 2018 اتخذت الأدارة الامريكية إجراءات لمنع الشركات الصينية الخاضعة لسيطرة الدولة من شراء شركات التكنولوحيا الأمريكية))2

فرضت الولايات المتحدة رسوماً جمركية على نحو 250 مليار من البضائع الصينية وردت الصين بفرض رسوم تصل الى 119 مليارات دولار من المنتجات الامريكية ، ورفض الرئيس الصيني في تصريح له اثناء انعقاد قمة لبركس في جنوب افريقيا بتاريخ 26 –7 –2018 الحرب التجارية التي تعلنها أمريكا حيث قال : ان هذه الحرب لن يكون فيها فائزين وتزايد الحمائية والأحادية ضربة قوية للتعددية والنظام التجاري المتعدد الأطراف . كما وفرضت الولايات المتحدة رسوماً تصل الى 20 يالمئة من قيمة السلع على عدد من المنتجات الصينية من الحقائب اليدوية الى معدات السكك الحديدية ، وردت بكين بتعريفات جمركية تتراوح 25،5 بالمئة على السلع الأمريكية بما في ذلك المواد الكيميائية والفحم والمعدات الطبية .))3

وازدادت العقوبات التجارية الامريكية على المنتجات والشركات الصينية ففرض الرئيس ترامب عقوبات تضمنت بشكل خاص قطاع التكنولوجيا ولا سيما اشباه المواصلات ، وخلال هذه الفترة وسعت حربها الاقتصادية على الصين بفرض تعريفات جمركية ووضع قيود على الاستثمارات الأجنبية والصينية منها كما ((فرضت إدارة ترامب تعريفات جمركية ب360 مليار دولار من واردات الصين))4 واتبع الرئيس ترامب سياسة اقتصادية متشددة تجاه المتعاملين التجاريين مع الشركات الصينية ((فحذّرعلى الشركات الأمريكيه الخوض في أي نوع من التجارة في قطاع الاتصالات مع شركات أجنبية تشكل خطراً على الأمن القومي الأمريكي في اجراء استهدف هواوي ، كما أدرجت وزارة التجارة الأمريكية الشركات الصينية على لائحة الشركات المشبوهه التي لا يمكن التعامل معها قبل الحصول على ضوء أخضر من السلطات وأعلنت غوغل قطع علاقاتها مع هواوي وحرمتها من أستخدام تطبيقاتها)).5 ثم وسعت ((إدارة الرئيس بايدن حربها الاقتصادية بشكل كبير من خلال سن عقوبات على اشباه المواصلات المتقدمة ومعدات صناعة الرقائق ومكونات الحواسب العملاقة ذات الصلة ، وتُعتبر الرقائق جانباً من أبرز مواطن التوتر بين البلدين في وقت تنظر فيه واشنطن الى تلك القضية باعتبارها قضية امن قومي))6

كما فرضت الولايات المتحدة عقوبات على أفراد صينيين .وفي ((العام 2022 أعلنت الأدارة الامريكية منع جميع مصنعي الرقائق الدقيقة من توفير رقائق لشركة هواوي اذا استخدموا التكنولوجيا الأمريكية وثم حظرت وزارة التجارة بيع الرقائق الدقيقة لشركة هواوي وفرضت إدارة بايدن قيود على جميع صادرات الرقائق الدقيقة وأدوات صنع اشباه المواصلات الى الصين وتم تحذير المواطنين الأمريكيين بأنهم يخالفون القانون اذا اختاروا العمل لشركات تكنولوجيا صينية من دون موافقة واضحة من الحكومة)) 7 .

أوجه المنافسة بين البلدين

تتعدد أوجه المنافسة بين الطرفين حيث تشمل ((التقنيات المتقدة الذكاء الأصطناعي وشبكات الجيل الخامس والحوسبة والتكنولوجيا الحيوية والمركبات الكهربائية وحتى تكنولوجيا الأسلحة . ومن اجل شل نمو الصين في تقنيات معينة اطلقت الولايات المتحدة ضغوطاً صارمة تتضمن حظراً على تصدير تكنولوجيا اشباه المواصلات الى الصين ، في وقت وجه فيه الحزب الشيوعي الصيني معظم موارده للبحث في المجالات الأستراتيجية ولا سيما الأستثمارات الطموحة في التكنولوجيا العسكرية في ظل التوتر مع الولايات المتحدة.))8 وشكلت اتهامات الولايات المتحدة الأمريكية الى ((الصين بالتورط في الهجمات السيبرانية على شركات أمريكية فصلاً جديداً في المواجهة المعنوية بين واشنطن وبكين على اكثر من صعيد . لقد اتهمت الولايات المتحدة الصين بالوقوف وراء سلسلة اختراقات سيبرانية لشركات أمريكية منها مايكروسوفت ، مما اعتبرته الولايات المتحدة خطر على الأمن القومي حسب تصريح للمحلل السياسي جيفري لورد قال أن الصينيين كانوا يقومون بهجمات غير منظمة ، والآن تحول الأمر الى خطر على الأمن القومي الأمريكي عبر ما تقوم به وزارة أمن الدولة الصينية التي تشرف على هذه الهجمات))9، ويؤكد نكولاس تشايلان رئيس البرمجيات السابق في وزارة الدفاع الأمريكية لصحيفة فاينانشال تايمز ، أن المنافسة بين البلدين ستكون لصالح الصين بسبب تقدم الصين الهائل في الذكاء الصناعي والتكنولوجيا الرقمية وشركات الأنترنات الصينية مثل علي بابا وباي دور وتن سنت التي أصبحت تقود تطور التكنولوجيا الحديثة أهمها شبكات الجيل الخامس والأتصالات ، بالأضافة الى أن الصين تعمل على تصنيع احتياجاتها من الرقائق الألكترونية ، واهم الشركات التي تعمل على ذلك شركة الباتكس الصينية التي تعتبر من اهم الشركات المنافسة للشركات الامريكية مثل غوغل وأمازون وآبل وفيسبوك .

المنافسة تشتد بين البلدين فالصين تعمل على امتلاك مصادر القوة الاستراتيجية

الاقتصادية ، فالميزان التجاري بين الصين والولايات المتحدة ((يعمل لصالح الصين لعدة سنوات متتالية حيث بلغ 418،23 مليار دولار امريكي في العام 2018 و404،1 مليار في العام 2022 كما بلغ جحم الاستثمار الصيني في سندات أذونات الخزانة الأمريكية 1060،1 مليار دولار بداية العام 2022 وتعتبر الصين المقرض الثاني للولايات المتحدة))10، وفي القوة العسكرية تعاضمت القدرات العسكرية التسليحية والعددية للجيش الصيني فبات الأول في العالم من حيث العدد فبلغ اكثر من مليوني فرد وفي التكنولوجية والذكاء الاصطناعي الشركات الصينية أضحت منافسة حقيقية للشركات الامريكية ، كما حافظت الصين على ارتفاع في معدل النمو و دخل الفرد. ((تحتل الصين المرتبة الاولى في الناتج المحلي تليها الولايات المتحدة وتمتلك الصين اكبر أربعة مصارف في العالم هي بنك الصين للتجارة والصناعة وتقدر قيمة اصولة ب5،5تريليون دولار امريكي وبنك الاعمار الصيني وتقدر قيمة اصوله ب 4،7 تريليون وبنك الصناعة وتقدر قيمة اصولة ب 4،5 تريليون وبنك الصين 4،2تريليون دولار امريكي ويأتي بنك جي وبي مورغان الأمريكي في المرتبة الخامسة ب3،3 تريليون دولار ، كما توسع نفوذ الصين الاقتصادي بفتح أسواق جديدة وباستقرار اقتصادي ، تبرز عوامل تفوق أخرى للصين منها تفوق في القطارات السريعة والمطارات والمرافق العامة وتحول في التكنولوجيا العسكرية والإنتاج المدني والصناعي وتفوق في برامج الاحتساب وفي عدد المهندسين والعلماء فبلغ 1،38مليون عام 2019في الصين و197 الف في الولايات المتحدة))11 ((بالتصرف)). وتراجع في مستويات الفقر والبطالة وارتفاع معدلات النمو ومستوى دخل الفر . هذا التفوق الصيني يقابله أزمات اقتصادية يعاني منها الاقتصاد الأمريكي كانت اخطرها ازمة 2008 وتراجع نفوذ الولايات المتحدة العالمي بعد صعود اقتصاديات اسيوية مثل الهند والصين وروسيا وقيام التكتلات الاقتصادية المواجها الولايات المتحدة منها لبركس . وهذا ما يجعل الصين قادرة في المستقبل القريب على اسقاط الآحادية القطبية الأمريكية وبالتالي المساهمة الفاعلة في قيام نظام عالمي جديد أكثر عدالة وديمقراطية يقوم على التعددية القطبية.

نتائج هذا الصراع

الصين باتت تزاحم الولايات المتحدة في نفوذها في العالم على المستوى السياسي والاقتصادي وبات ذلك واضحا من دور الصين العالمي الذي تمثل في رعاية الأتفاق الإيراني السعودي ، ومبادرة وقف الحرب الأوكرانية وانشاء منظمة شنغهاي و تجمع

دول لبركس ، وتعاضم التبادل التجاري بين الصين ودول العالم حيث بلغ حجم التبادل التجاري بين الصين والاتحاد الأوروبي 912،6 مليار دولار امريكي و318،8 مليار مع المانيا و282 مليار مع افريقيا و975،3 مع دول شرق اسيا و485، 8 مع أمريكا الاتينية كام ارتفع حجم التبادل التجاري مع العديد من الدول منها تشيلي والأرجنتين والبرازيل وبريطانيا التي تعتبر من اشركاء الأساسيين للصين .وهذا يؤكد قدرة الصين على لعب دور أساسي على الصعيد العالمي .

سيؤدي ذلك الى احتدام الصراع بين البلدين نتجة السياسات الأمريكية التي تعمل على تثبيت هيمنتها العالمية وعمل الصين على كسرهذه الهيمنة واسقاط نظام الأحادية القطبية الذي هيمن على العالم بعد سقوط الاتحاد السوفياتي نهاية القرن العشرين .

الأمر اصبح واضحاً أن الصراع بين البلدين لا يقتصر على المواجهة التجارية وأسس النظام التجاري العالمي بل تخطى ذلك الى صراع سياسي واقتصادي شامل تسعى الولايات المتحدة فيه الى الاستمرار في الهيمنة على النظام العالمي ، وتعمل الصين على كسر هذه الهيمنة ونظام القطب الواحد .

الخلاصة

الحرب التجارية بين الصين والولايات المتحدة بدأت في سبعينات القرن الماضي واشتدت بعد دخول الصين الى منظمة التجارة العالمية العام 2001 وتصاعدت مع الرئيس بوش وبعده الرئيس اوباما واشتدت بعد وصول الرئس تراب الى الرئاسة ، الذي اتبع سياسات متشددة ضد الصين فاتهمت أمريكا الصين بالاغراق التجاري ففرضت عقوبات على السلع والخدمات الصينية واتخذت إجراءات لمنع الشركات الصينية من الحصول على التكنولوجيا ، كما شملت العقوبات قطاعات التكنولوجيا والمواصلات ووضع قيود على الاستثمارات والافراد وتصدير الرقائق الالكترونية وشركات التكنولوجيا ، وشملت المواجهة الذكاء الصناعي والحوسبة والمركبات الكهربائية . رغم هذا الصراع شهد التبادل التجاري نمواً سريعا . هذا الصراع كان له انعكاسات سلبية على الاقتصاد الأمريكي بارتفاع العجز التجاري مع الصين فالميزان التجاري يعمل لصالح الصين ، وتعتبر الصين المقرض الثاني للولايات المتحدة والمنافس الحقيقي للشركات الامريكية .

باتت الصين تمتلك العديد من عناصر القوة ، تعاضمت قوتها العسكرية التسليحية والعددية وسجلت تقدم في التكنولوجيا العسكرية وفي عدد المهندسين والعلماء ، وسجلت ارتفاعاً في معدلات النمو ودخل الفرد وارتفاع حجم الناتج المحلي ليصبح في المرتبة

الأولى عالمياً ، وتمتلك الصين اكبر أربعة مصارف في العالم ، واستطاعت الصين تشكيل التكتلات الاقتصادية المواجهه للولايات المتحدة "لبركس وشنغهاي" وبدأت تنافس الولايات المتحدة في التدخل في الصراعات الدولية ((مبادرة وقف الحرب الأوكرانية والاتفاق السعودي الإيراني)) كل هذ التغيرات ستؤدي الى احتدام الصراع الدولي والبتالي الى اسقاط نظام الأحادية القطبية وإرساء نظام عالمي جديد قائم على التعددية القطبية.

المراجع:

1–إبراهيم مسلم – سليمان شيبوط – عائشة منذر، 2021–6–8، الحرب التجارية بين الولايات المتحدة والصين وتداعياتها على الاقتصاديات النامية ، مجلة العلوم الاقتصادية والتسيير والعلوم التجارية ، المجلد 14 ، العدد 20271

2 – الحرب التجارية بين الصين والولايات الأمريكية ، ويكيبيديا

3 –2019–8–26 ، موقع عربي نيوز

4– محمد خالد – اغاثي ديماريس– امجد عرار 2022–12–17 أمريكا والصين حرب باردة بذخيرة اقتصادية،

5– 5–21 2019 هواوي تلهب حرب التكنولوجيا بين واشنطن وبكين ، صحيفة الشرق الأوسط، العدد 14784

6– محمد خالد 14– 4– 2023 واشنطن وبكين جولات من الحرب التكنولوجية صحيفة البيان

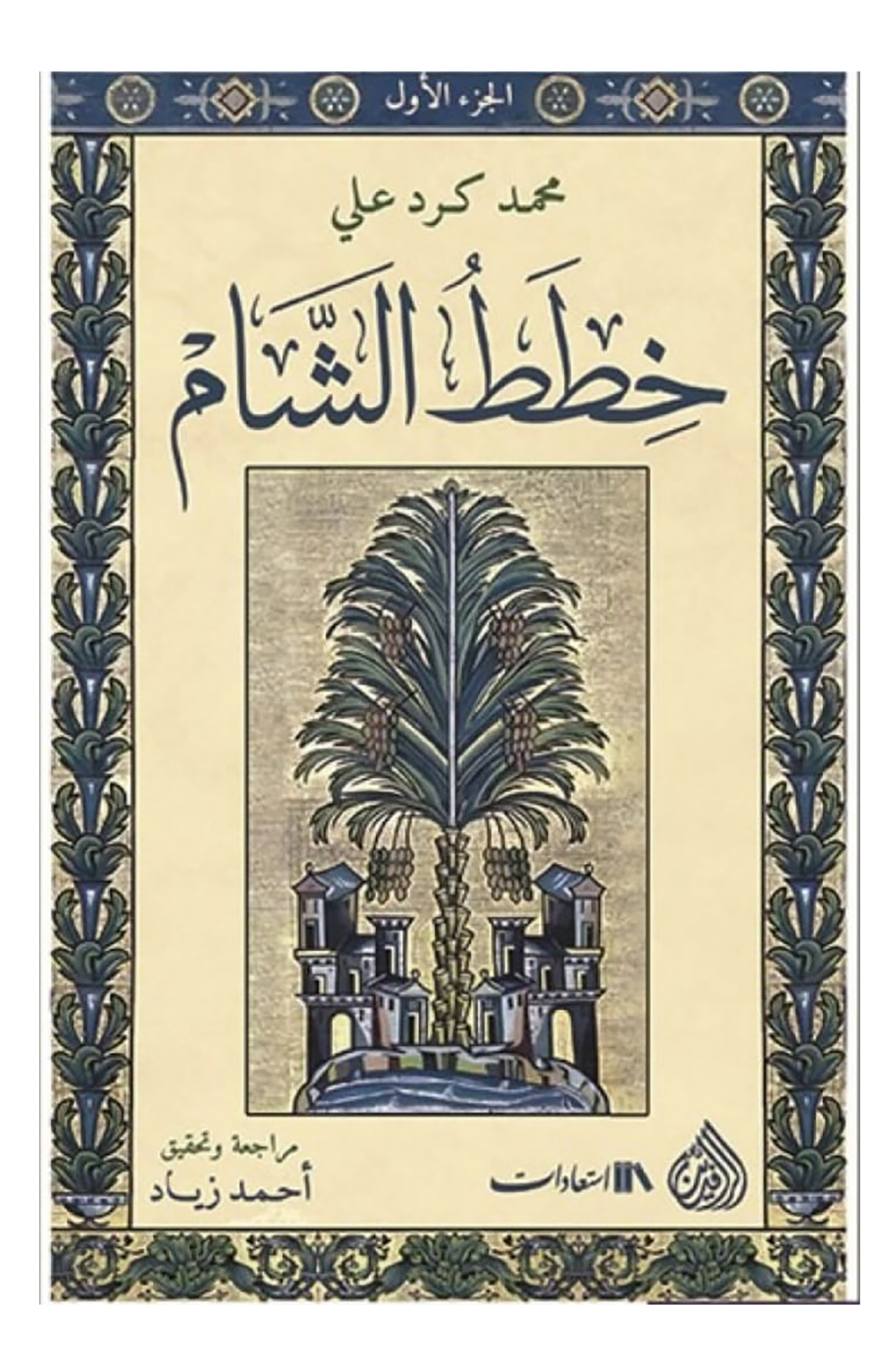
7 – محمد خالد ، أغاثي ديماريس ،امجد عرار ، 2022–12–17 أمريكا والصين حرب باردة بذخيرة اقتصادية ، صحيفة البيان

8 – محمد خالد القاهرة ، 14 –4 – 2023 ،واشنطن وبكين جولات من الحرب التكنولوجية، صحيفة البيان

9– 21 – 7 – 2021 ، مجدي يارحي موقع سكاي نيوز عربية

10 – محمد سعيد ادريس ، 2023–5–23 ، التمرد الصيني بالقوة الاستراتيجية، الاهرام

11– زياد الحافظ ، 2023–7–30،بيروت، التقرير السياسي للمؤتمر القومي العربي.


الجزء الأول
محمد كرد علي
خطط الشام
مراجعة وتحقيق
أحمد زياد
استعادات

الوَسَاطَة (السَّمْسَرَة) العَقَارِية مَفْهُومُهَا وحكمها وأَثَرها على الاقتصاد برؤية إسْلَامِيَّة

سامي مرير عليان العيساوي

طالب دكتوراه - جامعة الجنان

المُلَخَّص

الوسيط العَقَارِي أو ما يسمى السَّمْسَرَة أو الدَّلَّال هي من المهن المنتشرة قديمًا وحديثًا، لها أهمية كبيرة وتعتبر أداة بارزة وذو تأثير مباشر على الاقتصاد الوطني، هدفت هذه الدراسة إلى توضيح الوَسَاطَة العَقَارِية وحكمها وأَثَرَها على الاقتصاد ضمن رؤية إسْلَامِيَّة، استخدمت هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، توصلت الدراسة إلى النتيجة التالية شرع الدين الإسلامي هذه المهنة لكن ضمن ضوابط وشروط وآداب يجب أن يتحلّى بها الوسيط.

كلمات مفتاحية: الوَسَاطَة العَقَارِية، الوسيط العَقَارِي.

المقدمة

الوسيط العَقَارِي أو ما يسمى بالسَّمْسَرَة فكرة منتشرة بكثرة وفكرة قديمة يتم تطبيقها على ميادين مختلفة، ولكنها لم تنلْ اهتمامًا كافيًا لتغطية جوانبها كافَّة. وساعدت احتياجات الناس بها على انتشارها وزيادة أهميتها، فهناك عدد لا بأس به من الناس لا يُجِيدُوْن ولا يُحسنون المُساومَة في البيع والشراء للعقارات، وهناك من لا قدرة له على معرفة عيوب ما يشترون ولا يعرفون حتى تمحيصه، ومنهم لا وقت لديهم للبيع والشراء بأنفسهم لذلك ألزمت الحاجة إلى وجود وسيط عقاري[1].

والوَسَاطَة العَقَارِية لها أَثَر إيجابِّي كبير وفوائد جمة على الاقتصاد

حيث تقوم على خلق فرص استثمارية، وتجلب استثمارات خارجية وغيرها من الفوائد التي تحرك الاقتصاد. ولا يتنافى الوسيط العَقَاْرِي مع الشريعة الإِسْلَاْمِيَّة، فالشرع الإسلامي أجاز لنا كل ما نحتاجه من المعاملات لتيسير شؤوننا اليومية وحتى إذا كان مخالف للأحكام العامة في الشرع، وفي حديث «**عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي غَرَزَةَ، قَالَ: كُنَّا نَبِيعُ الرَّقِيقَ فِي السُّوقِ، وَكُنَّا نُسَمَّى السَّمَاسِرَةَ، فَسَمَّانَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَحْسَنَ مِمَّا سَمَّيْنَا بِهِ أَنْفُسَنَا، فَقَالَ: « يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ، إِنَّ هَذَا الْبَيْعَ يَحْضُرُهُ اللَّغْوُ، وَالْأَيْمَانُ، فَشُوبُوهُ بِالصَّدَقَةِ**»»[2]وهنا أجاز الرسول الله صلى الله عليه وسلم الوَسَاْطَة العَقَاْرِية. ومهمة السمسار المساعدة في تقريب وجهات النظر بين طرف المصدر للأوامر والشخص الآخر ومهمته تنتهي بتقارب الوجهتين ومتى ما تمَّ الاتفاق على العقد بينهما[3].

أسئلة الدراسة

تجيب الدراسة على التساؤلات التالية:

1. ما مفهوم الوَسَاْطَة (السَّمْسَرَة) العَقَاْرِية؟
2. ما الأحكام الشَّرْعِيَّة للوساطة العَقَاْرِية؟
3. ما أَثَر الوَسَاْطَة العَقَاْرِية على الاقتصاد؟

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة إلى توضيح ما يلي:

1. توضيح مفهوم الوَسَاْطَة (السَّمْسَرَة) العَقَاْرِية.
2. توضيح أحكام الشَّرْعِيَّة للوساطة العَقَاْرِية.
3. توضيحُ أَثَرِ الوَسَاْطَة العَقَاْرِية على الاقتصاد.

منهجية الدراسة

اتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي لبيان مفهوم الوَسَاْطَة العَقَاْرِية (السَّمْسَرَة) وبيان حكمها، مع ذكر الأحكام للوساطة العَقَاْرِية في بعض القوانين العربية والتركيز على النصوص المنظمة لهذا القطاع، وبيان الحكم الإسلامي للسمسرة وأَثَرها على الاقتصاد برؤية إِسْلَاْمِيَّة.

هيكلة البحث

تمَّ تقسيم هذه الدراسة إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، تطرقنا في المقدمة لأهمية وأهداف ومنهجية البحث وخطة الدراسة، وبالمبحث الأَوَّل تطرقنا إلى مفهوم الوَسَاْطَة

العَقَارِية، وفي المبحث الثاني تطرقنا لموضوع أَثَر الوَسَاطَة العَقَارِية على الاقتصاد، وفي المبحث الثالث تكلمنا عن الرؤية الإسْلَامِيَّة للوساطة العَقَارِية.

الفَصْل الأَوَّل

مفهوم الوَسَاطَة العَقَارِية

السَّمْسَرَة هي كلمة من أصل فارسي تمَّ تعريبها، والفعل منها سمسر[4]. والوسيط العَقَارِي أو السَّمْسَرَة أو الدَّلَّال مرادفات في اللغة[5].

الوسيط العَقَارِي هو الشخص الذي يعتبر حلقة وصل بين المشتري والمالك، فلا تتمَّ عملية البيع أو الإيجار في حال عدم وجود هذين العنصرين[6].

ويسمى الشخص الذي يتم تكليفه من قبل أحد المتعاقدين للتوسط للطرف الآخر الوسيط العَقَارِي بهدف إتمام صفقة فيما بينهم سواء كان ضمن اتفاق ضمني أو صريح على أن يتلقى أجر مقابل هذه الوَسَاطَة[7].

وقد عرف القانون السعودي الوَسَاطَة العَقَارِية على أنها وجود طرف مهمته التوسط لإتمام صفقة عقارية كانت أم غير عن طريق تقريب الآراء بين الأطراف من أجل الحصول على عمولة[8].

وتم تعريف الوَسَاطَة العَقَارِية أو ما تسمى السَّمْسَرَة بأنها الشخص الذي يدخل بين المشتري والبائع ليكون وسيطًا لإمضاء البيع وبمدلول آخر يسمى الدَّلَّال وذلك لأنه يدلُّ المشتري على البضائع أو السلع وكما يدل البائع على الأثمان[9].

وكما تم تعريف عقد السَّمْسَرَة أو ما يسمى عقد الوسيط العَقَارِي بالفقه القانوني بطرق عدة:

عرفت القليوبي عقد الوسيط العَقَارِي (عقد السمسار) بأنه العقد الذي فيه إلزام للسمسار من قبل شخص آخر (مفوض السمسار أو مصدر الأوامر) بإيجاد متعاقد بهدف إبرام صفقة محددة مقابل أجر[10].

وعرف القانون الأردني بالمادة (99) في القانون التجاري الأردني رقم (12) «عقد يلتزم به فريق، يدعى السمسار لأن يرشد الفريق الآخر إلى فرصة لعقد اتفاق ما أو أن يكون وسيطاً له في مفاوضات التعاقد، وذلك مقابل أجر».

وبناءً على هذه التعريفات عرف الباحث الوسيط العَقَارِي بأنه الشخص الذي يقرب وجهات النظر بين البائع والمشتري لإتمام صفقة البيع مقابل أجر مادي يحصل عليه.

المعايير الأخلاقية والقانونيَّة للوسيط العَقَاْرِي

1. أن لا يقل عمره عن 20 سنة، وهذا ما تم تأكيده في محكمة التمييز الأردنية والسبب بذلك لأن مهنة السَّمْسَرَة تحتاج إلى مهارة وخبرة وقدرة على نقل المعلومات والتفاوض ومما لا شك فيه هذه المهام يسهل على عمر العشرين القيام فيها أكثر من سن الرشد[11]، وتم ذكر هذا في نظام الدَّلَّاْلين والسماسرة في المادة الثانية « الأشخاص الذين يشتغلون بالدَّلَّاْلة والسَّمْسَرَة ينبغي أن لا يكون سنُّهم دون العشرين وأن يكونوا من ذوي الأمانة والعفة والاستقامة غير محكومين بجنحة أو جناية ما، وهم مجبورون على إبراز شهادة إلى غرفة التجارة بحسن حالهم معطاة من اثنين من التجار المعروفين».
2. أن يكون حسن السلوك والسيرة غير محكوم بجنحة أو جناية مخلة بالأداب أو الشرف أو الأمانة.
3. ومن ناحية دينية أجاز الشيخ ابن باز الأجرة التي تدفع للوسيط العَقَاْرِي على أن يتحلى بالصدق والأمانة بعيدا عن الخداع والخيانة[12].
4. يتمتع بالعفة والاستقامة.
5. أنْ لا يكون قد أعلن إفلاسه سابقًا بدون أن يرد له اعتباره[13]. وهذا ما تم ذكره بالمادة الخامسة من نظام الدَّلَّاْلين والسماسرة الأردني «الأشخاص الذين أعلن إفلاسهم ثم أعادوا اعتبارهم بالصورة القانونية يحق لهم بعدئذ أنْ يشتغِلوا بالدَّلَّاْلة والسَّمْسَرَة».

أنواع الوَسَاْطَة العَقَاْرِية

1. **الوَسَاْطَة بالبيع والشراء**

يقوم صاحب العقار بوضع أوراق عقاره عند الوسيط ليبحث الوسيط عن مشترٍ سواءٌ كان محددًا السعر أو ترك مجالًا لوضع السعر المناسب من قبل الطالبين، وهنا يقوم الوسيط بعملية تسويق أو يعرضه على زائرينه ومعارفه. فيستفيد الوسيط من المردود الذي سيأخذه في حال تمام الصفقة ويستفيد صاحب العقار من الوسيط عرض عقاره بهدف تحصيل سعر مناسب[14].

والصورة الأخرى لهذا النوع أن يأتي من يريد العقار إلى الوسيط ويطلب منه عقارًا بمواصفات محددة فيقوم السمسار بالبحث والتمحيص عن العقار المطلوب وفي تلك الصورتين يأخذ الوسيط أجر مقابل أتعابه[15].

2. **الوَسَاْطَة بإدارة الأملاك والتأجير**

كأن يأتي مالك العَقار إلى الوسيط ويطلب منه مستأجرًا لعقاره بصفات معينة فتكون

وظيفة السمسار إيجاد مستأجر للعقار، والصورة الثانية لهذا النوع بأن يطلب طالب العقار من الوسيط إيجاد عقارٍ بصفات محددة فيسعى السمسار لتحقيق رغبته والتوفيق بينهما مقابل الحصول على أجر مادي[16]. ويقع تحت هذا النوع إدارة الأملاك حيث يطلب صاحب العقار من الوسيط العَقَارِي أن يشرف على ممتلكاته المؤجرة كجمع غَلَّةِ الإيجار، ومراجعة الدوائر الرسمية لعمليات تشغيل العقار، صيانة العقارات.... إلخ مقابل عوض يتفق عليه الطرفان[17].

3. الوَساطَة بالتطوير العَقَارِي

ويوجد صورة منشرة لهذا النوع من الوَساطَة، فيقوم الوسيط بشراء أرض على سبيل المثال ويبيعها بذات السعر أو أعلى أو أدنى، ويتكفل الوسيط بهذا النوع بتطوير العقار كتجهيز المخططات، تعبيد، إنارة، إدخال الخدمات الضرورية كالماء والكهرباء والصرف الصحي... إلخ وبعد ذلك يسوقها للراغبين بالشراء.

فمهمة الوسيط هنا بحث عن موقع ثم التسويق للمشروع، والفائدة التي يتلقاها الوسيط العَقَارِي مبلغ مقطوع أو نسبة محددة من الأرباح، فمن البداية يكون العرض من الوسيط[18].

4. الوَساطَة بالتمويل العَقَارِي

يبحث الوسيط هنا عن قناة يمكن عن طريقها طالب الشراءِ، شراءَ عقارٍ بالأقساط، ويأخذ السمسار بهذه الحالة مبلغًا مقابل أتعابه أو نسبةً من % الممول، وهذا النوع سائد بالوقت الحالي[19].

حقوق الوسيط العَقَارِي:

هناك عدد من الحقوق التي يتمتع بها الوسيط العَقَارِي[20].

- تعتبر مهنة السمسار (الوسيط) مهنة معتبرة قانونًا وشرعًا، فعلى الآخرين احترام مهنتهم
- في حال تمام العمل، لهم حق العوض بموجب النصوص القانونيَّة التي تعتبر العُرْف أصلًا في هذه المسألة، وكذلك الشريعة الإسلامية اعتبرت العودة للعُرْف بتحديد الأُجرة وبقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «**أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ**»[21]
- وقوله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: « قَالَ اللَّهُ: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ:**

رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ «[22]

- إعطاؤهم الأجر كاملًا كما هو متفق أو بحسب العُرْف.

الأحكام الشَّرْعِيَّة للوساطة العَقَارِية

سنوضح هنا الحكم الشرعي للوساطة العَقَارِية، يتبين حكم عقد الوَسَاطَة بناءً على ارتباط العقد، فالعقد إما مرتبط بزمن أو عمل.

عقد الوَسَاطَة الذي يرتبط بزمن: ربط أجر الوسيط بقيام بعمل محدد بوقت محدد، وهنا متى ما أدى العمل بانتهاء العمل يستحق الأجر، سواء لاقى أَثَر عمله أم لا. وهذه الصورة جائزة عند المذاهب الأربعة حيث العقد والطرفان والزمن والعوض معلوم[23].

ففي روضة الطالبين للشافعية فيما لو قال «بِعْ عَبْدِي هَذَا، أَوِ اعْمَلْ كَذَا، وَلَكَ عَشَرَةُ دَرَاهِمَ، فَفِي بَعْضِ التَّصَانِيفِ أَنَّهُ إِنْ كَانَ الْعَمَلُ مُضْبَطًا **مُقَدَّرًا**، **فَهُوَ إِجَارَةٌ**. وَإِنِ احْتَاجَ إِلَى تَرَدُّدٍ، أَوْ كَانَ غَيْرَ مَضْبُوطٍ، فَهُوَ **جَعَالَةٌ**»[24]

« وجاء في تحفة الفقهاء في المذهب الحنفي « **وَأما إِذا اسْتَأْجرهُ شهرًا ليبيع لَهُ وَيَشْتَرِي جَازَ، لِأَن الْإِجَارَة وَقعت على مَنْفَعَة الْمدَّة وَهِي مَعْلُومَة**»[25]

عقد الوَسَاطَة المرتبط بعمل: وهذا النوع يتضمن عددًا من الصور

1. أن يربط الأجر المحدد على حصول البيع أو الشراء، وتعتبر هذه صورة من أشهر الصور المتعلقة بالسَّمْسَرَة العَقَارِية، كأن يقول: إن استطعت إحضار عقار ضمن شروط كذا وكذا واشتريته فلك من الأجر كذا وكذا.[26]

فالأجر المحدد هنا مربوط بعمل لكن في الحقيقة لا يدخل كل العمل ضمن مقدرة العامل، بل يخضع لرغبة الآخرين فحتى يتمّ البيع أو الشراء يجب أن يرغب الطرف الآخر وهذا يقع ضمن الجَعالة. وهنا يوجد أربعة أقوال[27]:

- **المنع** في المذهب الحنفي حيث ربط أجرة السمسار برغبة الغير بالرغم من الجهد الذي يقوم به السمسار.
- **الجواز**، وهو قول للحنفية حيث إنه مذهب للحنابلة، فذكر المغني «فإن عين العمل دون الزمان، فجعل له من كل ألف درهم شيئًا معلومًا، صحَّ أيضًا[28]»
- **الجواز بحال توفَّر شرطان** وهذا ما ذهب إليه المالكية،

الشرط الأَوَّل: فإذا كان الشراء والبيع كثير، وتم بيع جزءٍ فالعوض يكون بمقدار الجزء الذي تم بيعه فإذا باع النصف فله نصف بقدر ما تم بيعه.

الشرط الثاني: أن يكون قرار الشراء والبيع بيد الوسيط العَقَاْرِي أو يسمي البائع له أجر يبيع به إذا توافر. وجاء في كتاب البيان والتحصيل «ولا يجوز الجعل على البيع إلا على أحد وجهين؛ إما أن يسمي له ثمنًا، أو يفوض إليه البيع بما يراه، ولا اختلاف في هذا»[29]

- الجواز عند الشافعية جواز الوَسَاْطَة على المبيعات في حال كان العمل على الوَسَاْطَة أمر متعب مع اختلاف سعر السلعة عدا ذلك فتبطل الوَسَاْطَة وفي حال بطلت الوَسَاْطَة فإن أي جهد متعب قام به الوسيط له أجره وفي حال لم يكن متعب فلا أجر له. وذكر روضة الطالبين «استئجار البياع على كلمة البيع، أو كلمة يروج بها السلعة ولا تعب فيها باطل.... وإنْ تعب بكثرة التردد، أو كثرة الكلام في أمر المعاملة، فله أجرة المثل»[30]

3. الوَسَاْطَة العَقَاْرِية التي تدخل ضمن قدرة الإنسان، كالتسويق، أو بعدد إعلانات من دون وجود شرط لإيجاد بائع أو مشترٍ. وهذا النوع يعتبر من الإيجارات الجائزة عند المذاهب الأربعة[31].

المسؤوليات والواجبات المفروضة على السماسرة

- أن يلتزم الوسيط العَقَاْرِي بالوَسَاْطَة الموكولة له، عملًا بقول الله تعالى "**يا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ**" [المائدة: 1] وبالتحلي بالأخلاق الحميدة في وساطة الشراء والبيع[32] قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ**»[33]
- القناعة برزق الله سبحانه
- عدم الحسد وحب الخير للآخرين
- عليه أن يمسك دفترًا تجاريًّا[34].
- لا يزيد من أجرة العقار من تلقاء نفسه إلا إذا زاد المالك[35].
- أن لا يقبض عوض عن العقار إلا إذا وكَّله المالك للقيام بذلك.
- عدم إكثار من الحلف والوفاء بالوعد وعدم التسويف والمماطلة[36].
- الالتزام بسرية المعلومات[37].

المبحث الثاني

أَثَر الوَسَاْطَة العَقَاْرِية في الاقتصاد

يعتبر القطاع العَقَاْرِي من أبرز الأدوات التي تؤثر على السوق الاستثمارية، كما وله أَثَرٌ كبير في الاقتصاد سواء على مستوى محلي أو عالمي ومن الجدير بالذكر أن السَّمْسَرَة مهنة ذو

أهمية قديمة وحديثة، وبناءً على أهمية هذا القطاع اكتسب الوسيط العَقَاْرِي (السمسار) أهمية بالغة، لما لهم من دور كبير في مجالات عديدة[38]، وقد تطورت هذه المهنة حتى أصبحت هناك شركات كبرى تمارس هذه المهنة، وفي وقتنا الحالي، وللسمسار العَقَاْرِي دور مهم في عمليات الشراء والبيع وبناء الاقتصاد وتحريكه، حيث تعددت الأسواق وتوسعت التجارة وتنوعت العقارات وتشعبت المصالح التجارية فالحاجة هذه الأيام إلى السَّمْسَرَة أكثر من أي وقت مضى[39].

فالوسطاء يمكنهم توصية العملاء بأفضل العقارات ويمكنهم أيضًا خلق فرص، كما يؤدون الإجراءات المطلوبة للتسجيل والتأكد من الأوراق الثبوتية كونهم الوسيط بين المشتري والبائع، فالوسيط العَقَاْرِي يحقق عملية بيع أو شراء سليمة للطرفين فيتمّ الاعتماد بشكل كبير على السماسرة[40]، كما للسماسرة دور مهم في توفير فرص عمل، فالصفقات التي تعد بسبب جهود الوسيط العَقَاْرِي أكبر دليل على أهمية ونجاح هذه المهنة وتأثيرها على الاستثمار بشكل كبير ولذلك هناك دول كبرى كالسعودية ومصر يعملون على تعزيز دور السمسار والاهتمام بهذه المهنة بشكل مباشر.

ويلعب الوسيط العَقَاْرِي أيضا دوراً بارزًا في التعاملات التجارية حيث يساعد الشركات والأفراد إلى الوصول إلى العملاء والتجار بطريقة سريعة وسهلة. يعتمد دور الوسيط على المهارة والخبرة لإيجاد البائعين والمشترين والمناسبات التجارية الصحيحة. كما ويقوم السمسار بجمع المعلومات اللازمة حول العقار أو الخدمة المراد التعامل فيها، وكما يتواصل مع الأشخاص المناسبين لإتمام البيع. وبهذا يعد السمسار وسيطًا بين الأطراف حيث إنه يتفوق على زملائه من حيث الخبرة بالتفاصيل الدقيقة المتعلقة بالصفقة. علاوة على ذلك، يعد الوسيط العَقَاْرِي كذلك مسؤولًا عن عقد الاتفاق بين الأطراف على الشروط اللازمة لعقد السَّمْسَرَة والتأكد منها. ومع تطوّر في بيئة العمل زادت التعقيدات في التعاملات التجارية، لذلك أصبح دور الوسيط أكثر أهمية في تسهيل انجاز الصفقات التجارية. لنلخص ما سبق بجملة واحدة، وهو يسهل التعاملات التجارية ويجعلها أسهل وأيسر وأكثر انسجامًا[41].

وجود سماسرة عقاريين غير مرخصين لهم تأثير كبير على الاستثمار وكما يؤدي إلى فرار المستثمرين وتحديدًا المستثمرين الأجانب بسبب محاولة استغلالهم والنصب عليهم من قبل الوسطاء وبالتالي يؤثر بشكل مباشر على الاقتصاد[42].

لذلك كان لا بدَّ من قانون صارم يضبط هذا النوع من المهن، فشركات الوَسَاْطَة العَقَاْرِية

المحترفة توظف عددًا كبيرًا من العمال الوطنيين حاليًّا، ليس هذا فحسب بل تعزز مهاراتهم التسويقية والتفاوضية حيث أن التسويق العَقَاْرِي يعتبر من أصعب أنواع التسويق، فيمكنك اقناع عميل بشراء سلعة بسعر 100 ريال سعودي على سبيل المثال، لكن ليس من السهل لك أن تقنعه بشراء منزل بما يقارب ثلاثة ملايين ريال سعودي أوبيع وحدات عقارية لأبراج تحتوي على آلاف الوحدات العَقَاْرِية، ويمكنك أيضًا أن تقدم اقتراحات متوافقة مع رغبات فئات مختلفة من المجتمع، وتقدم لهم خيارات تتناسب مع قدراتهم المالية. فالوسيط العَقَاْرِي يقوم بإجراءات طويلة وتحتاج إلى شخص صبور وتعامل بأسلوب مستقرٍ نوعًا ما ليتحمل مختلف ردات الفعل، سواء من العملاء أو الملاك، وهذا بالتأكيد مبنى على قدرات رفيعة المستوى في الإقناع والتسويق والتوجيه بهدف بوصلة الاستثمارات وتقديم معلومات غنية عن السوق.

ومما لا شك فيه أن حوكمة هذا القطاع ستنعكس إيجابًا على السوق العَقَاْرِية، أضف إلى ذلك أن التطور الرقمي والتكنولوجي في التسويق العَقَاْرِي له أَثَرٌ مميز في بناء قاعدة بيانات تعود بالنفع على هذا القطاع وتعزز كفاءته، وتزيد أيضًا فرص تدفق الاستثمارات فيه وعلى وجه التحديد أن القطاع العَقَاْرِي قد تطور ليتجاوز القطاع السكني والتجاري إلى القطاع اللوجستي والسياحي والصناعي وغيرها من القطاعات، كل هذا يتطلب استقطاب كفاءات بارعة لهذا القطاع وتحديد قطاع الوَسَاْطَة العَقَاْرِية[43].

ولهذا السبب تم وضع قانون يضبط السماسرة، فعلى سبيل المثال قامت المملكة العربية السعودية بتشكيل هيئة خاصة لمراقبة هذا القطاع وقد وضعت غرامات مالية في حال مخالفة قوانين هذه الهيئة، نذكر أهم القوانين الضابطة لهذا القطاع[44]:

1. أن يكون الوسيط في سن الرشد ومؤهَّلًا لإبرام العقود وكما ذكرنا حدد القانون الأردني السن المناسب للوسيط هو 20 عامًا.
2. يُشترط أن يكون الوسيط طرفًا خارجيًا أي أنْ لا يكون طرفًا حقيقيًا في العقد؛ بمعنى آخر ليس له في العقد مصلحة حيازة أو شخصية.
3. يجب أن يكون السمسار في حكم الوسيط أو المفاوض لدى التعاقد على الصفقات.
4. تحديد أجرة السمسار التي تتفق عليها الأطراف قبل البدء.
5. أن تكون الصفقة التي يتوسط بها صفقة قانونية ضمن الشريعة الإسْلَاْمِيَّة وحسب نظام الدولة.

المبحث الثالث

الرؤية الإِسْلَاْمِيَّة للوساطة العَقَاْرِية

لما كانت السَّمْسَرَة يشوبها العديد من التدليس والغش لأن الوسيط العَقَاْرِي يحرص على إكمال صفقات بأكبر قدر من الربح، وبما أن المتعاقدين لا يعرفان بعضهما فالاعتماد يكون على السمسار، لذلك ألزمت الشريعة الإسلامي بأن هذه المهنة لا يتولها إلا من هو أهل لها[45] .

بناءً على الأحاديث والآثار التي سبق وأثبتت يتبين أن عقد الوَسَاْطَة مشروعٌ وباتفاق جميع الأئمة وجواز أخذ الأجر عليه[46]، وهي مهنة تنوقلت عبر العصور الإِسْلَاْمِيَّة، فالشريعة الإِسْلَاْمِيَّة جاءت لتحقق مصالح العامة وتهديهم إلى الطريق الصحيح حتى في التعاملات المالية، فالدين الإسلامي لم يكن حاجزًا أمام مصالح الناس بل نظمت الوَسَاْطَة العَقَاْرِية ضمن شروط ، وعلى السمسار أن يلتزم بشروط التي حددها الشرع الإسلامي وأهمها الأمانة والعفة وعدم التغرير الخيانة والغش[47]. فاجتمع الفقهاء على الآداب والضوابط التالية للسماسرة[48]:

1. لا يزيد الوسيط من قيمة السلعة من تلقاء نفسه، وهذا من الغش والتدليس
2. لا يكون الوسيط صاحب العقار أو شريك به.
3. أن لا يشتري العقار لنفسه، فيوهم المشترى أن الناس اشتروها منه، وذلك كون هناك تعارض بين مصلحة البائع ومصلحة السمسار. ومن البديهي أيضًا بأن السمسار لا يشتري العقار لنفسه إلا إذا أيقن بأن هناك من سيشتريها منه بسعر أعلى، وهذا يعتبر خيانة لصاحب العقار.
4. عليه أن يعلم المشتري بحال وجود عيوب في العقار.
5. عليه أن يعرف صاحب العقار، فإن لم يكن يعرفه يتأكد بأن البائع هو المالك الحقيقي للعقار حتى لا يتضرر المشتري.
6. في حال ملك العقار أكثر من طرف فعلى السمسار التأكد بأن جميع الأطراف لديها رغبة في بيع العقار.

الخاتمة

السَّمْسَرَة (الوَسَاْطَة) العَقَاْرِية أو غيرها هي التوسط بين البائع والمشتري بهدف إتمام الصفقة.

(السمسار) هو الوسيط بين البائع والمشتري، وهي مهنة قديمة وليست وليدة العصر، لكن أهميتها زادت وتطورت، ومع تطور التعاملات المالية أصبحت هناك شركات وساطة عقارية تستقطب موظفين ذو خبرة عالية بهذا المجال.

الوَسَاْطَة مهنة مهمة وذات تأثير إيجابي على الاقتصاد، وبالتالي فهي تتفوق على قطاعات كثيرة وتخدم أخرى كالصناعة والسياحة والزراعة، لذلك هناك عدة قوانين عملت على تنظيم هذه المهنة.

الوَسَاْطَة العَقَاْرِية لا تتعارض مع أحكام الشريعة الإسلاميَّة، وقد أجمع الفقهاء على الضوابط والآداب العامة المنظمة للوساطة العَقَاْرِية، وأهم صفة حرص الإسلام على وجودها هي عدم الغش والخيانة والتحلي بالأمانة والعفة ومن الضروري أن يكون السمسار ذا خبرة في هذا المجال.

---

1 رامي الدرادكة، آثار عقد السمسرة (Doctoral dissertation, جامعة اليرموك)، (2014) ص23.
2 https://islamqa.info/ar/answers/45726/%D8%AD%D9%83%D9-%85%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%85%D8%B3%D8%B1%D8%A9%
3 A9 غادة صرصور، عقد السمسرة بين الواقع والقانون: دراسة مقارنة بين القانون التجاري المصري والقانون التجاري الأردني، ص 72.
1 Hiwal, (2013). -Solah, & Al الوساطة العقارية وتطبيقاتها القضائية-ULUM IS LAMIYYAH: < , ..Malaysian Journal of Islamic Sciences، ص41،
2 المرجع ذاته، ص42.
3 المرجع ذاته، ص42.
1 المرجع السابق، ص42.
2 Hiwal-Solah & Al، مرجع سابق، ص43.
3 المرجع ذاته، ص44.
4 غادة صرصور، عقد السمسرة بين الواقع والقانون: دراسة مقارنة بين القانون التجاري المصري والقانون التجاري الأردني، ص73.
1- سنن ابن ماجه (3/ 511 ت الأرنؤوط) وله شاهد قوي من حديث أبي هريرة عند الطحاوي في "شرح مشكل الآثار" (3014)، وابن عدي في "الكامل" 6/ 2235، وأبي نعيم في "تاريخ أصبهان" 1/ 221، والبيهقي 6/ 121
2 صحيح البخاري، بَابُ إِثْمِ مَنْ بَاعَ حُرًّا و بَابُ إِثْمِ مَنْ مَنَعَ أَجْرَ الأَجِيرِ (3/ 83 ط السلطانية)
3 النووي، روضة الطالبين وعمدة المفتين (٥/٢٧٥).
1 النووي، روضة الطالبين وعمدة المفتين» (5/ 275)
2 السمرقندي، تحفة الفقهاء (٢/٣٥٨)
3 Hiwal-Solah & Al، مرجع سابق(2013)، ص 57.
4المرجع ذاته، ص 57
1 ابن قدامة، المغني (٥/٣٤٥)، وينظر: أبو النجا شرف الدين موسى الحجاوي المقدسي (ت ٩٦٨ هـ) الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل (٢/٣٠٠).
2 أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (ت ٥٢٠هـ)، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه

والتعليل لمسائل المستخرجة (٨/٤٩٦).
3 النووي، روضة الطالبين وعمدة المفتين (٥/١٧٨).
1 Hiwal–Solah & Al، ص65.
2 غادة صرصور، عقد السَّمْسَرَة بين الواقع والقانون: دراسة مقارنة بين القانون التجاري المصري والقانون التجاري الأردني، ص 73.
3 أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، برقم (٤٨٠٠)
4 غادة صرصور، عقد السَّمْسَرَة بين الواقع والقانون: دراسة مقارنة بين القانون التجاري المصري والقانون التجاري الأردني، ص61)
5 خالد الشعيب، أحكام السمسرة في الفقه الإسلامي، ص269.
1 . «لقولُهُ، صلّى الله عليه وسلّم: (ثلاثةٌ لا يُكلِّمُهُم اللّهُ يومَ القيامةِ، فَذَكَرَ المُنَفِّقَ سِلْعَتَهُ بالحَلِفِ الفاجِرَةِ). المُنَفِّق: مُشَدَّدَة الفاء أَجودُ، يريدُ المُرَوِّج لها من النَّفَاقِ. فأمَّا المُنْفِقُ، ساكنة النون، فإنَّهُ يُوهِمُ مَعْنى الإنفاقِ» أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (ت ٣٨٨هـ) إصلاح غلط المحدثين» (ص54
2 عملًا بما روي عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: " «اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِكُمْ بِالْكِتْمَانِ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ» ". رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الثَّلَاثَةِ، وَفِيهِ سَعِيدُ بْنُ سَلَامٍ الْعَطَّارُ، قَالَ الْعِجْلِيُّ: لَا بَأْسَ بِهِ، وَكَذَّبَهُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ، إِلَّا أَنَّ خَالِدَ بْنَ مَعْدَانَ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ مُعَاذٍ «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» (8/ 195)
3 الشلهوب، صلاح (2023م) نظام الوساطة العقارية وأثره في السوق، تم الاطلاع في تاريخ 5/10/2023م. رابط الموقع: https://www.aleqt.com/2023/02/04/article_2485046.html
4 يوسف نصر، أجرة السمسار عند المالكية وصورها المعاصرة، العدد الرابع والثلاثون، كلية الشريعة والقانون بطنطا (2019م) ص274.
1 تعريف السمسرة بالقانون التجاري وأبرز 5 خصائص عقد السمسرة (بدون تاريخ نشر)، تم الاطلاع في تاريخ 4/10/2023م. رابط الموقع:
2 تعريف السمسرة بالقانون التجاري وأبرز 5 خصائص عقد السمسرة (بدون تاريخ نشر)، تم الاطلاع في تاريخ 4/10/2023م. رابط الموقع:
1 السبيل (2015م). "السمسرة" تهدد الاستثمارات الأجنبية في الأردن، تم الاطلاع في 7/10/2023م.
1 صلاح الشلهوب (2022م) الوساطة العقارية من العشوائية إلى التنظيم، تم الاطلاع عليه في تاريخ 2/10/2023، رابط الموقع: https://elaph.com/Web/NewsPapers/2022/07/1479393.html
2 تعريف السمسرة بالقانون التجاري وأبرز 5 خصائص عقد السمسرة (بدون تاريخ نشر)، تم الاطلاع في تاريخ 4/10/2023م.
1 د. خالد عبد الله الشعيب، أحكام السمسرة في الفقه الإسلامي، ص269
2 محمد منجد (2005م)، حكم السمسرة تم الاطلاع في تاريخ 1/10/2023.
1 د. خالد عبد الله الشعيب، أحكام السمسرة في الفقه الإسلامي، ص269.
2 المرجع ذاته، ص270.

مدلولات توظيف التُّراث الأدبي في الخطاب الفنيّ – توفيق الحكيم أنموذجًا

ليلى محمد سعد

أستاذة جامعية

ملخّص

يتناول هذا البحث الموسوم بعنوان (مدلولات توظيف التُّراث الأدبي في الخطاب الفنيّ – توفيق الحكيم أنموذجًا) دراسة توظيف التَّراث الأدبي العربي والعالمي وتشكيلاته والإضاءة على مدلولاته وربط تفاعلاته في الخطاب الفنيّ عند الأديب المصري توفيق الحكيم[1]، والغوص في خبايا المرجعيات الأدبيَّة.

إنَّ توظيف الموروثات بشكل عام ظاهرة من الظَّواهر النَّقدية الَّتي شغلت محطّ الأدباء والنُّقاد، إذ تُحسبُ المادة الأدبيَّة بما تحمله من زخم معرفي وثقافي الرَّافد الأساسي الَّذي اتكأ عليها الكاتب توفيق الحكيم، فانطلق من احتواءات الإرث الأدبيّ العربي والعالمي لأجل تحقيق إستراتيجية إبداعيَّة وخصوصيَّة مميزة في أعماله الفنيَّة، وقد عمد إلى استثمار التُّراث الأدبي بطريقة الإقتباس والمحاكاة – بشكل عام – كما عمد إلى طريقة استحضار النَّص الغائب – بشكل خاص – وحوَّله إلى ما يتناسب مع مجريات واقعه ليعبّر عن رؤيته الإيديولوجيَّة من منظور فنيّ ما جعله يتفاعل مع إرثه الأدبي مورفولوجيًا ولغويًا ودلاليًا وجماليًا وفنيًّا.

وقد اخترت فكرة البحث عن دلالة «مدلولات توظيف التُّراث الأدبي في الخطاب الفنيّ – توفيق الحكيم أنموذجًا» بهدف الإجابة عن الإشكالية المطروحة وكمحاولة للإضاءة على توظيف المادة الأدبيَّة ومدى الغنى الَّذي خلّفه رصيد التُّراث الأدبي في الخطاب

الفنيّ والكشف عن مدلولاته وتشاكلاته وتفاعلاته الدلاليَّة.
وسنسعى للإجابة عن الإشكالية التَّالية:
– ما أشكال التُّراث الأدبي وتشاكلاته وتفاعلاته وتناصاته ومدلولاته داخل الخطاب الفني للكاتب توفيق الحكيم؟
– ما القواسم المشتركة والتراكيب المتحولة والبنى المتقاطعة والمتنافرة بين تشكيلات الخطابات الأدبية التناصية والخطاب الفنيّ عند توفيق الحكيم؟
– ما رؤية الأديب توفيق الحكيم إلى العالم، وما مرجعياته الأدبية؟
وقد قدمتُ البحث بتمهيد، وثلاثة مباحث، درست في المبحث الأوَّل مدلولات التُّراث القديم وفي المبحث الثاني عالجت مدلولات التُّراث العربي، وفي المبحث الثالث تناولت مدلولات التُّراث العالمي، وفي الخاتمة رصدت أهم النَّتائج الَّتي توصَّل إليها البحث.
وتقتضي منهجية البحث الإعتماد على المنهج البنيوي – السِّيميائي للولوج إلى عالم الخطاب الأدبي وإظهار العلاقات المورفولوجية والتشاكلية والدلالية والكشف عن مدلولات توظيف الإرث الأدبي واستبطان البنية الدلالية الكليَّة ورُؤية الكاتب المسرحي والرِّوائي المصري توفيق الحكيم إلى العالم وذلك في مجموعة من خطاباته لكون إنتاجاته الإبداعية تفوق الخمسين كتاباً بين مسرحية ونقد ورواية وفكر فيضيق بنا المقال.

مقدمة

يكاد الإنسان يجزم بأنَّه لا يوجد أديب في عصر نشأ فيه إلَّا وقد استدعى الموروثات الدِّينية والأدبيَّة والتَّاريخية والأسطوريَّة والصُّوفية والفلسفيَّة والثَّقافات القديمة المتنوعة والمعاصرة له، واتَّخذ منها غذاء لفكره ووجدانه، وتأثَّر بمجريات ذلك العصر، ممَّا جعل خطابه سجلاً حافلًا بالكثير من الأحداث والصراعات والإيدولوجيات والَّتي كان لها قوة تأثيريَّة إيحائيَّة لحمل الأبعاد المعاصرة للرؤية الخطابيَّة، بحيث أصبح توظيف معطيات التُّراث في الخطاب الأدبي تكنيكًا أساسيًا من تكنيكات البناء الخطابي الحديث.
لذا نجد الأديب – في أيّ عصر كان – يستدعي التُّراث إلى إبداعاته ليكون وسيلة لتوليد دلالات خصبة جديدة تنصهر في سياقات تتَّخذ من أشكال الموروثات الأدبية ملجأ لها، إذ لا «فكاك للإنسان من شروطه الزَّمانيَّة والمكانيَّة ومحتوياتهما، ومن تاريخه الشَّخصي، أيّ من ذاكرته، فأساس إنتاج أيّ نصّ هو معرفة صاحبه للعالم.»[2]
وتجدر الإشارة إلى أنَّ توظيف تقنيَّة التُّراث بأشكاله المتعددة أصبح من السِّمات البارزة

في الخطاب الأدبي منذ بدء عصر النّهضة، ويعود سبب ذلك إلى المؤثرات الّتي يواجهها الأديب العربي في العصر الراهن، وإلى عوامل تنوّعت «بين ثقافيَّة ترى أهمية توسيع أفق الشَّاعر ومداركه، ونفسيّة تُعين الشَّاعر على التَّخفيف من كآبته ومعاناته، وفنيَّة توفّر له أدوات جديدة مرنة، وقوميَّة تُعيد له الثِّقة برصيده القومي مقابل ثقافة المستعمر والوافد، وسياسيَّة أجبرت الشَّاعر على اتِّخاذ وسيط بينه وبين القارئ.»[3]

وتكاد تجتمع في الخطاب الأدبي الأصيل بؤر ثقافيَّة متعددة، فقد استقطب توفيق الحكيم في خطابه ثقافات التراث الأدبي بأشكاله المتنوعة القديمة والعربيَّة والعالميَّة، وكان لهذا الإستقطاب نكهة خاصة وذلك للمحافظة على الإرث القديم والهوية العربيَّة والمساعدة في استمرارية بقائه وديمومته وتفاعلاته مع متغيرات الحاضر، إذ يضمُّ كلّ عمل أدبي عالمًا معماريًا مسبوكًا هندسيًا، ويحوي تراث الأمم والشُّعوب وتاريخها وحضاراتها وأساطيرها ما يفتح الخطاب على مصراعيه للقراءة والنَّقد والتَّحليل، والهدف هو إدخالها في مملكة الدلالة وإسكانها في قصر الهدم والبناء والتَّشييد لإستنباط مدلولاتها وتفاعلاتها الحيوية، وإبراز قواسمها المشتركة وتنافراتها الدَّلالية.

مدلولات التراث القديم

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الحديث عن فكرة توظيف التُّراث الأدبي يقودنا لا محال إلى دراسة التَّناص L'intertextualité الَّذي يبحث في تداخل النُّصوص الأدبيَّة، ويسمح في إقامة الحوار الَّذي يخوله الإنفتاح على الآخر، فكلّ «نصّ جديد نسيج لإقتباسات ماضية.»[4] لذلك يتكوّن إلتقاء النُّصوص على صعيد البنية العميقة الَّتي تمثل المرجعية الثَّقافية للمؤلف، وتدخل في المتفاعلات النَّصية الأدبيَّة و»كلّ البنيات المتَّصلة بالأدب، في جانبه الشَّفوي أو الكتابيّ، وسواء كان هذا الأدب ساميًا أو منحطًا ويندرج ضمنه وفق هذا التَّحديد ما هو شعري أو نثري سواء كان واقعيًا أو متخيلًا.»[5]

لذا، يزدخر الخطاب الأدبي عند الحكيم بالزَّخم الثقافي، وقد نهل من منابع التُّراث القديم والحديث والتُّراث اليوناني والعربي والفارسي والغربي، وتشرّبت البنى الخطابية من مصادر متعددة، فحُبكت بسرديَّة غلب عليها الطَّابع المرجعي، كما استحضر الشَّخصيات وتراثها اليوناني والبريطاني والعربي والفارسي والغربي ليخصب تجربته الأدبيَّة بمضامين تجارب الماضي.

ويجمع الكاتب في خطابه تفاعلات توظيف التُّراث القديم والحديث ومدلولاته، ويلبس

شخصياته أثوابًا مختلفة ويضمنها آراء متنوعة متقابلة حول علاقة الرجل والمرأة ونظرة كل منهما لموضوع الحبّ، ويأتي بفصل عنوانه «مؤتمر الحبّ» الَّذي يختزن مضمونه فكرة أنَّ المرأة هي المعبودة في حياة الرَّجل وأغلب الرِّجال يكتمون ذلك. وقد جرت تحاورية بين شخصيات مختلفة مؤلفة من صحفي وشاعر وموسيقي وامرأة، وممَّا جاء على لسان المرأة: «إنَّه بالتأكيد يهمّكم أجمعين ... إنَّه يهمّ الصّحفي ... وهل تستطيع أيَّها الصَّفحي أن تنكرَ أن أعجب خبر نُشر في القرن العشرين هو حبّ ملك الإنكليز ل (ليدي سمبسون) ونزوله عن العرش الضَّخم من أجل هذا الحبّ؟! وأنت أيَّها الشَّاعر هل تجحد أنَّ الحبَّ هو الَّذي أثار حرب (طروادة) وألهم (هوميروس) الإلياذة ... أخلد شعر على الدَّهر... وأنت أيَّها الموسيقي هل تنفي أنَّ المزمار منذ وُجِد، والقيثارة منذ صُنِعت لهما هدف غير التَّعبير عن الحبِّ؟! ...

فقال الجميع بصوت واحد:

– صحيح ...

– وسكتت المرأة سكوت المنتصر الَّذي اعتاد الظَّفر...»[6]

نجد في كلِّ عمل أدبي تكوين سياقي لتشكلات ثقافيّة وفكريَّة جزئية أو شاملة تكشف في وشائجها عن جانب من كنه الوجود الإنساني في المواقف والصَّراعات، وتختزن الحوارات المتوترة بين الشَّخصيات التَّناقض في الرّأي والتّنافر الدلالي حول موضوع الحبّ، لإثارة التَّشاكل الدلالي بين الإصرار والتَّنازل، الكتمان والإعتراف.

كما يمزج في استحضار الشَّخصيات: شخصية من التُّراث القديم وشخصية من التُّراث الحديث، فاستدعى الشَّاعر اليوناني القديم (هوميروس) في ملحمته الشّعريّة (الإلياذة) الخالدة على الدهر ليكشف عن سبب الصِّراع الأسطوري في حرب طروادة عندما قام باريس بخطف هيلين زوجة منيلاوس ملك إسبرطة. وقد أعدَّ شقيق أجاممنون ابن أتريوس جيشًا ضخمًا لإسترجاعها وإعادتها ملكة لإسبرطة. وللتأكيد على فكرته أتى بشاهد من التَّاريخ البريطاني الحديث يوم تنازل الملك إدوار الثامن رسميًا العام 1936عن العرش البريطاني وكان السَّبب أنَّه أحبّ إمرأة امريكيَّة مطلّقة تُدعَى (واليس سمبسون)، فيما يُحسب هذا الزَّواج مخالفة صريحة للدستور الملكي، وقاده إصراره إلى التَّنازل عن العرش الضخم مقابل عدم التَّنازل عن المرأة التي أحبَّها، ونبرز مدلولات التَّشاكلات والتَّفاعلات التَّركيبيَّة لتوظيف التُّراث من خلال التّرسيمة الآتية:

(لسان) حال المرأة ← كتمان الرَّجل لحبّ المرأة← الشَّاعر – الصّحفي – الموسيقي.
هيلين (زوجة ملك إسبرطة) ← الصِّراع الأسطوري لأجل إستعادة الملكة ← استدعاء هوميروس.

↓

الإعتراف والإصرار والثّبات والدِّفاع بالقوة من أجل الحبّ

↑

ليدي (واليس سمبسون) ← التَّنازل عن العرش مقابل الحبّ ← استدعاء الملك إدوار الثامن.

ويتنامى امتداد توظيف التُّراث اليوناني في جسد الخطاب الأدبي من خلال استدعاء قصيدة الشَّاعر الإغريقي (أنا كريون) الَّذي عاش في القرن السَّادس قبل الميلاد، فيقول:

«إنِّي أريد ... أريد أن أحبّ ...
ولقد زين لي (الحبّ) أن أحبّ...
فأبيت من جهلي أن أصغي إليه ...
فقبض من فوره على قوس من ذهب ...
ودعاني إلى القتال ... فلبست له الحديد...
وأمسكت بالرّمح والدّرع ! ...
ونهضت كأنّي (أشيل) ! ...
أنازل (الحبّ) فسدد إليَّ سهامًا ...
حدت عنها فطاشت ونفدت سهامه ..
فتقدم إليَّ يتّقد غضباً ....
وهجم عليَّ فاخترقَ جسمي ...
ونفذ إلى قلبي ! ... فانهزمت ! ...
يا لها من حماقة أن أتّقي بدروع ! ...
أي سلاح خارجي ينتصر على الحبّ
إذا كانت المعركة قائمة داخل نفسي !؟ ...»[7]

تتفاعل الدوال في المقطوعة الشعريَّة المقتبسة بشكل مباشر للدلالة على المعركة الداخلية في قلب الشاعر ونفسه وتعكس صورة الانهزام أمام المحب وانتصار الحبّ على روحه.

وتتنامى توظيفات التُّراث اليوناني من خلال اقتباس ومحاكاة كلام المؤرخ والفيلسوف اليوناني بلوتاركس عندما قال: «إنَّهم كانوا يراعون نظامًا دقيقًا في مأكلهم ومشربهم لأنَّ القداسة والصَّحة يسيران جنبًا على جنب، فكانوا لا يسرفون في أكل اللَّحم ولا بعض

الخضر ولا حتّى في شرب ماء النيل لزعمهم أنَّ الإكثار من مائه يسمن الجسم كما يدسم الأرض. إنَّ البدانة كانت عندهم من عيوب الكهانة. فهم كانوا حريصين على أن يغلفوا نفوسهم بأجسام نشيطة خفيفة، حتَّى لا يختنق ما في أرواحهم من جوهر إلهي تحت ثقل المادة الفانية.»[8]

تتفاعل تشكيلات المادة الإقتباسية في جسد الخطاب الفني لطرح التَّنافرات الدلالية بين الصَّحة والبدانة، الرُّوح والمادة في مقابل التَّعادل بين دوال القداسة والصحة، أكل اللحم وأكل الخضر، وعدم التكافؤ بين الحرص والإسراف في المأكل، وذلك لدعم فكرة اهتمام الكهنة المصريين القدماء بصحتهم وحرص راهب الفكر على الإهتمام بصحته وقداسته حفاظًا على نضارة شبابه.

وتظهر القواسم المشتركة والتّشاكلات الدلالية بين توظيف الخطاب القديم والخطاب الأدبي من خلال:

(الكهنة في مصر) قديمًا / البدانة عيب = (راهب الفكر) حديثًا / المحافظة على القداسة.

الإهتمام بالصحة (نشاط وخفّة وتوازن) # البدانة (اختناق وثقل)

التّعادل (الحرص في أكل اللّحم والخضر وشرب الماء) # الإسراف

الرُّوح جوهر # الجسم / المادة فانية التَّقيد بأنظمة الحياة للحرص على الصَّحة والقداسة.

مدلولات التُّراث العربي

يُحسب التُّراث بمثابة مخزون ثقافي يختزل ثقافات الإنسانيَّة، كما يرتبط بالحياة الحضاريَّة للفرد والمجتمع، وله «طابع فكري وثقافي أكثر منه مادي، أو هو تراكم خلال الأزمنة من التَّقاليد والعادات والتَّجارب والخبرات وعلوم وفنون شعب من الشُّعوب، وهو جزء أساسي من قوامه الإجتماعي والخلقي، يوثق علائقه بالأجيال الغابرة الَّتي عملت على تكوين هذا التُّراث وإغنائه.»[9]

وللتّراث قيمة أساسية وجذور راسخة في نفوس الشّعوب، وبخاصة الأدباء الَّذين حاولوا نقله من جيل إلى آخر، فكانت الرَّوافد التُّراثية محطَّ أنظار الدارسين في الشَّرق والغرب، على أساس أنَّ النَّص الَّذي لا يقبل هذه الرَّوافد هو نصّ عقيم.

ومن الرُّوافد التُّراثيَّة الأدبيَّة الَّتي تفاعل معها الخطاب الفني عند الكاتب توفيق الحكيم هي الشُّعراء الجاهليين وأشعارهم الراسخة وقيمهم الحكمية الخالدة على مرّ الزمن، فاستدعى

شخصية الشَّاعر الجاهلي (زهير بن أبي سلمى) في سياق سردي فيقول «بعد ميلادي بعدّة سنوات وضعت والدتي أخي الأصغر والوحيد.. وسمَّاه والدي «زهير» تيمنًا باسم الشّاعر الجاهلي «زهير بن أبي سلمى»، الَّذي كان يحفظ معلقته المشهورة.»[10] ومنها قوله:

«ومن لم يصانع في أمور كثيرة　　يُضرَّس بأنياب ويوطأ بمنسم.»[11]

استعاد تشكيلات البنية اللُّغويَّة والمورفولوجيَّة والتَّركيبيَّة والدلالية للبيت الشِّعري لزهير بن أبي سلمى:

«وَمَنْ لَا يُصَانِعْ في أمُورٍ كَثيرَةٍ　　يُضَرّسْ بِأَنْيابٍ ويُوطَأْ بِمنْسِمِ.»[12]

يستمدّ الحكمة من العصر الجاهلي ما يطرح التَّشاكل الدلالي بين مداراة النَّاس وعدم مداراتهم، ويكشف عن وقوع الإنسان في الكثير من الأخطار، وقد يتعرّض للمصائب والويلات وعليه أن يستفيد من تجارب الأيام ومعاركها، فعدم مداراة النَّاس في كثير من الأمور تؤدي إلى قهره على الرغم من عدم اقتناعه بتصرفاتهم لأنَّه حتمًا سيمزق بأنيابهم ويُداس تحت أقدامهم.

ويمتصّ الخطاب الفني التَّناص الشّعري من خلال استحضار أبيات شعريَّة لشعراء من العصر الأموي كجرير وعمرو بن أبي ربيعة، فيقول:

«كنَّا نريد أن نسمع من ينشد: ..

غيَّضنَ من عَبَراتِهن وقُلْنَ لِي　　مَاذا لَقيْتَ مِن الهَوَى وَلقِينَا ؟! ...

أو:

وناهدة الثّديين قلتُ لها اتَّكى　　على الرّمل في ديمومة لم توسّد.»[13]

فالبيت الشعري الأوَّل هو للشاعر جرير أما البيت الشعري الثاني فهو للشاعر عمرو بن أبي ربيعة، ويظهر الإستبدال التَّركيبي في عجز البيت في التَّركيب المؤلف من (جار + مجرور) «في ديمومة» مكان تركيب (من جبَّانة)، فيقول عمرو بن أبي ربيعة:

«وَنَاهِدَةِ الثّدييْنِ قُلْتُ لَها اتَّكى　　عَلَى الرَّمْلِ من جَبَّانَةٍ لَمْ تَوسَّدِ.»[14]

يختزن توظيف التُّراث الأدبي التَّوافق التّناصي والتشاكل الدلالي الحديث عن الحبّ والهيام والشُّعور الجميل بخيال بديع في إيحاء إلى العواطف المشتعلة في سنِّ الشّباب مقابل الإخفاق في الوصول إلى المحبّ والمعاناة الصادقة وصدى للخيبة والأسى، ونبرز توظيف البنية التَّركيبية واللُّغوية والتشاكلية والدلالية للخطابين:

الخطاب القديم: وَنَاهِدَةِ الثّدييْنِ قُلْتُ لَها اتَّكى　　عَلَى الرَّمْلِ **في ديمومة** لَمْ تَوسَّدِ

العاطفة / الحبّ / الصّدق

استبدال التَّركيب (من جبّانة / في ديمومة)

الخطاب الأدبي: وناهدة الثّديين قلتُ لها اتّكى على الرّمل **من جَبَّانَةٍ** لم توسّد الإخفاق / الأسى / الخيبة

ويستلهم الكاتب عن طريقة استحضار النّص الغائب المادة الشعريَّة لشعراء العصر العباسي أمثال (أبو الحسن الأنباري والنَّابغة الذبياني واسحاق الموصلي)، فيقول:

«علوّ في الحياة وفي الممات لحق أنت إحدى المعجزات»[15]

يقتبس الحكيم مطلع قصيدة لأبي الحسن الأنباري الَّتي قالها في رثاء الوزير ابن بقية المعروف بالكرم على النَّاس، ولما دخل عضد الدولة ابن بويه إلى بغداد قتله وصلبه ووضع على جثته حرسًا لكي لا ينزله النَّاس، بينما كانوا يمرون عليه ويبكون، وكان الشَّاعر خارج بغداد في سفر، فدخل إليها واتّجه إلى ساحة البيماستان العضدي حيث صلب الوزير.. أوقف فرسه، والنَّاس تنظر .. نزل منها .. وقف ... وصلَّى على المصلوب صلاة الميت.. وقد استعاد هذه الحادثة في صورة أدبية إيحائية دلالية ليقدّم نموذجًا للإنسان الكريم الَّذي تخلّده أعماله بعد موته.

ويبلغ التَّناص مداه من خلال اقتناص البيت الشعري في جسد الخطاب الأدبي، فيقول:

«له بفناء البيتِ سوْدَاء فخمةٌ تلقمُ أوصَالَ الجَزُورِ العُراعِرِ»[16]

إذ يقتنص البنية التركيبيّة واللُّغوية والمورفولوجيّة والدلالية لقول الشاعر العباسي النَّابغة الذُّبياني:

«لَهُ بِفِنَاء البَيْتِ سَوْدَاء فَخمةٌ تَلقمُ أوْصَالَ الجَزُورِ العُراعِرِ»[17]

جاء توظيف تشكيل البناء التركيب واللغوي والدلالي والجمالي للبيت الشعري في جسد الخطاب للتركيز على مضمون كرم الممدوح في إطعام الضيف وإكرامه، فيقدّم نموذجًا آخر لخير الرِّجال ما يعكس قيمة الإنسان الكريم وقدره العظيم في الحياة.

ويستعين الحكيم لوصف مشية الفتاة وغنجها ودلالها باقتباس بيت شعري للشاعر إسحاق الموصلي، فيقول في سياق سردي: «دقّت السَّاعة العاشرة، فأقفل شباك التَّذاكر، وخرجت الفاتنة تتهادى كالغزال الَّذي وصفه إسحاق الموصلي بقوله:

شادن لم يرَ العراق وفيه مع ظرف العراق دلَّ الحجاز.»[18]

يومئ التَّشاكل الدلالي بين أهل اليمن وأهل الحجاز وأهل العراق وتكشف الدلالة أنَّ اليمانيين اشتهروا بالعشق، فيما اشتهر الحجازيون بالدّل، وقد اشتهر العراقيون بالظّرف. كما تتنوّع العلاقات السَّردية بين الأحداث والشَّخصيات في الخطاب الفني، فكلّ خطاب

يحمل تمظهرات ثقافية، ويقدّم تحوّلات اجتماعيَّة وذلك من خلال رؤية الحكيم إلى العالم.
لذا، يعود إلى إحياء المرجعيات الأدبية في نسق تركيبي وصورة مغايرة لرواية الجاحظ: «أنّ رجلاً دميماً، تزوج اعرابيَّة حسناء، هامت به، فسأل في ذلك فقال: قرب الوساد وطول السَّواد.»[19]
بالمقابل تحكي الروايات في تاريخ القبائل العربية أنَّ «هند بنت الخُسِّ وهي إحدى الأميرات في الجاهليَّة مشهورة بذكائها وكانت حكيمة نساء العرب الَّتي صوروها صورًا مختلفة بأنَّها ارتكبت الإثم مع مولودها، فطول التَّداني وكثرة الرؤية هما أصل البلاء كما قيل لابنة الخسّ: لم زَنَيتِ بِعبْدِك ولم تزنِ بحرٍّ، وما أَغْرَاك به؟ قالت: طُولُ السِّواد، وقُرْبُ الوِساد.»[20]
تتوافق تشكيلات التوظيف الأدبي، وتتقاطع الدلالة التناصية على هيام تلك الحسناء بذاك الأعرابي الدميم لشدّة الجوار والقرب منه وقت الفراغ، بالمقابل نجد التّحول البنيوي في سعي شخصية / محسن في الخطاب الرِّوائي إلى حلم اللّقاء بفتاته، وعلى الرغم من قرب السّكن والجوار «طول سواد الليل وبياض النهار» فمن المستحيل أن يظفر بمثل هذا الحلم الذّهبي.
إذًا، لقد شكلَّت الرَّوافد التُّراثية الأدبيَّة في الخطاب الأدبي بؤرة مركزية، وقد وسمته بزخم معرفي وثقافي، وأمدته ببنى تحولية أدبيَّة ثقافيَّة جماليَّة، إذ لا أمَّة من دون جذور تصلها بماضيها، ولا أدب من دون جذور تراثيَّة.

مدلولات التُّراث العالمي

تشرَّب الخطاب الفنيّ عند توفيق الحكيم من مصادر يونانيَّة وعربيَّة وفارسيَّة وغربيَّة، ومن أهم الأسباب الَّتي دفعت إلى توظيف التُّراث طبيعة العلاقة بين الخطاب العربي والخطاب الغربي، لأنَّ الخطاب الغربي يُعدُّ المثال الأعلى للخطاب العربي، وغالباً ما ينطلق الرِّوائي في الكتابة من دون حواجز، وتتميز الرّواية عن سائر الأجناس الأدبيَّة في «أنَّها مزيج من التِّقنيات الأدبيَّة يستخدمها الكاتب من دون قيد أو شرط، أيّ أنَّه لا يوجد ما يجبر الكاتب على استخدام الحوار في مكان معين من دون الأمكنة الأخرى ولا يوجد ما يقيّده بالانتقال من وجهة نظر إلى أخرى، فالكاتب حرّ في إدخاله ما يريد من عناصر متنوعة إلى روايته وبالطريقة الَّتي يراها مناسبة.»[21]
وقد اغترف الحكيم في خطابه من بحر الإرث العالمي ومن معين الثَّقافة الفارسية، فاستلهم رباعيات الخيام الَّتي بنى فيها هرم خطابه وشيَّد بها حصون مواقفه دعمًا لنشر

دلالة قيم السَّلام، فيقول:

«إذا أردت أن تعرف الصَّفاء والسَّلام ..

فاحدب على تعساء الحياة

أولئك الضعفاء الفقراء الَّذين يرتعدون في شقائهم

عندئذ تظفر بالسعادة.[22]

تتفاعل البنية التَّركيبية واللّغوية والدلالة لتوظيف الإرث العالمي في جسد الخطاب الأدبي، إذ يستلهم الرُّموز الصوفية لدعم قيم السَّعادة والخير والجمال فيمده بمدلولات القيم الإجتماعية الَّتي تكشف عن أنَّ مساعدة الفقراء يبعث السَّعادة وذلك من خلال البريق الَّذي تراه في عيون الفقراء الَّذين ساعدتهم وفي الدّفء المتسرّب من الأيدي الَّتي طالها العطف ما يعزز عملية البحث عن الخير والسَّعادة والجمال الَّتي يعيشها ويدعو الآخرين لإكتشافها.

كما تنامى سياق الخطاب الأدبي مع اقتباس رباعية أخرى من رباعيات الخيام بدوالها الصُّوفية، فيقول:

«إذا أردت أن تسلك

طريق السَّلام الدائم

فابتسم للقدر إذا بطش بك ...

ولا تبطش بأحد ...»[23]

يستثمر الأديب من رباعيات الخيام ما يناسب مواقفه ورؤيته إلى الحياة المتناقضة، ويختزن التَّشاكل الدلالي بين السَّلام الداخلي والسَّلام الخارجي بعيدًا من الصراعات والنزاعات للتأكيد على دلالة القيم الانسانية كقيم السَّلام والسّلم والمودة والرَّحمة بين الناس.

وهكذا، يرتبط الخطاب الأدبي بالمادة التناصية دلاليًا وفنيًا وجماليًا، ويقيم معها علاقات تعاضد أو تنافر، فالأولى تحمل معاني التبجيل والوقار والاحترام وذلك من خلال التّضمين والاقتباس وأما العلاقة الثانية فهي الَّتي تشكل مفاهيم الاستهزاء والسخرية أو الانتقاد والتَّحويل، وتطغى العلاقات التعاضدية في الخطاب من خلال استحضار مناجاة (حافظ الشيرازي) للببغاء في قصيدته الَّتي يقول فيها:

«أيَّها الببغاء ! ...

أيَّها النَّاطق بالأحاجي ! ..

احرص إلى الأبد على ريشك زاهياً في لون الياقوت، وعلى قلبك فياضًا بالمرح ! ...

آه أيَّها الحظ ! ... اسكب على وجوهنا ماء الورد ولا تبح للصاحي بأسرار النشوة ! ..
نعم ...
إنَّ الحكمة هي الثَّراء الحقيقي ولكن ...
كم تساوى إلى جانب نظرة الحبّ ؟!...»[24]
ويبلغ امتداد التفاعل التناصي من خلال استحضار قصيدة أخرى للشاعر الفارسي حافظ الشيرازي الَّتي يقول فيها:
«حبّي نسيم الربيع
قادني إلى الصحراء
لقد حمل إليَّ النسيم عطره
لكنه أخذ مني راحتي !...
إلهي ! ... إنَّ هذا الجمال
الذي لا قلب له ...
ليفعم بالأسى قلوب عشاقه
لقد جثوت في الطريق الذي
عفرته أقدامها ! ...
لكنَّها لم تدنُ مني
لقد ارتفعت توسلاتي وتنهداتي
فأزعجت نوم الطيور والأزهار
لكنها لم تفتح عينيها
بالأمس مسَّ الكوب شفتيها
وقال: إنَّه يعطي الحياة ! ...
فقلت: لا بل هي الّتي أعارته الحياة
ومع ذلك، لو أنّي أمامها
مت محترقًا ...
لما أطفأت لهبي بأنفاس شفتيها!...»[25]
تختزن المقطوعة التناصية مدلولات الشّوق والشكوى من الفراق، وتبرز معاني الصوفية من خلال التَّضرع إلى الله للتخلص من القيود الذَّاتية والأنانية والسُّمو في مدارج الكمال الإنساني.

ويقول في سياق آخر: «هرب النَّوم من عين محسن. وعلم أنَّه لن ينام في ليلته تلك .. إلَّا إذا أذنت هي له .. وتذكر قول مهيار الديلمي:

وابعثوا أطيافكم لي في الكرى   إن أذنتم لعيوني أن تناما»[26]

يظهر الإقتباس المباشر من خلال استدعاء البيت الشّعري للشاعر الفارسي مهيار الديلمي للدلالة على صدى الأسى ووجع الفراق.

ينفتح مسار الخطاب عند الكاتب توفيق الحكيم على تعدد مرجعيات المتخيل الثَّقافية والأدبية والفلسفيَّة، فيظهر عالمه الأدبي عالم مختلف يقدّم التَّصورات والقيم والمواقف بطريقة تسهم في إثراء البنية الدلاليَّة لتوظيفات التراث، فهو يعتمد على المرجعيات الفلسفيَّة لدعم موقفه من الحبِّ، فيقول: «إنَّ مفارقة المحبوب أمرٌ لا بدَّ منه اضطرارًا بالموت، وإن سلم من سائر حوادث الدنيا وعوارضها المبددة للشمل المفرقة بين الأحبَّة. وإذا لا بدَّ من اساغة هذه الغصة وتجرّع هذه المرارة فإنَّ تقديمها والراحة منها أصلح من تأخيرها والانتظار لها، لأن لا بدَّ من وقوعه متى قُدّم وأزيح مؤونة الخوف منه مدة تأخيره. وأيضاً فإنَّ منع النفس من محبوبها قبل أن يستحكم حبه، ويرسخ فيها ويستولي عليها أيسر وأسهل. وأيضاً فإنَّ العشق متى انضمت إليه الألفة عسر النزوع عنه، والخروج منه، فإنَّ بلية الألفة ليست بدون بلية العشق، بل لو قال قائل إنه أوكد وأبلغ منه لم يكن مخطئاً. ومتى قصرت مدة العشق، وقل فيه لقاء المحبوب كان أحرى أن لا تخالطه وتعاونه الألفة. والواجب في حكم العقل من هذا الباب أيضاً المبادرة في منع النفس وزمها عن العشق قبل وقوعها فيه، وفطمها منه إذا وقعت قبل استحكامه فيها. وهذه الحجة يُقال إن فلاطن الحكيم احتَّج بها على تلميذ له بلى بحبِّ جارية، فأخلَّ بمركزه من مجلس مدارس أفلاطون.

فأمر أن يطلب ويؤتى به، فلما مثل بين يديه قال أخبرني يا أفلاطون، هل تشك في أنه لا بدَّ من مفارقة حبيبتك هذه يوماً ما؟ قال لا أشكّ في ذلك. فقال له أفلاطون فاجعل تلك المرارة المتجرعة في ذلك اليوم، وأزح ما بينهما من خوف المنتظر الباقي بحاله الذي لا بدَّ من مجيئه وصعوبة معالجة ذلك بعد الاستحكام وانضمام الألفة إليه.

فيقال أنَّ التَّلميذ قال لأفلاطون: إنَّ ما تقول أيُّها السيَّد الحكيم حق، لكنّي أجدُ انتظاري له سلوة بمرور الأيام عني أخف عليَّ. فقال له أفلاطون: وكيف وثقت بسلوة الأيّام ولم تخف إلفتها؟ ولمَ آمنت أن تأتيك الحالة المفرقة قبل السّلوة وبعد الاستحكام، فتشتدُّ بك الغُصة وتتضاعف عليك المرارة؟ ... فيقال إنَّ ذلك الرجل سجد في تلك السَّاعة

لأفلاطون وشكره ودعا له وأثنى عليه، ولم يعاود شيئاً ممَّا كان فيه، ولم يظهر منه حزن ولا شوق.»[27]

وما نلحظه أنَّه كان يدلي بتصريحات وبطريقة مقتبسة مباشرة وبشكل كامل مأخوذة من كتاب الفلسفة لأبي بكر الرازي ورأيه في الحبّ مع ملاحظة بعض التعديلات، فيقول: «إنَّ مفارقة المحبوب أمرٌ لا بدَّ منه اضطراراً بالموت، وإن سلم من سائر حوادث الدنيا وعوارضها المبددة للشمل المفرقة بين الأحبة. وإذا لا بدَّ من اساغة هذه الغصة وتجرع هذه المرارة فإنَّ تقديمها والراحة منها أصلح من تأخيرها والانتظار لها، لأنَّ لا بدَّ من وقوعه متى قُدّم وأزيح مؤونة الخوف منه مدة تأخيره. وأيضاً فإنَّ منع النفس من محبوبها قبل أن يستحكم حبه، ويرسخ فيها ويستولي عليها أيسر وأسهل. وأيضاً فإنَّ العشق متى انضمت إليه الألفة عسر النزوع عنه، والخروج منه، فإنَّ بلية الألفة ليست بدون بلية العشق، بل لو قال قائل إنه أوكد وأبلغ منه لم يكن مخطئاً. ومتى قصرت مدة العشق، وقل فيه لقاء المحبوب كان أحرى أن لا تخالطه وتعاونه الألف. والواجب في حكم العقل من هذا الباب أيضاً المبادرة في منع النفس وزمها عن العشق قبل وقوعها فيه، وفطمها منه إذا وقعت قبل استحكامه فيها. وهذه الحجة يقال إن فلاطن الحكيم احتج بها على تلميذ له بلى بحب جارية، فأخلَّ بمركزه من مجلس مدارس أفلاطون.

فأمر أن يطلب ويؤتى به، فلما مثل بين يديه قال له: أخبرني يا أفلاطون، هل تشك في أنه لا بدَّ من مفارقة حبيبتك هذه يوماً ما؟ قال لا أشك في ذلك. فقال له أفلاطون فاجعل تلك المرارة المتجرعة في ذلك اليوم في يومنا هذا. وأزح ما بينهما من خوف المنتظر الباقي بحاله الذي لا بدَّ من مجيئه وصعوبة معالجة ذلك بعد الاستحكام وانضمام الألفة إليه وعضده له.

فيقال أن التلميذ قال لأفلاطون: إنَّ ما تقول أيُّها السَّيد الحكيم حق، لكنِّي أجدُ انتظاري له سلوة بمرور الأيام عني أخف عليَّ. فقال له أفلاطون: وكيف وثقت بسلوة الأيام ولم تخفْ إلفها، ولمَ آمنت أن تأتيك الحالة المفرقة قبل السلوة وبعد الاستحكام، فتشتدُّ بك الغُصة وتتضاعف عليك المرارة.

فيقال إنَّ ذلك الرجل سجد في تلك السَّاعة لأفلاطون وشكره ودعا له وأثنى عليه، ولم يعاود شيئاً مما كان فيه، ولم يظهر منه حزن ولا شوق.»[28]

لقد استطاع الخطاب الأدبي حمل رسالة عبر اللُّغة السَّردية الَّتي استضافت الفنَّ الأفلاطوني الَّذي يرتقي بالمحبِّ إلى درجات المثالية، والَّتي تجد في البعد عن الحسيَّة والجسديَّة

تساميها في علاقة روحية خالصة، إذ لكل فيلسوف موقفه من الحبّ وفلسفته الخاصة، وجاء رأي الحكيم يتوافق مع رأي الرَّازي الَّذي رأى أنَّ الحبّ علَّة ومرض، وهذا الرَّأي المفعم بتكثيف مضموني وسردي أحياناً يلامس الإطناب لكنّه إطناب جمالي تثقيفي ممتع مكتنز بالدلالات المتناقضة بين الحبّ والعشق والفراق والمرارة، الشَّهوات والرُّوحانيات، القرب والبعد. لذلك حَسِبَ أنَّ العشق بلية، فنصح بالابتعاد عنه وعليه تجنبه وهو يراه من نصيب الأقل توفيقاً للذي يفضل الشَّهوات الحسيَّة على الروحية. ونظهر التوافق والتنافر لمدلولات الخطابين القديم والجديد في الترسيمة التالية:

الخطاب القديم: رأي الرَّازي في الحبّ والعشق / بلاء / وجوب تجنبه / الابتعاد عن الحسيّة / السّمو إلى مدارك الروحانية.

الخطاب الجديد: رأي الحكيم في الحبّ والعشق / مرارة / فراق / مرض / وجوب تجنبه.

وقد وظف الكاتب في خطابه الخطاب الفني والإرث القديم والتراث العربي والعالمي، وما يهمنا هو دراسة مدلولات التراث الأدبي في نتاج الكاتب توفيق الحكيم، فالنَّص التَّراثي الأدبي هو نموذج أدبي أصيل يحمل ميزات فنيَّة أضاءت على فترة زمنيَّة ذهبيَّة من تاريخ الإبداع الأدبي لا يمكن تكرارها أو إعادتها إلَّا عن طريق المحاكاة والاقتباس أو طريقة الهدم وإعادة البناء ليتناسب مع رؤيته الجديدة، كما له أهمية كبيرة لأنَّه يتعلّق بكيان الأمة وماضيها، وله دلالاته وأبعاده المختلفة.

لقد حضر التُّراث الأدبي الغربي في الخطاب الأدبي العربي بحيث وظَّف ثلَّة لا بأس بها من الأسماء اللامعة في الغرب وما خلفوه من موروثات تقنيَّة، فاستحضر من الأدب الأجنبي الكاتب هربرت جورج «ويلز في قصته آلة الزمن هو جهاز مثل جهاز الرَّاديو يستطيع كلّ انسان اقتناءه... له جملة مفاتيح إذا أدرت المفتاح الأول شاهدت في مرآة الجهاز ما يحدث لك بعد عام، وإذا أدرت المفتاح الثّاني أبصرت ما يقع لك بعد خمسة أعوام، وإذا أدرت المفتاح الثالث رأيت مستقبلك بعد عشرة من الأعوام .. ولم يدخل بعد على هذا الجهاز من التّحسينات ما يمكن الأفراد من رؤية مستقبلهم أبعد من هذا المدى... »[29] في دلالة إلى التَّطور التَّقني والخيال العلمي والإختراعات العجيبة في بلاد الغرب في مقابل دلالة غياب التَّقدم العلمي في بلاد الشَّرق.

كما اقتبس أقوال الشُّعراء الأجانب ومنهم قول الشَّاعر الفرنسي (ألفرد دي موسيه) «لا شيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم.»[30] للدلالة على أنَّ الحبَّ الجارف قصير بعمر الزهور، والحياة الَّتي تحيط بالانسان تكون مثقلة بالمكابدة الوجدانية والرُّوحية والعاطفية والمحن

تنسج حوله ألوان الأسى والإحباط، وهذا التفاعل العضوي بين الخطاب الأدبي والإرث العالمي زاده دلالة وعمقًا وتماسكًا بنيويًا.

وكأن الأدب أمام الواقع يخلّد المضمون الأدبي لأفكار الفلاسفة والشعراء في لعبة سردية توجه فكر الأديب بعاطفة التَّقديس والارتكاز على تصورات التّراث الغربي ومفاهيمه، إذ يجد فيه عزاء شخصياته في واقعهم المضني، فيستحضر شاعر ياباني بقوله:

«إنَّما يبني الشَّاعر سعادته على الرمال

ويسطر أشعاره فوق ماء الجدول.»[31]

يتفاعل الخطاب الفني جدلياً مع تحوّلات الواقع العربي — خاصة — بايجابياته وسلبياته وعلى الصعيد السِّياسي تظهر تحولات الذات الكاتبة في رؤيتها لهذا الواقع ولكيفية استيعابه واستنطاق مكوناته بالإعتماد على صيغ حكائية وأدوات سرديَّة تنوّعت أبعادها ودلالاتها من خلال انتقاء الحكيم ما يناسب رؤيته لوضع البلازما السِّياسيَّة وأحوال بلاده في عصره، فاقتبس من أقوال الفيلسوف الألماني نيتشه «ليست قوة المشاعر العظمى هي الَّتي تخلق العظماء .. ولكن مدتها.»[32] و«هنالك حادثة متكررة تعود من آن إلى آن في حياة كل إنسان.»[33]

إذًا، يوظف الحكيم أقوال الأدباء والشّعراء الغربيين ما يؤسس لمدلولات تعكس أفكار الأدباء العظماء وآلامهم وآماله في التَّطلع إلى نظام تسوده الديمقراطية والحرّيَّة والمساواة كما هو موجود في أنظمة البلاد الغربية والتي تحكمها حكَّام يطبقون القوانين العادلة، ويهتمون بحقوق الانسان، أوليس هو القائل «إنّما نعيش داخل آمالنا.»[34]

وتفاعلت مدلولات البنى التشاكلية مع استحضار قصة رواها الأديب الألماني غوته في سياق سيرة الحكيم الذاتية حين كان يصاب بالحمى كلّما وقع بصره على جنازة مارة في الطريق، فيستذكر «قصة ملك الموت الَّتي رواها جوته في إحدى قصائده الرائعة؟ ... حكى أنَّ طفلاً تعلق بصدر أبيه ليحميه من صوت خفي يغريه برائع الهدايا واللّعب والأزهار كي يذهب إليه... ويمضي معه ... وحسب الأب كلام ابنه عبث أطفال فلم يأخذه مأخذ الجدّ، فما بلغ به عتبة البيت حتّى كان الطفل قد فارق الحياة !..»[35]

يستوقفنا توظيف هذه الحكايا الغريبة والومضات الفكرية ومجريات الأحداث التي تناولها أدباء الغرب لتتفاعل في جو الخطاب الأدبي وتكشف عن دلالة أنَّ إدراك لحياة البشر وطبائعهم ومعتقداتهم وما يحيط بها من ملابسات وظروف جعلتهم أسير الأفكار الغربية.

خاتمة

بعد رحلة البحث في أجواء مدلولات توظيف التُّراث الأدبي في الخطاب الفني للأديب توفيق الحكيم توصلت إلى ما يلي:

اعتمد الأديب في خطابه الأدبي على صيغتين أساسيتين تتمثلان في تشكيل خطاب إبداعي يزواج بين النَّقل الحرفي أو ما يسمَّى بالتَّناص الاقتباسي أو الاجتراري وبين التَّجاوز الجمالي التَّخييلي لكل ما هو واقع ضمن مجالي العرض والسَّرد. وقد استطاع الحكيم أن يوظف التُّراث الأدبي بفضاءاته المتنوعة، فأدخل إلى خطابه الرَّصيد المعرفي والفضاء الثَّقافي والأدبي ما أغنى النَّص الأدبي بمدلولات متنوعة ومعاني متجددة.

يضم التُّراث الأدبي ما أبدعه الضمير الانساني من ثراث محلي أو تراث عالمي، فهو عالم متشابك من الموروثات، وقد نهل الحكيم من التُّراث بمختلف تفرعاته ومصادره وغرف من التُّراث اليوناني القديم ومن التراث العربي والتراث الفارسي والإرث الغربي، واستطاع أن يعبر عن موقفه إلى العالم من خلال استثمار طاقة هائلة من التُّراث الأدبي، وجاء انتقاء النُّصوص الأدبية بطريقة متقنة اتّخذت مناحي جمالية وحققت التماسك الدلالي للبنية الكلية للنص.

وانفتح مسار الخطاب عند الأديب توفيق الحكيم على تعدّد المرجعيات الأدبية والفلسفية ليقدم موقفه من الحبُّ في مقابل دلالة الإصرار ودلالة التنازل عن الحب، كما استدعى شعراء اليونان أمثال أنا كريون وهوميروس وبلوتاركس ليعزز موقفه من قضية المرأة واهتمام الإنسان المصري القديم بصحته.

كما تناغمت مدلولات الخطاب الأدبي مع استثمار أشعار من العصر الجاهلي والأموي والعباسي أمثال زهير بن أبي سلمى وجرير وعمرو بن أبي ربيعة والنابغة الذبياني واسحاق الموصلي وأدباء كالجاحظ، وأمدت الخطاب بمدلولات عاطفية أضاءت على بنية إخفاق الشباب في علاقاتهم الغرامية مع الفتيات، وقدّمت نموذجًا للانسان الكريم الذي يموت ويبقى أثره الطيب.

وتشرَّب الخطاب الأدبي من معين الثقافة الفارسية فاستدعى رباعيات الخيام بأبعادها الصوفية، وقصائد حافظ الشيرازي ومهيار الديلمي، وتفاعلت التوظيفات مع المدلولات اللّغوية للتأكيد أنَّ قيم السّعادة والصّفاء والسلام ومساعدة الفقراء.

وقد كشفت مدلولات التراث الأدبي عن تطابق في الرؤى والأفكار بين الخطاب الأدبي والإرث العالمي من خلال استحضار أقوال للشاعر الفرنسي ألفرد دي موسيه ونيتشه للدلالة على أنّ الحياة المثقلة بالمكابدة العاطفية والمحن تنسج حوله ألوان الأسى. كذا،

أمدّت الخطاب بمدلولات سياسية وتاريخية عكست سعة ثقافته وقراءاته المتعددة وتأثيرات المثاقفة في خطابه. وقد استطاع من خلال دمج التُّراث العربي بالتراث الغربي أنَّ يعبر عن رأيه بالكثير من المواقف الإنسانية والإجتماعية والسّياسيَّة، فانعكست رؤيته وشغفه بحوارية التراث الثقافي الأجنبي.

مصادر البحث

- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، الطبعة الثانية، سنة 1965.

— توفيق الحكيم، عصفور من الشرق (رواية نُشرت سنة 1938)، دار مصر للطباعة، لا طبعة، لا تاريخ.

— توفيق الحكيم، زهرة العمر، (سيرة ذاتية — رسائل كتبت باللغة الفرنسية العام 1943)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، لا طبعة، لا تاريخ.

— توفيق الحكيم، الرباط المقدس (رواية نُشرت سنة 1944)، الكتاب الذهبي، العدد الثامن والأربعون، دار روز اليوسف، طبعة سنة 1956.

— توفيق الحكيم، أرني الله (قصص فلسفية نُشرت سنة 1953)، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجمامير، لا طبعة، لا تاريخ.

— توفيق الحكيم، سجن العمر (سيرة ذاتية نُشرت سنة 1964)، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجمامير، لا طبعة، لا تاريخ.

— توفيق الحكيم، شجرة الحُكْم، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجمامير، لا طبعة، لا تاريخ.

— جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، طبعة سنة 1986.

— عمرو بن أبي ربيعة، الديوان، دار القلم، بيروت، لبنان، لا طبعة، لا تاريخ.

— النابغة الذبياني، الديوان، قدم له وعلّق حواشيه: سيف الدين الكاتب، أحمد عصام الكاتب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، طبعة سنة 1989.

مراجع البحث

- أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، رسائل فلسفية، دروب للنشر والتوزيع، ردمك، طبعة سنة 2018.

— أحمد مهيوب محمد قائد، توظيف التراث في الشِّعر اليمني المعاصر في الحقبة 1990 – 1992، سنة 2005. الموقع الإلكتروني: http://www.yemen-nic.info/contents

- بشير تاوريريت، التفكيكية في الخطاب النقدي المعاصر، دار رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سنة 2008.

– سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي (النَّص والسايق)، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية، سنة 2001م.
– علي إبراهيم أبو زيد، زهير بن أبي سلمى، شاعر الحكمة، دراسة أدبية لشعره وشرح ديوانه، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 1993.
– محمد شاهين، آفاق الرواية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، طبعة سنة 2001.
- Samoyault Tiphaine, L’intertextualité Mémoire de la littérature, Armand Colin, Paris, 2010.

1– توفيق اسماعيل الحكيم: وُلد في الاسكندرية العام 1897 من أب مصري كان يعمل في القضاء وأمّ تركية أرستقراطية، وعندما بلغ السابعة من عمره التحق بمدرسة دمنهور الابتدائية ثم تابع دراسته فتخرج من كلية الحقوق العام 1925، سافر بعدها إلى فرنسا للحصول على شهادة الدكتوراه في الحقوق لكنه عاد إلى مصر بعد ثلاث سنوات. عمل وكيلاً للنائب العام العام 1930. وانتقل العام 1934 إلى وزارة المعارف ليعمل مفتشًا للتحقيقات، ثُمَّ نقل مديرًا لإدارة الموسيقى والمسرح بالوزارة العام 1937، ثمَّ إلى وزارة الشؤون الاجتماعية ليعمل مديرًا لمصلحة الارشاد الاجتماعي. وفي العام 1944 استقال ليعود ثانية إلى الوظيفة الحكومية العام 1954 مديرًا لدار الكتب المصرية. وفي العام 1959 عُيّن كمندوب مصر بمنظمة اليونسكو في باريس. ثمَّ عاد إلى القاهرة العام 1960 إلى موقعه في المجلس الأعلى للفنون والآداب. بعدها عمل مستشارًا بجريدة الأهرام ثمَّ عضوًا بمجلس إدارتها في العام 1971.

2– بشير تاوريريت، التَّفكيكية في الخطاب النِّقدي المعاصر، دار رسلان للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، دمشق، ط سنة 2008، ص 42.

3– أحمد مهيوب محمد قائد، توظيف التراث في الشِّعر اليمني المعاصر في الحقبة 1990 – 1992، سنة 2005، ص 2. الموقع الإلكتروني: http://www.yemen-nic.info/contents

4– Samoyault Tiphaine, L’intertextualité Mémoire de la littérature, Armand Colin, Paris, 2010, p : 15.

5– سعيد يقطين، انفتاح النَّص الروائي، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، سنة 2001 م، ص 107.

6– توفيق الحكيم، أرني الله، ص 133.

7– توفيق الحكيم، عصفور من الشَّرق، ص ص 121 – 122.

8– توفيق الحكيم، الرِّباط المقدس، ص 8.

9– جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط سنة 1986، ص 36.

10- توفيق الحكيم، سجن العمر، ص 67.
11- المصدر نفسه، ص 197.
12- علي إبراهيم أبو زيد، زهير بن أبي سلمى، شاعر الحكمة، دراسة أدبية لشعره وشرح ديوانه، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، سنة 1993، ص 214.
13- توفيق الحكيم، سجن العمر، ص 133.
14- ديوان عمرو بن أبي ربيعة، دار القلم، بيروت، لبنان، لا ط.، لا ت.، ص 59.
15- توفيق الحكيم، سجن العمر، ص 133.
16- توفيق الحكيم، سجن العمر، ص 134.
17- النابغة الذبياني، الديوان، قدم له وعلّق حواشيه: سيف الدين الكاتب، أحمد عصام الكاتب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط سنة 1989، ص 37.
18- توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص ص 67 - 68
19- توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص 64.
20- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، تحق: عبد السلام هارون، ج 1، ط 2، سنة 1965، ص 169.
21- محمد شاهين، آفاق الرواية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط سنة 2001، ص 7.
22- توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص 83.
23- المصدر نفسه، ص 138.
24- توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص ص 95 - 96.
25- توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص ص 149 - 150.
26- توفيق الحكيم، عودة الروح، ص 107.
27- توفيق الحكيم، الرباط المقدّس، ص ص 65 - 66.
28- أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، رسائل فلسفية، دروب للنشر والتوزيع، ردمك، ط سنة 2018، ص 28 - 29.
29- توفيق الحكيم، أرني الله، ص 107.
30- توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص 12.
31- المصدر نفسه، ص 155.
32- توفيق الحكيم، شجرة الحُكْم، ص 24.
33- توفيق الحكيم، زهرة العمر، ص 43.
34- المصدر نفسه، ص 23.
35- توفيق الحكيم، سجن العمر، ص ص 74 - 75.

رسائل شعراء النوروز بعد حلبجة

سامية السلوم

أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانية

تمهيد:

حملت قصائد الشعراء الأكراد الذين كتبوا عن مجزرة حلبجة مجموعة رسائل إنسانية من الذات الإيجابية إلى الآخر السلبي، وهذه القصائد الرسائل ناطقة باللغة العربية التي هي لغة العربي الذي اتخذ صورة العدو القاتل في هذا الحدثشمالي العراق، سواء بالاعتداء المباشرفي رأي بعض الشعراء أو باتخاذ صورة المقصّر عن مواجهة المعتدي بدعم أصحاب المأساة في رأي البعض الآخر؛ لأنّه في الحالين يلغي الذات الكردية بشكل مباشر أو غير مباشر، وهذا الآخر اختلفت صورته وفق خصوصية الشعراء، لكنه بقي المعني باتخاذ موقف إنساني، بشكل أو بآخر تجاه ألم الذات الكردية([1])؛ وعند قراءة القصائد نجد رفضًا مطلقًا لصورة العربي على أنه عدو، وهي الصورة الحاضرة في الحدث وما بعده، ونجد أنّ البديل المطروح هو السلام المنسجم مع ثقافة أهل النوروز، ونجد في جميع القصائد التي عالجت حدث حلبجة مواجهة الآخر الذي مثّل الموت مقابل الذات التي مثّلت الحياة، وسنرى ذلك ببعض التفاصيل لتوضيح صورة المواجهة بين الذات والآخر التي هدفها انتزاع حياة العلاقة بين الطرفين على أساس ثقافة الحياة التي هي الرسالة التي تحملها القصائد من جوانب حياتية عدة.

- رسالة الشاعر فوزي الأتروشي([2]):

حمل الشاعر فوزي الأتروشي رسالة تربوية إذ توجذه في قصيدته إلى أطفال العالم يخبرهم عن مأساة الكردي وكيف يواجه الموت

الذي يحمله إليه الآخر، فحمل رسالة تربوية ترى أنّ أهم مقاومة للشر هي تقوية خير الذات في مواجهة شر الآخر، وسنوضح رسالته بشيء من التفصيل:

ذكر الشاعر ما فعله الآخر من محاولة القضاء على الذات من خلال سرقة التراث الكردي، مجسدًا بقصة العشق المشهورة مم وزين، التي بدأت وقت التحضيرات لعيد النوروز، ويُظهر كيف يتمسك كلّ الأكراد بتراثهم، في مواجهةٍ إيجابيةٍ لسلبية الآخر، يقول:

«سرقوا كتاب (مم وزين)
فصار كل واحدٍ منا... من أجل حبيبته الكوردية
يجعل قلبه نبع عشقٍ وحرائقْ»(3)

وأظهرأثر الآخر السلبي على الذات الإيجابية في المجزرة، فالذات كانت تعيش حياة آمنة، وفي تفاصيل علاقات الأسرة الإنسانية دخل الموت/ التمويت بثقل سلبيته على طبيعة الحياة فهز سلامها الحاضر وأحلامها البسيطة بالآتي، يقول الشاعر:

«طفلٌ أعمى... رجلٌ يلتفُّ بطفلتهِ
ورضيعٌ يبحثُ عن ثدي ..
يهديهِ بعض حليبٍ... بعض حنانْ
وأبٌ شيخٌ يتحجَّر في عينيهِ الدمعُ
وتسحقهُ الأحزانْ
والطفلةُ ذات الشعر الأشقر ترقد نائمةً
وبعينيها نوروزٌ كان سيأتي
يهديها بعضًا من قطع الحلوى
أو شالًا أو فستانْ»(4)

وإن كانت هذه التفاصيل حزينة تُظهر انتصار شر الآخر على خير الذات إلا أنّ النهاية سعيدة بحكم طبيعة الأمور، فكما أنّ بعد المطر يأتي التجدد الربيعي، كذلك بعد مطر السم الذي أتى به الآخر أورق الربيع النوروزي عند الذات في حلبجة، يقول:

«أمطروا علينا السمّ القاتل ...
لكنَّ السمُّ أورقَ في حلبجة ريحانًا
وبنفسجًا وزنابقْ»(5)

ورسالة الشاعر فوزي الأتروشي، تأتي من ثقافة النوروز، وهو على ذلك يخاطب جيل المستقبل، ويخبره أن أشكال محاولات قتل الآخر للذات الكردية هي من دون جدوى،

فالذات تتخطى محاولات الإلغاء التي قد تقتل جمال الحياة، لكن الذات انتصرت بانتهاء ليل الظلم، بالطبيعة، مع فجر يوم جديد؛ لم تحافظ على جمالها فقط، بل غدت أجمل، يقول:

«ضربونا بالأحجار فلم نُقتلْ
ضربونا بالبارود فلم نُقتلْ
حرقوا أكوام بيادرنا لكنا لم نُقتلْ
قطعوا عنا الماءَ ...
الخبز... الدفءَ.. الأثوابَ فلم نُقتلْ
حصدوا أطفال حلبجة... لكن حلبجة
عند الفجر غدت أجمل»(6)

وبعد ذكر حصد الأطفال يصعّد بتوصيف بشاعة أذية الأطفال، بالانتقال من معاملة الإنسان كنبات إلى الوحشية في معاملته كحيوان يقتل ويرمى للوحوش، وفي محاولة القضاء على الطفل من مرحلة تكوّنه في بطن أمّه، بل في التفنن بتعذيب الأم، يقول:

«يا أطفال الدنيا ...
سأحدِّثكم... سأبوحُ لكم بالسرّ
في كوردستان يصير الطفل شرائحَ لحمٍ
ينهشها ذئبٌ جائعْ
وبقاياه ترمى في النهرِ
في كل نهارٍ تُجهض امرأة عمدًا
وتُقطَّع نهداها وأصابعها تبترْ
وتحاكم بالإعدام إذا ولدت طفلًا آخرْ
ولكي يفنى الأطفالُ
رشُّوا بالسمِّ القاتل ...
رشوا العشبَ الأخضرَ والبيدرْ»(7)

ولا يطلب الشاعر من الأطفال موقفًا، بل يطمئنهم، بخيال الطفولة/ المستقبل الذي يتحدى به العنف الخيالي/ الحاضر، ليصل مع أطفال الدنيا إلى أوسع أمان ممكن أن يضع فيه مستقبل الطفل الكردي، ويكون ذلك بالتجدد، بلغة الأرقام، لإثبات استمرارية الحياة في وجه الموت، فيقول:

«لكن يا أطفال الدنيا
لا تنتفضوا حزنًا... لا تنتفضوا فَزَعًا

فلغةُ الأرقام تقول :
كل امرأةٍ كوردية قد تنجبُ خمسةَ أطفالٍ
في العام الواحد أو أكثرْ»[8]
وهذا التجدد يوازي النوروز من دون ذكره حرفيًّا، وهكذا قدّم الشاعر الوجود الكردي المستقبلي باحتضان العالم المستقبلي المواجه للإلغاء الحاضر، من خلال أطفال الدنيا كلّهم، الذين أتت صورة المستقبل من خلالهم، صورة جميلة فيها أمان الطفولة وتساوي الشعوب في حق الحياة على طريقتهم، بتجددهم العادي بولادة الطفل بعد أن تحمله أمه تسعة أشهر أو الاستثنائي بولادة الأمِّ خمسةَ أطفال في السنة أو أكثر... وبذلك انتصرت ثقافة الحياة التي يدعو إليها على ثقافة الموت التي أتى بها الآخر، موجهًا رسالة تربوية أنّ الخير يغلب الشرّ بعدّة الخير لا بعدّة الشرّ.

- رسالة الشاعر إبراهيم اليوسف[9]:
يحمل الشاعر إبراهيم اليوسف، رسالة سياسية يوجهها باسم الذات الكردية إلى الآخر الخاضع للقائد الذي أحرق حلبجة، يحدد على أساسها العلاقة السليمة بين الذات الكردية المنكوبة والآخر القائد والمقود؛ وهو ينطلق من مسلّمات الدين ليثبت خطيئة تقديس طاعة ذاك القائد، وإن كان ولي الأمر وطاعته أوصى بها الدين، وذلك للوصول إلى علاقات سليمة بين الذات والآخر، ويصوّر الحالة الحاضرة حالة مواجهة الخنوع الشعبيالعربي ممثلًا بالتبعية الناتجة عن الطاعة العمياء للقائد والشموخ الكردي ممثلًا بالجبل؛ وهذه المواجهة أدت إلى تدمير الشموخ، والمطلوب تغيير العلاقة بين الشعب والحاكم للوصول إلى شموخ الشعبين لأن شموخ الجبل لن تهزه الريح بينما القائد زائل، وعلى أتباع القائد أن يوقفوا الموت لصالح الحياة، وهذا الطرح نجده في بنية قصيدة «حلبجة ترحب بكم»، والتي سنرى بشيء من التفصيل كيف حمّلها الشاعر رسالته السياسية:
يؤكّد الشاعر أنّ العلاقة الأساسية بين طرفي الصراع، أي الذات والآخر، هي علاقة أخوّة في الدين الإسلامي قبل الإنسانية، لكن الآخر يحمل للذات الموت المخالف تمامًا لقداسات الإسلام التي من المفترض أنها تجمع الطرفين، العرب والأكراد، في إخوة الدين، وما يستتبعه ذلك من تضاعف حرمة القتل، يقول:
«وإنما القاتل والقتلى
إخوة !!!»[10]
ويقدّم صورًا للآخر العربي المسلم تبيّن أنّ القتل هو أصل المقدّس عنده، وأنه لا يخاف

الله في أكراده، فتظهر بذلك صورة تقديس إلغاء الآخر في ثقافة العربي، وكيف تخالف المقدّس المكتوب عند المسلمين في القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي على رسول عربي، وذلك يُظهر تشويه القداسة عند القيمين على الأمور في قتل الناس في حلبجة؛ ينطلق الشاعر من المشهد ليفسره استنادًا إلى القرآن الكريم، فتحضر الآية الحادية والعشرون من سورة الحشر «لو أنزلنا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون» وتحضر الآية الثالثة عشرة من سورة النبأ «وجعلنا سراجًا وهّاجا»، يقول:

« انّا أنزلنا الفوسفورٍ على جبلٍ

ورأيناه سراجًا وهاجا

خاشعًا متصدعًا من خجل ... وأكراد»[11]

ويقدّم صورة للذات تلوّح بالحياة والآخر يحمل لها الموت، وهذا الموت ليس طبيعيًا، كما أن الآخر لا يحمل رسالة القداسة، فإنّ الإبادة تحمل ما يخالف القرآن الكريم في سورة قريش الآيتين الثالثة والرابعة «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ»، يقول:

«لوحتم للقنابل: ان اهبطي بسلام

وهبطت على السلام!!

والقنابل أكبر من القبائل، وأعتى

لقد جوّعتكم من شبع

وخوفتكم من أمان»[12]

كما يوضح الشاعر صورة الآخر الإلغائي، بتصوير أثر الآخر في محاولة تدمير الذات، في مشاهد متنوعة ومتعددة، منها انقلاب مشهد النار من ألوان النوروز إلى الحداد وسواد الحزن، مع اقتراب موعد النوروز عند الذات وإشعال الآخر نار الموت بديلًا عن نار الحياة التي عادةً ما تشعلها الذات في أعيادها التي تأتي بعد المجزرة بأيام قليلة، يقول:

«نارٌ للطقوس البدائية

فوقنا

للأعياد

تقرع الباب

ويتبعها

الحداد»[13]

ويواجه الشاعر الآخر بمواجهة القائد، يقول:

«يا قائد

ها هم الجبليون جاؤوك

بصباح من السهول

وعيونٍ جمدتها المحاجر»(14)

ويرى أنّ مأساة حلبجة جعلت من القائد رمزًا للخراب والموت، وأنه مرفوع عند جماعته إلى درجة النبي(15)، يقول:

«قائد للخراب

ولاء للقائد

وشاشة على نحيبكم

(ويا قائد إنك لعلى خلق ...)»(16)

والشاعر بعد إظهاره بُعد القائد المقدس شعبيًا عن مصدر التقديس الإلهي، تبدو جلية عبثية طاعته، يقول:

«قادة للقائد

موت كرمى لشارب القائد

وعول لمائدة القائد

وقائد قائد.. للخراب

وخراب للقائد»(17)

وفي مقابل صورة الآخر يورد صورة الذات ممثلة بالجبل رمز الشموخ الذاتي الكردي، فيبدأ القصيدة بالجبل، يقول:

«بكل السلاسل

بكلّ الذرى

يأتي الجبل»(18)

ويذكر في القصيدة أن ما يميز الجبل هو الحت والمدنيين العزّل، يقول:

«... وإنك على حت ومدنيين عزّل»(19)

وينهي القصيدة بالجبل، مختصرًا معناها على طولها بأن العلاقة بين الذات والآخر هي صراع بين الحياة والموت، والذات لغتها الحياة بما تتضمنه من تواصل إيجابي مع المحيط ومن انتظار الجميل الذي يحمله الآتي، والآخر لغته الموت بما يتضمنه من جرح وغدر وإلغاء...، يقول:

«صباح الخير أيها الجبل
ثم تنهض من جراح
يغادرك الشلال
ويعود
تغدرك التلال
وتمضي
وتقول ائتلفنا
تردّد: اختلفنا
صباح الائتلاف والقهوة
وحديدًا
يؤوب حديدك بعد انصهار»([20])

ويتابع بأنّ انتصار الجبل، أي الذات الشامخة، هو النهاية، فالجبل بحكم الطبيعة سينتصر ويعلو ليستقبل طيور الربيع في النوروز الآتي بعد الفاجعة، في اليوم الجديد، لترد الطبيعة بتجددها على دمار أحدثته حضارة الآخر، يقول:

«جبلًا تعود من الهواء والمعركة
أيها الجبل
وتزنر القرى
مطلقًا برايك للطيور
وإنك لعلى حتّ
أيها الجبل.»([21])

وقد تبدو صورة النهاية ليست المطلوبة لأن الجبل العائد من المعركة لا يكون انتصاره كاملًا لأنه على حتّ، ومن دون ذِكر «مدنيين عزّل»، كما ورد سابقًا([22]) وهذه النهاية إن كانت تحمل عدم وجود مدنيين بعد معركة البقاء، أو عدم وجودهم عزّلًا بل مسلحين، وهذه النهاية غير مرجوّة، فالنهاية المرجوة من النص كاملًا هي الواردة أنّ الجبل يحمي القرى ويستقبل الطيور الطبيعية الوافدة إلى براريه، وعودة الطيور، رغم جرح الجبل بالحت، وهي من علامات قدوم الربيع في النهاية.

- رسالة الشاعر منير خلف([23]):

يحمل الشاعر منير خلف رسالة سياسية ليست مباشرة مثل رسالة إبراهيم اليوسف،

التي يذكر فيها القائد ويزعزع قدسية طاعته العمياء، وأنّ المجزرة كانت نتيجة لهذه الطاعة؛فالشاعر منير خلف يندد بالصمت العربي الذي يسلّم بلاده إلى الموت، وهو من العنوان يستنكر عدم مواجهة المسؤول عن المجزرة، فينتظر موقفًا عمليًا، بل يطالب بموقف معلن يضع حدًا لتجاوزات قائد عربي مسؤول عن موت الآلاف من الأكراد، وهو يحمّل الجمهور الساكت مسؤولية ما فعله المسؤولون عنه، وعلى ذلك يأتي عنوان الديوان وعنوان القصيدة ولازمة المقاطع «لمن تأخذون البلاد؟»، واللازمة تتكرر في القصيدة سبع مرات، وهو في سؤاله ما زال يأمل بالتواصل وبالجواب الذي لا يجيء، ويخاطب نفسه مستنكرًا أيّ أمل عنده بإيجابية الآخر، ويعلن يأسه من إيجابية الآخر، ويتدرّج بطرح موقفه بشكل متصاعد، على طول القصيدة، كما سنرى ببعض التفصيل، يقول:

«لماذا أجرُّ أمامي
مواقفكم
يا انتظاراتِ مَنْ لا يجيء!؟
لماذا تُقيمون في جسدي
رايةً لاحتواءِ الصقيعِ
ونايًا يلمُّ طيورَ الغروبْ؟!
لماذا تظلّ
أصابعُكم
مثل أشجار حزنيَ
تخنقُ فيَّ عصافيرَ زهرٍ وماءْ؟»(24)

ويصعّد أكثر في خروجه من جماعته في الإنسانية، أي العرب، فيخرج المتكلّم ذا الروح الكردية من جماعة المخاطبين العرب الذين يراهم من دون قيمة بموقفهم المتخاذل المنحني، ويقدّم صورة للذات كان ظاهرها الحاضن باطنها، يومًا، عربيًا، لتعيد، هذه الذات، بناء الباطن الكردي الذي حلّ عليه الخراب، يقول:

«سأخلعُ جلدي
وأبني خرائبَ روحي،
أراكم بلا قامةٍ
والحرائقُ
لمّا تُكنِّسْ حرائقَها
ذكرياتُ الذين

عَدَوا خلفكم من قديم الجراح.
أرى أنني رحلةٌ
لا تعيدُ الحياةُ طفولة أحلامها وهواها،
تحاصرُ كُلَّ الحمامِ
حماقاتُكم يا خزائنَ
مِنْ ورطةٍ وانحناءْ!»(25)

وبعد أن يرى في الحاضر غياب الآخر قد فاق الخراب الذاتي، ينطلق من الحاضر نحو الماضي مع الحب العذري، يحمل سلامًا لليلى وهو البعيد عن ازهرار النوروز بثقافته العربية التي اعتقد بأنها تحتضنه، وهي ليلى، يطالبها بما كان عليها أن تقدمه لقيسها من أمان بحجم وطن لا شخص، أمان يتجاوز حدود حياة الحاضر نحو موت جديد يتماهى بالطبيعة لينطلق من حزن عصافير الحرية فجر جديد، من ندى وارتقاء، ليكون معاكسًا للوضع القائم على الغياب والانحناء، كما سبق، يقول:

« تجاوَزْتُمُ يا رفاقَ الغيابِ
حدودَ الخرابِ،
أقول للِيلى: سلامًا!
أنا لا أجيدُ الزّهورَ
فُرشِّي بلادًا عليَّ
ورشي العراقَ ـ بدون أصابعَ ـ
نخلًا وخبزًا وماءْ
أقول: امنحيني موتًا جديدًا
وحزنًا لعصفورةٍ
من ندىً وارتقاءْ»(26)

تنمو الصورة لتعبر أكثر عن السلبية التي تركها أثر الآخر في الذات الكردية، التي تشردت بانتمائها الفردي والجماعي، وبات التغيير ضياعًا مألوفًا، والزهر الذي يرمز إلى الربيع النوروزي اختفى، والطائر الحائر في ذات الشاعر تشظى ليذبح الحياة، وكل ذلك من أثر الآخر الرامز إلى الموت، يقول:

«أنا المتشرّد مثل بلادي
أرى زورقي
في مهبّ الضياع الأليفْ

وأملأ ظلّي صوتًا بعيدًا
يخفّفُ أوقاتَهُ من ظلامي
ويُعلِنُ أنَّ النوافذ لا زهرَ فيها
وأنّيَ لا أستطيعُ اغتسال كلامي
من الطائر الحائر المتشظّي
الذي يحتويني
ويذبحُ فيَّ الحياهْ.»(27)

وينمو الألم أكثر، والبعد يزداد رغم محاولة الذات استيعاب الحدث، لكنها تمنى بطعنات الوداع، جراء الموت الإبادة، وسكوت الأصدقاء الذين ما زال يخاطبهم بعد إخبارهم ما يراه عنه وعنهم، يقول:

«أَلمُّ خُطايَ
فترحلُ عنّي المسافاتُ
تُلبِسُني طعناتِ الوداعِ
تُرتِّبُ ما يشتهيني
من الجرحِ والنزف والانتهاءْ»(28)

وينتقل الشاعر من الكلام عن أنا فردية ومعها بلادها إلى الكلام عن رسالة بلاده في السلام، وأنّ الحال الحاضرة تؤدي إلى مستقبل الغرق والاختناق «يا رفاق الهواء»، يقول:

«بلادي تمدُّ لكُمْ
يا رفاقَ الهواء
تمدّ لكم من خلال شبابيك هذا الأَبَدْ
طيورَ الكلامِ
وملحَ ازدهارِ الأسى
في بقايا الحمامِ
ورؤيا غَرَقْ.»(29)

وبعد رؤيا البلاد المستندة إلى الواقع الحالي تحضر أحلام البلاد بالآتي، على أنها أحلام فتاة خجول، وهذه الفتاة تحلم بأن تعيش عيشة سلام آمن يمثله النوروز بأغانيه وعبق زهوره رغم الجراح، فتأخذ صورة البلاد هذه الذاتَ الكردية للشاعر من ألمها الشديد نحو حلم طفلة يعبّر عن أحلامها التي لها حق تحقيقها، يقول:

«بلادي الخجولةُ تأتي

لِتُكْمِلَ أحلامها من جديدٍ
تعانقُ خصْرَ الأغاني
وتأتي
كوجهِ المياه الجريحَهْ
تشيلُ مواويلَ أُمّي الذبيحَهْ،
وتطوي
بيارقَ حريّةٍ من وَرَقْ
تُدمِّرني من بعيدٍ
وتنهبُ من شفتي طفلةً
حلمُها فرحةٌ وعَبَقْ»([30])

والكردي من خلال رجولته في تحقيق حلم الفتاة الخجول والطفلة البداية التي تحلم بالربيع، يستمد استمراريته في رحلته القلقة معها بعيدًا عن الأمان، ويتابع بأنه يناديها ليشعر بقربها منه، وتتماهى أحلامه بأحلامها ليحقق لها أي له ما يشاء، يقول:

«أكوِّنُ لي من وجودكِ قربيَ
فاكهةً للنقاءِ
وخارطةً للبقاءِ
وأُخرى لـ لا لافتقادِكِ
يا رحلةً من قَلَقْ،
وحين تكونين قُربي
أناديكِ...
حتّى أحسَّ بأنَّكِ
مازلتِ قربي
وكي لا تصيري بعيدَهْ
وحتّى أُحقِّقَ لي ما أشاءْ»([31])

وفي نهاية المقاطع التي يسأل فيها كلّها «لمن تأخذون البلاد»، يأتي المقطع الأخير يردّ على ما سبق بأنّ السلبية عادةٌ عند الآخر، في غيابه وفي حضوره، حاملًا العذاب في مجيئه، وفي عودته منطفئًا جبانًا، وكلّ ذلك يكرس موت الذات ويتبعه سؤال «لماذا؟» باستنكار، بدلًا من «لمن؟»، ليتحول الساكتون إلى فاعلي الجرم على أنهم يرون الموت الإبادة من طبيعة الحياة، والموتى صاروا مع الأنبياء، يقول:

«كعادتِكُمْ
لا تجيئونَ إلّا غيابًا غيابْ
ولا تحملونَ إلينا
سوى باقةٍ من عذابْ،
وكم لا تعودون
إلّا وتُلبِسُكُمْ شهقةُ الانطفاءْ
ويحرسكم جبنكم من جيوشِ البكاءْ
لماذا أخذتُمْ بلادي
وقلتُمْ: هي الآن في سلّةِ الأنبياءْ..؟»(32)

ويبلغ التصعيد المعنوي ذروته عندما يصرخ السؤال مع اختفاء كلمة الأصدقاء، ليحلّ محلّها احتمالات وضع الكلمة المناسبة في الفراغ، ونكون أمام ثلاثة احتمالات؛ إمّا تبقى كلمة أصدقاء وقد فرغت تمامًا من معنى الصداقة، في عتب صارخ اللهجة، أو توضع كلمة الأعداء، وهنا ينكسر الوزن لكن المعنى يستقيم، وهو غير المطلوب، وكلمة الأعداء ترد لأنها تصف الوضع الطبيعي لتصرف هؤلاء الأصدقاء تجاه جماعة المتكلّم الذين ينتمي إليهم، أو الاحتمال الأرجح هو الأعدقاء إذ يختلط المعنى بشكل يحتاج إلى لفظة جديدة يستدعيها السياق، الذي يتقدّم فيه الآخر قاتلًا الذات، والذات أوضحت ذلك على مدار القصيدة، والذات ما زالت رغم كل شيء تتخبط وهي تنادي الآخر برسالة سلام تستنكر تمامًا الصورة الحاضرة وتطالب ببديل يحوّل العداوة الحاضرة إلى صداقة...، يقول:

«لمن تأخذون
البلاد الجديدة
يا أيها الأصدقاء؟
لمن تأخذون
البلاد الجميلة
يا أيها الأ.....؟»(33)

وبعد كلّ المحاولات لوصل العلاقات بين الطرفين بإيجابية، يعود السؤال في مقابلة بين حالين أولهما الاستنكار لحالة استمرار الخضوع لقتلة الأبرياء من جماعته، في البلاد الجديدة، وثانيهما الاستنكار المترافق بعدم القدرة على رؤيتهم أصدقاء بعد عودة البلاد الجديدة جميلة، مع تغيّر العلاقات بين الذات والآخر أو على الأقلّ ضبابيتها، وذلك لا يؤثر على تجدد البلاد وجمالها لكنه يؤثر على إعادة نظر الشاعر بالعلاقات بين الذات

والآخر بناء على الموقف المستنكر على طول القصيدة، وبذلك يشدد الشاعر على سلامة العلاقات الكردية العربية انطلاقًا من سلامة الذات من الآخر، وهذه هي الرسالة السياسية التي يحملها باسم الأكراد إلى العرب الأصدقاء.

-رسالة الشاعر جميل داري([34]):

تحمل قصيدة الشاعر جميل داري «إن القرى لم تنتظر شهداءها»() رسالة اجتماعية تندد بالصمت العربي، والمطلوب هو التواصل العربي الكردي،على مستوى المساندة الإنسانية، ليفرح الطرفان، معًا، بنوروز جديد فيه تخطّ للخلافات والأوجاع، وفيه احترام اختلاف الكرد وخصوصيتهم المتمثلة بأعراس النوروز، وفيه فرحٌ شاملٌ الطرفين المتألمين، من دون طرح حلّ للألم، بل التواصل بفرح رغم وجود الألم، والشاعر يضع البديل عن الواقع الحاضر الذي فيه إلغاء الذات الكردية بالسكوت عن مصدر ألمها، بالمشاركة الشعبية بالحياة الجديدة المقبلة. ولإيصال هذه الرسالة يذكر العلاقة بين الذات والآخر، بشكل عبثيّ يُظهر عبث التعامل الإجرامي مع الأكراد، وكأنّ الغازي أراح جسده بالتبويل على الدم الكردي، ويثبت الإجرام وكأنه حاجة يومية عند الغزاة، ويسعدهم قضاؤها، وبذلك يبرز الشاعر وحشية الغزاة الذين سلاحهم موت الأكراد وهم مدججون به، فهو الوسيلة وهو الهدف، وما زالت ذاكرة الشاعر تحفظ ذلك، يقول:

«كانَ الغزاةُ مدجّجينَ بموتِنا
مازلتُ أذكرُ أنّهم بالوا على دمِنا
وناموا هانئينا»()

لكنه لا يتوقف عند الآخر، بل يذكر الذات مباشرة ويربطها بالحياة، يقول:

«ها نحنُ نحفظُ كلّ درسٍ
غير أنّا قد نسينا..
معنى الرجوعِ إلى الحياةْ
لكنّها – أعني الحياةَ – تضجُّ فينا»()

وفي مقاربته موضوع العلاقة بين الذات والآخر ينطلق من الماضي في مخاطبة الآخر الإنسان العربي غير الغازي، لكنه الساكت عن الإجرام، وهو الصاحب المتخلّي عن صاحبه، وهو الذي يواجه الغزاة المدججين بالموت، يواجههم بالصمت الذي يدل على الرضا فيحلل سفك الدماء، وهذا الصمت العاجز المشلول له بُعد تاريخي، والاستبكاء كما البكاء غير مطلوبَين، لأن المواقف النظرية تساوي الكلام بالصمت، يقول:

«يا صاحبي..
أنت الذي دجّجتَ بالصّمتِ المخيفِ صراخَنا
أنت الذي حلّلتَ سفكي
يا صاحبي المشلولَ.. يا رجلًا
على عكازةِ التاريخِ يستبكي ويبكي»()
ومن الماضي يأتي إلى الآن الحاضر ليظهر امتداد المواقف العاجزة أمام المجازر، والصمت سيد الموقف عند أصحاب الكرد، يقول:
«كلُّ المجازرِ ساهم في بترِ أعصابي
وكلُّ مضلّلٍ ذرَّ الرمادَ على العيونِ
والتينِ والزيتونِ والبلدِ الحزينِ
قُتلَ الأجنّةُ في البطونِ
واغتيلَ زهرُ الزيزفونِ
يا صاحبي..
ها لم تحرّكْ ساكنًا..
صمتٌ.. تعذّبني مساءاتُ السكونِ
وإلى أعالي الفجرِ يدفعني حنيني»()
وبعد إظهار فداحة الصمت من خلال نتيجته، ينتقل إلى الحلّ المستقبلي المطلوب من صاحبه العربي، وغير العربي وهو ليس حلًا سياسيًا، بل الحل اجتماعي وهو أن يتغير الخانع ويزيل وساخة موقفه الماضي ببوح عاصفة لا بريح عادية، ويشاركه الكردي عرسه النوروزي ليفرح إلى حدّ الجنون، أي الخروج على المألوف الجامد،والمطلوب المشي على الآلام أي التعالي عليها وتخطيها لا النوء تحت ثقلها والاستسلام لها، يقول:
«يا صاحبي
هيّا استحمّ ببوحِ عاصفةٍ
وأعراسِ الجنونِ
لنكنْ معًا...
نمشي على أوجاعِنا..»()
وهكذا أطلق الشاعر جميل داري رسالته إلى العربي الإنسان، انطلاقًا من مأساة حلبجة، للوقوف في وجه الظلم الذي يواجهه العربي والكردي معًا، وزكما يبدو أنه يدعو إلى ثورة شاملة تقضي على الاستغلال أصل الأوجاع.

رسالة الشاعر طه خليل():

- الشاعر طه خليل تحمل قصيدته رسالة دينية مضمونها قداسة الحياة في مواجهة الموت، وأن لا قداسة تعلو على قداسة الحياة الآمنة؛ فيسلط الضوء على انشغال الأكراد العزّل، وهم رمز الحياة، بعيد النوروز أو النيروز وانطلاقة الحياة، وانشغال النقيض، رمز الموت، بإبادة الأكراد وتقديس الإبادة، فيشير الشاعر إلى الاستناد الخاطئ إلى القرآن الكريم()، وهذا الاستناد ينفي صفة القداسة عن عمل يجسّد القداسة بالإجرام، على أن الإبادة تحاكي ما في القرآن الكريم، فيقول:

«المدن عقدت أعياد النيروز.. حلبجة تعد الغارات..

ظلت تستند إلى الركام..تحدق بدمها إلى الطائرات.. كم تعرف الطائرات شوارعها..!

حلبجة. صغيرتنا. ليست «إرم» ولا «ذات العماد»..

ولا الكرد ثمود وعاد..!»()

والشاعر يذكّر بمجزرة حلبجة في قصيدة «سورة حلبجة» التي كتبها حين قضت ابنته حلبجة في تفجير داعشي في القامشلي، والقصيدة يبنيها الشاعر على حدث القتل الذي جمع بين حلبجتين الأولى حلبجة المدينة التي أبادها الغاز الكيماوي، والتي ناداها ابنتي حلبجتي في قصيدة «حلبجة»() وكان هو الأب الافتراضي الشعري، والثانية حلبجة الابنة الحقيقية التي سماها على اسم المدينة لتستمر المدينة في الحياة من خلال حلبجة الابنة، فقُتلت الابنة واختصرت المدينة في لحظة غدرٍ رصدها، في القصيدة، الشاعر الأب الحقيقي. وهذه القصيدة الصرخة تعيد النظر بالموروث الديني الظاهر وتطالب بجوهر السماويات، كما يراه الشاعر المؤمن بإله حقيقي يراه غائبًا عن الحدث، فتظهر في القصيدة رسالة سلامٍ تتمسك بالحياة الآمنة وتستنكر أنواع الإجرام والغدر، ولا تساوم أحدًا في أهمية الحياة الآمنة، وهذا هو المقدّس الذي يجعله، وهو المسلم، يعنون القصيدة «سورة حلبجة» على اسم «سيدة الخيال»() في دنياه، وهي أغلى نساء الأرض عنده، لأنها ابنته التي فيها صفات الحياة المرجوة على الأرض، ولأن التمويت انتصر عليها باسم اسم اللّه، إضافة إلى أنّ صفاتها هي صفات المرأة التي يريد أن تبقى تعمّر الأرض سلامًا لا أن ينتصر اللّه لأصوليين يحاربون باسمه، ويقتلون الأبرياء باسمه، أيًا كان انتماؤهم، يقول:

«كانت حلبجتي تنمو على يدي كشامة الغريب..

يعرفني الناس بها.

هي ملهاة الكرد في هبوب الكيمياء.. غنيتُ لهم. واسميتها كاسم البلدة البعيدة.!

بلدة ترسل لي اليوم قتلة يرفعون قرآن العرب بأيديهم ويحزّون خطمية البراري.!
كرد دهماء اعتنقوا دين قاتليهم، فسابقوهم، ولوثوا الأرض بحكايا التاريخ.!»()
وهو يدين قشور الدين عند الدواعش عربًا وكردًا، يستعيد مجزرة حلبجة ليدين كل من يراهم طرفًا في إبادة المدينة باسم الدين أو أخلاق الدين، يقول:
«ما أسميتها حلبجة لتنهش كلاب حلبجة ضوءها..
ما أسميتها حلبجة ليجيء أعراب السنة ويفتكوا بالرئة الريحان..
وما أسميتها حلبجة ليرقص بغاث الكرد حول اسم مدمى.. وضفيرة الضوء.!
وما أسميتها حلبجة لتأخذها رهينة لسيوف العلويين وشيعة الندم..!
وما أسميتها حلبجة ليبارك لي المعزون بالشهادة..!»()
وبذلك يُظهر الشاعر أنّ للكردي المغدور، في مجزرة حلبجة، ثقافة حياة وأنّ للآخر ثقافة الإبادة المقدسة ثقافة الموت، ويظهر أنّ الإجرام لا مبرر له، وهو إدانة للمجرم أيًّا كان؛ ولذلك كلّه يتحدى ذلك المقدس بسورة يُقاضي فيها حملة الكتاب المقدس بمقاضاة العابد والمعبود، يقول مخاطبًا الله كما تظهر صورته في الحدث المستنكر بكل أبعاده، يقول:
«أنت تتدخل في أغانينا وتحرق زرعنا خلسة..!
ثم تجلس كبريء بين المعزين.!
كما لو أن شيئًا لم يحدث.
كرد وعرب حملوا سيوف الذل والخيانات الطرية ورموا رئمي بمقتل.!
يا الله رأيت ولم تحرك ساكنك الذي وعدت أعرابك به.!
أنت تغريهم لا تزال.. ويغريهم دمنا.!
دم حلبجة لا يشبه دم الأعراب.!
أنت غدرت بي... إذ سرقتها وأنا في منتصف الحريق..
ومنتصف الحياة.. ومنتصف البكاء.. ومنتصف النهار.. ومنتصف الدم.!»()
والشاعر يعيد النظر بطبيعة دور المقدّسات بعناصرها من الخالق إلى المخلوق، وذلك لأنهم بصيغتهم الحاضرة ساهموا في انتصار الموت على الحياة، وهذا الانتصار يفضي إلى صورة إله أقلّ سلامًا من مخلوقيه، وهذه الصورة القديمة مثل أثاث مهترئ في الجنة الموعودة، والصورة يخجل بها الله الحقيقي؛ يقول الشاعر مخاطبًا الله بصورة الله الحالية التي يراها مسؤولة عن الحدث:
«عليك أن تقف خجلًا أمام سدرة المنتهى نمر بها عابثين بأثاثك المهترئ.!

سنمر بك.. أنا وحلبجة.. ونرمي عليك خزاماتنا..!
ليس لديها إلا الخزامي وبعض وريقات الخطمية.. يبستها في جيبها الصغير.!
حلبجة ابنتي التي من نبات
التي من خجل صبايا الريف.. يجففن حيرتهن على حبال الوقت..!»()
والشاعر يصرخ في هذه القصيدة، فيبدو باحثًا عن إلهه العادل الذي لا ينكث بوعده للناس الذين يعيشون في أمانه، وتغدرهم أسلحة عبيده، والهدف هو أن يتحقق السلام المقدس المطلوب، بتكريس أنّ القداسة انتصار الحياة الآمنة على الموت، وهذه هي الرسالة الدينية التي تحملها القصيدتان.

رسالة الشاعر سليم بركات():

يحمل الشاعر سليم بركات، في قصيدة «مهاباد»، رسالةً سياسية يائسة تؤمن بحق الأكراد بالحياة في وطن مستقل حر لا يتعرض فيه أبناؤه للإلغاء يسميه «مهاباد» على اسم الدولة الكردية التي دامت أشهرًا، وذلك الوطن لا يمكنه إيجاده خارج نصّه، فيبتدعه ليستوعب تغيير الحدث لصالح الكردي في احترام قدراته في لعبة الحياة القائمة على التنافس، في الظاهر، لكن، في الباطن، نتيجتها محسومة سلفًا وكأنها قضاء وقدر، لذلك يضع بين قوسين توضيحًا تحت العنوان (إلى أولمبياد الله). والرسالة لا يوجهها، في الظاهر، إلى الآخر لأنه يائس من التغيير الإنساني، بل يوجهها إلى عدالة السماء لترحم الكردي، ويبني قصيدته على تناقض بين الحياة السلبية التي يفرضها الآخر على الكردي ويجعلها موتًا أو قدرًا محتومًا لا جدوى معه لأية محاولات للتغيير، والحياة الإيجابية المأمولة في إبداعه، وهكذا يدخل خياله عالم الموت في الحياة مع الذين ماتوا، ليحييهم معه في إبداعه، منتزعًا إياهم من الموت الفعلي، الذي أخفى صوتهم، فرنّت عظامهم وقبورهم صارخةً من ألمهم. يتخطى الشاعر الحياة نحو الملاك في يوم الحساب، ويطلب منه احتضان الكردي الذي يتحدث باسمه، يطلب تغيير منطق الحساب بعدم محاسبته بقسوةٍ إلغائية، عرفها في الحياة، التي حاسبته على أنّ وجوده هو خطيئة، لذلك يطلب عدم كتابته وليس عدم كتابة خطايا أو تدوينها، كما هو معروف في المعتقد الديني بالنسبة إلى ملاك يسجل السيئات. ويطلب من الملاك ألّا يشرد الموتى الكرد عن إقامتهم في الموت الذي يقطنونه الآن بعيدًا عن حياتهم السابقة ما قبل الموت. ينطلق الشاعر من رنين العظام والقبور، فهي تصيح حزينة، وينطلق من أنّ الفجر ليس نهاية الليل وبداية نور جديد، بل هو مرشد الموت إلى الموتى بإحراقهم ليصيروا موتى ضحايا الحياة...،

وبما أنّ الحياة بهذا الشكل، فعلى الملاك المحاسب بعد الموت ألّا يكون عبثيًّا ينفي الكرد خارج وطنهم، كما فعل العابثون في الحياة، يقول في مطلع القصيدة:
للعظام رنينها،
وللقبور رنينها،
والفجر، الأكثر اندلاعًا من حريق، يدل الموت على قاطنيه.
فلا تكتبني، الآن، أيها الملاك، بالحروف ذاتها التي توبخ الحياة على جرائرها العذبة، وتستحي من الحبر فترتدي يقينها. ولا تكتب المنفى المفتوح كباب ركله العابثون بمفاتيح الأشكال»().
ثم يذكر مشهدين للبعثرة، أحدهما كردي آمن منطلق نحو الغد يبعثر فيه الأطفال الأرق الذي يزول مع قوة الكبار المتطلعين إلى غدهم، والآخر مشهد تزوير التاريخ، والمطلوب دفن المشهد بالماضي «أمانة الفجر بيننا، حتى نعثر لهم على مساكن تليق بالعظام»؛ واللاعبون في المشهد هم شبهات تلعب بالتاريخ تبعثره على أنقاضه. وفي ألعاب الأولمبياد نجد امتحان اللاعبين للفجر «الآن» بشتى الألعاب ومنها لعبة الحديد، أمّا الأرض الثابتة فهي من لهاث المشاهد المختنق الصارخ في الغد، من خلف سياج «أوقفوا هذه الحقيقة»، وهنا تصريح لا يقبل التأويل بأنّ اللعبة بين الطرفين حقيقة مطلوب إيقافها مستقبلًا.
ويشير إلى القصف الكيماوي الذي استخدم في مجزرة حلبجة، حيث كان الصوت خفيضًا لكن الغازات كانت قاتلة...، فينقل المشهد على طريقته، فيذكر مشهد حلبة الصراع الرياضية، وفيها رفع الأثقال، فيقول:
«والحلبة فظة، لأنها تروي الثقل الأكبر للموت بصوت خفيض»()
وهو الكردي الذي يشارك في الأولمبياد ويصل إلى النهائيات وسط تصفيق الحضور وتشجيعهم على الوصول إلى النهاية الطبيعية بكل تفاصيلها، ولكن في خاتمة تفاصيلها اعتذار يتضمن هدر الدم الكردي، مما يظهر السباق سباقًا نحو الموت ويفوز الكردي، يقول الشاعر:
«وفي عبوري، قافزًا، يدحرج الجالسون على المدارج أشكالهم، قابضين
ملء الأيدي على قفزات مختزلة بين الجنون والجنون، وهم يصرخون بي:
خذ النهاية، فآخذ النهاية برملها، ودهانها، وورقها، وإسفلتها،
وحرسها، وحلاقيها، وسواترها، ونعاسها، وشهقاتها، وكراسيها،
وتماثيلها، واعتذارها الذي يدلق الدم في مصفاته»()
هكذا يُظهر الشاعر موقف الآخر الذي هو الجيران الذين يرون الحدث، ويقدّمون الكرديّ أضحية لإلههم، بينما الكردي يمارس الرياضة بروح تنافسية. يتابع الشاعر سرد ما

يحصل في مباراة البطولة، يقول:
«والعدم يندفع، أيضًا، إلى المنصة التي يرفع حاملو الأثقال عليها الفناء المسبوك كحديد من عسل، فآخذ مكاني بين المنذورين، لأصعد – بدوري – إلى المنصة، وقد مسست براحتي الرمل الذي يجففهما لئلّا ينزلق فيهما الحديد»().
يُظهر الشاعر التعتيم على الحدث، الذي فيه صراع بين السلاح وبين الكردي، يقول:
«أأسمّي لكم الأعلام التي هناك، فوق الشرفات العالية المستندة على البنادق؟ أأسمّي لكم البنادق الكثيرة هناك، حيث البطولة التي تتقنع في الدخول على الكردي من حيائها؟
أأسمّي الكردي ليتدفأ الليل بقميصه المنتهب؟»()
بعد إظهار طرفي الصراع غير المتكافئ، يُظهر الشاعر الخلل في عدّة المباراة عند الكردي وفي تقديس النتيجة على أنها قدر إلهي من دون النظر في السبب المؤدي إلى هذه النتيجة، يقول:
«قفزتان، في الشوط الأول، بزانة مكسورة؛
قفزتان باحتكام إلى إله مكسور»().
يرى أنّ الحلّ ببداية جديدة نحو غدٍ كردي فاعل، يقول:
«سأرفع هذا الحديد، إذا، على الخشبة القوية التي تهتز تحت قدمي القويتين. سأشهد امتحان العضل وامتحان الهواء، حين تتخذ الشرايين النافرة أهبتها وهي تمهد للدم عذرته وفجوره.
سأرفع هذا الحديد بحكمة الحديد.
سأقسم أن الحديد المرفوع على يدي هو الغد مغسولًا في رئة كردية»()
وفي أولمبياد الله المطلوب الآن حضور الرسل والملائكة ليروا، بأنفسهم، الحقيقة من جهة الكرد، تلك الجهة الشمالية، لتكون مدخلًا لعدالة السماء، عندها يخرج أثر الموت من اللعبة، يقول:
«فليحضر الرسل كلهم، بالألم المتقن كريشة، كي يحدثوا الحياة حديث المراهن، ولينقسموا حين يروون، لأن النعمة تصغي بآذان طائشة، ويدون الحاضر الأنين بثرثرة مطلقاته، لا بكلام الشهود.
ولتكن القفزة عالية،
والركض في منخفض عال؛
ولتكن الملائكة تحت القوس،
في المدخل الشمالي للحقيقة،

مرتدية معاطفها التي لها، وهي تقضم البندق، ريثما تبلّغ المرئي —
شفاهًا — أن الفكاهة ستتخير غلمانها، وسيخرج الحاضرون من الحلبة بالأباريق التي لم يترك عليها الموت شيئًا من نقوشه الحية»()

والشاعر يسلّم بأن الموت حاصل، لكن يطلب من الملاك ألّا يحاسبه كبقية الأحياء، يقول: «فلا تأخذني أيها الملاك بجريرة الحي، لأني أقسم المصائر — مثلك — كالدراق على العابثين، وأرمي بيدي الهاذيتين شبحي من الباب ليسرّي عن الحياة بأقاصيصه»().

ويطلب من الملاك ألّا ينتظره لأنه خارج السرد بسبب الخوف الذي يبعده عن تسليط الضوء عليه، يقول:

«ولا تنتظرني، أيضًا، لأني — كراكض في الأقاصيص — يختطفني الذي لا يروى، وأكون النهاية حين لا يختتم الحادث سرد نهايته. فإن رأيت أن تتبعني فارفع زانتك الطويلة، وانتعل خفيك الرياضيين، لأنك — كراكض في الأقاصيص مثلي — سيتقاسمك المراهنون في اقتحامهم المديح بابا بابا، بالحظوظ التي يباركها الخوف»().

ويطلب الشاعر من الملاك، أيضًا، في انتقاله بين الأكراد أن يعيش حالة الكردي في الانتقال في المكان والأحداث، لعيش حالة قسوة الفتن التي يقع ضحيتها، متمثلةً بالسحل، يقول: «ومن «مهاباد» إلى «مهاباد» تأفف قليلًا، مثلي، أيها الملاك، وأنت تفك سيور خفيك، وتخلع قميصك الترابي، متنفسًا حتى عظامك، كأنما حررتك المدائح من عويلها، وبكتك القهقهة؛ كأنما فتنة أخرى تسحلك من سماء إلى أخرى»().

ويُدخل الشاعر الملاك في اللعبة ويضع موجز الملاك هو الألم، رغم أنه الملاك محاسب الموتى لأنّ حرائق الكرد التي تقتلهم وكأنّ قتلهم الجماعي هو قدر يفوق ما يحصل على الأرض كلّها...، يقول:

«ويوجزك الألم، الذي يعلق الهواء كمعطف إلى مشجبه.

ومن حريق إلى حريق فليغتنم القدر ما يتيحه الكرد للقدر من ثرثرة يسرد بها على الأرض كسله الذهبي، قبل أن يقتحم الراكضون بأشباحهم سياج غدهم المذعور، وهم يرمون قمصانهم ليتدفأ الهواء بها، ويتركون أحذيتهم للحصار كي ينقل الحصار الجرحى من الورد إلى الورد ماشيًا»().

ويذكر الشاعر الريح التي سبق أن رأى أنها سارقة، لذلك عليه أن يذكر شيئًا قبل أن يتركه فتسرقه من وطنه الذي كان «مهاباد» ويسمي أرض كلّ ألم جمعي كردي مهاباد رمز الوطن الأم للأكراد، ذلك الوطن الذي يعيش فيه الكردي أحداثًا دموية، ما لهم فيها سوى الله، فإن نجوا تابعوا ركضهم رغم كل شيء، كما يوحي الشاعرحين يقول:

«والريح؟! ما لها؟ من « مهاباد » إلى « مهاباد » أيضًا.
كلها من « مهاباد » إلى « مهاباد ».
كل ضربة من « مهاباد » إلى « مهاباد ».
كل عويل من « مهاباد » إلى « مهاباد »،
والأمومة حيرى بأثدائها الحجرية بين أبنائها:
فإن أيقظني الله، في المديح الرطب للدم، احضرت خفيّ، وإن
أيقظني الدم أحضرت الله»().
بعد إيجاز الملاك بألم يختصر العلاقة بين الملاك والكرد ورحيل المكان من الفجر حتى صار النهار أعمى لأنه يدخل إلى أرض الكرد ولا يرى أكرادًا، كل ذلك يشبه الألم المتكرر من رحيل المكان الوطن بأرضه أو بنيه، يقول:
لكن، كألم تتقدم الأجنحة؛
كألم يتقدم الكرد إلى الحقيقة.
كألم يسرد الفجر على بناته المكان رحيلًارحيلًا؛
كألم يدخل النهار أعمى إلى « مهاباد »»().
ويدخل إلى الصورة ليكون هو الكرديّ اللاعب في أولمبياد الله، يتحد بالملاك للوصول إلى هدفه في إيقاف الحدث، لإيقاف هذه الحقيقة وإنقاذ الأرض والشخصيات المستقبلية في «مهاباد»، وعند الانتهاء من ألم الحاضر الآتي يمكنه أن يحصي مآسي قومه حتى تبقى حيّة في ذاكرة شعره، حتى مجزرة حلبجة / مهاباد الأخيرة سنة 1988، يقول:
«وأنا؟
رحيلا رحيلًا – بزانتي ذاتها؛ بالخفين الرياضيين، والتصفيق الأخرس المنسي على المدرجات، حيث لم يصعد أحد– أجفف العرق عن جبينك أيها الملاك، وأسند جناحيك بعظامي، لألتقط الأرض التي تتساقط، من خلفك، عاصفة عاصفة، وجمالًا جمالًا، ريثما أطلق السهم الأخير في اتجاهات الدم الأخيرة.
وسأحصي نفسي، بعدئذ، أنينًاأنينًا، من « مهاباد » إلى « مهاباد ». 1988"()
هكذا انتزع الشاعر سليم بركات بإبداعه حياة من أخذهم الموت التقليدي، وحفظهم في شعره بمقاربة الحدث الموت بإبداع على غير قياس.
وهكذا رأينا مواجهة الموت الواقعي بالموازي الأدبي، عند الشعراء المبدعين الأكرادِ، ورأينا ما حملت قصائد المبدعين من رسائل تربوية وسياسية واجتماعية هدفها النهائي السلام النوروزي الذي يأتي ليبدأ معه تاريخ جديد من ربيع الحياة عند الأكراد. ونرى أن

القصائد قد عالجت موضوع الحرب بطريقة تستحق الدراسة المعمقة التي تُظهر جديد الثقافة الكردية الناطقة العربية في الشعر العربي المعاصر.

الهوامش:

1- اعتمدنا في خلفية التحليل على كتاب بيير زيما: النّقد الاجتماعيّ، نحو علم اجتماع للنصّ الأدبيّ، ترجمة عايدة لطفي، دار الفكر للدّراسات والتّوزيع، القاهرة- باريس، ط1. القاهرة 1991. وهو كتاب نقديّ يعتمد على فرضيّة، أساسيّة بالنسبة إلى سوسيولوجية النصّ، تقول إنّ النصوص الأدبيّة تستوعب اللغات الجماعيّة وتحوّلها، واللغات الجماعيّة تؤدي دوراً هامّاً داخل النصوص. والكتاب ينطلق في دراسة سوسيولوجية النصّ من معرفة كيفيّة استجابة النصّ الأدبيّ للمشاكل الاجتماعيّة والتاريخيّة على المستوى اللغوي. وفي هذا البحث تتجلّى رسالة الشعراء الكرد إلى الآخر العربي الذي يشكّل الكرد المعنيون بالحدث أقلّية بالنسبة إلى جماعته، وهذه الأقلية تطلب حماية الأكثرية بالطبيعة.

2- فوزي الأتروشي شاعر كردي عراقي، صدر له، الأعمال الشعرية الكاملة، في بغداد، شارع المتنبي، مكتبة عدنان للطباعة والتوزيع، ودار ميزوبوتاميا للطباعة والنشر، سنة 2013، ط1، وفيها الدواوين: "قصائد للحب والوطن"،"ظلال النرجس"، "أشعار لا تبكي"، "أزهر بستان الريحان"، "شموع الحب"، "لأنك الآن هنا"،"كنت حبيبي"، "امرأة من رماد"، "بريد الفرح". ومن ديوان أشعار لا تبكي أخذنا قصيدة "حلبجة الوشم الأبدي".

3- فوزي الأتروشي: الأعمال الشعرية الكاملة، ص105

4- فوزي الأتروشي: م. ن: ص106.

5- م. ن: ص105

6- فوزي الأتروشي: م. ن: ص 108

7- م. ن: ص109

8 م. ن: ص109

9-إبراهيم اليوسفشاعر وكاتب كردي من سوريا، عضو اتحاد الكتاب العرب،عضو اتحاد الصحفيين العرب، مؤسس مجلة مواسم1992 عضو الهيئة الاستشارية لدار سبيريز للطباعة والنشر. عاش فترة في الإمارات ومن هناك انتقل ليستقر في إلمانيا. وله مجموعة دواوين هي: "للعشق للقبرات والمسافة"، دمشق، 1986، "هكذا تصل القصيدة"، قامشلي، مكتبة دار اللواء، 1988، "عويل رسول الممالك"، قامشلي، منشورات مجلة زانين، 1992، "الإدكارات"، إصدارات دار الينابيع، دمشق،1995، "الرَّسيس"، اتحاد الكتاب العرب في سوريا، 2000، "ساعة دمشق"،القاهرة، دار أوراق، 2016، "أستعيد أبي"، القاهرة، دار أوراق،2016، "مدائح البياض"، بيروت، دار

القلم الجديد، 2016، "مزامير السبع العجاف"، 2020، "أطلس الدار"، ديوان الأسرة، دار أروقة2020.

10- إبراهيم اليوسف: م. س: ص106

11- إبراهيم اليوسف: م. س: ص109

12- إبراهيم اليوسف: م. ن: ص105

13- إبراهيم اليوسف: م. ن: ص101

14- م. ن: ص111

15- إشارة إلى الآية الكريمة الرابعة في سورة القلم "وإنك لعلى خلق عظيم"

16- إبراهيم اليوسف: م. س 112

17- م. ن: ص112

18- م. ن: ص91

19- م. ن: ص110

20- م. ن: ص115

21- م. ن: ص115

22- م. ن: ص110: إشارة إلى الصورة السابقة "... وإنك على حت ومدنيين عزّل"

23- منير خلف: شاعر كردي سوري، له مجموعة دواوين، منها: "غبار على نوافذ الروح"، دار الحصاد، دمشق 1995، و"سقوط آخر الأنهار" - دمشق 1997، و"لمن تأخذون البلاد؟" اتحاد الكتابالعرب 2000، و"جنازة الإرث"، اتحاد الكتاب العرب 2002، و"وقت لبكاء الأصابع"، دمشق، اتحاد الكتّاب العرب، 2009، و"كأنّكِ وحدي"، دمشق، اتّحاد الكتّاب العرب، 2014، و"أمسكُ الأرضَ وأجري"، الهيئة العامة السّوريّة للكتاب 2016، و"أبحثُ عن تسعة أيّامٍ في الأسبوع"، الهيئة العامة السّورية للكتاب، 2017. وقد نال عددًا من الجوائز الشعرية في سورية وخارجها من أبرزها:جائزة سعاد الصباح في الكويت 1995،جائزة المزرعة عن أفضل مجموعة شعرية في السويداء 2001،جائزة طنجة في المغرب 2002،جائزة أديب عباسي في الأردن 2004،جائزة أبي الفداء في مدينة حماة 2005،جائزة ربيعة الرقي في الرقة أربع مرات وغيرها...

24- منير خلف: م. س، ص5

25- م. ن: ص9-8

26- م. ن: ص10-9

27- م. ن: ص10

28- م. ن: ص11-10

29- م. ن: ص11

30- م. ن: ص12-11
31- م. ن: ص13-12
32- م. ن: ص13
33- م. ن: ص13
34- شاعر كردي سوري من مدينة عامودا،.أعماله الشعرية: ديوان "السفر إلى عينيك بعد المنفى" دمشق، دار مجلة الثقافة لمدحت عكاش، 1984، وديوان "إن القرى لم تنتظر شهداءها": سورية، اتحاد الكتاب العرب 1993، وديوان "ظلال الكلام": سورية، اتحاد الكتاب العرب 1995، وديوان "حرائق": الشارقة، رابطة الشعراء العرب، 2014، وديوان "اشتعالات": دمشق، دار تموز، 2015
35- جميل داري مجلة ولاتي مه الإنترنيتية، القسم العربي، الجمعة 14 آذار 2008
36- جميل داري: م. ن
37- جميل داري: م. ن.
38- جميل داري: م. ن
39- جميل داري: م. ن.
40- م. ن.
41- شاعر كردي سوري من قرية خزنة التابعة لمدينة القامشلي. تعود تجربته الشعرية إلى بداية التسعينات. له باللغة الكردية رواية وديوانان، وباللغة العربية ثلاثة دواوين هي: "قبل فوات الأحزان": دمشق، دار الأعالي، ١٩٨٨، "ملك أعمى": بيروت، دار الكنوز الأدبية، ١٩٩٤، "أينما ذهبت": دمشق، دار الينابيع ٢٠٠٢، "كحل الرسولة": قامشلي، دار شلير ٢٠١٨. وقد نشر قصيدة "حلبجة" أول مرة في ديوانه "ملك أعمى"، في دمشق، دار الكنوز الأدبية، 1994، ثم أعيد نشرها على الإنترنيت في مجلة سماكرد في 14 آذار 2014 بعد ثلاثة أيام من استشهاد ابنته حلبجة التي ولدت بعد مجزرة حلبجة، واستشهدت بانفجار داعشي في القامشلي... ومن الإنترنيت أخذنا النص.
42- إشارة إلى الآيات القرآنية "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ((9"
43- طه خليل لابنته حلبجة: مجلة سماكرد الانترنيتية، عدد 14 مارس 2014.
44- م. ن
45- طه خليل، سورة حلبجة، مدونة صبري رضوان الإنترتيتية.
46- م. ن
47- م. ن
48- م. ن

49- م. ن

50- سليم بركات هو روائي وشاعر وأديب كردي سوري، له مجموعة من الدواوين والروايات، نذكر من دواوينه: الأعمال الكاملة صدرت في بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2007، وفيها الدواوين الأحد عشر الأولى ("كل داخل سيهتف لأجلي وكل خارج أيضًا"، "هكذا أبعثر موسيسانا"، "تنبيه الحيوان إلى أنسابه"، "للغبار، لشمدين، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك"، "الجمهرات"، "الكراكي"، بالشِّباك ذاتها، بالثعالب التي تقود الريح"، "البازيار"، "طيش الياقوت"، المجابهات، المواثيق الأجران، التصاريف، وغيرها"، "المثاقيل"، "المعجم")، وصدر "شعب الثالثة فجرًا من الخميس الثالث" عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2008، وصدر "ترجمة البازلت" في دمشق، دار المدى، ط1، 2009، وصدر "السيل: بلغتن أخيراً عمر الأربعاء" في بيروت، دار الساقي، ط1، 2011، و"عجرفة المتجانس:(شكوك القبل وهواجسها الموصولة) في دمشق، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2012"، و"آلهة" في بيروت، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2012، و"شمال القلوب أو غربها: عشاق لم يحسموا أمرهم"، في دار المدى، ط1، 2014 ، و"سوريا"، في دار المدى، ط1، 2015، و"الغزليّة الكبرى" في دار المدى، ط1، 2016، و"الأبواب كلّها:(ترديد الصدى في التلاعب بأخلاق الليل)" في دار المدى، ط1، 2017، و"الشظايا الخمسمائة (أين يمضي الذي لا تلمسه يداي؟)"،...

51- سليم بركات: الأعمال الشعرية، ص403

52- م. ن، ص406

53- م. ن: ص-406 407

54- م. ن: ص407

55- م. ن: ص407

56- م. ن: ص407

57- م. ن، ص407

58- م. ن: ص408

59- م. ن: ص409

60- م. ن: 409

61- م. ن: ص410

62- م. ن: ص410

63- م. ن: ص-410 411

64- م. ن: ص411

65- م. ن: ص411

حركية الخطاب الشعري عند إبن أبي ربيعة مِن خلال المُستويات اللغوية والمَزايا الفنيّة.

حسين
محمود حربة

أستاذ جامعي

- تمهيد:

قبل مقاربة نصٍّ شعري عاطفي يُعبّر عنِ المواقف الوجدانية عند شاعرٍ عزلي معروف هو (عُمر بن أبي ربيعة) وتقريب هذا النوع من القصيد (الغزل) إلى أذهان القراء لا بُدّ مِن إدراك أهمية الأدب في التعبير عن الحبِّ وإظهار العواطف الإنسانية المُتمازجة، وتحديد درجات التفاوت بينها. وكذلك الإطلاع على بعض أساليب الشكوى والحنين لدى الشاعر المفجوع بالحبِّ، وأخذ موقف منها، وتعميق فهم العلاقة الوجدانية بين الرجل والمرأة وتسويغ الإنطباعات الإنسانية بينهما كطرفي تحاب في عملية الإرتباط المقدّس (الحبّ).

وإنّ الإستماع لقصائد مِن التراث الجميل والتغنّي بها هو تذوق لبعض الفنون الأدبية (الغزل). وإغناء المخزون الفكري على مستوى المفردات والتعابير لتوضيح معجم (الألم / المعاناة / الشوق) وعلاقته بنوع النصّ، وتبيان الصور والمحسنات ودورها في الأداء الفنّي لإكتشاف الوصف في تصوير المشاهد ونفسية المرأة لتبقى المرأة (الحبيبة) فكرة ووجود في حياة الرجل (العاشق).

وفي مدخلٍ إلى دراسة هذه المستويات نعمدُ إلى مسارٍ معرفي تعليمي خطوة بخطوة لمقاربة القصيدة ومنها:

النصوص	الوسائل	النشاطات	التعبيرالشفهي	التعبير الكتابي	القواعد المعرفية والوظيفية	بيان- بلاغة - عروض
الأدب في التعبير عن المواقف الوجدانية = وهل يخفى القمر؟	صورة تبرز المظهر الخارجي للمرأة (العيون- الجسد- الكفيّن- الشعر...)	إعداد عمل يبين الجمال الروحي والجمال الجسدي.	إجراء مناقشة حول الحب بمنظاريه العفيف والإباحي.	إختيار قصيدة قيلت على لسان امرأة تظهر معاني الحب ومكوناته لتبيان التشابه والتعارض	التذكير بكيفية قراءة نص: قراءة شعرية وتحليله وإبداء الرأي فيه وصولاً إلى الابداع الذاتي.	التذكير بالصور البيانية (تشبيه- كناية) وبالعروض (الطويل-السريع)

● **بطاقة تقنية: «الغزل»**

- تعريفه:

الغزل هو حديث الشاعر الذي يدور موضوعه على الحبّ والعشق، ويعبّر فيه الشاعر عن خلجات قلبه، وما تضطرب به نفسه مِن عواطف وإنفعالات نحو الحبيبة. إنّه حديث القلب إلى القلب، وهو: « فنّ التحدث إلى المرأة ».

- أنواعه:

الغزل هو فنّ التحدث إلى المرأة خَلقاً وخُلقاً، على براعة في الوصف والتودّد، وقد إنقسم الغزل إلى بدوي أو عذري يقترب إجمالاً من التعفّف ويبتعد عن الإباحية. وإلى حضري إباحي لأن الشاعر لا يكتفي فيه بشرح الأشواق وشكوى الفراق، وإنما يتجاوزه إلى ذكر محاسن الحبيب بجرأة وتطرّف.

- شعراؤه:

مِن أبرز شعراء الغزل :

— **عمر بن أبي ربيعة:** (711—644م) ولد في مكة، وفيها نشأ نشأةً مُترفة في ظلّ أسرة غنية، يمثل الإتجاه الإباحي الذي تفرّد به فلَها مع اللاهين، وعرفته مجالس الطرب والغناء فارساً يتتبع جمال النساء وينشد الحُسن في وجوه الملاح.

— **جميل بن معمر:** (...—701م) رأى النور في الحجاز، أحبّ منذ صغره إبنة عمه «بثينة» راح يتغزل بها حتى شهّر بها، شكاه أهلها إلى الوالي فأهدر دمه، فمضى هارباً يطوي النفس على جرح الحب، يمثل الإتجاه العذري، والوفاء للحبيب الأول.

– **قيس بن الملّوح:** (688–68 م) هو المعروف بمجنون ليلى، نشأ منذ صغره قُـرب ليلى بنت سعد وكبرا معاً وتحابا، ولمّا شاع خبرهما حجبها أبوها وزوّجها إلى رجل آخر، فهام قيس على وجهه يائساً، ويقال أنه مات وحيداً في الصحراء.
– ومن شعراء العرب الذين إشتهروا بالغزل أيضاً: قيس لبنى، وعروة وعفراء، وغيلاث وميّة، وعنترة وعبلة...

● **مقاربة نص: وهل يخفى القمر ؟**

- توطـــئــة :
قصائد عُمر صورة عن حياته وعن نفسه، إنّها تعبير عن الحبّ، حبّ الجمال وتتبعه أينما حلّ، فالمرأة هي موضوعه سواء كانت نُعم أو هند أو دعد أو الثريا. فلأجواء واحدة متقاربة المعاني، متنوّعة بين قصّة هجر وعتاب أو مغامرة وافتخار، أو حبّ وإغراء، لكنّها تحمل في ظلالها كلّ ألون غزله .
فماذا تحمل قصيدة " وهل يخفى القمر ؟ " ... مِن مُستويات لغوية ومزايا فنّية ؟

1- موضوع النّص وتأطيره:
هذه القصيدة مأخوذة من ديوان عُمر بن أبي ربيعة، وهو ديوان ضخم يكاد يقتصر على الغزل، وإذا كان فيه قصائد قليلة فخرية، تبدو قصيدة "وهل يخفى القمر؟ " واحدة من مجموعة مرتبطة كغيرها بموضوع "الحبّ"، وقد صيغ بقالب الاسترجاع والتذكّر لحادثة وقعت للشاعر.
عُمر ولد في اسرة قرشية جمعت إلى مجدها العريق ثروة ضخمة ومكانة في المجتمع كريمة. جعلت منه شابًا مدللاً ومترفًا. فانطلق مع الحياة ولهًا مع اللاهين وعرفته مجالس الطرب والغناء. وتتبّع جمال المرأة، فتعرّف إليهنّ، ورافقهنّ وتشبّب بهنّ، وراح يدوي طرفًا من مواقفه. وهذه القصيدة إحدى المواقف التي حصلت معه فأراد إخراجها لنا بقالب قصصي مُمتع.

2- العنوان:
أحبّ عُمر أن يحقّق رغبة النساء، فالتقت الأمنيات جميعها عند وجوده في هذا الجو الجميل، وأراد أن يجعل القدر طوع رغباتهنّ. إذ يظهر فجأة ويطلع كالقمر الذي لا يخفى جماله ولمعانه وينزل لمجالستهن، فهذا القمر هو عُمر، والكلّ في علم به، وبمزاياه وبمغامراته العاطفية، فهل يخفى هذا القمر عن أحد ؟

3- موضوع النّصّ:

تدور القصيدة على حادثة حصلت مع الشاعر، وأثارها في نفسه مروره بديار الحبيبة، فراح يتذكّر ما كان ويستعيد ذكرى طيبة على قلبه، يصوغها في قصيدة غزلية يبداها بالعناصر الطبيعية من حوله، ذاكرًا ربوع الأحبّة التي كانت آهلة، واصبحت طللاً تبعث في نفسه خيالاً لذكريات عذبة. ثمّ يستعرض مشية الحبيبة مع رفيقاتها، في جوّ أنيق لطيف يثير في النفس رغبة في تحقيق الأمنيات، وأمنيات النساء لخّصها عُمر بهدف واحد: وجوده إلى جانبهنّ في هذه الخلوة المُمتعة، فبوجوده تباعد الضجر، وتملأ النفوس السعادة فيهنّ لأنه عمر بالذات.

4- النوع الأدبي:

ينتمي هذا النص إلى الغزل، والقصيدة غزلية من نوع أدب الذكرى، التي تدور حول تذكّر الشاعر إثر مروره لديار الحبيبة حادثة حصلت، أثارت في نفسه إنشاد هذه الأبيات. وما يلفت في هذه المقطوعة دورانها حول حادثة مُحددة محورها عُمر. فقد جعل نفسه محور تفكير النساء، وأحاديثهن وأمنيتهنّ في الخلوات. وكأنّ عُمر ما نظم هذه القصيدة إلاّ لينفذ منها إلى هذه الغاية فتصبح النساء تتغزّل به بدلاً مِن أن شبب بهنّ. وهذه القصيدة تجلّت ببعدين: القصة التي يقوم بسرد حوادثها، ربّما واقعية وربّما وهمية، ولكنّها في الحالتين نقطة انطلاق في غزل عُمر هي حديثه عن خلواته ومغامراته، والحوار الذي بدأه بسؤال يطرحه على منزل الحبيبة ثمّ المساجلة بين الفتيات لتحديد موقف كلّ واحدة منهنّ لدى اطلالته. أمّا البعد الوصفي فهو في تصوير المشاهد وتصوير نفسية المرأة.

5- بنية المـكان:

دقّة التصوير التي امتاز بها عُمر في عرض المشاهد والاطار الذي يتحرك فيه العمل. فالمكان: أرض رملية ليّنة نبت فيها الزهر واكتست من الألوان كل جميل وحسن. والزمان: عند المساء وقد ألقى جمل الليل صدره فتمدّد واضّجع، والاشخاص ثلاث فتيات خرجن في نزهة وهنّ بطيئات الخطو، شديدات الحياء.

6- العلاقة بين الأقسـام:

➤ يظهر بخجل شديد معاناة عُمر ونعثر فيه على تلميح إلى الحبّ "هيّج القلب مغانٍ وصير" عدا ذلك فهو الذي تيّم المرأة، وقد جاءت الناحية العاطفية شاحبة في القصيدة، فلم يتناول ابن أبي ربيعة الحبّ كظاهرة انسانية بقدر ما استخدمه لغرض شخصي يتّصل مباشرة بالجانب الفخري الذي طغى على غزله.

➤ لجأ عُمر إلى ذكر الأطلال وقف بها، (ظلت فيها واقفًا أسأل المنزل) وذكر الديار التي لعبت بها رياح الصيقف والامطار، فاندرست ربوعها بعدما كانت آهلـة، لكنّه وإن اتصل بالتقليد ولكنّه لم يفرّق فيه، فجاء الوقوف مغيّر سريع الزوال، والاطلال عنده لم يحملها ظلال الكآبة التي عرفها الأقدمون، بل على العكس حملها خطوطًا باسمة تزيينية تتصل بطبيعة عصره. ولا تحمل من صدق الوجدان ما زخرت به أطلال القدامـى.

➤ يستعيد عُمر ذكريات عذبة ومنها مشهد الطبيعة وقد خرجت مع رفيقاتها (التي قالت لأترابها)، يتمشيْن في جوّ أنيق لطيف فيه كلّ ألوان الهدوء (غيوم وزهر ونبات)، يصلح لخلوة في ربوع الطبيعة، تتحقّق فيها كلّ الأمنيات.

➤ يعرض الشاعر الخلوة التي توق إليه كل نفس، وبحاجة نفسية المرأة التي تكتم حبّها وسرّها إذا كانت بين الغرباء، ولكنها لا تلبث أن تفضح عمّا يجول في القلب من عواطف، وما في النفس من أمنيات، حيث تخلو بصاحباتها (فالشوق في مقلتها)، مهما أخفته بيديه النظر. وهذه الامنيات تركت كلّ المطالب والاستشهاد والتـقـت عند هدف واحد: وجود عُمر(لو أتانا اليوم في سرّ عمر)، وتلبية التمنيات بسرعة (وبينما يذكرنني أبصرنني)، ويظهر فجأة على ظهر جواده الأغر يهب الأرض (دون قيد الميل يعدو بي الأغر) وكأنّه مارد يخرج من القمقم المسحور إذا ما لمسته يد أمرأة، تطلب الاغاثة في الحبّ لا في الدفاع عن العرض والشرف.

➤ يعرض ابن أبي ربيعة مساجلة بين الفتيات، فيحدّد موقف كلّ واحدة منهنّ به، وتعود العاطفة لتخفّف هنا ايضًا وتكاد تقتصر على اعتراف الصغرى بحبّها (وقد تيّمتها، قد عرفناه، وهل يخفى القمر)، فهو كالقمر الذي لا يخفى جماله، لطيف المعاشر ورائع الحديث، يملأ النفس غبطة ويرورًا، وكأنّ عُمر أراد أن يظهر هذه الصغرى العاشقة الولهى به تنتظر السعادة في لقائه والأمل بحبّه.

7- أنماط الخطاب:

تميّزت القصيدة بطريقة عرضها، فهي غنائية المضمون، قصصية الاخراج تعتمد على الحوار التمثيلي طريقة للتعبير، فاعتمد الشاعر النمط السردي، فقد مهّد لروايته بمقدّمة سريعة أرست الاطار الضروري للحادثة، فحدّدت المكان والزمان وقدّمت الاشخاص مطلقة بينهما حوراً عفويًا، انتهى بظهور عمر ويتحقق احلام الصبايا وبخاصّة الصغرى منهنّ.
وتداخل النمط الوصفي ليصوّر اللوحات الطبيعية (رياح الصيف والأمطار)، ويصوّر

الفتيات في النزهة، وهنّ بطيئات الخطو، شديدات الحياء (قطف فيهنّ انس وخفر)، ويصوّر نفسية المرأة التي تكتم حبّها وسرّها حينًا ثمّ تبوح به لرفيقاتها. فهنا يتتبّع الشاعر لإشارتها وحركاتها وهمساتها في خلوتها بدقّة كأنّه عارف بأمور النساء وما تخفيه في قلبها من شوق في المقلة، واسترخاء في حديث زميلاتها، واللهفة في جواب الوسطى، والعشق في حديث الصغرى. كما يُصوّر نفسه وكأنّ القصيدة نظمت لفخر لا لغزل فهو معشوق الصبايا ومنية خلواتهنّ وهو قمر لا يخفى (لو أتانا اليوم في سرّ عُمر ـ بينما يذكرنني أبصرنني...).

وقد احتلّ السرد الحيّز الأكبر فغلبة السرد ضعف التحليل والتصوير، وجاءت عاطفة الشاعر شاحبة في القصيدة لأنّه راح يحكي عن خلواته ومغامراته ويتناسى المحبوبة، فلم يدرس تأثير الحبّ لا في نفسه ولا في نفسها، سوى (تيمتها) عن لسان الصغرى، فكانت القصيدة اقرب إلى الجانب الفخري منه إلى الغزل.

8- المستويات اللغوية:

(أ) المستوى الايقاعي :

تقوم القصيدة على تفعيلة "فاعلات" وهي تفعيلة تنتمي إلى بحر الرمل، أراده الشاعر وزنًا سريعًا نابضًا بالحياة، يرمز إلى الغبطة والفرح، ذو ايحاء موسيقي جميل، وكأنّ الحياة التي عاشها ابن أبي ربيعة في ظلّ أسرة غنية، أحاطته بالعطف ويسّرت له البحبوحة والدلال جعلته يطرق موضوع "المرأة" وينذر حياته لها، يودّع حسناء ليستقبل أخرى، يحقق رغباته دونما ملل، هذا التاثّر بمعطيات العيش المترف، وبالحضارة اللا محدودة جعلته يعرف الحياة الفرحة ليختار لها موضوعًا شيّقًا (الحبّ)، ولغة عذبة (الغزل) ووزنًا سريعًا لعلاقة قصيرة سريعة الزوال وهمية النسج فكان (الرمل).

بنى الشاعر قصيدته على حرف الراء الساكن (رْ) حملت الرائية عذوبة وجرسًا موسيقيًا جميلاً، عبّر به الشاعر عن ذكرى حرّكت مشاعره، وكانت القصيدة أقرب إلى النثر لسهولتها ورقّتها.

(ب) المستوى الصرفي والنحوي:

➢ **الضمائر:**

في هذه القصيدة مجموعة من الضمائر عائدة غلى مثلّث اساسي: الشاعر والحبيبة والفتيات.

- ذات الشاعر: ضمائر المتكلّم المفرد: ظلتُ— أسالُ— أبصرنني— تيّمتها .. ضمائر الغائب المفرد المذكّر: يعرج — ساقه— عليه— اثوابه— أتانا— عرفناه.

- الحبيبة والفتيات: ضمائر المتكلّم الجمع: خلونا— بنا— نبدي— نسر— عرفناه— دوننا— إلينا— أتانا— منيتنا.
- الحبيبة: ضمائر الغائب المفرد المؤنّث: قالت— مقلتها— يسترضينها(الكبرى)، قالت(الوسطى)—تيمتها(الصغرى).

ومن خلال رصد الضمائر، نلحظ انّ ضمائر المتكلّم المفرد المذكّر بلغت (6) ضمائر، وهي تعود على الشاعر ابن ابي ربيعة، وضمائر الغائب المفرد المذكّر بلغت (6) ضمائر وهي تعود عليه ايضًا، هذا بالاضافة إلى تكرار الفعل اتان مرتين (2) والعبارات واقفًا (أنا)، وعمر (مرتين)، الفتى، القمر.

والفعل غيّب في صيغة المجهول، لو رُدّ إلى المعلوم لكان فاعله الشاعر أيضًا، فالحصيلة النهائية تكون:

6 +6+6 = 18 مرّة ذكر الشاعر ابن أبي ربيعة. وهذا إن دلّ على شيء فإنّه يدلّ على العاطفة الضعيفة في الحبّ عند الشاعر.

فكلّ هذه الضمائر ما أتت لتوصيف حالة الهيام والعشق في قلب الفتى، إنّما توصيف لمزيد مِن الفخر والتعالي الذي طغى على الغزل العمري، حتّى الحبيبة تحدث عنها دون أن يسميها، فلا ندري أهي هند أم أسماء أم ليلى أم غيرها من حبيباته الكثر.

فالشاعر بدل أن يتغزّل بالمرأة، يتغزّل بنفسه، فهو معشوق الصبايا ومنية خلواتهن وهو قمر لا يخفى ولكي لا يخفى علينا ما تظهره هذه الضمائر في تنوّعها رغم الغرض الشخصي الذي اراده عُمر.

فالضمائر تظهر براعة الشاعر الذي ينتقل أحيانًا من التعبير المباشر عن نفسه، إلى رصد حديث الفتيات، والحكايا عن تصرّفاتهنّ، وهمساتهنّ واشارتهنّ لحظة بلحظة، فحركية الضمائر في هذه القصيدة تكشف عن طابعها الحكائي الأمر الذي قد يعني وجود ملامح القصّة الشعرية في القصيدة، وبخاصة في هذه الرائية التي سمعها جرير فأقرّ بشاعرية عمر فقال: "ما زال هذا الفتى يهذي حتى قال الشعر".

➢ الاستفهام : هل فيه خبر؟

بدأ الشاعر بهذا السؤال الذي ينتظر جوابًا، لكن لانتقاله إلى عرضه الشخصي (حديث النساء عنه)، وعدم تحميل الطلل القيمة التي زخر بها القدامى، أفقد حلاوة الجواب والاستفسار. وفي قوله: أتعرفن الفتى ؟:

سؤال آخر على لسان الحبيبة في الشطر الأوّل من البيت الحادي عشر، لم ينتظر جوابًا بين انكار واثبات إنّما عاجله الشاعر بالشطر الثاني من البيت بجواب اسرع من البرق (نعم) واعقبه بجواب أسرع في البيت الثاني عشر(قد عرفناه)، وختم بـ (هل يخفى

القمر؟)، وهذا الاستفهام اقرب غلى التعجّب يظهر الفتيات على علم بالمذكور، ويلعب دورًا بارزًا في اظهار العلاقة بين المعشوق والفتيات.

فالشوق في مقلة الكبرى طرح سؤالاً (أتعرفن الفتى) واللهفة في جواب الوسطى احدث جوابًا (نعم هذا عمر)، أمّا الصغرى التي تيّمها ففي ردّها كلّ معاني الغبطة والاعجاب (وهل يخفى القمر؟)، فهو القمر الذي لا يخفى نوره على أحد.

من هنا نستنج قدرة ابن أبي ربيعة على توظيف العناصر السردية، والتقنيات الحركية، مثل الضمائر والاستفهام، مما يضبط حركية الخطاب الشعري .

فالحوار الذي بدأه بسؤال يطرحه على منزل الحبيبة، انتقل منه إلى مساجلة بين الفتيات ليحدد موقف كل واحدة من ظهوره، فجاء بالاجماع عفوي لا تصنع فيه بعيدًا عن التكلّف والتزيّن ولا شكّ أنّ طغيان السرد القصصي، قد جاء بفردات سهلة متآلفة الأحرف إلاّ ما ندر منها (اسبطر) وتعني امتدّ واضطجع.

وكذلك التراكيب فبسيطة تتألّف اجمالاً من فعل واسم أو من فعل واسمين (إذ تمشين، قد خلونا، فتمنين، قلن، يسترضينها...) وهي في الغالب جمل قصيرة سريعة، معظمها خبري، والقليل الانشائي منها.

وهذا القصر والسرعة استوجبه مقام القصّة والحوار. فبهذا الجو من العفوية والبساطة راح الشاعر ينقل ذكرى محبّبة على قلبه فالموضوع وجداني شخصي والإطار فنّي ملائم، والمعاني شاهدة على نفسية صاحبها.

(ج) المستوى البلاغي :

جاءت الصور واضحة لا نقع فيها على أي تعقيد، ولا شكّ أنّ طغيان السرد القصصي في القصيدة ذهب بالمحسنات وجاءت تقليدية، فالاستعارة:(حين ألقى بركه جمل الليل عليه واسبطر)، هذه الصورة للّيل رأيناها عند أمرئ القيس: الليل الذي هو جمل جمل يتمطى ويبرك، وصورة النسج (تنسج الترب فنونًا والمطر)، تطالعنا عند أمرئ القيس في قوله: لما نسجته من جنوب وشمأل.

وكذلك منظر الطلول والمغاني التي تهيّج القلب (هيّج القلب مغان وصير)، عرفناها عند امرئ القيس مع فارق نفساني، فعن الجاهلي صورة الأطلال ترفع به الى الحنين والبكاء، بينما مشهد الطلول قاد عمر إلى جوّ ممتع مليء بالذكريات العذبة .فقد جاءت الصور (الاستعارة) عفوية وبسيطة تنقل ذكرى محبّبة إلى نفس الشاعر، تنقلها بساطة وبشعر يقرّب أحيانًا من النثر لسهولته ورقّته.

(د) المستوى المعجمي:

تطالعنا القصيدة بحقلين معجميين:

– حقل المكان: (مغان وصير، دارسات، علاهن الشجر، الترب، المنزل، تغشاه الزهر).

– وحقل الزمان: (يوم غيم، جو مؤنق، حين ألقى بركه..)، وفي الحقلين بنية تضامنية فالمكان أرض رملية ليّنة نبت فيها الزهر، واكتست بالالوان الجميلة ما يدهش، والزمان عند المساء، حين اشتدّ الظلام. فكان المكان منسجمًا مع الزمان ليتعاونا معًا في ايجاد خلوة في جوّ جميل ومغامرة في ساعة عذبة.

هـ - الخاتمة:

إبن أبي ربيعة، الشاعر الغزلي، الذي جعل من الحياة رمزًا للغبطة والفرح وجعل من الغزل كلّ حياته وفنّه، لأجله عاش ولأجله نظم، وبسبب دخل دنيا الأدب وكان خلوده ز استعمل اللغة القريبة المتناول دون تكلّف وايغال في طلب الغريب من اللفظ فنادرًا ما نجد المفردات الغريبة في قصائده. وهو من أوجد الحبّ العمري الآني المتجدّد الذي يؤمن باللحظة ولا يعرف الخلود. يقرب إلى اللهو ولا يعرف المعاناة يسيطر عليه العقل الذي يتمثّل بالاغراء وحب المغامرة. ومع هذا كلّه، تبقى هذه القصيدة "وهل يخفى القمر؟" تخفي دلالات عميقة قد يقصّر عنها الباحث، فيعود إلى إعادة النظر فيها، وفي كلّ نتاجات عُمر ليشهد له بالتفرد والابداع.

و- تقييم:

وبعد مقاربة هذه القصيدة الغزلية عِبر حركية الخطاب الشعري مِن خلال مستوياتها اللغوية ومزاياها الفنية لا بُدّ مِن إستكمال الخُطى التفاعلية والتعليمية لدراسة تقنيات التعبير (التعبير المُستقل)، وتعميق معارف ومهارات فردية وجماعية وصولاً إلى المطالعة الموجهة لمعرفة هذا النوع من القصيد (الغزل) وشعرائه المُرهفي الإحساس في البوح عن خلجات القلب لمرأة إختارها القدر لتكون الحبيبة دون مُنازع.

		الوسائل	النشاطات	التعبير الشفهي	التعبير الكتابي	القواعد المعرفية والوظيفية	بيان ـ بلاغة ـ عروض
التعبير المستقل (تقنيات التعبير)	للنقاش: -النظرة إلى المرأة : "المرأة ملاك أم شيطان ، وهل صحيح أنّها شر لا بُدّ منه ؟"	- وثائق تظهر الشرّ عند المرأة (الخيانة- التمرد- التسلط...) وأخرى تظهر الخير (المحبة- العطف - التسامح...)	من يفضل المرأة القوية؟ ومن يفضل المرأة الهادئة؟	إجراء حوار يُحددفيه: تقييم المرأة وسلوكها والتوصل إلى صورة المرأة المثالية.	الإنفتاح على موضوع: هل تقبل علاقة حب مع إمرأة متمردة ولماذا؟	استخدام تراكيب لغوية وأساليب تعبيرية تظهر التمكن من الفصحى الخالية من الشوائب والأخطاء.	التوقف على صور بيانية (تشبيه- إستعارة) وبعض الشواهد الشعرية التي تعبّرعن الحبّ وحال المرأة
البطاقة التقنية (تعميق معارف ومهارات)	أهمية الوجدان في الأدب: التعرّف على (الغزل) بقسميه العذري والإباحي.	صناعة زهرة كبيرة يكتب في قرصها (الغزل) وفي بقية الورقات يكتب أهم شعراء الغزل في مختلف العصور.	تشكيل فريقين يُمثل كلّ منهم اتجاه غزلي(عذري/ إباحي) ويجري النقاش وعرض أبيات شعرية تخدم الموضوع.	قراءة هذه الآراء والابيات الشعرية بلغة بليغة تظهر الوجدان مضموناً وأسلوباً.	لمحة تاريخية حول(الغزل) وارتباطه بالإنسان وبعقله الذي قد تطوّر وأصبح قادراًعلى التحليل والقياس وربما في الحب أيضاً.	المفردات والتعابير تختلف لكنها تعبّرعن الجمالية المشتركة بين هاتين النظرتين.	إدراك أهمية الايقاع والصور والمحسنات والايحاء الذي يُزيّن كل قصيدة غزلية.
المطالعة الموجَهة	الشعلة الزرقاء لجبران خليل جبران : رسائل من وإلى مي زيادة.	إحضار مؤلفات عن جبران ولوحات تظهرأنّه رسام أيضاً.	زيارة متحف جبران للتعرف على حياته ومؤلفاته وكلّ رابط له بالحياة.	عرض رسائله من وإلى مي لإدراك الحبّ عبر المسافات والمساجلات بين العقول والصداقة المتينة	ما طبيعة العاطفة القائمة بين جبران ومي ؟	المفردات والتعابير التي تشكل حقولاً معجمية للتفاهم بين المتراسلين	الصور البيانية وأثرها البلاغي في نصوص جبران وكذلك الايقاع الموسيقي.

L’Islam Féministe et le Défi du Patriarcat Dans la Jurisprudence Islamique

Rita Faraj

Conférencière et chercheuse libanaise en sociologie et en études des femmes.

L’interprétation féministe relative aux positions de la femme dans l’islam s’est considérablement développée au cours des dernières décennies, ce qui lui a valu une présence remarquable en termes de sensibilisation, de méthodologies, de tendances et de références académiques. Les féministes, du monde arabe et de l’Occident, ont publié des recherches scientifiques approfondies sur « l’islam et les femmes », « l’islam et le genre » et « les femmes et le savoir religieux », notamment dans le domaine de ce que nous pourrions appeler « la jurisprudence consistant à libérer le Coran de son héritage patriarcal ». Le « féminisme islamique », et les féministes non affiliées à ce mouvement, ont joué un rôle important au niveau des études sur les femmes. Leurs approches vis-à-vis des textes religieux fondamentaux, ont varié, en critiquant la lecture de la jurisprudence islamique traditionnelle concernant les questions liées aux femmes, recherchant l’égalité des sexes dans le Coran, et luttant contre la jurisprudence islamique (*fiqh*) patriarcale.

Féminisme arabe et féminisme islamique

Le féminisme arabe œuvrant pour les droits des femmes dans les domaines de la religion, la société et la culture, n’est pas récent. En effet, il a vu le jour à la fin du XIXe siècle, grâce à des intellectuelles et écrivaines arabes et musulmanes, telles Aicha Taymour (m. 1902), Zeinab Fawwaz (m. 1914), Malak Hafni Nassef (m. 1918), Aicha Abderrahman (m. 1998), Hoda Chaaraoui (m. 1947), ou Nazira Zain al-Din (m. 1976). Cette dernière

a réclamé le droit de la femme à l'*ijtihâd* (l'effort d'interprétation des textes). En effet, elle est considérée comme la première femme arabe à présenter un mémoire ayant critiqué la lecture jurisprudentielle du Coran dans son fameux livre *Le dévoilement et le voile* (1928). Avant elle, les femmes arabes avaient davantage abordé les questions de l'éducation des femmes, de la conscience de soi, et des droits politiques, à travers des biographies, des articles ou des œuvres littéraires. Le « féminisme islamique » a, quant à lui, émergé au début des années 1990 en Afrique du Sud, comme l'un des piliers philosophiques et politiques du mouvement de « l'islam progressiste », œuvrant contre le régime de l'Apartheid. Il a vu le jour également en Iran en 1992 avec le magazine *Zannan*, qui reflétait la déception des féministes iraniennes face à la révolution de 1979 ; et en Turquie au milieu des années 1990, avec la parution du livre de Nilüfer Göle intitulé *La modernisation interdite : la civilisation et le voile* (1996) .
La professeure de littérature comparée à l'Université du Caire, Omayma Abou Baker, note que *« la quête de l'autonomisation en termes de droits dans un contexte culturel islamique général, est évidente »*. Elle souligne également que le concept de féminisme, d'un point de vue islamique, a évolué durant les deux dernières décennies dans le monde musulman, afin de résoudre le dilemme qu'engendre la contradiction entre le patriarcat de la jurisprudence islamique et le message originel de l'islam, incitant à mettre en œuvre des valeurs de justice, d'égalité, d'entraide entre les deux sexes et de dignité humaine, et pour les musulmans et pour les musulmanes. O. Abou Baker met en valeur l'utilisation de méthodes analytiques féministes, non seulement pour filtrer une grande partie de la pensée des sciences islamiques du point de vue des femmes musulmanes et à partir de leur réalité, mais aussi pour ouvrir la porte à leur raisonnement, afin de construire un savoir islamique, qui met l'accent sur les concepts de justice, d'égalité et de partenariat. O. Abou Baker propose un savoir alternatif à la logique d'exclusion, de discrimination et de partialité qui a marqué de ses empreintes les discours de la tradition et la façon dont les savants ont élaboré les dispositions légales en islam. Malgré la compétence scientifique et les efforts des oulémas pour étudier plus profondément la *sharî'a*, ces discours normatifs ont été le produit de leur propre époque et influencés par les cultures de leur temps. Par conséquent, il était évident dans des sociétés patriarcales anciennes de ne pas se soucier de promouvoir un statut qui met hommes et femmes sur un pied d'égalité.

En dehors du féminisme islamique : l'exemple d'Olfa Youssef

Nombreuses sont les universitaires et chercheuses qui ont étudié les textes religieux de l'islam (Coran, *hadîth* et *fiqh*) sans pour autant adhérer au féminisme islamique. En réalité, elles ont une préséance historique sur ce dernier. On peut citer à cet égard l'écrivaine et la militante égyptienne Nawal Al Saadaoui (m. 2021), la sociologue marocaine Fatima Mernissi (m. 2015), l'universitaire et psychiatre tunisienne Rajaa Ben Salama et l'universitaire tunisienne spécialisée en langue et linguistique arabes Olfa Youssef. Cette dernière est la plus controversée, suite à la parution de son fameux livre *Confusion d'une musulmane* (2010) dans lequel elle a abordé des questions critiques. Elle propose notamment une nouvelle relecture de la dot (*mahr*) telle qu'elle est décrite dans le Coran : *« Et donnez aux épouses leur dot, de bonne grâce. Si de bon gré elles vous en abandonnent quelque chose, disposez-en alors à votre aise et de bon coeur. »* Elle avance une nouvelle interprétation qui présume que *« le verset ne commande pas le paiement de la dot ou de la rétribution, et que certains interprètes musulmans se sont appuyés sur un deuxième verset pour montrer que la dot est une condition nécessaire du mariage et en constitue un pilier essentiel. Cette conclusion figure dans le verset 24 de la Sourate Al-Nisâ' : « et parmi les femmes, les dames [qui ont un mari], sauf si elles sont vos esclaves en toute propriété. Prescription de Dieu sur vous ! À part cela, il vous est permis de les rechercher, en vous servant de vos biens et en concluant mariage, non en débauchés. Puis, de même que vous jouissez d'elles, donnez-leur leur dot, comme une chose due. Il n'y a aucun péché contre vous à ce que vous concluez un accord quelconque entre vous après la fixation de la dot. Car Dieu est, certes, Omniscient et Sage. »*

Olfa Youssef estime que tous les *« interprètes ont considéré le contrat de mariage similaire au contrat de vente, voire certains ne diffèrent en rien du contrat de vente, étant donné la présence de la marchandise qu'est la femme, ou plus précisément quelques femmes, d'une part, et de l'autre part la présence de l'acheteur qu'est le mari, et l›existence d'un prix qui fait de la marchandise la propriété de l'acheteur. »* Elle s'appuie notamment sur le juriste Mâlik ibn Anas (m. 795) et le théologien de rite chafiite Fakhr al-Dîn al-Râzî (m. 1210) qui confirment que le mariage est similaire à une vente dans laquelle l'homme achète le vagin (ou la vulve) de la femme avec le prix de la dot. Le théologien mystique soufi Ibn 'Arabî (m. 1240) précise que cette rétribution serait censée mettre en évidence l'importance de cet organe féminin et son honneur.

O. Youssef signale toutefois que le Coran ne contient aucun indice sur le fait que la dot soit le prix de l'organe sexuel féminin, et les exemples sont

nombreux. Dans le Coran, la dot est liée à un devoir possible, ou impossible, entre les deux parties concernées. Si l'accord est conclu, la dot doit être payée complètement ou partiellement. Et si on suppose que la dot est le prix de la vulve de la femme, il serait absurde de penser que le Coran oblige l'époux à payer une somme d'argent pour la femme, avant qu'un contact n'eut lieu entre eux, et que l'époux n'eut reçu sa marchandise comme le précise le verset suivant : *« Et si vous divorcez d'avec elles sans les avoir touchées, mais après fixation de leur dot, versez-leur alors la moitié de ce que vous avez fixé, à moins qu'elles ne s'en désistent.* » O. Youssef considère les propos d'Al-Râzî comme une projection de perceptions historiques et d'un imaginaire social postérieur à la période de la Révélation du Coran (VII^e^ siècle) au cours de laquelle les femmes étaient perçues comme une marchandise à acheter et à vendre. Au XX^e^ siècle, le savant et juriste tunisien Mohamed Tahar Ben Achour (m. 1973) propose à son tour une relecture de ces versets, à l'aune de son époque régie par un imaginaire social différent du VII^e^ siècle : *« La dot ne remplace pas les avantages de la femme. Le mariage est un contrat entre un homme et une femme, destiné à la cohabitation et à l'échange de droits entre époux. »*

Les féministes musulmanes : libérer le Coran du *fiqh* patriarcal, l'exemple d'Amina Wadud

La collision des interprétations féministes islamiques avec l'héritage de la jurisprudence islamique (*fiqh*) varie entre le monde arabe et l'Occident, surtout si l'on compare les conclusions des féministes musulmanes américaines avec celles de leurs homologues arabes. Amina Wadud, auteur du livre *Qur'an and woman rereading the sacred text from a woman's perspective* (1999) est l'une des féministes les plus célèbres et les plus audacieuses au sujet des questions de l'islam et du genre. Elle aborde les textes avec une nouvelle grille de lecture, cherchant à bien distinguer le Coran des *hadîth*-s, à placer le Coran comme source première et à renoncer à une lecture littéraliste du texte. Si l'on veut parler d'un « islam féministe » ou d'une théologie islamique féministe et moderniste, on peut avancer qu'Amina Wadud et ses consœurs féministes musulmanes américaines sont les plus modernes, partageant trois caractéristiques fondamentales : s'opposer au discours jurisprudentiel machiste, affirmer le droit des femmes musulmanes à l'*ijtihâd*, et jeter les piliers d'un islam féministe qui pratique une réforme de l'intérieur sur la base de l'interprétation du Coran à partir du Coran lui-même, en mettant fortement l'accent sur la méthodologie historico-critique des sciences sociales et humaines modernes. Les féministes

musulmanes américaines (Amina Wadud, Azizah Hibri, Asma Barlas) adoptent ainsi ouvertement le concept d'« islam féministe », contrairement à la plupart des femmes arabo-musulmanes résidant dans les pays arabes et musulmans qui le plus souvent *s'abstiennent* de déclarer leur adhésion à la pensée de « l'islam féministe » sans réserve. Elles préfèrent changer cette étiquette pour s'adapter à l'environnement des pays musulmans. Par exemple, la chercheuse égyptienne Heba Raouf Ezzat suggère de remplacer l'expression « féminisme islamique » par celle de « mouvement des femmes musulmanes ».

Amina Wadud refuse que la mouvance salafiste dominante monopolise l'interprétation des textes. Elle semble être la plus préoccupée par la question de la justice sociale en islam, notamment car elle parle depuis son contexte social américain où s'ajoute au problème de l'inégalité hommes-femmes celle des discriminations ethniques envers les Afro-Américains : *« Par conséquent, [Amina Wadud] insiste sur l'universalité de l'islam, et sur le fait que ce message s'adresse à tout le monde. L'importance des féministes musulmanes américaines réside dans le fait qu'elles ont été imprégnées de liberté intellectuelle et qu'elles sont restées en phase avec le développement cognitif dans le domaine des sciences, ce qui les a encouragés à aborder des questions audacieuses à l'instar de l'abolition du délai de viduité imposé aux femmes divorcées et le droit de diriger la prière.* »

Refaat Hassan : un islam post-patriarcal

Refaat Hassan, professeure des études religieuses et humaines à l'université de Louisville aux États-Unis, s'est appuyée sur la méthode herméneutique pour tenter d'expliquer le Coran à partir de la « théologie féministe », afin d'explorer ses dispositions relatives à la femme et dans le but de libérer le texte coranique des effets des *hadîth*-s qui vont contre la spiritualité globale de l'égalité coranique entre les deux sexes. R. Hassan, à l'instar des féministes musulmanes, partage la conviction systématique que « la mentalité patriarcale » a régi les traditions islamiques depuis les débuts de l'histoire de l'islam jusqu'à nos jours, et que les origines de l'islam telles que représentées dans le Coran, les *hadîth*-s, la Sunna et le *fiqh*, ont été orientées en fonction de cette mentalité, vu que ces origines ont été exclusivement interprétées par les hommes musulmans. R. Hassan souligne l'importance d'étudier le Coran à la lumière du « critère moral », et l'obligation de réfuter toute utilisation de celui-ci dans le but de promouvoir l'injustice, car « Dieu en islam est juste ». R. Hassan conceptualise ainsi l'expression « islam post-patriarcal », pour

désigner « l'islam coranique », un islam qui accorde une grande importance à la libération des humains – hommes et femmes – de l'esclavage par la remise en cause des valeurs traditionnelles et despotiques (religieuses, politiques et économiques…) et du tribalisme, de la discrimination, du sexisme et toute autre valeur qui empêche les gens de mettre à exécution la vision du Coran envers le destin de l'humanité évoqué par le Coran : « Tout aboutit, en vérité, vers ton Seigneur ».

Leila Ahmad : la dissonance entre voix pragmatique et morale

Contrairement aux adeptes du féminisme islamique qui considèrent que « l'islam coranique » a garanti l'égalité entre les hommes et les femmes, alors que les interprétations jurisprudentielles patriarcales l'avait entravée, l'universitaire égypto-américaine Leila Ahmad adopte une autre hypothèse qui avance que l'islam *« a changé les fondements de la relation entre les deux sexes, en transférant les droits sexuels de la femme et ses enfants du contexte de la femme et sa tribu, au domaine des hommes. »* L'analyse la plus importante – à notre avis – de la lecture de L. Ahmad, c'est qu'il existe deux voix distinctes dans l'islam, et deux images contradictoires et concurrentes en termes de genre. L'une de ces deux voix surgit dans les règles pragmatiques sur lesquelles se fonde la société, et l'autre à travers l'expression de la vision morale : « *Même lorsque l'islam a fondé le mariage sur une hiérarchie sexuelle, la voix morale a constamment souligné l'importance des dimensions spirituelles et morales de l'existence et de l'égalité entre tous les individus. La première voix a occupé une place considérable dans la pensée politique et légale [la Sharî'a] qui constitue les aspects de la compréhension pratique de l'islam. Néanmoins, la seconde voix n'a pas laissé un impact significatif sur l'héritage politique et juridique de l'islam […]. À la lecture du texte sacré, la femme musulmane entend et lit un message tout à fait différent de ce qu'apportent les interprètes de l'islam traditionnel patriarcal en faveur des hommes, et ceux chargés de son application.* »

Leila Ahmad rappelle que se sont opposées dès la mort du Prophète deux conceptions de l'islam : l'une promouvant une application à la lettre des règles prophétiques dans le cadre d'un islam institutionnel, et l'autre promouvant un islam centré non sur les normes pratiques mais sur l'aspect moral et spirituel de la religion, considérant les règles établies par Muhammad, y compris sa propre pratique, étaient des aspects éphémères ancrés dans la société du VII[e] siècle et que ces règles n'auraient jamais été obligatoires pour la communauté

musulmane. Pour appuyer son propos, Leila Ahmad met en évidence la position des courants soufi, kharijite et qarmate, au sujet de la polygamie, le port du voile et les relations sexuelles. Elle rappelle ainsi que les kharijites et les qarmates ont rejeté l'esclavage et le mariage des jeunes filles âgées de neuf et dix ans ; les qarmates, quant à eux, ont interdit la polygamie et ont aboli le port du voile.

Féminisme islamique : méthodes et lectures

Le féminisme islamique propose trois approches dans sa lecture du texte coranique : (1) évoquer certains versets du Coran qui ont été liés à de fausses interprétations, telles que celles concernant la Création ou les événements du Paradis et liés à la domination de la vision masculine et sa supériorité à l'égard du statut et de la position des femmes ; (2) mettre en valeur les versets qui clarifient sans équivoque l'égalité des sexes ; (3) déconstruire les versets qui visent à mettre en évidence la différence entre un homme et une femme d'une manière qui justifie la domination et le contrôle des hommes. Le féminisme islamique se base, dans ses recherches, sur plusieurs approches, notamment : la philologie, l'herméneutique, l'anthropologie religieuse, l'approche historique et critique, et d'autres approches modernes de l'interprétation des versets coraniques et des *hadîth*-s du Prophète. Ces lectures féministes insistent également sur les conditions historiques entourant les textes religieux de l'islam, en particulier les passages concernant les conditions des femmes musulmanes.

Conclusion

Les féministes travaillant sur les questions de l'islam et du genre ont recours aux termes qui ont des racines occidentales, tels que la « patriarchie », la « centralisation machiste », le « système patriarcal », la « théologie féministe », le « jihad pour l'égalité des genres », « l'islam post-patriarcal ». Ces termes sont omniprésents au sein du mouvement de production et d'interprétation et ont été enrichis d'idées modernistes préoccupées par la libération du Coran de l'héritage jurisprudentiel patriarcal. Venant de diverses affiliations intellectuelles et méthodologiques, les féministes ont présenté des lectures différentes concernant les interprétations jurisprudentielles traditionnelles, et ont abouti à deux conclusions contradictoires. Une première consiste à affirmer que le Coran porte un discours égalitaire et juste envers les hommes

et les femmes et que les juristes ont changé cet esprit initial. Une seconde considère au contraire que le Coran est hostile aux femmes musulmanes. Les partisanes de cette conclusion peuvent être incluses dans le courant du féminisme laïc ou encore du « féminisme islamique rejetiste », représenté par Taslima Nasreen, Irshad Manji et Ayaan Hirsi Ali.
Ces lectures des féministes musulmanes dans le domaine du savoir religieux et des études féministes font face à une réaction violente de la part des gardiens des croyances et des *hudûd* dans les institutions religieuses des pays arabes, où la religiosité augmente et ignore le besoin urgent d'une « réforme religieuse », tandis que leurs homologues en Europe et aux États-Unis sont plus libres pour exercer « l'effort d'interprétation » nécessaire pour se libérer de l'héritage jurisprudentiel. Il est donc vital pour l'islam traditionnel d'écouter davantage les voix de ces féministes, afin d'élever le débat et d'élargir les débats et de favoriser une compréhension plus profonde des positions et du rôle des femmes dans les sociétés.

1- Dalal Al-Bizri, « Le féminisme islamique ou le djihad pour l'égalité des genres », Al-Hayat, 22 janvier 2007, n° 15998.

2- Omayma Abou Baker, « Le féminisme islamique et la perspective islamique : nouveaux horizons pour le savoir et la réforme », dans Le Forum Femmes et Mémoire, Le Caire, 2013, p. 6.

3- La sharî'a désigne l'ensemble des prescriptions morales et des finalités éthiques de l'islam; elle est cependant à distinguer du fiqh, la jurisprudence, qui en tire les applications et les normes concrètes et quotidiennes pour les musulmans.

4- Omayma Abou Baker, « Le féminisme islamique et la perspective islamique », op. cit., p. 7.

5- Les hadîth-s constituent l'ensemble des actes et des paroles attribuées au Prophète Muhammad. Ils constituent la seconde source de l'islam après le Corna, que l'on appelle la Sunna et servent à déduire des normes légales dans le cadre de la jurisprudence islamique (fiqh).

6- Le fiqh signifie littéralement « la compréhension profonde des choses ». Il s'agit d'un corpus de normes élaborés par des théologiens juristes (fuqahâ', sing. faqîh) à partir de leur compréhension du Coran et de la Sunna. Voir Nathalie Bernard Maugiron, Fiqh, mots d'islam, 6 octobre 2017 : https://orientxxi.info/mots-d-islam-22/fiqh,2033.

7- La dot (mahr, parfois appelée sadâq) est l'unique condition matérielle pour valider le mariage. Elle est imposée par tous les juristes dans la mesure où il s'agit d'une prescription coranique. Voir : Moez Dridi et Muriel Roiland, « Le statut matrimonial de la femme dans l'islam médiéval à l'épreuve des documents juridiques », Hawwa, Brill Academic Publishers, 2019, 17 (2-3), pp. 231-256.

8- Coran 4 : 4.

9- Olfa Youssef, Confusion d’une musulmane : À propos de l’héritage et de l’homosexualité, Tunis, Éditions Sahar, 2008, p. 73.
10- Ibid., p. 74.
11- Ibid.
12- Coran 2 : 237.
13- Olfa Youssef, Confusion d’une musulmane, op. cit., p. 76.
14- Amina Wadud, Le Coran et la femme, Tarkiz, 2020 (trad. de l’anglais : Amina Wadud, Qur’an and Woman: Rereading the Sacred Text from a Woman’s Perspective, Oxford, Oxford University Press, 1999) ; Ead., Inside the Gender Jihad : Women’s Reform in Islam, Oxford, Oneworld Publications, 2006.
15- Voir : Rita Faraj, La femme des juristes et celle de la modernité : le discours de l’inégalité au sein du code du Fiqh, Beyrouth, Attanwir, 2015.
16- Amel Grami, « Le mouvement féministe islamique en Amérique », Hiwar Al Moutamadden.
17- L’herméneutique désigne l’art d’interpréter (ars interpretandi), notamment des textes religieux et sacrés. En islam, on rapproche ce terme du concept d’ijtihâd, qui désigne l’effort d’interprétation fait par les juristes musulmans pour déduire des normes légales.
18- Fahmi Jadaan, Hors des sentiers battus : Recherche sur le féminisme islamique rejetiste et les tentations de la liberté, Beyrouth, Ashabaka Al Arabiyya Lil Dirasat Wal Nasher, 2010, pp. 61-62.
19- Coran 53 : 42.
20- Omayma Abou Baker, « Le féminisme et les recherches religieuses » dans Le Forum Femmes et Mémoire, trad. Randa Abou Baker, Le Caire, 2012, p. 233.
21- Leila Ahmad, La femme et le genre dans l’Islam : les origines historiques d’une affaire polémique moderne, trad. Mona Ibrahim, Hala Kamal, Le Caire, 1999, p. 67.
22- Ibid., p. 70-71.
23- Leila Ahmad, La femme et le genre dans l’Islam, op. cit., p. 71.
24- Du mot arabe tasawwuf, le soufisme est un mouvement ésotérique issu de l’islam dont les préceptes reposent sur la recherche de l’illumination, de la sagesse ultime et de l’amour de Dieu en son for intérieur.
25- Une branche islamique qui est apparue au premier siècle de l'Islam pendant la première guerre civile musulmane, durant la crise de leadership après le meurtre du troisième calife Uthman.
26- Une des branches du chiisme ismaélien, les qarmates fondèrent un mouvement à idéal égalitaire qui dès 899 lutta contre les califes fatimides du Caire.
27- Leila Ahmad, La femme et le genre dans l’Islam, op. cit., p. 71.
28- Les hudûd désignent les peines légales prescrites par le Coran : le juge ne peut pas les moduler car elles sont ordonnées par Dieu, contrairement aux peines qui restent modulables par la juridiction (ta‘zîr). Ces peines ont été rarement appliquées dans la période prémoderne de l’islam. Voir : Wael Hallaq, An introduction to Islamic law, Cambridge University Press, 2009, p. 173.

La satisfaction au travail du personnel infirmier

Iman Azzam

Ph-D en psychologie USJ - Professeur à l'Université Libanaise-Faculté de Santé Publique (section 4 et 6)

Manal Al Kaassamani

Infirmière diplômée-Université Ain Wazein-Section 6

Nermine Al Masri

Infirmière diplômée-Université Ain Wazein-Section 6

Abdallah Jamal

Infirmier diplômé-Université Ain Wazein-Section 6

Nassab Azzam

Directrice de soins infirmiers – Hôpital de « Irfan Medical Center»

Résumé

Etre satisfait de son travail, n'est pas une finalité en soi, mais correspond plutôt à une perception de confort résultant de la réalisation d'une action ou d'une réussite attendue ou désiré. Le but de cette étude est d'identifier les sources et les facteurs contribuant à la satisfaction ou l'insatisfaction des infirmières dans les hôpitaux d'AWZ, Hariri, Rizk et Hammoud. Un questionnaire a été élaboré et rempli par 130 des personnels infirmiers travaillant dans les différents départements et service des hôpitaux concernés. L'analyse quantitative (descriptive, analytique, comparative et corrélationnelle) a révélé certaines insatisfactions liées aux facteurs tels qu'organisation au travail, le développement professionnel, la rémunération…etc. L'étude met en évidence l'intérêt de dégager une série de recommandations, des actions correctives et des pistes d'action visant à améliorer le niveau de satisfaction globale des infirmières et ainsi qu'à la qualité des soins. La présence d'un environnement favorable à la pratique et d'un climat organisationnel nécessaire peut améliorer la satisfaction au travail du personnel infirmier.

Mots-clés : satisfaction au travail – insatisfaction - personnel infirmier- infirmier- hôpital- ressources humaines- Saphora-Job – environnement favorable - climat organisationnel.

Introduction

Avoir un système de santé consistant et inclusif, efficace, capable d'affronter les problèmes intrinsèques et extrinsèques de l'établissement, nécessite des ressources humaines (RH) motivées, informées et compétentes. Etant donné que l'hôpital est une composante importante du système national de soins de santé, la qualité des soins est sa mission première.

Ainsi, les hôpitaux sont conscients du besoin de gérer les RH de manière efficace pour garantir le bon fonctionnement et la meilleure performance de leur entreprise. De nombreux spécialistes choisissent l'approche des relations humaines et estiment que les individus sont plus importants que toutes autres chose au sein d'une organisation. Mais il y a encore des problèmes de gestion des RH dans les services hospitaliers. Notamment lorsqu'il s'agit de restructuration et de restrictions budgétaires. De ce fait, les conditions de travail des infirmières changent et sont de plus en plus préoccupantes gestionnaires.

En effet, ces conditions ont un impact significatif sur une variété de facteurs tels que la satisfaction au travail (SAT), la motivation, l'absentéisme au travail, la fidélisation des infirmières et, par conséquent, la qualité des soins.(Sekiou et al, 1993). Dans plusieurs pays, ces facteurs SAT ont été largement étudiés au niveau des hôpitaux. Par exemple, une étude sur le SAT des infirmières au Maroc a révélé que le taux de satisfaction globale est de 20 % et le taux d'insatisfaction est de 80 %. (Mouqla,1999)

De ce fait, nous nous posons dans ce contexte la question suivante :« Est-ce que le personnel infirmier est satisfait ou non de son travail à l'hôpital et quels sont les facteurs influençant la SAT du personnel infirmier au Liban ? »
Alors, le but de cette présente étude est de mesurer la SAT des infirmières dans quatre hôpitaux pour déterminer les principaux facteurs qui influencent leur satisfaction ou insatisfaction, et à proposer des suggestions qui pourraient aider les gestionnaires de l'hôpital à améliorer la SAT du personnel infirmier.
Vue de ce qui précède, les hypothèses sont :

- La satisfaction des infirmières augmente la qualité de soins.
- Un climat organisationnel aide à une SAT des infirmières et donc une meilleure qualité de soins
- La planification et désirs d'horaires, les relations professionnelles entre collègue, la motivation et l'équité au travail sont des sources positives aboutissant à la SAT

- Le soutien psychologique diminue le stress au travail des infirmiers et donc augmente la SAT

1.1- La SAT : un concept multidimensionnel

La satisfaction est une « évaluation dynamique cognitive, conative, affective ». (Randon, 2011). La SAT mobilisée est définie comme étant celle d'Igalens (1999) pour laquelle la SAT est « une réponse émotionnelle positive résultant de l'évaluation du travail ou des expériences de travail. La satisfaction est un concept dynamique. C'est une perception instable qui évolue en fonction des expériences mais aussi en fonction des attentes du salaire qui peuvent se modifier tout au long de sa vie ».

Selon Randon (2011), le concept est une interaction entre la réflexion et les sentiments, ou la cognition et l'affect. Pour lui, le SAT peut être considéré comme une évaluation générale de son travail en prenant en compte divers aspects du travail, tels que la satisfaction vis-à-vis de la rémunération, des collègues de travail, de la hiérarchie et de son propre travail. De plus, il note que le concept est parfois divisé en deux parties : la satisfaction intrinsèque, qui comprend la satisfaction avec la hiérarchie, les collègues de travail et le travail lui-même, et la satisfaction extrinsèque, qui est liée aux choses comme la paie ou la promotion. (Randon, 2011)

1.2- Les concepts similaires au SAT

Dans cette section, il nous semble important de comparer le concept de SAT à cinq autres concepts : la motivation au travail, la qualité de vie au travail (QDVT), le bien-être au travail, le concept de soi en soins infirmiers (SI) et l'équité au travail.

1.2.1- La motivation au travail

La satisfaction et la motivation sont deux concepts distincts avec des théories communes. Randon (2011). La satisfaction et la motivation sont deux concepts distincts avec des théories communes. (Randon, 2011)

1.2.2- La QDVT

Selon Randon (2011), les entreprises sont devenues préoccupées par la mesure de la QDVT en raison de l'obligation de prévenir les risques psychosociaux des employés. Suivant le manuel des établissements de santé de 2010, la QDVT dépend de la qualité des relations au travail, de l'organisation

et du contenu du travail, de l'environnement physique, des opportunités de réalisation et de développement professionnel et de la conciliation vie professionnelle-vie privée. (Randon, 2011)

1.2.3- Le bien-être au travail

La notion de bien-être au travail est étroitement liée à la QDVT et comprend la sécurité au travail, la protection de la santé du travailleur, la charge psychosociale causée par le travail (stress), l'hygiène du lieu de travail, l'ergonomie, l'embellissement du lieu de travail et les mesures prises par l'entreprise en matière d'environnement. Les chercheurs ont décrit les différents liens qui sont ressortis de la littérature entre les concepts de QDV, de bien-être et de SAT mais ils n'ont pas vraiment trouvé d'études portant sur la relation entre ces trois concepts. (Randon, 2011)

1.2.4- Le concept de soi en SI

Ce concept est lié à la façon dont une personne perçoit sa confiance et ses capacités en tant que soignante. (Brunelle-agbeti et al, 2010). La littérature fait remarquer que les opinions et les images que les autres ont de lui, ses expériences antérieures et sa perception de sa capacité à prodiguer des soins influencent l'émergence et le développement du concept de soi d'une infirmière. En SI, le concept de soi est fortement influencé par les premières expériences de travail. (Demir et al, 2010; Cowin et al, 2008)

1.2.5- L'équité au travail

En ce qui concerne l'équité, la personne observe son environnement professionnel afin de déterminer si elle est traitée équitablement au sein de son entreprise. Une fois que la personne est insatisfait de sa situation, elle ressent une tension qu'elle tente de réduire. (Nammous, 2008)

1.3- Les récents travaux sur la SAT dans le domaine de la santé

La santé et la satisfaction des infirmières au travail en France et en Europe ont été examinées dans l'étude PRESST-NEXT sur un ensemble de thèmes, y compris le cursus professionnel, les caractéristiques du poste, l'organisation du travail, le fonctionnement des collectifs de travail et les souhaits concernant l'avenir professionnel. Selon les résultats, 66,1 % des Français demandent du soutien psychologique. Plus de la moitié des infirmières se plaignent de manque de soutien psychologique, de charges émotionnelles, de problèmes éthiques, de violence et d'autres problèmes. En Italie (77,4 %), en Allemagne

(62,6%) et en Slovaquie (60,8%), cette difficulté est particulièrement relevée. Ils ajoutent aussi que certains comportements spécifiques des infirmières sont influencés par les conditions professionnelles et psychologiques. (Agnes et al., 2006 ; Randon, 2011).
Quant au Liban, El-Jardali et al (2010) décrivent que les infirmiers libanais ne sont pas satisfaits. Leur étude a révélé que 3,98 % des infirmières libanais sont satisfaites de leur poste actuel. Les catégories qui contiennent les infirmiers célibataires, les infirmiers diplômés (ID) de l'université et les infirmiers moins de 30 ans sont les moins satisfaits. Et il a indiqué que 67,5% des infirmiers libanais désirent de quitter leur travail dans un à trois ans. Afin d'appréhender avec plus d'objectivité la problématique du SAT, une réflexion plus large et plus profonde à ce sujet est nécessaire, et elle doit être soutenue par des travaux de recherche plus approfondis. (El-Jardali et al,2010)

Finalement dans cette partie, Berney (2002) décrit que la planification et désirs d'horaires, congés et vacances, les relations professionnelles entre collègue, la formation continue et le taux d'activité sont perçus satisfaisants pour les infirmiers; cependant le travail administratif, le salaire, l'organisation de service et l'information, sont peu satisfaisants.

1.4- Les composants de SAT du personnel infirmier

Ils sont regroupés en trois dimensions, l'organisation du travail du personnel infirmier, l'environnement pratique professionnel pour les infirmiers et le «management» et le «leadership».

1.4.1- l'organisation du travail du personnel infirmier

a- Le Ratio infirmier/patients et la charge de travail

La dotation en effectifs des infirmières est nécessaire pour calculer le ratio infirmiers/patients. L'American Teachers' Federation définit cette notion comme étant la disponibilité d'un nombre suffisant de personnes possédant une combinaison adéquate de compétences et disponibles à tout moment afin de répondre aux besoins des patients et veiller à ce que les environnements de travail offrent toutes les garanties de sécurité. En d'autres termes, la notion de dotation en effectifs ne comprend pas seulement le nombre d'employés, mais aussi d'autres facteurs tels que la charge de travail, l'environnement de travail, le rapport coût/rendement et efficacité, la complexité des patients, le niveau de qualification du personnel infirmier et le mélange des compétences du personnel infirmier. (Baumann, 2007)

D'une part, les infirmières sont deux fois plus susceptibles de ressentir de l'insatisfaction au travail et d'avoir une plus grande intention de quitter leur travail lorsque le ratio infirmière/patient est bas. L'augmentation de la charge de travail est une des plus grandes insatisfactions des infirmières. Des ratios infirmier/patient trop élevés mènent à des complications et à des mauvais résultats pour les patients, bien qu'un taux de mortalité plus bas soit associé à une plus grande proportion d'infirmières et d'infirmières cliniciennes. (Geneviève, 2008)

b- Les horaires du travail

La flexibilité est essentielle à la gestion des horaires de travail car elle permet d'équilibrer le travail et la vie privée des employés et permet aux demandes de changement une fois l'horaire établi. Le type d'horaire est important pour certains infirmiers. Donc de plus cette flexibilité passe aussi par une participation à l'établissement des horaires. L'étude faite par Gagnon & Sourdif (2003) a montré que les infirmiers qui travaillent toujours soit de jour, soit de nuit, sont en majorité satisfaites (84%). Tandis que, celles qui font des horaires alternés sont insatisfaites de leur horaires (58%). (Gagnon & Sourdif , 2003 ; Estryn –Behar et al, 2004)

c- Les équipements techniques et les ressources matérielles

Le travail d'infirmière au chevet des patients exige une variété d'équipements techniques de plus en plus sophistiqués et est de plus en plus utilisé dans le traitement des patients. Dans ce contexte, la satisfaction ou l'insatisfaction au travail sont fortement influencées par la disponibilité des équipements techniques et leur état de fonctionnement. À cela s'ajoutent la disponibilité de l'information sur les nouveaux équipements et la proximité des ressources matérielles requises (médicaments, pansements, etc.).

d- La rémunération

Concernant l'importance du payement dans la satisfaction des infirmiers, certains infirmiers décrivent que le salaire n'est pas un problème, mais les résultats des certaines études ont confirmé que les infirmiers trouvent que le payement est la seconde raison de rester au travail. C'est pourquoi le payement est important dans la stratégie de la SAT des infirmiers. (Lacey et al, 2001)

e- L'environnement physique de travail

C'est un problème aigu dans les hôpitaux car l'environnement physique

de travail est rarement optimal, soit à cause d'un manque d'espace, d'une organisation inadéquate de l'espace ou d'un manque de constance dans la qualité de l'entretien ménager.

1.4.2- L'environnement de pratique professionnelle

De façon générale, les chercheurs ont observé que la relation avec le patient est toujours la source la plus importante de SAT, suivie dans plusieurs cas par les relations d'appui au sein de l'équipe de soins infirmiers. Par contre, les relations avec les médecins et celles avec les services auxiliaires génèrent très régulièrement de l'insatisfaction. (Gagnon & Sourdif , 2003)

1.4.3- Le Management et le Leadership

Il existe de nombreuses études sur l'impact du «leadership» de l'infirmière-chef sur le maintien de l'effectif. Les infirmiers recherchent des infirmiers-chefs sont capables d'adopter un style de «leadership» et de communication caractérisés par l'écoute, la transparence et la participation. Elles veulent aussi des infirmiers-chefs capables de les soutenir professionnellement, de reconnaître leurs efforts et les résultats de leur travail et de favoriser leur autonomie et leur développement professionnel tout en assurant avec fermeté et efficacité, la direction et le contrôle des activités. Tous ces éléments sont essentiels au maintien de « l'intention de rester » chez le personnel infirmier. (Gagnon & Sourdif , 2003)

1.5- le lien entre la satisfaction et les divers résultats du travail

La performance au travail, le «turnover» (quitter son emploi), l'absentéisme, l'engagement dans l'organisation et l'engagement dans le travail sont des concepts qui ont été classiquement associés à la satisfaction. En ce qui concerne les aspects personnels de la satisfaction Selon Daoust, il existe de fortes corrélations entre le SAT et l'âge, le sexe et les variables de personnalité. (Daoust, 1996)

2- Partie pratique

2.1- Méthode

C'est une étude quantitative (descriptive, analytique, comparative et corrélationnelle). L'échantillon (n = 130) est réservé aux infirmières travaillant dans le secteur de la santé de toute spécialité tel que des superviseurs, des chefs des services, des infirmiers diplômés (BS-LT) des infirmiers (BT-TS), et des personnels administratifs dont leurs ″ Background″ a été infirmier expérimenté. Les aides-soignantes, les autres employés du secteur de santé et les

stagiaires étaient exclus de l'étude. A noter que l'échantillon est divisé comme suivants : 32 cas de l'hôpital (H) A ; 35 cas de l'HB ; 31 de l'HC et 32 de l'HD. Cette division n'est pas équitable vue que chaque hôpital a choisi le nombre de l'échantillon même que les services concernés.

Le questionnaire est l'outil de la collecte des données et, composé de deux parties : a) les caractéristiques sociodémographiques documentées dans le but de décrire la population sont : sexe ; âge, niveau éducationnel, catégorie de travail, les années d'expériences, le poste et les services ou départements de travail. b) l'échelle de Saphora-Job est un outil de mesure destiné à l'ensemble des professionnels des différents services des établissements de santé, tels que les services de soins, logistiques, techniques et administratifs. Dans le cadre d'un projet régional, le Comité de Coordination de l'Evaluation Clinique et de la Qualité en Aquitaine (CCECQA) a conçu et approuvé cette échelle. Elle prévoit neuf dimensions du SAT, chacune avec une série de cinquante-quatre questions (organisation et contenu du travail ; relations entre professionnels ; possibilité de réalisation et de développement professionnel ; rémunération salariale ; qualité des relations de travail avec l'encadrement, informations et connaissances sur les réglementations ; relations et implications de la direction ; opinions générales. L'enquête a été réalisée de début d'août 2011 jusqu'au 6 novembre de la même année.

Un groupe d'experts a traduit minutieusement ce questionnaire en anglais et distribué pour ceux qui sont anglophones et en français pour ceux qui sont francophones et il a été testé avec trois employés. La confidentialité, la liberté et le droit de participer ou non à l'étude ont été respectés et l'autorisation écrite du IRB (Institutional Review Board) de certains H a été obtenu. Pour les variables explicatives catégorielles, nous nous servis des tests Khi-deux (X2) et du test-T pour détecter une différence significative. Le seuil de signification se fonde sur une valeur de p (p-value) = 0,05.

2.2- Résultats

Les différences socio-démographiques sont regroupées dans le tableau N°1. Une différence statistiquement significative est mise en évidence entre le niveau éducationnel, la fonction actuelle et les années d'expérience des quatre hôpitaux.

Tableau N°1 : Le profil sociodémographique de l'échantillon dans les hôpitaux testés

Profil sociodémographique	Catégorie	Hôp A	Hôp B	Hôp C	Hôp D	p-value
Sexe	Masculin	15,6 %	12,5%	34,3%	29%	.106 NS
	féminin	84,4%	87,5%	65,7%	71%	
Etat matrimonial	Célibataire	46,9%	40,6%	54,3%	51,6%	.701 NS
	Marié	53,1%	59,4%	45,7%	48,4%	
Age	<25 ans	12,5%	34,4%	17,1%	25,8%	.162 NS
	25 à 30 ans	59,4%	43,8%	40%	32,3%	
	>30 ans	28,1%	21,9%	42,9%	41,9%	
Niveau de formation	BT	3,1%	0%	0%	3,1%	.008 DS
	TS	18,8%	18,8%	0%	3,1%	
	LT	9,4%	18,8%	22,9%	3,1%	
	BS	46,9%	62,5%	57,1%	77,4%	
Fonction actuelle	SUP /HN	12,5%	6,4%	25,7%	25.8%	.011 DS
	RN	84,4%	93,6%	65,7%	67,7%	
Années d'expérience	<5 ans	50%	40,6%	34,3%	32.3%	.033 DS
	5 à 7 ans	40,6%	15,6%	34,3%	25,8%	
	8 à 10 ans	3,1%	28,1%	8,6%	16,1%	
	>10 ans	6,4%	15,6%	22,9%	25,8%	

NS : Non significatif ; DS : Différence significative p-value < 0,05.

2.2.1- La satisfaction générale dans chaque hôpital

L'échantillon étudiée a révélé que 53,8% des infirmiers testés sont assez satisfaits et insatisfaits. Cette insatisfaction est décrite de manière suivante dans chaque H : HC (68,6%), HD (64,5%), HB (43,8%), et HA (37,5%).

Tableau N°2 : la répartition de la Satisfaction générale décrite dans les quatre hôpitaux testés

Satisfaction générale au travail	**Insatisfaits (%)**	**Assez satisfaits (%)**	**Satisfaits (%)**	p-value
Hôp A	3,1%	34,4%	62,5%	.006 DS
Hôp B	0%	43,8%	56,3%	
Hôp C	25,7%	42,9%	31,4%	
Hôp D	16,1%	48,4%	35,5%	

NS : Non significatif ; DS : Différence significative p-value < 0,05.

2.2.2- La satisfaction et l'organisation au travail

Généralement, les infirmières sont insatisfaites et assez satisfaites. Une insatisfaction complète est mentionnée par 17,1% sondés au HC et (16,1%) HD. Tandis qu'à HA et H B, les enquêtés sont assez satisfaits (31,3% ; 45,9%). Des majeurs problèmes décrivent cette insatisfaction, et ils sont reliés aux items suivants (tableau N°3)

Tableau N°3 : La répartition de la satisfaction avec les items de l'organisation du travail (Saphora- job)

items		Hôp A	Hôp B	Hôp C	Hôp D	p-value
Organisation du travail dans le service	Insatisfaits(%)	21,9%	25%	28,6%	32,3%	.026 DS
	Assez satisfaits (%)	40,6%	9,4%	20%	38,7%	
	Satisfaits (%)	37,5%	65,6%	51,4%	29%	
La possibilité d'organiser la journée et travailler avec efficacité	Insatisfaits(%)	21,9%	28,1%	42,8%	25,8%	.019 DS
	Assez satisfaits (%)	28,1%	31,3%	28,6%	35,5%	
	Satisfaits (%)	50%	40,6%	28,6%	38,7%	
La conciliation vie professionnelle- vie personnelle	Insatisfaits(%)	40,6%	25%	31,4%	35,5%	.067 NS
	Assez satisfaits (%)	31,3%	31,3%	45,7%	35,5%	
	Satisfaits (%)	28,1%	43,8%	22,9%	29%	
La possibilité de réaliser un travail varié	Insatisfaits(%)	46,9%	18,7%	51,4%	54,8%	.023 DS
	Assez satisfaits (%)	28.1%	37,5%	34,3%	32,3%	
	Satisfaits (%)	25%	40,6%	14,3%	12,9%	
la possibilité d'utiliser des compétences et des aptitudes professionnelles	Insatisfaits(%)	21,9%	6,2%	28,6%	19,3%	.003 DS
	Assez satisfaits (%)	15,6%	21,9%	31,4%	45,2%	
	Satisfaits (%)	62,5%	71,95	40%	35,5%	
l'aide que peuvent apporter au patient	Insatisfaits(%)	12,5%	9,4%	25,7%	16,1%	. 025 DS
	Assez satisfaits (%)	28,1%	15,6%	28,6%	32,3%	
	Satisfaits (%)	59,4%	75%	45,7%	51,6%	

NS : Non significatif ; DS : Différence significative p-value < 0,05.

2.2.3- La satisfaction et les relations interprofessionnelles

La satisfaction générale est importante, mais elle se diffère selon hôpital étudié. A l'HA, la plupart des interviewés sont satisfaits (71,9%). A l'HB, la satisfaction des sondés est complète à 100%. Alors qu'au HC et à HD les infirmiers testés décrivent un taux de satisfaction moins important (62,9% ; 58%).

2.2.4- La satisfaction et la possibilité de réalisation et d'évolution professionnelle

Généralement, les infirmières testées sont insatisfaites voire assez satisfaites. A l'HA 18,8% des infirmiers sont insatisfaits et 31,2% sont assez satisfaits. HB, 21,9% sont insatisfaits versus 15,6% assez satisfaits. HC, l'insatisfaction est plus importante, dont 40% des infirmiers sont insatisfaits et 28,6% entre eux sont assez satisfaits. Finalement, 16,1% des infirmiers sont insatisfaits, et 41,9% sont assez satisfaits.

2.2.5- La satisfaction et la rémunération salariale

La rémunération salariale est une source très importante d'insatisfaction au travail des infirmiers. Ce problème est majeur dans les quatre hôpitaux : HD (90% sont insatisfaits), HB (78,1% sont insatisfaits), HA (71,9% sont insatisfaits) et HC (62,9% sont insatisfaits).

2.2.6- La satisfaction des relations et de l'encadrement

Elle s'avère globalement être satisfaisante pour tous les infirmiers testés. Et la répartition des résultats obtenu selon chaque H est mentionné dans le tableau N° 4. Il est intéressant de décrire que malgré une satisfaction assez importante dans cet item, une différence statiquement significative a été démontrée concernant la satisfaction et les relations vue qu'un taux d'insatisfaction sont marqué parmi les infirmiers.

Tableau N°4 : La répartition de la Satisfaction des relations et de l'encadrement

encadrement	Insatisfaits (%)	Assez satisfaits (%)	Satisfaits (%)	p-value
Hôp A	18.8%	6,2%	75%	.002
Hôp B	0%	31,3%	68,8%	DS
Hôp C	32,6%	31,4%	40%	
Hôp D	29%	29%	42%	

2.2.7- La satisfaction et les relations et implications de la direction

La satisfaction générale des infirmières envers leur établissement (communication, instance, stratégie) est décourageante dans cette dimension, où à peu près la moitié d'entre elles sont assez satisfaites : HB (59,4%), HC (40%), HD (45,1%) et HA (31,3%).

2.2.8- L'engagement et le désir de quitter

Le tableau suivant (N°5) décrit les résultats de cette dimension.

Tableau N°5: La répartition de la satisfaction des interrogés concernant l'engagement, les conditions de la vie professionnelle et le désir de quitter l'entreprise.

		Hôp A	Hôp B	Hôp C	Hôp D	p-value
Engagement	insatisfait(%)	25%	25%	37,1%	41,9%	.037 DS
	Assez satisfaits(%)	31,2%	9,4%	25,7%	32,2%	
	Satisfaits (%)	40,6%	65,6%	37,1%	25,8%	
Satisfaction des conditions de la vie professionnelle	Insatisfaits(%)	59,4%	50%	48,6%	61,3%	.026 DS
	Assez satisfaits(%)	25%	25%	28,6%	19,4%	
	Satisfaits(%)	15,6%	25%	22,8%	19,3%	
recherchent activement un autre emploi	désaccord(%)	31,3%	46,9%	68,6%	41,9%	.000 DS
	Assez en accord (%)	28,1%	25%	17,1%	9,7%	
	accord (%)	40,6%	28,1%	15,6%	48,4%	
veulent quitter l'institution pour trouver un autre emploi dans une autre institution dans les années prochaines.	désaccord(%)	34,4%	43,7%	57,1%	48,4%	.033 DS
	Assez en accord (%)	18,7%	21,9%	22,8%	22,6%	
	accord (%)	46,9%	34,4%	20%	29%	

NS : Non significatif ; DS : Différence significative p-value < 0,05.

2.3- Discussion

Selon les résultats de cette étude, la majorité des personnes interrogées sont des femmes, ce qui reflète l'image de la profession d'un part, et souligne l'actualité libanaise d'autre part, où la dominante masculine migre à l'extérieur vue des offres des emplois importants disponibles. La plupart des infirmiers interrogés, sont jeunes, et nouvellement diplômés. Alors, ils sont au début de leur carrière et leur expérience dans ce domaine est encore faible. Notons que le taux d'insatisfaction élevé obtenu peut être expliqué au manque d'adaptation aux services de soins ainsi au travail, et parfois au manque de support et d'orientation. Concernant le sexe, aucune différence significative est perçue au niveau de la SAT. Ces résultats se corroborent avec la littérature.

Les intentions des infirmiers concernant la SAT sont influencées par la formation complémentaire, universitaire et diversifiée. Les infirmières qui ont suivi ces formations se sentent également plus compétentes dans leur

ensemble que les autres. Il en va de même pour la rémunération, le salaire, le développement professionnel et la reconnaissance de leur travail.

L'ensemble des éléments mentionnés dans l'analyse, nous pousse à mentionner que, généralement la SAT est influencée par des facteurs intrinsèques et extrinsèques. C.à.d., les infirmiers sont assez satisfaits et insatisfaits dans les quatre hôpitaux. Malgré les différences régionales et l'appartenance d'hôpital au secteur privé et public. Il est intéressant de réaliser les problèmes d'insatisfaction sont semblables et il n'y a pas une différence significative concernant les diverses dimensions, et l'équipe des infirmiers libanais a des problèmes quel que soit l'hôpital et dont il appartient.

Quant à l'organisation du travail. Les infirmières semblent être insatisfaits, en particulier en ce qui concerne la manière de concilier leur vie professionnelle et leur vie privée. Il est crucial de souligner que cela pourrait être dû à l'absence d'une garderie car la majorité des femmes sont mariées et ont des enfants. De plus, il n'y a pas de flexibilité dans le choix des horaires et des circonstances de congé annuel dans certains hôpitaux, ce qui entraîne un épuisement émotionnel et professionnel. L'autonomie des infirmières semble également être un sujet intéressant à discuter. En effet, les infirmières affirment qu'elles n'ont pas la liberté de prendre des décisions sur les soins prodigués aux patients et sur les soins prodigués dans leur travail. Ces résultats sont cohérents avec la littérature. (Agnes et al., 2006 ; Randon, 2011)
Parlons des relations des infirmières avec autrui, leurs collègues, le médecin, et le supérieur hiérarchique. L'affiliation à une institution semble importante à l'HA, versus assez peu développé dans les autres. Il nous semble crucial de souligner que les infirmières sont insatisfaites des relations interprofessionnelles. L'homogénéité du groupe infirmier, même région de provenance et âge, peut expliquer cela. Cependant, les infirmières affirment qu'il existe un conflit entre les infirmières et les médecins.
La rémunération est la source la plus importante d'insatisfaction, D'après nos résultats, il y a une différence significative entre les quatre hôpitaux. Les infirmières des quatre hôpitaux considèrent que le salaire n'est pas comparé aux responsabilités et à la complexité du travail et que le salaire ne tient pas compte de la charge de travail et des conditions de travail dans l'établissement. Ces annonces peuvent être due au manque des rémunérations fixes pour tous les hôpitaux. Ainsi, la rémunération n'est pas équitable avec les conditions, la complexité et la responsabilité du travail, ainsi à l'application de cette rémunération. Le manque des primes et d'indemnités qui ne sont pas la même

pour les quatre hôpitaux aggravent le problème de la rémunération et la SAT des infirmiers.
Il est important de souligner que les infirmières sont découragées par un manque de prudence dans la gestion des RH et le leadership, ainsi que par un manque de personnes qualifiées pour évaluer. Ainsi, le manque des procédures et des lois qui contrôlent les relations entre les infirmiers et leur supérieur hiérarchique. Selon nos résultats, il y a une différence significative entre les quatre hôpitaux en termes d'informations et de connaissances des réglementations. Les infirmières n'ont aucun problème à obtenir des informations sur leurs droits et responsabilités dans l'établissement. L'infirmière est confrontée aux responsabilités juridiques de l'emploi. Cela peut être dû au manque d'orientations et de documents concernant ce problème, ainsi qu'au rôle faible du Syndicat. Les responsabilités juridiques de l'emploi est un problème de l'infirmier. Cela peut être dû au rôle faible du Syndicat ainsi que le manque d'orientation et les documents concernant ce problème.

Finalement, la plupart des infirmières pensent que la profession infirmière est très exigeante. Pour certains, ce regard sur la profession est un métier honorable, tandis que pour d'autres, il s'agit d'un emploi à large éventail. Parallèlement, les infirmières sont conscientes qu'elles ne peuvent pas accomplir toutes les tâches de soin de manière isolée.

Conclusion

La sécurité des patients est la principale mission des hôpitaux. Par conséquent, il est évident que la gestion des RH est l'un des moyens potentiels pour améliorer cette tâche. La SAT est capitale car elle permet de donner des éclaircissements sur l'organisation, les conditions de travail et le climat organisationnel d'une part et de déterminer les sentiments de satisfaction ou d'insatisfaction du personnel infirmier vis-à-vis de plusieurs aspects de l'emploi.

Selon les résultats de ce travail sur la satisfaction, les infirmières des hôpitaux étudiés sont insatisfaites, voire assez satisfaites. Elles expriment leur insatisfaction quant à l'organisation du travail, au développement professionnel et à la rémunération. Cependant, les infirmières trouvent la satisfaction dans les relations interprofessionnelles et la connaissance des règles. Aussi, la satisfaction est également possible dans tous les hôpitaux. Il est intéressant de décrire que malgré une satisfaction dans les domaines cités ci-dessus nous avons remarqué qu'il existe dans la même dimension des problèmes d'insatisfaction dans leur sous items.

Dans cette perspective, les infirmières sont plus satisfaites de leur travail lorsque le style de gestion est plus participatif. Ainsi, la gouvernance est un élément clé de la SAT et elle a également un lien positif avec la rétention. À cette fin, la SAT est causée par une organisation du travail qui permet à l'infirmière d'être plus autonome, lui donne la possibilité de gérer son propre travail et lui donne plus de responsabilités.

Par conséquent, les stratégies de gestion qui visent à augmenter le SAT doivent mettre l'accent sur la création d'un environnement de travail sain. Les facteurs de l'environnement de travail tels que la reconnaissance, les opportunités d'avancement, la nature du travail, le développement professionnel et les responsabilités ont un effet positif sur la SAT lorsqu'ils sont présents. De plus, la littérature parle d'équité, de respect, de reconnaissance, d'intégration sociale et de communication avec les supérieurs immédiats.

Références

- Agnes S., Daville N., et al. (2006). « Enquête PRESST-NEXT, santé et satisfaction des soignants au travail en France et Europe ».*la revue de l'infirmière*.1-8.
- Baumann A. (2007). « Environnement favorable à la pratique : Qualité au travail = soins de qualité, pour le conseil international des infirmiers Genève (Suisse) ». *Conseils International des infirmières.* Disponible sur https://www.yumpu.com/fr/document/read/17339108/environnements-favorables-a-la-pratique-qualite-au-travail-cnai
- Berney, V. (2002). « Evaluation de la satisfaction des infirmiers(ères) : développement et validation d'un outil d'analyse ».*la revue de l'infirmière*,71.
- Brunelle-agbeti, k., Hurtubise, A.(2010). « La rétention des infirmiers nouvellement diplômés au CHUM ». Mémoire présenté pour l'obtention de maitrise en gestion de la formation, université de SHERBROOKE.
- Cowin,L.; Johnson,M.; Craven, RC.; Marsh,HW. (2008). « Causal modeling of self-concept, job satisfaction, and retention of job nurses». *International journal of nursing studies*. 45,1449-1459.
- Daoust, L. (1996). « La satisfaction et la performance au travail : deux concepts distincts avec des déterminants différents ». Mémoire pour l'obtention du grade de maitrise en arts et psychologie, Faculté de Sciences Sociaux. Universitaire de Moncton.150p
- Demir A., Ulusoy, M., Ulusoy, MF(2003). « Investigation of factors influencing burnout levels in the professional and private lives of nurses». *International journal of nursing studies* .40 (3).p.807-827.
- El-Jardali, F. ; Alameddine,M. ; Dumit,N. ; Dimassi, H. ; Jamal, D. ; Maalouf, S.(2010). « Nurses work environment and intention to leave in Lebanon hospitals: implications for policy and practice ». *International journal of nursing studies*. 48(2):204-14.

- Estryn –Behar, M., Les Nezet, 0 ., et al. (2004). « Infirmier (ère) : êtes-vous satisfaites de vos conditions de travail ». *La revue de l'infirmière*, 1,55-74.
- Gagnon, S., & Sourdif, J. (2003). « Dynamique et composante de la satisfaction au travail chez le personnel infirmier, centre universitaire de sante McGill ».(Ed)
- Geneviève, B. (2008). « Relation entre le Ratio infirmière/patients, la composition des équipes soignants et la perception de l'environnement de pratique des infirmières ». Mémoire de Master numérisé par la Division de la gestion de documents et des archives de l'Université de Montréal.147p.
- Igalens, J. (1999). « *Satisfaction au travail. Encyclopédie de la gestion et du ménagement* ». Paris, Dalloz. p.1246-1247.
- Lacey, L. Shaver, K. (2001). «Survey of staff nurses in North Carolina». Disponible sur www.nursing.org/ research /retain-staff.pdf
- Mouqla, Y. (1999). « Etude de la satisfaction au travail du personnel infirmier ». Mémoire de maitrise inédit, université d'O.I.N.A.S. Maroc.
- Nammous, M. (2008). « Les facteurs de motivation du travail des ressources humaines, du centre hospitalier provincial Ibn Zohar Marrakech ». Mémoire présenté pour l'obtention du diplôme de maitrise en administration sanitaire et santé publique. I.N.A.S.
- Randon S. (2011). « Actualisation 2011 de la revue de littérature sur la satisfaction au travail ». *Job Satisfaction* : 1 – 37.
- Sekiou L, Bruno F, et al. (1993). « *Gestion des ressources humaines* ». Canada : Ed. 4L; De Boeck

Le voyage et l'imagination par le biais de l'écriture dans "Les hommes qui marchent" de Malika Moukeddem.

Farah Chouman

Dr. - Université Libanaise

Introduction.

Le champ de la littérature a connu une floraison remarquable grâce aux écrits francophones. Le roman algérien était le miroitement de toute une civilisation émue par l'âge d'or d'une société révolutionnaire et touchée par le modernisme. Malika Moukeddem faisait partie de cette vague d'auteurs franco algériens qui ont dressé un tableau d'une société algérienne affrontée à un duel monstrueux. Dans « les hommes qui marchent » L'auteur recourt à un nouveau genre celui de La bio autobiographie pour évoquer le passé de sa famille. Cette évocation montre la l'impact de l'éducation inculquée par le personnage de la grand-mère Zohra farouchement attachée à la culture de ses ancêtres sur le mode de vie de Leila la petite fille formée à la française. Le récit présente un tissu social où les personnages sont le produit du milieu auquel ils appartiennent. L'imaginaire acquit une large dimension à travers le vagabondage mené entre le passé et le présent. Le bilan de toute une vie œuvrée d'espoir et mêlée de souffrance est tracé par la plume de Moukeedem pour accorder à l'écriture un pouvoir miraculeux capable de transformer la réalité et montrer la valeur symbolique de certains espaces. Ainsi, Le désert et la mer sont deux cadres porteurs de rêve et muris d'imagination. Le recours à ces espaces est bien signifiant :il illustre la réalité, fructifie l'espoir et assure la liberté.

La construction du récit repose sur une alternance apparente entre le fictionnel qui touche le réel par le biais de l’écriture. Les pensées sont concrétisées d’une manière pittoresque et les idées répondent au désir de l’auteur et aux aspirations du lecteur.

Une nouvelle fonction est destinée alors à cette force manuscrite : Elle est une source thérapeutique au malaise existentiel et un remède qui permet de lutter contre les troubles psychiques qui dévorent l’âme.

De plus, l’écriture revêt une valeur mythique. Le personnage de Zohra renvoie à cette Pénélope qui attendait le retour de son mari. Cette vieille âgée parait protectrice des traditions : Elle veille à conserver le passé fiable de sa tribu.

C’est pourquoi, Le réel est submergé au fictionnel pour faire preuve d’une créativité de haute qualité par le pouvoir d’une plume spirituelle, et imaginaire teintée de réel.

L’imaginaire est l’espace de la création libre, la faculté qui nous permet de dépasser le réel et ses contraintes. À l’instar du rêve, l’imagination déforme la réalité pour la rendre plus expressive: « éliminant ce qui lui paraît sans résonance, amplifiant ce qui lui semble frappant, [elle] aboutira à une [« re-création »] : elle s’empare du réel, mais comme d’une matière première et pour lui donner un visage chargé de sens. »[1]

Dans Les Hommes qui marchent, Malika Moukeddem part de la réalité vécue pour créer une œuvre d’art par le biais de l’écriture. Plongeant dans les racines du désert, elle le transfigure par son imagination féconde pour le recréer et échapper, par le pouvoir des mots, à un monde qui, à la fois, la fascine et la maintient prisonnière des coutumes ancestrales.

L’imaginaire emmène ainsi Leïla à accomplir un voyage dans le temps entre le passé et le présent, voyage qui se confond avec celui de l’écriture.

Grâce à celle-ci, l’écrivaine et son héroïne se forgent une nouvelle identité. Ce qui accorde à l’écriture un pouvoir salvateur.

Le rêve

Selon le dictionnaire Robert, le rêve est une construction de l’imagination à l’état de veille, une pensée qui cherche à échapper au réel. Cette définition convient parfaitement aux différents moments où les personnages du roman de Moukeddem puisent dans le rêve l’évasion indispensable pour supporter la dure réalité de l’existence.

Pour Leïla, l’imagination est ainsi le moyen d’échapper à un espace étouffant et de jouir de la liberté que lui offrent le rêve et l’écriture. C’est le désert qui sert de point de départ à la création d’un ailleurs où les frontières disparaissent.

1- Le désert

Dans le domaine de la fiction, [affirme P. Jourde], l'espace imaginaire est l'aboutissement d'une reconstitution, d'une composition à partir de références réelles …. La création d'espaces imaginaires correspond à une volonté d'écart, de distanciation par rapport au réel. Par le biais d'un foisonnement d'images, on arrive à configurer un espace autonome, inclassable. […] L'ailleurs est déterminant dans la révélation de soi et de ses potentialités créatives. C'est le domaine de la liberté par excellence : liberté de création, liberté d'associer des entités éparses parfois paradoxales, liberté de s'approprier le monde et de le « dominer », liberté d'affirmation de soi dans ce mouvement ou dans ce magma d'images.[2]

A. Evasion

« Les Algériens, affirme Mohammed Dib, poète et romancier algérien, vivent avec, à leur porte, un des plus grands déserts du monde. Même s'ils l'oublient, il est là, […] en eux, dans la sombre crypte de leur psyché. Composante de leur paysage physique, il ne l'est pas moins de leur paysage mental […] Le désert qui vit, qui bouge, qui marche, qui va, qui vient et qui repart pour revenir sur ses pas et qui a partie liée avec le vent, […] l'Algérien le porte en lui, son imaginaire, sinon sa conscience éveillée, en porte l'estampille ».[3]

Nous avons montré précédemment que le désert, dans le roman de Moukeddem, était un espace ambivalent, fermé et ouvert vers l'ailleurs. Il porte en lui l'image du mouvement qui suscite un sentiment de libération dans le rêve de Saâdia victime de la tyrannie de sa belle-mère.

Une tribu déroulait le désert sous ses pas. Les bâts des chameaux étaient chargés de kheïmas pliées et d'objets mystérieux. Homme, femmes, enfants et bêtes avançaient d'un même pas ample et lent dans un halo de lumière et de poussière. Saâdia se sentait soudain légère. Dans sa tête tintaient des grelots de rires. Le sable lui chatouillait les pieds, lui donnait envie de courir.[4]

Dans le rêve de la jeune fille, le désert est source de joie, joie dont elle est privée dans sa famille. Quand elle revient à la réalité, son regard reprend son expression douloureuse.

De même, pour Leïla, le désert est l'espace du mouvement et de la liberté. Elle s'y réfugie pour oublier sa douleur après le départ de son institutrice.

Elle s'endormit. Et dans ses rêves elle quitta le monde agité et mutilé des hommes immobiles. Elle partit avec ceux qui marchaient, dans la lumière et dans le vent, au large du désert.[5]

Le désert est aussi l'espace où les contes de Zohra nourrissent l'imagination de sa petite fille en la transportant vers d'autres mondes et d'autres temps.
Le conte, de par sa définition, suscite l'imaginaire de l'enfant et de l'adulte. Petite fille, Leïla écoute les aventures de son grand-oncle Bouhaloufa parti à la recherche de son rêve, la lecture et l'écriture. Elle écoute aussi la douloureuse histoire de Saâdia qui finit, pourtant, par acquérir la liberté.
Ces contes font naître en elle un double désir : s'instruire et se libérer de sa condition de femme soumise.

B. Vision cosmique

Le désert suscite également en Leïla une vision cosmique où les éléments premiers se confondent. Nous citerons deux exemples.
Elle se laissa aller dans le sable comme on entre dans la mer. Elle s'enroula en boule comme dans le giron d'une mère. Là, tout s'éteignait, les peines des hommes comme les dévastations de leur histoire. …
La comparaison avec la mer espace ouvert vers l'infini conforte l'aspiration de la narratrice à la liberté; quant à l'identification avec le giron maternel, elle révèle la soif d'amour dont sa mère la prive pour le dispenser à sa descendance mâle.
Le désert peut également donner naissance, grâce à l'imaginaire, à une vision apocalyptique. C'est le cas d'une tempête de sable au centre de laquelle se trouve Leïla qui vient d'échapper, avec sa sœur, à un lynchage sur la place de Béchar, parce qu'elles ne portent pas le voile. Dans la tempête, elle voit une image de son trouble intérieur.
A peine étaient-ils arrivés à Kenadsa, qu'une tempête de sable roula sa rumeur au loin et se précipita sur la maison. Sa tourmente emplissait les oreilles, hantait les esprits. Echouée dans un coin, Leïla écoutait la terrible lutte du sable et du vent. Corps à corps de deux divinités de l'excès qui menaçait d'arracher les volets, de briser les palmiers, d'emporter le toit. Le vent dressait la dune comme une lame de fond, comme un ouragan. Le sable submergeait la pleine lune, éteignait les étoiles, enterrait le ciel.[6]

Le vent est comparé à une mer en furie (« comme une lame, comme un ouragan »). Il correspond ici à son symbolisme de force élémentaire qui appartient aux Titans, à la fois violente et aveugle.[7] Quant au sable, il est élevé au rang de divinité en colère qui étend son pouvoir sur le ciel et l'anéantit. La lutte entre ces deux forces naturelles est à l'image du tourment qui habite Leïla : « la tempête dehors, la tourmente dans son corps ». Elle est en colère, elle aussi, contre les jeunes hommes qui l'ont attaquée parce qu'elle est femme et qu'elle

refuse de se plier aux diktats d'une société machiste. En s'identifiant au vent, puissance divine, elle aspire à la possession de pouvoirs qui lui permettraient de changer le monde et de se libérer de l'autorité masculine.
Les tempêtes de vent de sable se répètent le long de l'intrigue. Elles sont liées à la colère de la jeune fille, devenue maîtresse d'internat, colère contre l'enferment des femmes, privées de liberté par une société et un gouvernement plus que jamais attachés aux traditions.
« Leïla étudiait, travaillait et comptait avec ennui les printemps, c'est-à-dire les tempêtes de vent de sable. Il lui semblait que l'enfer du désert méritait cette colère »[8].
L'auteur avoue plus tard dans La Transe des insoumis qu'elle éprouvait le besoin de réécrire cette fureur de la nature, car elle savait que cette violence avait joué un rôle capital dans sa liberté en devenir.[9]

2. La lecture et l'écriture

Le premier contact avec l'école suscite en Leïla un sentiment de joie profonde et éveille son imagination. La première lettre de l'alphabet est un dessin qu'elle s'efforce de reproduire.
Prendre une plume. La plonger au centre de la collerette blanche, la tremper dans l'encre violette et reproduire ce que la belle institutrice venait de dessiner sur le tableau noir, un A. Ce premier contact de la plume sur le papier, jamais elle ne l'oubliera.[10]
Dans ce passage, la première communication avec l'écriture se fait par le biais des sens : la vue (encre violette) ; l'ouïe (crissement de la plume), le toucher. Et n'est-ce pas une étrange coïncidence que la première lettre soit le A ? Bien que la petite fille n'en ait pas conscience, elle anticipe, symboliquement, le destin futur de Leïla, celui de romancière.
Craie, ardoise, encrier, plume, cahiers, livres… Leïla avait eu un contact charnel, sensuel avec les éléments qui allaient façonner son esprit. D'où lui venait ce plaisir tactile instantané ? Du fait encore inconscient qu'un univers s'ouvrait à elle ? Un univers aux antipodes de celui qui emprisonnait sa mère ?[11]
Ces objets lui assureront dans l'avenir une fuite hors de tout ce qui enferme sa mère et les femmes dans les carcans des traditions. Elle jouira de la liberté de rêver d'abord une autre vie et de réaliser ensuite ses désirs d'indépendance.
Cependant, les livres scolaires ne parlent que de la France. Leïla contourne cette difficulté en utilisant son imagination. Quand on lui demande de dessiner un chalet, elle « dessinait seulement les constellations dont ses doigts farceurs auraient transformé le velours marine en jade ».

Les livres effacent l'horizon de son univers dénudé, le désert, sa solitude et la « vacance » de sa vie. Ils la libèrent des tâches ménagères et des exigences de sa mère. Pourtant, le monde qu'elle découvre dans les livres n'est pas idyllique. Mais il est différent de l'espace dans lequel elle se sent étouffer.

Le corps rencogné dans le silence des livres, les mains agriffées à l'immobilité de leurs pages, les yeux portés par le flot de leurs mots, elle sillonnait furieusement le monde… La lecture lui apportait tout ce qui était défendu : rêves et cauchemars, vertiges et abjections, vices et passions, tous les étonnements de la terre…[12]

A sa grand-mère qui lui demande ce que lui raconte le mutisme des papiers, elle répond qu'ils lui disent avec le monde au-delà du désert, la vie ; les mots des autres la délivrent de l'immobilité des esprits qui sévit dans le lieu où elle vit, immobilité qu'elle associe à la mort. Les livres s'assimilent pour elle aux marches d'antan, à l'époque où les hommes jouissaient de la liberté.

Zohra reproche aux livres de détacher Leïla de sa famille. Elle reconnaît pourtant que les livres disent des contes, eux aussi, comme elle et c'est pourquoi elle les respecte. Mais elle constate la suprématie de l'écriture sur la parole : « l'une a la voix et la force éphémère de la vie. L'autre la pérennité et l'indifférence de l'éternité. »[13]

Pour la grand-mère, Leïla est soumise au despotisme du rêve qui la pousse à fuir la réalité mais, selon elle, il ne mène nulle part.

La fuite éperdue vers quoi, kebdi ? Ton rêve te propulse sans répit, sans repos. Toi qui as tellement envie de vivre, j'ai peur pour toi parce que tu empruntes des chemins qui ne me sont pas familiers […] Bouhaloufa avait fui le monde nomade parce que ses marches sans fin lui semblaient arides. Si ton aridité à toi est dans l'immobilité, si elle t'insupporte, pourquoi ne rejoindrais-tu pas les hommes qui marchent ? … Pense à un métier qui te permettrait de les suivre et de les aider.[14]

Ces paroles de Zohra auront une influence déterminante sur Leïla. Par l'écriture, elle rejoindra les hommes qui marchent dans leur voyage sans fin et les mots immobiles aux yeux de sa grand-mère lui permettront d'entreprendre un autre voyage, celui de la quête de son identité.

Le voyage

Dans Les Hommes qui marchent, la progression de l'intrigue correspond à un déplacement d'un espace vers un autre, d'un temps à un autre et un glissement dans la fiction entre l'histoire d'une vie et celle d'une écriture- création.

1- Voyage dans l'espace

L'errance des Hommes bleus est racontée par Zohra à un auditoire attentif qui ignore le passé de la tribu. Le déplacement constant se traduit dans son discours par la répétition qui imite le mouvement incessant des voyageurs éternels.

« Ils marchaient. Nous marchions…Nous marchions. Caravanes de thé, caravanes de cotonnades, caravanes de sel… »[15].

La mouvance est inhérente au bédouin parce qu'elle lui assure la vie et la liberté. Zohra, attachée à la vie nomade, identifie la sédentarité à une maladie, voire à la mort.

La plus grande des épidémies s'était abattue sur les nomades. Une épidémie paralysante. Celle qui mange la liberté, qui rétrécit l'horizon à des murs fermés sur eux-mêmes comme une tombe. Celle qui met du noir devant les yeux et dans la tête : l'immobilité sédentaire.[16]

Le voyage est donc un besoin vital pour les Hommes bleus. Dans le roman, ils apparaissent sporadiquement et Zohra s'empresse de les accueillir, de leur offrir l'hospitalité. Après la mort de sa grand-mère, Leïla les attend, elle aussi, mais lorsque leurs silhouettes se profilent à l'horizon, ils semblent des fantômes : « Un halo de poussière à l'horizon…comme un songe visite le sommeil. Les hommes bleus revenaient… Elle avait tant attendu, tant espéré ces fantômes ».[17]

Ce retour est-il réel ou rêvé ? Nous pourrions penser que l'aspect spectral des silhouettes annonce la mort d'un mode de vie et d'une forme de liberté.

A côté du nomadisme, le voyage prend une autre forme : il s'agit de la quête du savoir.

Il en est ainsi des aventures de Bouhaloufa que Zohra raconte avec le plus de délectation. Les voyages de « l'homme au cochon » sont en réalité une « une chasse au trésor », celui de l'écriture et des livres. Ceux-ci lui ouvrent la voie du rêve loin, très loin des hommes de sa tribu. Sans aucun regret, il quitte les siens qui l'ont banni et part « vers le nord-ouest du pas décidé de l'homme enfin délivré ».[18] Sa famille apprend plus tard qu'il « allait de ville en ville [au Maroc], nomade des cités à la poursuite d'autres félicités. Il butinait du plaisir et en nourrissait sa poésie ».[19]

Suivant l'exemple de ce grand-oncle, Leïla, à son tour, se déplace de ville en ville pour compléter son instruction. Kénadsa d'abord puis Oran pour ses études de médecine. Ses déplacements la mettent en contact avec la langue et culture françaises. Grâce à elles, Leïla découvre les livres et leur pouvoir d'évasion et, plus tard, sa vocation d'écrivain. Elle découvre aussi, malheureusement, l'étroitesse d'esprit de ses compatriotes qui désirent enfermer la femme dans

un monde où il lui est impossible de s'épanouir ; elle se heurte au mépris des hommes qui ne peuvent supporter sa supériorité intellectuelle et sa soif d'indépendance.
Le déplacement dans l'espace est donc, pour Leïla, simultanément bénéfique et source de frustrations.

2. Voyage dans le temps.

Le récit se déroule sur un axe temporel déterminé depuis la vie de Zohra, son vagabondage à travers le désert, puis son installation en bordure du Sahara sur le territoire algérien. L'histoire de trois générations des Ajalli constitue le support du déplacement temporel associé à une évolution du personnage de Leïla qui découvre une autre culture et finit par accomplir ce que Sélim Abou appelle l'acculturation dans l'ouvrage intitulé L'Identité culturelle.[20]
Les contes de Zohra révèlent le passé de la tribu des Touaregs dont la vie est tissée par le voyage, le passé de Bouhaloufa, « l'homme au cochon », le passé de Saâdia dont la vie fut dominée pendant longtemps par le malheur. Au fur et à mesure que le récit se déroule, l'univers du passé condamné à disparaître est conservé dans la mémoire, grâce à la parole et à l'écriture.
Le présent des personnages est figé dans une double immobilité : celle de l'espace et celle des traditions contre lesquelles Leïla s'efforcera de lutter.
Il aussi greffé dans l'Histoire de l'Algérie évoquée par le biais des événements historiques cités dans le roman. Le rejet du colonisateur, la lutte pour l'indépendance, la victoire des combattants sont les jalons qui marquent la vie des Ajalli et, particulièrement, la vie de la jeune héroïne. Le déroulement du temps est aussi marqué par les révoltes successives de Leïla : rébellion contre son père qui trahit sa confiance et à qui elle déclare sa haine, rébellion contre sa mère qui veut la forger à son image, une femme destinée à enfanter et à élever sa nombreuse progéniture, rébellion contre l'institution du mariage qui la condamnerait à devenir une autre Yamina, rébellion contre la domination du mâle qui combat l'émancipation de la femme.
Le voyage à travers le temps se conclut par un retour à l'époque des ancêtres : à la demande de Zohra, Leïla revient, par l'écriture, au passé des Hommes bleus et entreprend de narrer histoire de ce peuple noble et fier. Elle fige ainsi pour le futur un passé qui risquait de sombrer dans l'oubli, car, comme le dit Zohra, la parole orale est éphémère tandis que la parole écrite est éternelle.

3. Voyage de l'écriture

L'amour de l'écriture est né chez Moukeddem depuis les premières lectures

qu'elle faisait pendant son enfance, et dont elle parle dans le roman. Elle s'est nourrie au cours de ses études de la lecture de différents auteurs, ce qui a donné naissance à sa vocation d'écrivain. La solitude et la lecture ont constitué ses premières libertés. Les livres lui ont révélé un monde dont elle ne soupçonnait pas l'existence ; son premier voyage aura donc commencé avec la lecture.
Grâce à l'école, où elle a pris contact pour la première fois avec la langue française, elle a pris conscience de sa propre condition à travers celle de sa mère à laquelle elle ne veut absolument pas ressembler.

> *Plume, cahiers et livres allaient devenir ses seules lignes de fuite hors de tous les enfermements […].Plus tard encore, ils seraient ses armes et moyens de résistance.*[21]

L'écriture de Malika Moukeddem constitue bien un voyage car elle est liée aux déplacements géographiques, ceux des Hommes bleus, ses ancêtres et les siens propres. Bien plus, l'intérêt du déplacement réel est présent dans les significations qu'il suscite ; la romancière nous donne des informations sur elle-même, ses désirs, ses rêves, sur ceux qui l'entourent, sur son écriture.
Son écriture est linéaire et elle prend la forme du témoignage. Elle emprunte au conte sa trame narrative, parce que, dans son enfance, elle a entendu les contes de sa grand-mère qui évoquait, « chantait » l'histoire de sa tribu de bédouins à la manière d'une légende ou d'une épopée. « Son art de conteuse prenait ses plus belles envolées […]. Elle y mettait tant de cœur »[22].
Mais les contes de Zohra ne sont-ils pas, eux aussi, un voyage, un « nomadisme des mots » ?
A l'instar des caravanes, elle emmène son auditoire vers un autre univers, celui du passé.

> *J'ai la tête lestée de mots. Pris dans des tourmentes d'images, les mots peuvent devenir âcres, rances, un vertige, une danse, ou un trille dans nos têtes, pareil à l'envol d'une multitude des youyous ou de séraphins. D'autres sont violents. Comme habités en permanence par un terrible vent de sable. Ils tourbillonnent en nous et congèlent nos mémoires. Je voudrais vous dire leurs joies et leurs peines.*[23]

La parole de Zohra, la dernière nomade est valorisée par Malika Moukaddem. En plus d'être un plaidoyer pour la mémoire, la parole orale est un acte de transmission des coutumes ancestrales et du passé des hommes bleus.
Leïla reconnaît, après la perte de sa grand-mère, que celle-ci avait éveillé sa sensibilité aux mots, qu'elle « avait initié son imagination, lui avait appris à

s'inventer des mondes pour couvrir la peur des étendues du désert ».[24] l'art de conter hérité de sa grand-mère s'est vite transformé en art d'écrire :

> *Raconter ? Raconter… Mais par où commencer ? Il y avait tant à dire ! Elle n'eut pas à chercher longtemps. Sa plume se mit à écrire avec fébrilité, comme sous la dictée de l'aïeule qui revivait en elle. Un souffle puissant dénoua ses entrailles et libéra enfin sa mémoire.*[25]

Car l'art d'écrire était absent dans le monde bédouin : « Lire et écrire [n'étaient] que pure extravagance. Depuis des siècles, personne dans le clan n'avait eu recours à l'écriture ….Notre histoire ne se couche pas entre l'encre et le papier. Elle fouille sans cesse nos mémoires et habite nos voix ».[26]

Comme elle appartient à un peuple de marcheurs, les bédouins, on comprend que, pour la romancière, l'écriture est une marche.

L'acte d'écrire devient dès lors un voyage en soi ; l'auteur promène son lecteur dans un territoire inconnu, le grand sud, sous une lumière éclatante, parfois aveuglante, un espace où les frontières sont abolies. Le désert s'étend ainsi à l'infini, parsemé de dunes ; l'écriture révèle les coutumes des bédouins, leurs vêtements, leur musique, leurs danses. L'écriture opère ainsi un retour aux origines, la voix des ancêtres s'élève en elle, elle l'empêche de se perdre dans le néant par l'acte d'écriture.

L'écriture donne lieu à un autre voyage, l'imaginaire. Grâce à lui, l'héroïne s'évade d'un milieu dans lequel elle est enfermée, elle voyage, par le rêve vers d'autres mondes. Elle détruit les barrières qui la tiennent cloîtrée dans un univers qui l'étouffe.

Ecrire peut se lire enfin comme un acte de rébellion. Si la parole de Zohra célébrait la liberté de la marche, la parole de Leïla poursuit l'œuvre commencée avec les livres. Elle la délivre d'une condition qu'elle rejette farouchement : elle refuse « d'exister grâce à son ventre », d'être comme sa mère une « usine d'enfants ».[27]

L'écriture aura donc permis à Leïla, l'héroïne, et à la romancière d'effectuer un voyage dans l'espace et dans le temps. Le passé des hommes bleus traversant le désert dans une marche ininterrompue est lié au présent où Leïla se déplace du désert vers la ville pour accéder à une autre forme de liberté qu'elle puise dans les livres et qu'elle crée par le pouvoir du verbe.

Enfin, nous pourrions voir dans le roman de Moukeddem une émergence du mythe d'Ulysse tel qu'il revit dans l'Odyssée d'Homère.

Zohra peut être identifiée à Pénélope : elle est fidèle à son mari dont elle attend le retour ; elle est également la gardienne du trône d'un royaume sans frontières, celui des hommes bleus dont elle perpétue la mémoire par ses contes et qu'elle

transmet aux descendants de ce peuple condamnés à la sédentarité et à sa petite fille. Elle peut aussi être considérée comme un avatar d'Ulysse, le héros de l'Odyssée, qui raconte à la cour d'Alkinoos ses aventures et les épreuves qu'il a dû surmonter pour retrouver enfin les siens.
Quant à Leïla, substitut de l'écrivaine, elle assume, selon nous, le rôle d'Homère qui a transcrit l'épopée du roi d'Ithaque et la maintient depuis lors vivante dans toutes les mémoires. L'héroïne de Moukeddem a bien transcrit le récit de Zohra et immortalisé le souvenir de ses ancêtres ; leur histoire échappera à l'oubli grâce au pouvoir des mots.
L'imaginaire aura puisé ses sources dans le rêve qui s'élance du désert pour emmener la narratrice vers d'autres mondes et trouve son expression dans la lecture et l'écriture. Par l'écriture, l'imaginaire se concrétise en un voyage dans l'espace et dans le temps, un double itinéraire qui conduit l'héroïne du passé des nomades au monde moderne. Ce voyage entre deux époques s'identifie à une quête de l'identité.
« La plume algérienne choisit de quitter sa terre natale pour savourer le goût prohibé de la liberté, pour sortir du mutisme qui ensevelit. Mokeddem écrit la dissidence, la recherche obsédante d'une trajectoire existentielle orientée vers le métissage, le pluralisme identitaire. Morcelée, scindée entre la France et l'Algérie, entre le passé et l'avenir, l'intellectuelle nomade exalte l'anomalie de l'entre-deux, la richesse d'une personnalité protéiforme qui noue fibres occidentale et arabe, qui entrecroise l'univers idéologique nord-africain au cosmopolitisme européen.»[28]

Les Hommes qui marchent de Malika Moukeddem est un roman à la fois historique, psychologique et sociologique. Le lecteur découvre une société en mutation que ce soit la tribu des hommes bleus ou l'Algérie à un moment capital de son Histoire.
Le roman oscille entre deux genres, l'autobiographie et la fiction, le conte et le roman. L'auteur justifie le choix du roman pour relater l'histoire de sa vie par une impulsion qui a dominé sa volonté d'écrire un roman à la première personne. L'héroïne du roman, Leïla, est, bien entendu, le double de la romancière qui projette dans la fiction les expériences vécues par une descendante des hommes bleus condamnés à la sédentarité. Moukeddem met également en scène la grand-mère, Zohra, célèbre conteuse et gardienne de la mémoire du peuple des Touaregs. Par le pouvoir des « mots ailés », elle fait revivre le passé de la tribu, en particulier celui de deux membres de la famille, qui ont connu un destin différent.

Comme toile de fond de l'intrigue, les paysages du désert s'étendent à l'infini comme un appel à la liberté. Mais ils sont délimités par les villes que les hommes bleus condamnent à cause de leur mode de vie. Pourtant, les villes offrent à Leïla l'instruction, la voie la plus sûre pour échapper aux chaînes des coutumes ancestrales et forger son propre destin.
L'écriture de Moukademm se fait l'écho de la révolte et agit comme une thérapie à ses frustrations.
Pour échapper à une réalité souvent peu satisfaisante, Leïla et l'auteur s'évadent dans l'imaginaire. C'est l'objet de notre analyse dans la troisième partie de ce mémoire.

C'est le désert qui sert de point de départ à la création d'un ailleurs sans limites qui suscite en Leïla une vision cosmique quand les éléments se déchaînent. De même, les livres ouvrent à l'héroïne l'espace des songes et la transportent vers d'autres mondes en même temps qu'ils façonnent l'intellectuelle qu'elle deviendra plus tard
Les Hommes qui marchent annonce les œuvres à venir où se retrouvent les thèmes principaux présents dans son premier roman, l'histoire de sa vie et le processus de la création.
L'auteur nous donne à lire un demi- siècle de son existence à travers huit œuvres successives, où est relatée la voie qui l'a menée à l'écriture ; mais le début n'a pas été facile :

> *Quatre années de travail acharné pour mon premier livre Les hommes qui marchent. Quatre années à ausculter l'enfance et l'adolescence. Dans un texte de ce temps là j'écris : Ils se sont basculés les mots du silence, les mots de toutes les absences (…). L'écriture est le nomadisme de mon esprit sur le désert des manques sur les pistes sans issue de la nostalgie, dit-elle dans La transe des insoumis,* [29]

L'interdite, narre l'expérience d'une femme médecin formée en France et qui essaye de retourner pour exercer dans son pays où règne l'intolérance. Le récit remonte jusqu'à l'enfance, pour narrer toutes les interdictions imposées à Sultana. Les similitudes entre ce personnage, Leïla et l'auteur sont frappantes. Nous retrouvons également la transformation du « je » autobiographique en « elle », le personnage. Ce roman évoque les premiers souvenirs de son enfance marquée par la souffrance.

> *Des rêves et des assassins,* est un roman pamphlétaire sur la condition de la femme,

Dans La nuit de la lézarde et dans N'zid, les personnages féminins de Moukeddem ont pris plus d'assurance que les précédents. Nour et Nora attendent l'amour, et sont en quête d'un bien être.
En revanche, si dans les premiers écrits, la romancière se dissimule derrière d'autres visages, La transe des insoumis et Mes hommes sont purement autobiographiques, narrés à la première personne. Le « je » présent en filigrane dans les premiers romans, devient un moi à part entière, confronté à deux autres personnages, son père et sa mère, source de ses souffrances et de ses désillusions. Si la mère est à peine évoquée, le père, lui, est désigné dans Mes hommes[30] et c'est à lui qu'elle s'adresse: « Mon père, mon premier homme, c'est par toi que j'ai appris à mesurer l'amour à l'aune des blessures et des manques ».
Avec cette autobiographie, Malika Moukeddem a bouclé la boucle en revenant à son premier roman. Cependant, la perspective change, parce que l'auteur fait le point sur sa vie et la figure du père, son premier homme, s'insère dans les autres figures masculines qui ont partagé la vie de Malika Moukeddem.

BIBLIOGRAPHIE

I. Corpus

Moukeddem Malika, Les Hommes qui marchent, Paris, Grasset, 1997.

II. Autres œuvres de Malika Moukeddem citées dans le mémoire.

Moukeddem Malika, Le Siècle des Sauterelles, Paris, Romsay, 1992.
L'Interdite, Paris, Grasset, 1993.
Des rêves et des assassins, Paris, Grasset, 1995.
N'Zid, Paris, Seuil, 2001.
La Transe des insoumis, Paris, Grasset, 2003.
Mes Hommes, Paris, Grasset, 2005.

III. Ouvrages sur l'auteur et l'œuvre.

Collectif sur sous la direction de Yolande Aline Helm, « Entretien avec Malika Moukeddem », Malika Moukeddem, Envers et contre tout, Paris, L'Harmattan.
Collectif, Malika Moukeddem, Métissages, Edition du Telle, Blida, Algérie, 2007.

IV. Articles sur l'auteur et l'œuvre

Belkacem Dalila, « Ecriture de métissage et métissage de l'écriture chez Malika Moukeddem », Insanyat, Revue algérienne d'anthropologie et de sciences

sociales, No 37, Année 2007 https://insaniyat.revues.org/4064

Belkheir Khaldia, « La quête d'une identité chez Malika Moukeddem (Une revendication identitaire anti-conformiste et individuelle) », Jordan Journal of Modern languages and literature, Volume 4, no.2 2012, p. 99à 110

Blanchard Corine, Texte, désert et nomadisme. Etude comparée de romans français et algériens, Thèse de doctorat, Université de Gergy-Pontoise, 2006. www. v.cergy.fr

Choucair Lakhdar, Poétique du désert : parcours narratifs dans l'œuvre de Le Clézio et Malika Moukeddem, Université de Floride, 2006, p. 7à51
journals.yu.edu.jo/jjmll/Issues/Vo4No2_2012PDF/02.pdf

Jaouichi Nicole, L'immobilité sédentaire et le nomadisme des mots: étude de deux romans de Malika Mokeddem
Malika Mokeddem. Du sable et de l'eau : jaillissement de la création et itinéraire d'une vie
Crazd.dz
Leiva Aguilera Ana Maria, « Une analyse de la colonisation française et la Guerre de l'Indépendance algérienne à la lumière du livre: Les hommes qui marchent ».
www.grin.com › ... › Littérature, Œuvres
Claudia Mansueto, « Entre le désert et la mer : L'Interdite (1993) et N'Zid (2001) de Malika Mokeddem » p. 161-174
Sous la direction de Yolande Aline Helm Malika Moukeddem envers et contre tout
livre.prologuenumerique.ca/telechargement/extrait.cfm?ISBN...

---

1. R. Huygue, Sens et destin de l'art. De l'art gothique au XX° siècle, Paris, Flammarion, 1985, p. 200.
2. P. Jourde, Géographies imaginaires de quelques inventeurs de mondes au XX° siècle. Gracq, Borges, Michaux, Tolkien, Paris, José Corti, 1991, p. 322.
3. Mohammed Dib, L'arbre à dires, Paris, Albin Michel, 1998, p. 18-19.
4. Les Hommes qui marchent, p. 43
5. Ibid, p. 266-267.

6. Ibid, p. 293.
7. Dictionnaire des symboles, p. 997.
8. Ibid, p. 303.
9. La Transe des insoumis est le second volet des Hommes qui marchent. Il s'agit d'un récit où s'entrecroisent le passé de Malika Mokeddem et sa vie d'aujourd'hui, ces deux époques étant liées par le thème de l'insomnie, mal dont souffre l'auteur depuis sa petite enfance. La Transe des insoumis est le nom qu'elle donne à l'insomnie. Cette incapacité à sombrer aisément dans le sommeil lui a très tôt fait prendre conscience de sa rébellion, et a peu à peu contribué à l'arracher à sa famille pour devenir un jour médecin puis écrivain. La Transe des insoumis revient sur les luttes essentielles de l'enfance et de l'adolescence et met en regard les thèmes, ruptures, solitude, livres, travail : scolarité puis études de médecine, apprentissage de la liberté Là-bas, c'est-à-dire en Algérie, et ici. Si Les Hommes qui marchent était le livre du départ, La Transe des insoumis est le livre du retour. Retour vers le village natal en Algérie, retour vers le père, après vingt-quatre ans d'absence. (Grasset)
10. Les Hommes qui marchent, p. 85
11. Ibid, p. 124.
12. Ibid, p. 268
13. Ibid, p. 278
14. Ibid, p. 278
15. Ibid, p.12
16. Ibid, p. 31
17. Ibid, p. 236
18. Ibid, p.22
19. Ibid

21. Les Hommes qui marchent, p. 124
22. Ibid, p.13
23. Ibid, p.11-12
24. Ibid, p. 301
25. Ibid, p.321
26. Ibid, p. 16
27. Ibid, P. 116
28. Claudia Mansueto, Entre le désert et la mer : L'Interdite et N'Zid de Malika Moukeddem, p. 163
29. La Transe des insoumis, Paris, Grasset, 2003, p. 84
30. Mes hommes, Paris, Grasset, 2005

The Hermeneutical Approach for Technical and Scientific Translation: A Necessity or an Accessory?

Dr. Laurence Ajaka
&
Dr. Mireille S. Redford

Abstract

Translation is a corner step in transmitting information and promoting innovation. The majority of publications rely on English as a conduit language for new articles, papers, and books because of its universal appeal. This presents a challenge for those who study and speak Arabic as their native tongue. This is particularly challenging in tech and science areas where technical terms and jargon are not easily transmitted in an understandable manner. This is made especially hard due to the sophistication of the Arabic language when compared to English. The hermeneutical approach relies on the creativity and subjectivity of the translator. It sees translation as a dynamic process that necessitates the involvement of a translator with a clear understanding of the text and its various components who is equipped with an agile mind. To gain further insight into this topic, we conducted a mixed quantitative and qualitative study to understand the perception of applying the hermeneutical approach in translation among Arabic-speaking students at the Islamic University of Lebanon. The qualitative study interviewed five students from tech, science, and translation backgrounds who rely on machines for English-Arabic translation to understand the challenges they face. The results of the qualitative interviews show that the lack of concrete translation for technical terms is the main stumbling block for using machine translation. They also pointed out that vocabulary issues can sometimes affect the understanding of the translated texts in domains such as technology

and science, especially regarding verbs. All participants agreed that further emphasis should be on developing more technical terms for English-Arabic translations that can be readily available to users. The quantitative study of 50 respondents from the same university showed that there is little need for cultural background understanding. They are content to use one translation engine for their needs, and a half even endorsed literal translation as an acceptable option. Furthermore, they claimed that the main difficulty they face is the translation of technical terms. These results show that science and technical fields do not hold much emphasis on the application of the hermeneutical approach to machine translation. They are more adamant in the need of a large database of technical terms that can help them to correlate the two languages.

Keywords: Translation, Arabic, English, machine, challenges, Hermeneutical Approach

I. Introduction

1. Background

Translation is an interesting field because it is an interdisciplinary medium that requires many skills from those who practice it. As a bridge between two languages, it is a mediator between ideas, societies, civilizations, and knowledge (Ogeyik and Engin, 2022). It is the rendering of ideas and meanings from one language and another that would have not otherwise had the opportunity for collaboration. This is why it has always been part and parcel of any intellectual movement in history. For example, the Arabian Renaissance between the 8th and 13th centuries would not have been possible without the translation of the Greek and Syriac texts that paved the way for progress.

The translator becomes instrumental in this process. According to Koksal (2020), a translator is not a passive figure in the process. He/she needs to be an expert in communication to rightfully convey the message between one language and another. Griess (2000) distinguished between translation in its basic sense and the professionalism of the task. He claimed that the translator needs to have enough writing skills that will allow him/her to be able to convey the message properly. Other requirements included familiarity with both languages and knowledge of the material that is being translated. Researchers emphasized the translator for the accuracy of the process.

There is a desire to abolish all barriers between people especially when it comes to language. Computer scientists and linguistics worked together to create translation engines that would blur the lines between people of different languages. The popularity of personal computers and smartphones

helped to facilitate access to various software including translation engines (Puchala-Ladzinska, 2016). And even though these machines were based on the efforts and the experience of linguistics, they rely heavily on the databases programmed and thus cannot learn or analyze meaning which can be essential in many cases for proper translation (Munkova et al., 2021).

The fast progress of technology and science means that there is a need for an interactive translation medium that would keep up with the changes occurring. This can be aided by developing an Arabic dictionary that is extensive and versatile enough to accommodate the linguistic and technical translation of texts into Arabic.

2. Significance

Translation is an essential component of the transfer of knowledge. Historically speaking, every significant intellectual movement was preceded by a wave of translation that would allow the upcoming civilization to have a starting point for launching its innovation. The Arab nations have long struggled to galvanize their economic and intellectual movement after suffering from centuries of regression. Many of these countries still rely on Arabic as their formal academic language which makes it essential to have the proper tools for faithful translation to impart the knowledge of the world.

3. Purpose

The purpose of this study is to evaluate the perception of students who studied in Arabic as their main language of the hermeneutical approach and machine translation in translation from Arabic into English and vice versa.

4. Objective

The study is a qualitative study of students involved in translating technological and scientific texts. The study also includes a quantitative element that explores how the students evaluate the hermeneutical approach and machine translation in translation. It serves as an addition to the limited literature available on translation which has been garnering more attention because of its importance in transmitting knowledge.

5. Research question

The topic raised two important research questions:

R_1: How clear, do students think, is the translation of texts generated by machine translation?

R_2: What are the perceptions of students on the use of the hermeneutical approach when translation technical and scientific texts?

R3: What perceptions do students hold regarding the use of the hermeneutical translation approach vs the machine translation method?

6. Limitations

The limitations of this study are typical of any mixed study. When using both qualitative and quantitative methods, it can be expensive and time-consuming. The duration of data collection and analysis is typically double that of a regular study. It also requires balancing between the two approaches especially when the findings of one method contradicts that of the other. This is why such a study requires someone with vast expertise and knowledge.

II. Literature Review

1. Translation Techniques

This section will deal with the most common techniques used in translation. The first is the literal translation which is the exact interchange of words between one language and another. This tends to be a problem for languages that have different sources such as Arabic and English because it is not always possible to find the equivalency between the two (Akan et al., 2019). This is very evident in the Arabic language which has not been properly developed to keep up with the times. The sophistication of the Arabic language is a double-edged sword. It makes it difficult to find the correct equivalency to some words on one hand. But on the other hand, it is a versatile language that is capable of incorporating and generating new terminologies for new discoveries. However, some translators prefer to translate the literate meaning which happens with a different combination of words that nevertheless give the same meaning.

Free translation is a method preferred by those with knowledge of both languages. They would rely on the translation of the meaning rather than the words. It is not about finding an equivalence for each word; it is explaining what has been understood from the original text in the new language. It is the replication of the content rather than the form.

Both the literal and free translation methods branch into many varieties and approaches. They use various techniques and tools to convey the message.

2. Challenges of English-Arabic Translation

The Arabic and English languages come from different sources, so trying to convey meaning from one language to another comes with its challenges. The first challenge is having enough lexical knowledge in both languages (Bahameed, 2007). Both English and Arabic have many synonyms for the same meaning, but there are many nuances in the proper use of each word. In many cases, using the incorrect word choice would throw off the entire meaning. This gets even more complicated when technical words are concerned. For

example, in Chemistry, even one deviation of one of the groups that are attached to the main chain of the molecule or the nature of the bond between two or more atoms leads to an entirely different molecule. Lexical knowledge also presents a challenge when dealing with abbreviations. The computer will translate the letters into their equivalent in Arabic or English with difficulty. The letters “p” and “b” in English will only be translated as “ب” in Arabic. The letter “t” can be translated as “ت” and “ط” since they both sound alike. The acronyms will not necessarily be correct even if the letter is right because the translated words of the acronym might start with completely different letters.
This difficulty is not only restricted to vocabulary and extends to grammar (Gass and Selinker, 2008). This might not be of particular importance in technology, but it can be problematic in certain sciences where the sequence of events is essential. Grammar is not restricted to the tenses which is the most common thing most of us would think about. The wrong tense might not necessarily hinder the understanding of the text as much as it affects the quality of the translation. Active and passive tense are particularly difficult to translate especially when there is little or no reference to the subject of the active sentence. Furthermore, Arabic has only three tenses: past, present, and future while English has more than that. It is not always clear to know which tense is appropriate to use when translating from English to Arabic. The prepositions present even a bigger challenge than that of tenses because they can take on different meanings in different contexts. The exact meaning can be very critical in certain situations, especially in science and technology. Sentence structure is fluid in Arabic due to its richness and complexity, but that makes it hard to translate into English where the order is more structured. For example, arranging adjectives in English follows rules whereas, in Arabic, the arrangement relies mostly on the meaning of each adjective (Baker, 1992). Overall, grammar, whether taught in Arabic or English, is complex, and often students are not familiar with the use of rules beyond the basic tenses and situations.
Figures of speech and proverbs remain the most difficult part of any language to master or translate. This is a true indication of the translator’s knowledge of the language and culture of both languages. The differences between the cultures mean that there will not always be equivalencies for figures of speech, expressions, and proverbs. For example, “pick up” can either mean to come to take someone in your car or to lift an object from a lower position to a higher one. These have different translations between Arabic and English. Another example is the famous Arabic proverb that is literally translated as “Those who

know know and those who do not know to say it is for a handful of lentils". The real meaning is that sometimes what you see is just the manifestation of something deeper.

3. Previous Studies

The issue of Arabic-English translation has been discussed in many studies. Akan et al. (2019) explored the various problems of English/Arabic translation and tried to come up with some reasonable solutions. They found that literal translation is the weakest and least effective translation methodology. They pointed out that the structural differences between Arabic and English make translation challenging. Grammar, vocabulary, idioms, proverbs, metaphors, etc. are problematic. Other challenges include sentence length, passive and active styles, and cultural and religious terms. The authors could not determine any conclusive solutions to these problems, but they recommended that translation should be done by bilingual professionals who are experts in the field of the topic being discussed.

Muftah (2022) compared the translation done by machine and human translators from Arabic to English. She wanted to determine which translation is more adequate machine or human translation. For this purpose, six texts were chosen and translation was made by human and machine engines for comparison. The analysis of both results showed that there are no statistically significant differences between human and machine translation. It also showed that it is very difficult to reach a stage where translation can become 100% automated. She concluded by pointing out that there is a mutually beneficial relationship between human and machine translation.

4. The Hermeneutical Approach to Translation

There is a large variety of theories, but we will focus on the Hermeneutical Approach for this paper. This approach has a philosophical element to it because it focuses not on what or how we understand, but whether or not we can understand at all (Stolze, 2012). In this sense, the hermeneutical approach does not only look at a text as a group of words and paragraphs. It is not static; it has deeper meanings related to its author, the topic, the setting, and the objective of writing. Hermeneutics stipulates that no translation will be adequate unless the translator took the time to consider all these facets. There should be awareness of the language and culture before attempting the translation (Schleiermacher, 1998).

According to Stefanink and Balacescu (2017), the hermeneutical approach endorses the subjectivity of the translator because he/she is responsible for the understanding of the text. His/her creativity is what will manage to understand

the literal and implied meaning of the words in the text. This is especially useful when translating sections that do not have a clear correlation between the two languages such as idioms and figures of speech. This also extends to the new terminologies that are popular in today's youth where words and their meanings are constantly taking on different meanings.

III. Research methodology

The methodology chosen was a mixed approach to collect sufficient data regarding the challenges of using machine translation. This choice can be justified by the necessity of gathering in-depth information that cannot easily be generated through the use of a quantitative methodology and a quantitative approach that would allow the generalization of the results.

The first step was to gather enough background information about the topic. The databases available provided studies and articles discussing this topic. It also provided enough evidence of the need for further understanding of the topic since there was not enough material to give satisfactory answers to some questions raised. This research helped to specify the research questions to be addressed as well as establish basic avenues of investigation. These themes were the basis for the interview with all five participants. However, the interviews conducted were open questions in format.

The initial round of questions took place during the week of February 5, 2023. The students were chosen from the Islamic University in Lebanon. The themes were used as a springboard, but participants were encouraged to expand on their answers and give their perspectives. Follow-up sessions were conducted three weeks later after consolidating the data to get further information about certain points that arose in other interviews as well as clarifications. No direct questions concerning the hermeneutical approach were asked, but the essence was reflected in the questioning because the focus was on how these participants adapt to the restrictions that machine translation has.

The second round took place during the week of May 29, 2023. A survey of 10 questions was developed based on the answers provided by the qualitative interview. This questionnaire was uploaded on the Internet, and a link was sent to science and technology students at the Islamic University of Lebanon. The cutoff for participants was after the completion of 50 surveys. The results were compiled and analyzed using statistical tools. All had studied Arabic as their primary language. Those who do not use any machine translation were excluded from the study, but anyone who has some use for machine translation was eligible.

The strictest code of ethical conduct was observed during this study.

Participants were made fully aware of the scope and purpose of the study as it was clearly outlined before any questions were asked. They were assured of anonymity as their identities will not be disclosed. They are all referred to by an alphabetical letter within the qualitative aspect. All gave proof that they are 18 and above.

IV. Results

1. Qualitative Results

The five participants were named A, B, C, D, and E for each respectively. All five participants have been educated in Arabic as their primary language. They studied topics such as science and mathematics in Arabic. A and B are majoring in computer science. C and D are studying to become doctors. E is enrolled in translation. All participants acknowledged that they use the translation for their various courses. A, C, and D admitted that they can't study unless they can translate into

Arabic because they have not had enough knowledge of English to study texts in that language independently. All three are undergraduates who have had only one or two years studying in English. B is a graduate student who has been studying English for the last five years. They claim to have used translation throughout their undergraduate years, but that their reliance on that lessened as they moved to graduate studies. They were fortunate enough to find consistent freelance jobs for the last two years which gave them further opportunities for furthering their linguistic skills. E studies translation by default, so they naturally use translation throughout their courses.

All participants agreed that they use translation engines online for this purpose. They also agreed that Google is the one they normally used. It is the most logical choice for them as it immediately pops up during an internet search. They might use other search engines in case Google fails to explain a word or an expression, but there is no particular search engine that comes to mind as the natural alternative for Google. They claimed that they just go down the search page for whatever is available. When asked about the reason, E answered that there is little difference between the various translation engines and that it makes little difference which alternative is chosen for Google. When prompted further, E said that it is easier not to have multiple different translations since they rely more on understanding the context rather than the exact or literal meaning. C and D claimed that there are no free reliable translation engines that would give them the technical meanings of the words they want. When asked if they would consider paying for translation, D answered that they would not because they have previously

spent money on such things with little benefit. They expressed frustration about the expenses since they often had lengthy texts to translate which meant spending substantial amounts of money. C did not see the need because they can communicate with their fellow classmates that were educated in English when they are truly perplexed. A did not see the need because they also rely on their friends and instructors for guidance. B says that they are familiar now with most of the technical words that might not be recognized by Google, so they are rarely concerned with that issue.

A, B, C, and D recognize technical words as their major hurdle in translation. They all have STEM majors which are very technical by nature making it difficult to understand. A faces serious issues when having to look into articles and publications which have unknown technical terms. D is in their first year and is having serious problems with some technical chemistry words and expressions. They claim that the biological aspect of their studies is easier to translate and assimilate because they have pictorial images that aid in understanding some of the scientific jargon. This is not the case in chemistry because these visual aids are not available. E nominates idioms and figures of speech as their biggest difficulty. When asked about this, the first four participants said that they are rarely faced with such instances because their material is more rigid by nature. STEM textbooks and articles rely on simple and straightforward language that leaves little ambiguity. E is challenged by these obstacles because gaining knowledge of these terms is instrumental in their grades. They are specifically assessed in their ability to understand and faithfully convey the meaning of these expressions, so it remains a challenge. E is therefore very interested in assimilating the real meanings and tries to have equivalencies in the corresponding language. In this, they rely on the hermeneutical approach because they need to convey an in-depth understanding of the context. The other participants do not seek deeper understanding because there is little need for such a meaning.

A and B said that aside from technical terms, they have a little problem when it comes to translation. However, the first four participants have another problem with the use of verbs. A and B face this issue when reading instructions about executing coding. The issue is not very grave. They can often discover any mistakes because they will result in glitches. Since they are more experienced, B is capable of understanding the correct meaning regardless of the translation because they would be familiar with the process. The issue is also problematic for C and D when they are carrying out experiments. C finds it especially challenging in the laboratory setting because there might not be any

indication that the wrong thing is being done. D remembers encountering this issue during an Enzymology laboratory where they were required to extract proteins from the cells. The verb usage issue caused a misstep that necessitated them repeating work that took three days to finish. Such repetitions are times consuming and expensive because the reagents might not be readily available. They were asked if adopting the hermeneutical approach can be helpful, all four said that there is little need because of the precision of the verbs used and the straightforward manner of the texts.

Participants were asked how they might overcome the obstacles they face. They were asked whether or not they think that there should be more emphasis on human translation over machine translation. All agreed that both are important in different capacities. C and E said that human translators are most important when translating books and ideas from one language to another. They did not think that machines can be as competent as humans in such cases. However, when it comes to mundane translation, machines are adequate for the job. D thought that human translators should have more contributions to the machine engines he considers their expertise invaluable for advancing their automated counterparts. C and D advocated the need for constant updates for the translation engines with the latest jargon and proper grammar. A thought it would be helpful if there were options in Google Translate to narrow down the field of interest of the research. For example, if the text that needs to be translated in scientific fields, Google must adapt its database of words to conform to this particular field.

2. Quantitative Results

The total number of participants was 50 divided into 34 males and 16 females. These results show some gender bias where males are more represented than females. 23 students were between 18 – 21, 15 were between 22 – 25, and 12 were above 25. There were 19 science students and 21 technology ones.

Only 3 students said that they do not routinely rely on machine engines for translation which is equivalent to 6% of the sample. This shows that science and technology students depend heavily on using machines for translation purposes. This is an indication of the importance of such translation engines. When asked if they rely on one or more engines, 72% say they rely on one engine for their purposes. This could be explained by having Google as the main translation engine that provides adequate results for most users. The qualitative group stated that there is little value in using more than one search engine.

There was a divide between the participants about the mode of translation. 54% of the respondent said that they relied on literal translation while only

46% said they use translation of meaning. When asked about the accuracy of the machine translation, the respondents gave the following answers as depicted in Fig. 1.

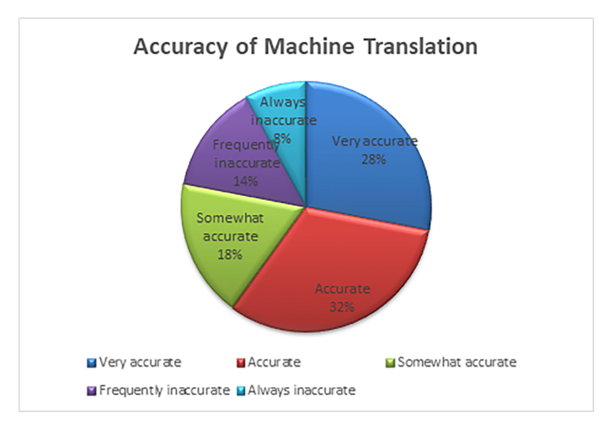


Fig. 1 Accuracy of Machine Translation

The respondents favor accuracy by a total of 60% for very accurate and accurate. Only 8% claimed that there are always inaccuracies occurring in the translation. To better understand the sources of inaccuracies, the participants were asked about the source of the greatest challenges they face. Fig.2 shows the allocation of the answers given.

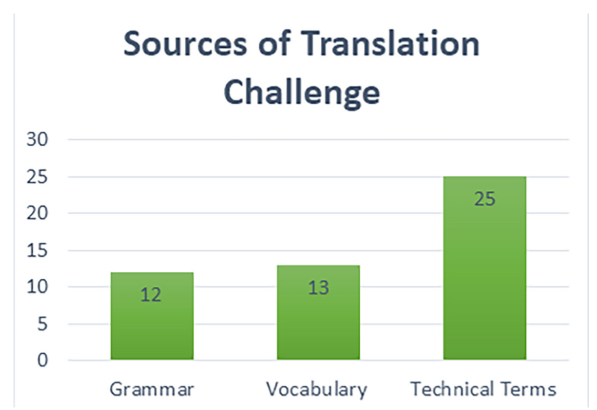


Fig. 2 Sources of Translation Challenge

25 out of 50 respondents claimed that technical terms are the main challenge for translation. This is consistent with the qualitative study that also emphasized the lack of technical terms databases that would enable faithful translation.

When asked about the necessity of having a cultural background for the translation, only 2 strongly agreed with another 6 agreeing. The majority

of respondents (20) said that they disagreed and strongly disagreed (13). 9 participants were neutral about the topic. Further questioning showed that only 12% strongly agreed or agreed that there is a need for changing words and phrases to have equivalencies in the second language.

V. Conclusion

The Hermeneutical Approach relies on having a keen understanding of the cultural and linguistic aspects of the languages being translated. It is the translation of ideas and concepts rather than words and phrases. This does not seem to be a requirement for Science and Technology students. The qualitative and quantitative interviews show that the languages used are simple and straightforward enough to negate the need for the Hermeneutical Approach. Half of the participants of the quantitative study said they use literal translation, and only 8 of them agreed that there is a need for understanding the cultural background. The main issue that was consistent in both the qualitative and quantitative surveys is the need for proper translation of the technical terms. This does not necessitate knowledge about the cultural background as much as it needs an understanding of the topic of the text.

Machines translation is a trend that promises to persevere. It is not necessarily a replacement for human translators because it has shown to have certain limitations that cannot be overcome with the available technology. The Hermeneutical Approach has its benefits for translation outside of STEM where the language and delivery remain as simplified and clear as possible. It is recommended that there is a merge between the expertise of the human translator with the ease and convenience of the machine translator to elevate translation by creating an extensive and adaptive database that can make sense of the technicality of STEM.

References

Akan, F. et al. (2019). An Analysis of Arabic-English Translation: Problems and Prospects. *Advances in Language and Literary Studies,* Vol. (1)(1), pp. 58 – 65

Bahameed, A. (2007). Hindrances in Arabic-English Intercultural Translation. Translation Journal. Retrieved from http://translationjournal.net/journal/43culture.htm

Baker, M. (1992). *In Other Words: A Course Book on Translation*. London: Routledge.

Gass, S. M. & Selinker, L. (Eds.) (2008). *Second Language Acquisition: An Introductory Course*. New York and London. Routledge: Taylor & Francis.

Greiss, S. (2000). Reflections on a Translator's Life. *Translation Journal*, 4 (2), 204-206
Köksal, O. (2020). The Role of Translator in Intercultural Communication, International Journal of Curriculum and Instruction, 12 (1), 338-339
Muftah, M. (2022). Machine vs human translation: a new reality or a threat to professional Arabic–English translators? *Emerald Publishing Limited, DOI 10.1108/PRR-02-2022-0024*
Munkova, D., Munk, M., Welnitzova, K. and Jakabovicova, J. (2021), "Product and process analysis of machine translation into the inflectional language", *SAGE Open*, Vol. 11 No. 4, doi: 10.1177/ 21582440211054501
Ogeyik, M. and Engin, E, (2022). The Importance of Translation Theories in Applied Linguistics. *International Congress on Life, Social, and Life Sciences in a Changing World,* Germany
Puchała-Ladzinska, K. (2016). Machine translation: a threat or an opportunity for human translators?". *Studia Anglica Resoviensia T*, Vol. 3 No. 2, pp. 89-98, doi: 10.15584/sar.2016.13.9
Schleiermacher F. (1998). *Hermeneutics and Criticism and Other Writings. [German original 1838. Translated and edited by A. Bowie].* Cambridge: University Press.
Stefanink, B. and Balacescu, I. (2017). The Hermeneutical Approach in Translation Studies. https://doi.org/10.5007/2175-7968.2017v37n3p21
Stolze, R. (2012). The Hermeneutical Approach to Translation. Retrieved March 10, 2023 from http://www.vertimostudijos.flf.vu.lt/wp-content/uploads/2015/01/Vertimo_studijos_5.31-43.pdf

Appendices

Appendix A

Starting questions for qualitative interview:

1. What is your area of expertise?
2. Were you originally educated in Arabic or English?
3. Do you rely on translation in your undergraduate and graduate studies?
4. Do you use electronic translation engines?
5. If yes, which do you use?
6. Do you rely on one or do you use multiple ones?
7. Which is your favorite engine and why?
8. What are the challenges that face you during using engines for translation?
9. Are there any techniques you use to overcome these difficulties?
10. Do you think computers are capable of replacing human translators?

Appendix B
Questionnaire for quantitative interview:

1. Gender
a. Male
b. Female
2. Age:
a. 18-21
b. 22-25
c. 25+
3. Education:
a. Science
b. Technology
4. Do you routinely rely on machine translation engines?
a. Yes
b. No
5. Do you use one or multiple translation engines?
a. One
b. More than one
6. Do you rely on the literal translation or translate what you understand?
a. Literal translation
b. Translation of meaning
7. How accurate do you find machine translators engines?
a. Very accurate
b. Accurate
c. Somewhat accurate
d. Frequently inaccurate
e. Always inaccurate
8. Which aspect of machine translator engines do you find most challenging?
a. Grammar
b. Vocabulary
c. Technical terms
9. You need a cultural understanding to be able to translate.
a. Strongly agree
b. Agree
c. Neither agree nor disagree
d. Disagree
e. Strongly disagree

10. You need to change certain words and phrases to have an equivalence in the other language.

a. Strongly agree
b. Agree
c. Neither agree nor disagree
d. Disagree
e. Strongly disagree

Nursing Teamwork during COVID19-

Rami Kaissar:

Infirmier diplômé-Université Zalhé-branche Rachaya

Rayan Azzam:

Infirmier diplômé-Université Zalhé-branche Rachaya

Jana Jaber Hdayfi:

Infirmière diplômée-Université Zalhé-branche Rachaya

Imane AZZAM:

Ph-D en psychologie USJ - Professeur à l'Université Libanaise-Faculté de Santé Publique

Nassab AZZAM:

Directrice de soins infirmiers – Hôpital de « Irfan Medical Center »

Abstract:

Healthcare is delivered by multidisciplinary healthcare teams who rely on communication and effective teamwork to ensure safe patient care. Teamwork builds on employee cohesion and reduces medical and nursing errors, resulting in greater patient satisfaction and improved healthcare. Effective teamwork not only improves efficiency and patient safety but leads to a healthier and happier workplace, reducing burnout among healthcare professionals. The aim of this study was to know the level of teamwork (TW) perceived by nurses in order to maintain future work practices and, therefore, patient care during Covid-19 in hospitals. (Jabal, Irfan). The present study used a cross-sectional, descriptive study was conducted using a pre-validated self-administered questionnaire. A total of 40 nurses participated and selected randomly. The Nursing Teamwork (NTW) Survey measures the levels of NTW in acute healthcare facilities. 67.5% of participants are satisfied in the current position and job. Likewise, 60 % believing that mistakes and annoying behaviors of teammates are discussed. The study concluded that findings highlight areas for consolidation and improvement in teamwork. Introducing teambuilding techniques and acting on survey results may enable improved teamwork and communication impacting nurse care and patient outcomes. Findings recommend

that staff satisfaction in an acute medical care context would be significantly impacted by teamwork-enhancing activities and teambuilding tactics that are put into practice.

Keywords: Nurses, Nursing Teamwork Survey, Patient satisfaction, Staff satisfaction, Teamwork

Study context:

The COVID-19 pandemic is proving to be a worldwide complex public health challenge, affecting several countries on five continents and causing serious social, political, economic, religious, cultural and health consequences (Jakovljevic et all,2020). Considered an emergency, with 11.500.302 cases and 535.759 deaths by July 7, 2020, it represents a major challenge for the current health systems (Belarmino et all, 2020).

In Lebanon, the first COVID-19-positive case was confirmed on 21 February 2020, and after that, the numbers were still increasing, surpassing 1,000 cases/day (the equivalent of 159.4 cases/million), with the positivity rate reaching as high as 13.9% during the first 2 weeks of November. An immediate lockdown was imposed and extended until 30 November 2020 with no significant changes in the volume of testing and positivity rates. (Koweyes et all, 2021)

Meanwhile, with the development of the COVID-19 outbreak, there is a growing need for trained and effective professionals especially nurses to handle the demands of health services. Consider that to cope with rising demand for emergency departments and intensive care units, some hospitals are reallocating spaces to serve as triage and redeployment areas for residents, nurses and other staff. This is happening around the world on a larger scale as teams move across national borders to provide assistance in current hotspots. Not only will these individuals lack (modern) experience in the units and hospitals they join, this dramatic shift in the workforce increases the odds that individuals who come together will not have worked with each other in the past, let alone know each other. This requires them to work as a unified team to provide the necessary assistance, especially within the nursing teamwork (NTW). (Hackman. 2011)

Therefore, effective NTW on inpatient units is essential. In order for NTW to

be genuinely effective, nurses must also learn how to work well within their interprofessional (IP) team. Although nurses tout the importance and necessity of teamwork as vital work-related factors, definitions and measurements of NTW within IP teamwork are limited and exclusively defined in inpatient units in hospitals.

In 1998, the World Health Organization, the Pan American Health Organization, universities, and researchers proposed modifications to the healthcare training models, pointing to interprofessional education (IPE) as a method for developing collaborative skills that maximize the effectiveness and quality of healthcare. IPE conceptually involves integrated and interactive learning between two or more health professions, allowing a specific understanding of each professional's role and enhancing collaborative teamwork skills (Lima et al., 2020).

NTW and IP as a modifying mechanisms of health care team practices involve practical communication actions, participation in decision making, cohesion, coordination of services, and problem-solving, and it is recognized that the deficiency of those elements reduces the effectiveness of the results. In the United States, a review of 23.000 allegations of neglect highlighted poor communication as one of the main components responsible for the inadequate functioning of a healthcare team especially nursing, resulting in a cost of US$ 1.7 billion and a loss of about 2.00 lives. (Kilpatrick et al., 2019).

In this sense, the current situation in the face of the COVID-19 pandemic involves the advancement of skills among the nurses to meet the growing demand for infected patients, but also the demonstration of conflict control, intra-nursing team problems and interaction with the care team, in addition of patient care.
According to Barton, Bruce, and Schreiber (2018), NTW comprises the largest human resource delivering direct patient care in hospitals. WHO (2013) reports there are 43.5 million health workers worldwide, with 20.7 million comprising of nurses. nurses account for around 50 % of the healthcare workforce, therefore maximizing their contribution to the health workforce is essential. Observational studies on teamwork behaviors related to high clinical performance have identified patterns of communication, coordination, and leadership that support effective teamwork (Cooper, 2017). According to Kalisch et al. (2010), where NTW is rated as strong, there was a decreased

reporting of missed patient care, fewer patient falls, and a higher quality of work life impacting staff recruitment and retention. Nurses are suggested to play a crucial role in increasing patient access to safe quality care. Manser (2009), investigated factors contributing to healthcare critical incidents and adverse events and found that the relationship between teamwork and patient safety is vital.

In her study, Karian (2020) explain that teamwork, or unity, among nurses is the basis of nurse sustainability, especially during this COVID-19 pandemic period. In healthcare facilities where there is no cohesion or teamwork, nurse retention is impossible. Compassion and empathy towards the sick are considered the pillars of the nursing profession because as we all know, nursing originates from these two factors. Having a kind and compassionate heart comes first in nursing. However, COVID-19 is escalating the fear and stress in nurses.

Likewise, Karian adds that nurses are mandated to overcome their fear and stress and gain confidence, as well as patience and endurance, to care for and meet the demands of these patients. Young and expert nurses alike must provide fearless treatment for COVID-19 patients without having much knowledge about the new virus or its method of transmission. This might be difficult for healthcare professionals in general as well as nurses. The best results for patients may be achieved by working as a team and supporting one another physically and mentally. (Karian, 2020)

As a nurse, in hospitals, meeting patient needs and comfort is the primary goal of any nurse. Leadership is trying its best to provide needed resources and develop evidence-based policies and procedures to support this goal achievement. Their actions can help nurses build the confidence they need and avoid moral distress and moral injury. Correspondingly, effective nursing care is always the result of teamwork. The team members (HN, charge RN, resource RN, and/or PN) share busy hours to help meet patient needs and can improve patient satisfaction and patient outcomes. NTW can also reduce the stress and frustration experienced by enabling nurses to look to other members of the team for help whenever needed. The goal of nursing care in any circumstance is preventing further injury and keeping patients as comfortable as possible with safe and quality care.

NTW

While the general term and concept of teamwork is not new to healthcare, the concept of NTW in inpatient units in hospitals emerged increasingly within nursing literature over the last 15 years. This more recent focus is in response to the evolving shift in the restructuring of healthcare operational priorities both in the U.S. and abroad. The concept of NTW in inpatient units in hospitals has yet to be fully characterized. Research focusing on NTW in inpatient units in hospitals is primarily developed based on the work of Beatrice Kalisch and colleagues with the creation of the nursing teamwork survey (NTS) (Kalisch, Lee, & Salas, 2010). In addition, they defined some terms related to nursing teams, NTW, and IP.

a- **Nursing teams**. Nursing staff who work together on one patient care unit (Nurses [Registered Nurses or Licensed Practical Nurses], nursing assistants [NAs], and unit secretaries [USs]) excluding visitors to the unit such as physicians, physical therapists, etc (Estryn-Behar et al., 2007; Kalisch & Lee, 2009).

b- **Nursing teamwork**. A team is made of two or more people with a common purpose who work interdependently (Kalisch & Lee, 2012).

c- **Interprofessional teamwork**. The levels of cooperation, coordination, and collaboration characterize the relationships between professions in delivering patient-centered care (Kalisch & Lee, 2012).

NTW in healthcare is vital. Several authors have indicated that effective levels of NTW result in higher quality of care (Young et al., 1998), greater job satisfaction (Gifford, Zammuto, & Goodman, 2002; Kalisch, Lee, & Rochman, 2010), higher productivity, fewer patient errors and positive patient relationships (Meterko, Mohr, & Young, 2004). In addition to NTW, a growing body of interprofessional (IP) teamwork evidence suggests that effective teams improve staff and patient outcomes (Rafferty, Ball, & Aiken, 2001; Meterko, Mohr, &Young, 2004).

Despite the premise that nursing and IP teamwork may share a common theoretical framework, a practical understanding of NTW factors and how they may be interdependently related to IP teamwork factors is needed in order to develop, prioritize, and implement the necessary knowledge, skills, and values targeted toward improving nurses' and their self-perceived abilities to appropriately function as a member of an IP team. (Salas et al., 2005)

Healthcare teams rely on effective teamwork and communication which ensures effective and safe patient care (Janicijevic et al, 2013). Effective teamwork has a range of benefits, which positively impact; the quality and safety of patient care, employee satisfaction, patient satisfaction, staff retention, and aids in the reduction of nursing and medical errors (Cooper et al., 2019). Teamwork builds cohesion among staff (WHO, 2013) and reduces the rate of burnout among healthcare professionals (Barton et al., 2018). Effective teams are known to have a heightened sense of awareness, determining areas of interventions that lead to enhanced patient outcomes (Barton et al., 2018). Therefore, the benefits of effective teamwork not only improve efficiency and patient safety but lead to a healthier and happier workplace (Kalisch et all, 2010).

In their study, Ellis et al (2003) proved that ineffective communication can lead to failure in conveying information, misconceptions, and distrust among people. According to Ellis et al. (2003), "lack of self-awareness, lack of systemic interpersonal skills training, lack of a conceptual framework, and lack of clarity of purpose" are the main communication issues. Lack of self-awareness may have a detrimental impact on how people connect with one another. Lack of purposefulness will lead to misunderstandings and poor communication, which defeats the purpose of communication. Many careers in the healthcare industry have the potential to be contentious. For conflict resolution and management, effective communication skills are crucial. According to Berry (2007), communication is the key to managing and resolving conflict. To provide the best treatment possible to patients, healthcare professionals must be able to handle disagreement. (Berry, 2007; Ltd, 2018). Clinically, nurses play an essential part in maintaining patient therapeutic and professional relationships and increasing patient access to safe quality care (Kalisch et al, 2010)

Continually in the same idea, he identified hospital wards where NTW is rated as strong, reduced reporting of missed patient care and fewer patient falls, and indicated a higher quality of work-life-impacting staff recruitment and retention. Positive relationships are always beneficial, and the success of an organization can be measured by the loyalty of the employees and their job satisfaction (Baker, 2006).

COVID-19 and NTW

The healthcare workplace has been challenged with the SARS-CoV-2

coronavirus (COVID-19) for the majority of the year 2020 and it has posed a number of challenges for healthcare and especially nurses. This poses a health concern amongst patients because the increased burnout in hand and the conflict between nurses in second hand affect patient care, safety, and quality of care. Nursing is the main active partner in any primary and secondary infectious disease prevention efforts. In every country, regardless of socio-economic development, nursing is considered to be the top first-line dedicated profession in the prevention of diseases and alleviation of suffering during and after the treatment of any disease, including COVID-19. (WHO, 2020).
Nurses were and still are the pioneers in developing all the best practices relevant to patient management and clinical safety. Their capacity and effectiveness thrive more during crises, wars, disasters, and even in infectious disease pandemics, such as COVID-19.

Therefore, in their study, Belarmino et al. (2020) affirmed that NTW skills such as communication, respect, trust, mutual knowledge, collective power, centralization of actions on the patient, characteristics of the tasks and the environment were practices used during the crisis of the COVID-19 (Belarmino e al, 2020; Karama et al, 2018). Interprofessional cooperation between categories develops in such a setting as a reaction to the reality of the state of global health, which necessitates new assisting models to deal with the multiplicity of people with chronic diseases and with multi-morbidities, through the performance of nurses with advanced practice skills and other people.

Within this interaction dynamic, the teams met on three alternate days at the beginning of each activity, emphasizing new models to face the pandemic, in the presence of medical professionals, nurses, and nursing technicians. The objective of the inter-team meetings was to understand, in practice, that the processes of collaboration to aid patients with suspected COVID-19 were reorganizing and needed urgent improvements in the aspects of treatment.

Similarly, the results revealed from the study of Kalisch and Lee (2009) concerning 3675 participants who completed the NTS showed that the majority of staff were 35 years or older (62.3%), and over half had a baccalaureate nursing degree (55.7%) (Kalisch, Lee, & Rochman, 2010). According to this author, most staff alleged full-time positions (83.8%). This study focused on the level of job satisfaction, as measured by the NTS. Participants who had higher scores on the NTS tended to be more satisfied with both their current

position and occupation, while those with lower scores on the NTS perceived lower levels of NTW in their unit. (Kalisch, et al., 2010; Kalisch & Lee, 2011). Correspondingly, according to the results of this study, the participants who perceived adequate staffing in their work unit also tended to rate their satisfaction in their role higher (Kalisch et al., 2010).

Grosso modo, the elements crucial to building a productive NTW include:

1. Communication: Effective communication is the most important part of teamwork and involves consistently updating each person and never assuming that everyone has the same information. Being a good communicator also means being a good listener. By listening to colleagues, show them respect, which is an essential trust-building method.
2. Delegation: Teams that work well together understand the strengths and weaknesses of each team member. One of the benefits of strong teamwork is that team leaders and members are adept at identifying all aspects of a project and allocating tasks to the most appropriate team members.
3. Efficiency: A strong and cohesive team develops systems that allow them to collaborate efficiently to complete tasks in a timely manner.
4. Ideas: Colleagues are more willing to share ideas and suggestions when a team is functioning smoothly. Colleagues will be able to think more creatively in a polite and trustworthy team atmosphere, which will also result in more fruitful and cooperative brainstorming sessions.
5. Support: All workplaces provide challenges, but having a strong team environment in place can act as a support mechanism for staff members. They can help each other improve their own performance as well as work together toward improving their professional development. Building bonds of trust and reliance on each other can be extremely important when facing a particularly difficult challenge or if the group is forced to deal with the loss of a team member while continuing to maintain productivity.

Although stress on stuff in COVID-19 affects negatively NTW principles which produce complicated errors due to newly updated restrictions added to nursing job descriptions in addition to the past nursing efforts, these issues may change the priorities of the nursing work if they are not treated well.

Thus, this study primarily explored the research question: Are factors related to nursing teamwork, as measured by the Nursing Teamwork Survey (NTS), associated with nursing skills? self-care during COVID-19 in Al Jabal hospital

and Al Irfan hospital. And, the aim was to understand the healthcare perceived level of teamwork to support future work practices and ultimately patient care during COVID-19 in the hospitals (Jabal, Irfan). Understanding the members, and the perceived level of teamwork may support future work practices and, ultimately, patient care during this current pandemic.

The plethora of hypothesis are:

- ➢ Effective, open communication between NTW leads to greater trust between the teams and increases COVID-19 patients' satisfaction.

- ➢ A high confidence between team members will demonstrate ways to promote team goals.
- ➢ A Strong structure, direction, and support provided by the formal leader of the team members increase patients' satisfaction and keep patients (COVID-19) as comfortable as possible with safe and quality care.
- ➢ A strong and cohesions NTW can reduce the stress and frustration experienced by enabling nurses to look to other members of the team for help whenever needed.

Method:

This study utilized a quantitative descriptive design research method to measure NTW in a clinical environment. A cross-sectional descriptive design using the NTS tool was used to investigate nurses' perceptions of teamwork within a medical ward in one healthcare facility. This design provided data from a convenience sample of registered nurses working within a Lebanese healthcare organization. Also, this study was done in the two private hospitals «Irfan Medical Clinic IMC» and «Al Jabal Hospital» as representative samples of «Al Shouf » and «Al Jabal» regions respectively. Data collection was done in the first days of December 2021. (From 1 December to 8 in the same month 2021).

The sample is made up of 40 (N = 40), nurses working in several hospital departments. The sample includes nursing directors, supervisors, managers, and nurses (RN, PN) who are involved in direct patient care and were randomly selected to participate in the study. Doctors, para-clinics team (radiology technicians, laboratory, etc.), and trainees were excluded from the study.

Data were collected through a self-administered questionnaire addressed

to 40 participants of our target population of different units of the hospitals chosen. The research team used a validated questionnaire that is framed into the context of the country. A pre-test was done on a sample of nurses (4 nurses in the hospitals mentioned), and some questions were modified to avoid statistical bias then, the questionnaire was translated into the French language to meet the educational level of all nurses. The average duration for completing the questionnaire is about five to seven minutes.

The questionnaire was accessible via printed copies with a cover letter inclusive of survey instructions and the participant information sheet that clearly stated that completion of the NTS was considered consent. This approach was approved by the Ethics Committee at two hospitals and by a letter from our university.

The questionnaire consisted of two parts. The first part consists of the personal characteristics of the participants (socio-demographic and professional status of the nurse). It contains 13 questions concerning age, gender, graduation, experience, and the floor they are working on.The second part includes information about the NTW survey.

This survey was developed by Kalisch, Lee, and Salas (2010) to measure the levels of NTW in acute healthcare facilities to assist in identifying the level of NTW to enable team quality improvement. Informed by the Salas teamwork model (Salas et al, 2005) items for the NTS were formed on theoretical grounds. Teamwork behaviors were the basis of Salas's theory (Salas et al, 2005) which offered a practical description of teamwork dynamics. The NTS content validity index was 91.2 % (on the final version of the NTS) based on the review of the expert panel's assessment of the relevance and clarity of the NTS (Salas et al, 2005). The Thirty-three items of the NTS measure the descriptors of teamwork and are divided into five subscales based on Salas' 'Big Five' framework of teamwork (Kalisch, Lee & Salas, 2010)

Consequently, this part is divided into 5 sections: trust (from questions 1 to 7), team orientation (from questions 8 to 16), backup (from questions 17 to 22), shared mental model (from questions 23 to 29), and team leadership (from question 30 to 33) and at the end an open question was left for the participants to leave their comments. (cf. annex1).

The questionnaires collected were moved to a safe place for further analysis. The software used to process the results were: Microsoft Word 2007 Excel and SPSS Version 23 to correlate the relationship of the different variables of our problem.

Finally, confidentiality, freedom and the right to participate or not in the study were respected. We carried out a univariate analysis, allowing the description of the different variables used (medians in particular). Secondly, a bivariate analysis was performed on paired series. Regarding the categorical explanatory variables, we used chi-square tests (*X2*). Significance level is set at p-value= 0.05 for the entire study.

Result:

The sample consisted of a total of 40 inpatient nursing team members who participated in taking the survey. There was a 100% response rate from the entire inpatient nursing team. Among those that participated, the majority were female (60%), were < 25 years old (42.5 %), were single (55%), had a bachelor's degree or higher (respectively BS= 40%; Master = 25%), had a professional nursing certification (87.5%). A majority of the participants worked full-time (77.5%), worked as RNs (65%), and had experience between 1 to 5 years (35%). The highest number of nurses who participated were from the medical-surgical unit (47.5%), whereas the others were distributed between the Operating room, Emergency room, Intensive care unit, and COVID unit. Likewise, more than half of nurses feel the unit staffing is adequate 50% of the time (52.5%)

Regarding the satisfaction of the nurse in her current position, current job, and with the level of teamwork on the unit, the results showed that most of them are satisfied. (Respectively 67.5%; 67.5%; 62.5%).

The NTW survey: (NTWS)

1- Trust: (questions 1 to 7)

The most representative category was 50-74.99 (often= 55%) with a mean score of 2.2 ± 1.19, the principal component analysis of the 7 items that make up this category shows that question 1 obtained the highest total score (Q n°1: All team members understand what their responsibilities are throughout the shift =70%) whilst, Q n° 3: Team members frequently know when another team member needs assistance before that person asks for it), scored the lowest, with a score of 27.5%. Trust within the NTWS measures the ability of teams to be trusting enough of one another in order to communicate effectively, discuss ideas where the team values opinions, and facilitate constructive feedback. Q n° 5: Mistakes and annoying behavior of teammates are not ignored but are discussed with the team members) yielded similar that Q n°1 a high score with

60 % of the nurses surveyed believing that mistakes and annoying behaviors of teammates are discussed and not ignored. Consequently, the hypothesis that considering effective, open communication between NTW leads to greater trust between the teams and increases COVID-19 patients' satisfaction was confirmed.

2- Team orientation (questions 8 to 16)

The most representative category was 50-74.99 (often 65%) with a mean score of 2.1 ± 0.59, the principal component analysis of the 9 items that make up this category. This can point to a supportive mentoring environment among the nursing staff. There are many degrees of education and expertise within the nursing field.

Having mixed skills in the team comprising different levels of knowledge and experience is a positive, helping nursing staff to develop skills. Question eleven (Q n° 11: Team members usually return from breaks on time.) obtained the highest score in the rare category with 17.5% of staff agreeing that team members generally do not return on time after breaks. One reason for this could be that staff do not respect their colleagues, furthermore, inadequate staffing makes nurses feel mistrustful when taking a break knowing their patients are not being well cared for.

Whilst, it is important to mention here that 14 of 40 nurses (35%) occasionally thought that the work team did not work together (Q n° 9: My team believes that to do a quality job, all of the members need to work together) and 35% say that the staff complained if their colleague on a shift was unable to finish his work (Q n° 15: If the staff on one shift is unable to complete their work, the staff on the on-coming shift do not complain about it). As a result, there is no quality work, and maybe this is due to team meetings or an overload of work and maybe the lack of nurses during this pandemic.

3- Backup (questions 17 to 22)

The most representative category was 75-100 (52.5%) with a mean score of 2.42 ± 0.67, 21 of 40 participants (52.5%) believed that team members willingly aid and help one another when they recognize someone is busy. Teams can visibly observe one another in the open ward in order to determine whether a colleague is overworked. The manager on this ward encourages teams to work and support each other. The shift coordinator also takes a patient load if acuity on the ward is high and the staff is overworked. Q n° 22: Feedback

from team members is often helpful rather than judgmental (50%). Half of the population believed that this was correct, with a score of 20/40.

Correspondingly, Q n°18: nursing assistants and nurses work well together as a team. 17/40 (42.5%) nurses were surveyed agreed. This may be due to RNs and nursing assistants communicating effectively when providing care. Finally, in this category, Q n° 19: The nurses who serve as charge nurses or team leaders are available and willing to assist team members throughout the shift. 17/40 of surveyed (42.5%) are agreeing. This shows that all members of the TW are working in coordination and support with each other, especially with the increasing number of cases requiring care.

4- Shared mental model (questions 23 to 29)

The greatest representative category was 50 to 74.99 (45%) with a mean score of 2.25 ± 0.70, the principal component analysis of the 7 items that make up this category shows that question n°23 (Q n° 23: My team readily engages in changes in order to make improvements and new methods of practice.) obtained the highest total score 20/40 = 50% of the nurses believed that change leads to improvements and new methods of practice. This may have benefited from the management structure and staff adhering to the policy and procedures.

5- Team leadership (Questions 30–33)

In this category that component analysis of the 5 items, the furthermost representative was 75- 100 (47.5%) a mean of 2.35 ± 0.69, which is the same average as Backup. Team leadership evaluates how well senior nurses and managers distribute, monitor, and balance the workload of the nurses. This outcome can be a sign of the clinical nurse's and nurse manager's involvement in maintaining proper workload and staffing levels.

Concerning Q n° 31: Team members value, seek, and give each other constructive feedback, 55% of nurses surveyed agreed with this item (High scored in this category). In comparison, 52.5% agreed with Q n° 33: Team members trust each other.

Discussion:

This research assessed nursing collaboration and interactions as they were self-reported in a clinical setting. Using the NTW provided data about how nurses regard their positions, responsibilities, team members, and the ward as a whole.

Trust is measured if participants trust in one another to communicate ideas and information and to value, seek, and give each other constructive feedback, in conjunction with shift responsibilities (Kalisch, Lee & Salas,2010). Q n°1 a high score with 60 % of the nurses surveyed believing that mistakes and annoying behaviors of teammates are discussed and not ignored. this effective, conflict resolution was shown that nurse leaders have knowledge and skills in order to select the best approach for conflict situations. In addition, teams are required to take one another's behavior into account during group interactions. In order to work cohesively and cooperatively, team members can achieve this by predicting and anticipating each other's needs through a common understanding of the environment and expectations of performance. (Salas et al., 2005)

A shared belief that team members will perform their roles and protect the interests of their teammates is essential (Salas et al.,2005) For teams to freely communicate information, the team must preserve a degree of mutual trust (Stringer et al., 2015). An effective healthcare team must be organized and have duties that are well defined. This results in a team with improved confidence in their specific skills, clarity in their role positions, and team leadership (Prince et al.,2014)

According to Ramanujam and Rousseau (2006), healthcare organizations operate with numerous conflicting demands and handle challenging daily tasks. Consequently, attention needs to focus on coordination, role allocation, and shared responsibility of staff. Ramanujam and Rousseau (2006) recommend clear goal setting, feedback, service redesign, and positive involvement of staff. (Ramanujam and Rousseau, 2006)

The Backup subscale scored markedly high for Feedback from team members is often helpful rather than judgmental (50%). According to Grubaugh and Flynn, the ability to support one another on the team, also known as team backup, has been recognized both theoretically and practically as a key component of successful cooperation. (Grubaugh and Flynn, 2018)

The shared mental model scored 50 to 74.99 with a high. The items measure nurses understanding of their role and responsibilities, to achieve quality work outcomes (Kalisch et al.,2010). This result indicated that team members were clear on the responsibilities and tasks expected of themselves and others. They felt they

worked well together and respected and valued each other. The shared mental model includes involvement, information sharing, strategizing, and participating in goal setting, which is required for effective teams (Salas et al.,2005). Individuals also have a clear understanding of their roles in the task, of the resources available, and of their teammates' capabilities (i.e., task-related competencies, and preferences). It's crucial to share information and be open to accept criticism and own up to mistakes. Teams who take regular time out to evaluate and reflect on performance, and increase efficiency yield better outcomes and exhibit higher levels of innovation required for teamwork (Schippers et al., 2015).

Graen, Canedo, and Grace (2018), discussed the quality of relationships between employees and their supervisors. The Leader-Member Exchange (LMX) hypothesis describes this. The use of the LMX theory in the nursing field leads to improvements in emotional commitment, work satisfaction, and decreased desire to leave. (Graen et al., 2018)
The LMX relationship comprises four measurements: contribution; the degree of work-related effort performed; loyalty, the exhibition of public support in the leader–member relationship; affect, the degree to which each member of the dyad has established a respectable reputation in the professional world; and interpersonal liking in the leader-member dyad. In the nursing context, researchers have found that LMX is positively related to positive staff perceptions of safety behaviors, job satisfaction, extra-role behavior, trust in the supervisor, organizational commitment, and knowledge sharing (Schippers et al., 2015).
Employers have different types of relationships with employees within their organization. Graen et al., (2018) explained that employees with high-quality LMX demonstrated competence, trustworthiness, and motivation, they also held greater responsibility and received superior attention and additional support from their employers. This favored treatment was likely to be reciprocated and such employees tended to go above and beyond the duties. Conversely, low-quality LMX individuals have a contractual relationship with their employer providing only what is set out in a contractual clause (Graen et al., 2018; Ramanujam et al., 2006)
Furthermore, Graen et al., (2018) also discussed the quality of relationships between employees and their supervisors in which subordinates with high-quality LMX reciprocate desirable qualities. Implementation of the LMX theory could therefore provide significant enhancements to the quality of teamwork relationships.

Effective teamwork is widely recognized and well-known as an important factor in staff satisfaction in healthcare environments contributing to high-quality patient care (Davies et al.,2011). In addition, safe and quality care of the patient can also be attributed to effective teamwork (Kalisch et al., 2010). More so than one person, effective teams may provide greater flexibility, efficiency, and creativity. Teams can offer greater, diversified answers to organizational problems. However, teams are not easily implemented, a team of skilled participants does not guarantee success, building successful teams requires dedication, understanding, and compliance (Graen et al., 2018)

The results of the study indicate a need to enhance nursing teamwork at the study site. Several evidence-based approaches to advance, improve, and ensure successful team training can include alignment of organizational goals, greater depth of organizational support, role modeling by ward leaders, improving culture and environment, targeted resources and time to apply new skills and knowledge and frequent evaluation of progress (Salas et al., 2009).

Conclusion and recommendations

Contemporary healthcare is delivered by multidisciplinary, distributed healthcare teams that rely on effective teamwork and communication to ensure effective and safe patient care. Teamwork leads to higher staff job satisfaction, enhanced patient safety, improved quality of care, and greater patient satisfaction. These advantages of successful cooperation increase productivity while also fostering a happier and healthier work environment. The results of this study have improved knowledge of how nursing staff at the study location see collaboration in relation to their roles, duties, team members, and the ward as a whole. The main aim of this study was to highlight areas of teamwork strength and deficit to facilitate the implementation of strategies with subsequent evaluation. Introducing teambuilding strategies and acting on the results of this survey may also provide effective support to help improve communication and TW which will ultimately improve the quality of nursing care and patient outcomes.

Additional research is essential to determine the accuracy of nurse's perceptions of relationships within their team; Communication between team members can enhance relationships. Results from the NTS may always be different for every workplace due to a diverse range of leadership styles and cultures. Recommendations are that leaders should know their team and seek out this information to ensure that strategies are meaningful and relevant to their

workplace. Positive reinforcement of the benefits of effective communication is encouraged. Further studies, including a subsequent second survey, with a larger sample size across the healthcare facility, will allow a comparison to the current study.

References:

- Baker, D. (2006). The meaning and the measure of health literacy. J Gen Intern Med., 21(8):878–83.
- Barton G, Bruce A, Schreiber R. (2018). Teaching nurses teamwork: Integrative review of competency based team training in nursing education. Nurse Educ Pract.;32:129–37.
- Belarmino, A.; Rodrigues, M.E; Anjos, S.S; Junior, A. (2020) : Collaborative practices from health care teams to face the covid-19 pandemic Rev Bras Enferm; 73,1-5.
- Berry, D. (2007). Health communication: Theory and practice. Open University Press: Milton Keynes, 152 p.
- Centers for diseases control and prevention (CDC). (2021). COVID-19. Disponible on https://www.cdc.gov/coronavirus/2019-ncov/symptoms-testing/symptoms.html [Consult 1 december 2021].
- Check, J.; Schutt, RK. (2012). Research methods in education. In: Check J, Schutt RK, editors. Thousand Oaks: Sage Publications. 159–85p.
- Cooper S. (2017). Teamwork. What should we measure and how should we measure it?
- International Emergency Nursing ;32:1–2.
- Davies, A.; Wong, C.; Laschinger, H. (2011). Nurses' participation in personal knowledge transfer: The role of leader–member exchange (LMX) and structural empowerment. J Nurs Manag.19(5):632–43.
- Ellis, R.; Gates, B.; Kenworthy, N. (2003). Interpersonal communication in nursing. 2nd Ed, Elsevier: Samantha Page.
- Estryn-Behar, M., Van der Heijden, B., Oginska, H., Camerino, D., Le Nezet, O., Conway P. (2007). The impact of social work environment, teamwork characteristics, burnout, and personal factors upon intent to leave among european nurses. Medical Care, 45(10), 939-950.
- Feghali, R.; Merhi, G.; Kwasiborski, A.; Hourdel, V.; Ghosn, N.; Tokajian, S. (2021). Genomic characterization and phylogenetic analysis of the first SARSCoV- 2 variants introduced in Lebanon. Peer J 9:e 11015.
- Graen, G.; Canedo, J.; Grace, M. (2018). Adapting LMX Theory to Forthcoming Changes: Two Different Frameworks. Industrial Organizational Psychology., 11(3):531–5.
- Grubaugh, M.; Flynn, L. (2018). Relationships among Nurse Manager Leadership Skills, Conflict Management, and Unit Teamwork. J Nurs Adm.,28(7–8):383–8.
- Hackman, JR.(2011). Collaborative intelligence: using teams to solve hard problems. San Francisco, CA: Berrett-Koehler Publishers, Inc.

- Jakovljevic, M.; Bjedov, S.; Jaksic, N.; Jakovljevic, I. (2020). Covid-19 pandemia and public and global mental health from the perspective of global health security. Psychiatr Danub;32(01), 6-14.
- Janicijevic, I.; Seke, K.; Djokovic, A.; Filipovic, T. (2013). Healthcare workers satisfaction and patient satisfaction – where is the linkage?. Hippokratia. 17(2):157–62.
- Kalisch B, Lee H, Rochman M. (2010). Nursing staff teamwork and job satisfaction. J Nurs Manag.;18(8):938–47.
- Kalisch, B., & Lee, H. (2009). Nursing teamwork, staff characteristics, work schedules, and staffing. Health Care Management Review, 34(4), 323-333.
- Kalisch, B., & Lee, K. (2012). Congruence of perceptions among nursing leaders and staff regarding missed nursing care and teamwork. Journal of Nursing Administration, 42(10), 473- 477.
- Kalisch, B., Lee, H. & Salas E. (2010). The development and testing of the nursing teamwork survey. Nursing Research, 59(1), 42-50.
- Kalisch, B., Lee, H., & Rochman, M. (2010). Nursing staff teamwork and job satisfaction.
- Journal of Nursing Management, 18(8), 938-947.
- Kalisch, B.; Lee, H.; Salas, E. (2010). The development and testing of the Nursing Teamwork Survey. Nurs Res;59(1):42–50.
- Kalisch, B.J., & Lee, K.H. (2011). Nurse staffing levels and teamwork: A cross-sectional study of patient care units in acute care hospitals. Journal of Nursing Scholarship, 43(1), 82- 88.
- Karama, M.; Braultb, I.; Van Durmea, T.; Macqa, J. (2018). Comparing interprofessional and interorganizational collaboration in healthcare: a systematic review of the qualitative research. Int J Nurs Stud., 79, 70–83.
- Karian, R. (2020). Students At the Front Lines of the Pandemic – A Nurse's Perspective On Teamwork and Unity During COVID-19. ASU,1-2 disponible on https://ipe.asu.edu/blog/nurses-perspective-teamwork-and-unity-during-covid-19 [Consult 1 december 2021]
- Khoury, P.; Azar, E.; Hitti, E.(2020). COVID-19 response in Lebanon: current experience and challenges in a low-resource setting. JAMA 324:548–549.
- Koeyes,J.; Salloum,T.; Haidar, S.; Merhi, G.; Tokajian, S. (2021). COVID-19 pandemic in Lebanon: one year later, what have we learnt?. ASM journals, 6,(2), 1-3.
- Lima, AWS.; Alves, FAP.; Linhares, FMP.; Costa, MV.; Marinus-Coriolano, MWL.; Lima, LS. (2020). Perception and manifestation of collaborative competencies among undergraduate health students. Rev Latino-Am Enfermagem, 28, e3240.
- Manser T. (2009). Teamwork and patient safety in dynamic domains of healthcare: A review of the literature: Teamwork and patient safety. Acta Anaesthesiol Scand ;53(2):143–51.
- Ponto, J. (2015). Understanding and evaluating survey research. Journal of the

Advanced Practitioner in Oncology, 6(1), 168.

- Ramanujam, R.; Rousseau, D. (2006). The challenges are organizational not just clinical.
- Journal of Organizational Behaviour, 27(7):811–27.
- Salas, E.; Almeida, S.; Salisbury, M.; King, H.; Lazzara, E.; Lyons, R. et al. (2009). What are the critical success factors for team training in health care? The Joint Commission. Journal on Quality Patient Safety.,35(8):398–405.
- Salas E, Sims D, Burke C. (2005). Is there a “big five” in teamwork? Small Group Research Statistics. 36(5):555.
- Schippers, M.; West, M.; Dawson, J. (2015). Team reflexivity and innovation: The moderating role of team context. J Manag.,41(3):769–88.
- WHO (2020a). Clinical management of severe acute respiratory infection when COVID-19 is suspected,World Health Organisation. Interim guidance,1, 2-13. Disponible on https://www.who.int/publications-detail/clinical-management-of-severe-acute-respiratory infection-when-novel-coronavirus-(ncov)-infection-is-suspected.
- WHO (2021). Coronavirus disease (COVID-19). Disponible on https://www.who.int/emergencies/diseases/novel-coronavirus-2019/question-and-answers- hub/q-a-detail/coronavirus-disease-covid-19 [Consult 30 november 2021]
- World Health Organisation. Global Health (2013). Available from: http://www.who.int/gho/publications/world_health_statistics/2013/en/.

Stylistic Analysis of Some Selected Robotic Poems

Dr. Laurence Ajaka

The Islamic University of Lebanon

Ali Hadi Al-Ibadi

The Islamic University of Lebanon

Sanaa Ezzedine

The Islamic University of Lebanon

Abstract

AI has pushed the boundaries of how we perceive literature and arts. This includes poetry as these engineering marvels have managed to write poems that have intrigued linguistics eager to analyze the stylistic essence of these proses. This is all due to Natural Language Processing (NLP) algorithms that allow AI machines to replicate the use of language and words of human beings. This study explores the nuances of how machines can imitate the process of linguistic processing and the challenges they face in attaining the same sophistication that is associated with the intimate and emotional journey of poets and poetry.

Keywords: AI, stylistic, poems, NLP, algorithms

1. Introduction

1.1 Background

There is growing interest in the various domains of AI applications. This has moved beyond the typical STEM objectives to areas such as literature. The stylistic approach has roots extending back to the classic rhetoric, but the 20th century is credited with its modern form. It studies the effect of using linguistic tools such as figures of speech, tonality, and sentence structure on the engagement of the reader. Robotics is the marriage between engineering and technology to produce new machines and software with higher processing abilities and sophisticated programming. The recent innovations have revolutionized how machines interact with language. Pushing the boundaries, some innovators are

using NLP to help AI machines create sophisticated and emotional poems that can resonate with readers. This novel field is making great strides and offers an intriguing opportunity for stylistic analysis. It can explain the process of how these machines create these poems and identify the distinguishing features such as diction, imagery, rhymes, themes, etc. AI is becoming such an essential aspect of our lives that it is vital to understand the many facets that make up the whole. And since these poems are a reflection of how human beings interact with languages, they can provide intriguing insights into the psyche of modern civilization.

1.2 Statement of the Problem

AI machines have become highly evolved, but poetry is still a domain built on complex human emotions. In other linguistic aspects such as writing historical articles or essays about various topics, NLP algorithms are very efficient because they deal with straight-forward information. Poetry is a step beyond mundanity because it involves such syntactic and semantic tools. Robots rely on data and logical interpretation which is absent in many poems that often rely on personal interpretation and ambiguity.

1.3 Objectives

Two main facets are considered in this analysis. The first is the exploration of how AI robots use NLP to generate poetry. The second aspect is using stylistic analysis to study these generated poems and elucidate their unique characteristics.

1.4 Research questions

This is a relatively new area of research, but the focus will be on the following:

i. Can robots generate poetry that effectively utilizes stylistic elements of language?

ii. How does the poetry generated by robots compare to poetry written by humans in terms of stylistic complexity and emotive response?

iii. What are the limitations of current robotics technology in comprehending and generating stylistic elements in poetry?

1.5 Significance of the Study

The study contributes to three different fields of research. It offers a new application for a stylistic approach to understanding how machines understand and utilize language. It gives more insight into the strengths and weaknesses of AI and robotics language processing which can push the technology forward. With regard to art and literature, the findings push the envelope of how we understand artistic innovation.

1.6 Scope of the Study

The focus is on poems and verses generated by machines in the English language. The findings might not apply to poems in other languages because of the cultural connotations associated with understanding and appreciating poetry. There are also constraints regarding the ability of AI and robots to generate poems which is still in its early stages.

1.7 Key Terms

This section consolidates the focus of key terms within the chosen topic's scope.

i. Stylistic: Related to the features of a particular literature work

ii. AI and robotics: The algorithms (programs and pattern recognition) that are used by machines to replicate the creative process of producing poetry.

iii. Diction: The choice of words used and their effect on formality, register, tone, and vocabulary selection

iv. Syntax: The AI use of words and phrases based on the algorithms used

v. Imagery: The AI use of language to convey complex ideas and emotions

vi. Rhyme and Rhythm: The AI use and repetition of words and phrases to create coherent and musical verses

vii. Thematic patterns: The choice of AI of topics, ideas, and motifs about their chosen concept

2. Literature Review

2.1 Stylistic

The modern interpretation of stylistics is the analysis of the choice of language used to convey the author's message. It focuses on vocabulary, grammar, syntax, phonetics, and discourse. The examination aims to illustrate how the chosen words shape the tone, mode, atmosphere, and emotions the author wants to invoke in the readers. Stylistics studies the figures of speech (simile, metaphor, and symbolism) and rhetorical devices (repetition, parallelism, and irony). This is done to explore the attitude and intentions of the author as well as identify his/her unique features and themes.

There are several modern definitions for stylistics. Leech (1969) views stylistics as "The linguistic study of style in language, with particular reference to literary texts". Carter (2004) sees stylistics as "the study of literary discourse in terms of its linguistic properties" to determine how language will influence the aesthetics and communicative dimension of the work. A powerful device in stylistics is the use of figurative language that will correlate elements that might initially seem unrelated to convey a thoughtful and poignant message

(Simpson, 2004). Weber (2005) praises stylistics as the tool that allows "the study of the shaping power of language" as a means of conveying meaning and impacting emotions.

The tone of the literary work is another area that concerns stylistics. The tone sets the overall mood and attitude that the author wishes to convey to transfer his/her emotions and message to the audience. The choice of words is another layer that sets off a different scene. For example, a tempest is a storm, but using a tempest conveys an intensity that is lacking in the latter. It is also typically associated with uncontrolled and strong emotions that result from deep emotions. The author's structure also plays an essential role as most poets try to convey the meaning in a complex manner that is thought and emotion-provoking. The complexity of the purpose of poetry shows how vital a style stylistic can be.

2.2 Robotics

Roboticsis a relatively new discipline that combines engineering and computer science concerned with the design, construction, operation, and use of robotics. Robots are autonomous machines that can be instructed to perform specific task(s). They are involved in a large range of fields such as manufacturing, assembly, transportation, healthcare, etc. (Craig, 2017).

Robotics have different definitions such as that one suggested by Murphy (2000) where it is "the study, design, and use of robots to sense, act, and interpret the physical and social world". This shows the level of evolution in robotics as it is no longer considered passive. These machines are being given the ability to interact and grow on their own. They use their sensors to collect and interpret new data that would allow them to adapt to circumstances that were not part of their program. This is where the notion of Artificial Intelligence (AI) originated as robots are now capable of learning independently of any new programs (Norvig, 2009). Craig (2005) defined robotics as "the science and technology of robots and their design, manufacture, and application". The advancements have diversified the areas of use of robots. Because they can interact with new circumstances, they will be able to deal with situations that were not originally taught how to deal with. This aspect is emphasized in Rus and Canny's (1991) definition that predicted that robotics is "the study and development of robots, which are autonomous machines that sense and act upon the physical and/or information world". This aspect broadened their applications to unexpected domains such as literature.

As mentioned before, the quantum leap in robotics came from their ability to interact with their environment. This is done by sensors which are devices that

detect and measure external physical properties such as temperature, light, and pressure. The physical manifestation of the tool can be cameras, microphones, and tactile probes that allow robots to gather data. This information allows the proper administration of the robot's control systems. These are automatic or manual instructions and actions that govern the activity of robots (Gatt, 2018). The more sophisticated machines have an automatic control system where the sensors perform certain actions based on what is happening in their environment. Take for example a robot that is used in the assembly line of a car. The robot will only be functional when the parts are available in their physical workspace. It will not be drilling unless the parts needed for this activity have been detected by their sensors. This is an essential aspect because it can be detrimental to the safety and efficacy of the assembly. In case there is some sort of emergency or hold up of operations, the robot will slow down on its operations which would save energy for the manufacturer. It can also allow workers to come forth to investigate and fix any holdups.

Robots are beneficial for human progress. Despite our intellectual superiority to robots, we are limited by our efficiency. Robots have the ability to receive and analyze astronomical amounts of data in a fraction of the time it would take humans to do it independently. They are also unencumbered by any emotions which enables them to make better judgments in many cases. In some cases, the ability to mimic human behavior can enhance human capabilities because it expedites processes and delivers unbiased conclusions. They are important partners in shaping the future of mankind (University, n.d.)

Perhaps the most obvious application of robotics has been in industry. Henry Ford is credited with establishing the modern assembly lines that have made products available cheaper than ever before thus elevating the quality of life for all humanity. The evolution of robots has expanded their job repertoire from simple assembly actions such as welding to areas such as quality control and predictive maintenance. This is reflected in the manufacturing of products that are of better quality and safer for human use.

Robots now contribute to the healthcare sector in many ways. They can even perform basic surgeries in record times and with minimum evasion which allows for quicker patient recovery. They are also active in rehabilitation therapy and monitoring the progress of patients while recuperating in health centers and after discharge. Robots are involved in agriculture where some crops are completely automated with machines involved in the planting, harvesting, and monitoring of the entire process. This increases productivity and enhances the quality of produce. Furthermore, robots are now part of

the literary field where it is capable of generating artistic poems. It is a true testament to the interdisciplinary domains of robotics.

2.3 Stylistic Analysis

The stylistic analysis is grounded in many elements used for interpretation. Figures of speech are perhaps the most common tool used by authors to imbue their writings with meaning. They are imaginative connections between words that convey a different image and mood. They sharpen the image of the scene and give it emotional context and richer texture. The tone of the text is the emotional tapestry woven by the author. He/she conveys a large array of emotions such as happiness, sadness, anticipation, fear, etc. It can be intense or sweet. It can also have a very formal tone that conveys the academic or scientific nature of the text. But whatever the tone, it aims to engage the reader and invoke a connection to the literature. The choice of words can convey meanings beyond the dictionary definition. For example, a house and a home are not the same. A house is a building where a person lives while a home inspires memories of warmth and emotional safety. The syntax, or the arrangement of the text, is another tool for stylistic analysis. It is the difference between a clear and concise message and or an intricate exploration of emotions and meanings.

Stylistic analysis is about examining the communication between language and the aesthetics of society (Jacobson, 1960). It examines the author's choice of language to describe the situational context, meaning, and aspects of life (Halliday, 1978). Stylistic analysis also explores how authors choose to express their attitudes, values, and intentions (Coulthard, 1992). This choice is also essential for the desired effect that the author wants to create with the reader (Fowler, 1996). It is the desired impact of the text that can range from offering information to conveying solace to eliciting strong emotions (Verdonk, 2002; Toolan, 2009).

2.4 Poetic Algorithms

The algorithm used for generating AI poetry is called Natural Language Processing (NLP). It is a specific branch of algorithms that deals with how computers perceive the interaction between human beings and language. According to Jurafsky (2009) and Jurafsky and Martin (2019), it involves techniques such as machine learning, computational linguistics, and computer science. It is the computer's way of detecting and interpreting information about language to generate appropriate responses in text and speech. Goldberg (2017) defines NLP as "the field that deals with the interaction between computers and humans in natural language". Manning et al. (2008) resonated

with these ideas emphasizing the notion of natural language and translation. It creates a safe and cohesive medium for exchanging ideas between computers and human beings.

The most popular form of NLP is the Neutral Network-Based Language Generation algorithm where a neutral (non-specific) network is fed a large database of texts related to a specific topic or literary genre. This network will then analyze the themes and patterns of this data to generate its own texts (Manning, 1999). The text generated is similar to the patterns it was fed and is characterized by coherence and meaning (Schmidhuber, 2015). The recurrent neutral networks (RNNs) are constantly fed new data to allow them to update their repertoire and remain relevant (Graves, 2013). This is an essential step since language is constantly evolving and expressions and connections are not static. It allows AI computers to have cultural context and meaning (Bahdanau et al., 2015). Another less versatile approach is the rule-based language generation system that adheres to rules of vocabulary and grammar to generate texts. This makes it less flexible than NNPs, but it is still a viable tool.

Both algorithms rely on common techniques and follow a sequence to generate poems (Zhou, 2021). The Markov Chain is used to predict the next word based on the previous words relying on a pre-determined distribution. LSTM and GPT-3 are models that allow AI to understand the context and generate coherent replies. Once a prompt is fed into a system, the AI will generate a text or poem that can be modified or edited by a human (Elliott, 2021). The quality of the generated text depends on what has been fed to the program. And thus far, AI has not been successful in generating the same depth and emotions that human poets achieve. Below are some examples of poems generated by AI cited from Open AI (2023).

"The wind is a restless soul
Tossing and turning through the trees.
It whispers secrets, old and new
And carries the world on its breeze."

"The snowflakes are fragile and fleeting
Falling from the sky above.
But each one is unique and fleeting,
A symphony of pure white love."

The process for generating AI poems is summarized in the figure below.

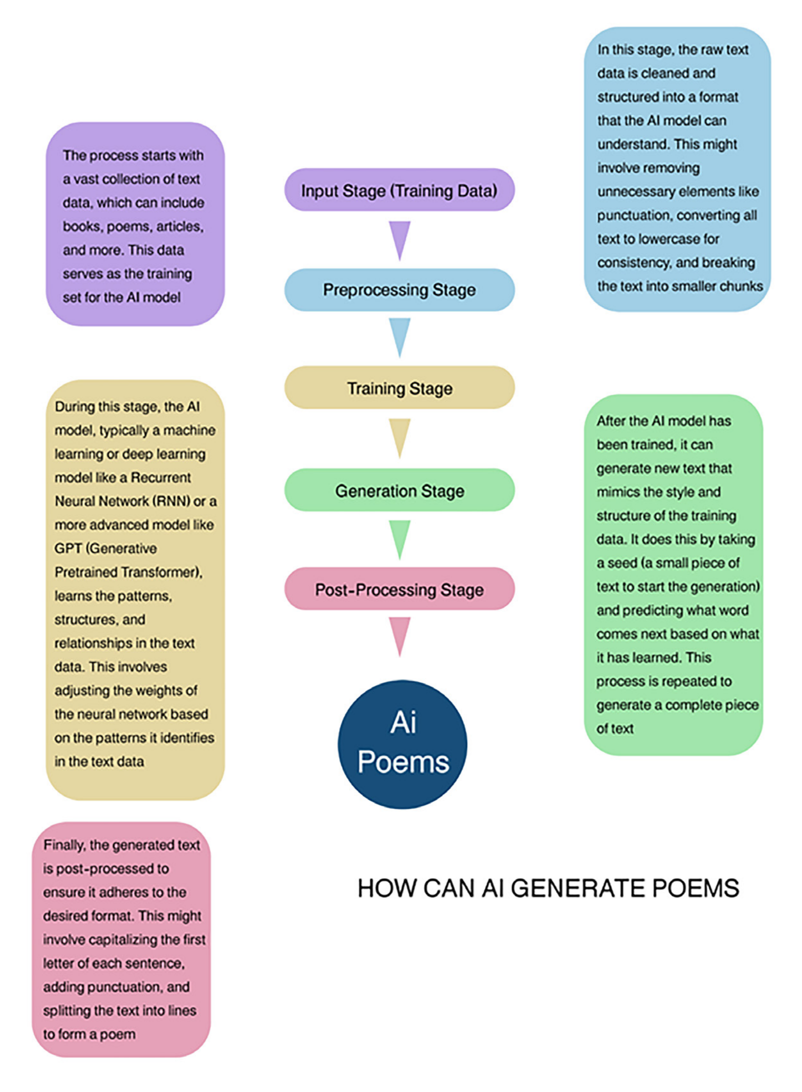


Fig.1 Summary of the techniques used to generate AI poems

3- Methodology

3.1 Method

The methodology chosen is a qualitative comparative analysis of a poem written by William Shakespeare and one generated by AI with an NNP fed by the Bard's work. The qualitative methodology is ideal for this situation because it allows for in-depth analysis of the poems. This is conducive for the stylistic analysis that is a critical interpretation of the vocabulary, grammar, imagery, syntax, tone, etc.

3.2 Sampling

Shakespeare was chosen because of his renown as one of the most beloved and critically acclaimed poets of all time. His verses are well-known and effortless. Despite the challenging task of mimicking Shakespeare, his vast body of work and the consistency of his style to create a unique brand for himself make him an ideal candidate for such a study.

3.3 Analysis

The analysis will be focused on specific aspects of the poems.

1.1.1Form and structure: A poem can take on many forms such as sonnets, haiku, and even free verse so it is important to identify the form. This will allow the researcher to know if the AI maintained the structure regarding things such as the number of verses.

1.1.2 Meter and rhyme scheme: The meter and rhyme schemes should be consistent with the form. These elements are either programmed in the AI algorithm or they are generated when the AI follows the form of real poems. Overall, there must be recognizable patterns.

1.1.3 Language and Imagery: There has to be a certain level of creativity in the poem with the use of imagery and figures of speech.

1.1.4 Themes and tones: The poem should have a recognizable tone enough to convey emotions even if the AI is not capable of experiencing them.

1.1.5 Coherence and Logic: The ideas need to be unified around a specific theme(s) and devoid of any anomalies.

1.1.6 Comparison: The results of each poem can be compared to see which one has more coherence and emotional consciousness.

4- **Analysis**

The criteria mentioned in the methodology are used to compare the two poems.

When in the quiet of the eventide,
The sun descends, and stars in heaven hide,
In tranquil dreams, the world at rest does lay,
And silent night doth chase bright day away.

In shadows deep, the moon begins her reign,
And bathes the earth in her silver train,
The chorus of the night begins to play,
A gentle hymn to close the light of day.

Yet in this quiet, peaceful symphony,
I find no solace, nor tranquility,
For in the stillness of the night, I see,
A haunting echo of thy memory.

So till the dawn, in dreams, I thee pursue,
In waking hours, my heart is still with you.

Criterion	Stylistic Analysis
Form and structure	Shakespearean sonnet
Rhyme Scheme	ABABCDCDEFEFGG
Language	Archaic language and syntax synonymous to the classic period of Shakespeare
Imagery	Full of imagery using visual symbols like the descending sun, hiding stars, the moon's reign, and the earth bathed in silver
Theme	Love and longing
Tone	Melancholic and introspective
Conclusion	A couplet typical of a Shakespearean sonnet

Fig. 2 Interpretation of an AI-generated Shakespearean poem

Shall I compare thee to a summer's day?
Thou art more lovely and more temperate:
Rough winds do shake the darling buds of May,
And summer's lease hath all too short a date:

Sometime too hot the eye of heaven shines,
And often is his gold complexion dimmed;
And every fair from fair sometime declines,
By chance or nature's changing course untrimmed;

But thy eternal summer shall not fade
Nor lose possession of that fair thou owest;
Nor shall Death brag thou wanderest in his shade,
When in eternal lines to time thou growest:

So long as men can breathe or eyes can see,
So long lives this, and this gives life to thee.

Criterion	Stylistic Analysis
Form and structure	Shakespearean sonnet
Rhyme Scheme	ABABCDCDEFEFGG
Language	Heavy use of metaphors and imagery
Imagery	Rich with imagery such as temperate summer's day, the "rough winds" of May, the eye of heaven (the sun), and "eternal summer".
Theme	Immortality of the beloved's beauty and his words
Tone	Loving and boastful
Conclusion	A couplet typical of a Shakespearean sonnet

Fig. 3 Interpretation of Shakespeare's Sonnet 18

The first poem shows that AI can construct complex human emotions and abstract ideas. There is undeniable depth that comes from the imagery and complex expressions of feelings. The poem portrays the grandeur of nature that fails to compensate for the solitude and pain of the person. Although it exhibits a deep understanding of form, structure, and language usage, its emotional resonance may be perceived as limited. While it effectively uses imagery, metaphor, and personification to create a compelling depiction of AI, the depth of emotion and lived experience that usually permeates human poetry might seem lacking.

For the sake of comparison, the similarities and differences between the two poems must be explained. Both poems were true to a standard form of sonnet with the correct rhymes and meter. The language in both is typical of the era when Shakespeare wrote Sonnet 18. They are also rich in sensory clues, imagery, and figures of speech. They might have different themes, but they remained faithful to their respective themes which adds coherence to both poems.

Shakespeare's poem has more depth of emotions. He speaks of love and longing in such a haunting manner. His portrayal of his beloved is evident in his ardent compliments and effusive passionate numeration of her charms that surpass the bounty of nature. The Bard even boasted of his abilities convinced

that his talent should withstand the ravages of time to achieve immortality. By contrast, the AI-generated poem did not delve into emotion and focused on a more descriptive aspect. There is a distinct lack of subjectivity that is evident in its counterpart. The AI poem might have been able to generate imagery within a theme, but it did not have the natural buildup of Shakespeare that expounded on the theme of a summer's day through the majority of the sonnet. Finally, the Shakespearean sonnet is self-referential and philosophical, commenting on its immortality as a poem. This depth of thought and self-awareness is a feature yet to be seen in AI-generated poetry.

3. Conclusion and Recommendations

AI has made numerous strides in generating literary texts and poems. Algorithms in NNPs have allowed them to compile enough data to be able to replicate poems that are similar to human ones in terms of structure, rhyme, and themes. However, these advances have not allowed AI to replicate the depth of emotions and feelings that poets can convey. This is because AI cannot actually experience any emotions and seeks only to replicate what it has been fed.

It is recommended that further research be done to enhance NLP algorithms to yield better results. These algorithms can focus more on portraying emotions rather than emulating structures and speech patterns. This will require more understanding of human emotions and abstract ideas, so there should be careful attention given to the quality and quantity of data that is fed into the neutral networks that will help the AI generate poems. These inputs can exceed the textual and grammatical aspects to visual and sensory databases.

References

Albert Gatt, &. E. (2018). Survey of the State of the Art in Natural Language Generation: Core tasks, applications and evaluation. *arxiv.org*.

Christopher Manning, H. S. (1999). *Foundations of Statistical Natural Language Processing.* MIT Press.

Craig, J. J. (2017). *Introduction to Robotics: Mechanics and Control.* Pearson.

Dan Jurafsky, J. H. (2009). *Speech and Language Processing: An Introduction to Natural Language Processing, Computational Linguistics, and Speech Recognition.* Prentice Hall.

data science competition platform. (n.d.). Retrieved from kaggle: https://www.kaggle.com/

Elliott, E. (2021, Aug 25). Time To Call It AI Again. Retrieved from https://medium.com/the-challenge/time-to-call-it-ai-again-6ec970961825

LLC, g. (n.d.). *The latest research from Google*. Retrieved from Google research: https://

ai.googleblog.com/

McKenzie, G. &. (2021). Natural Language Processing in GIScience Applications. *Research Gate*. Retrieved from https://www.researchgate.net/publication/356010869_Natural_Language_Processing_in_GIScience_Applications

Murphy, R. (2000). *Introduction to AI Robotics*".

Norvig, S. R. (2009). *Artificial Intelligence: A Modern Approach.* Pearson.

OpenAI. (2023, 3 2). ChatGPT-4. *Large language model*. Retrieved from https://chat.openai.com/chat

Schneider, S. (2021). *Artificial You: AI and the Future of Your Mind.* Princeton University Press; Reprint edition.

Shakespeare, W. (n.d.). Sonnet 18: Shall I compare thee to a summer's day?*1609.*

Simpson, P. (2004). *Stylistics: A Resource Book for Students.*

Stockwell, P. (2014). *The Cambridge Handbook of Stylistics.* (S. Whiteley, Ed.) Cambridge University Press.

Toolan, M. (2019, November 22). Literary Stylistics. *Literary Stylistics*. doi:https://doi.org/10.1093/acrefore/9780190201098.013.1008

University, C. (n.d.). *Computer Science > Computation and Language*. Retrieved from ArXiv.org.

Zhou, L. (2021, 2 8). Teaching robots to respond to natural-language commands. *CONVERSATIONAL AI / NATURAL-LANGUAGE PROCESSING.*

The Secret Recipe of Early Intervention Through the Individualized Family Service Plan (IFSP)

Nadine Hasan Haidar

Doctorat Student

"This article emphasis the important role of parents, teachers, and caregivers in screening and assessing children with disabilities, at a very early stage, in order to implement the appropriate early intervention services. Several theories and recent researches focus on the significance of sharing services that support relatives to improve the development of their children, by means of representations that reveal the suggestions. The new recommended educational and psychological practices focus primarily on early intervention that lights the main concerns proposed by families of children having disabilities. Furthermore, notwithstanding the countless offerings to what is suggested for family-centered thinking and training, the IFSP (Individualized Family Service Plan), guides the delivery of assessment services. This article assesses these services in order to determine the occurrence of recognized routines observed as the base for product development, specifically when the examination-providing caregiver has received appropriate training. In addition, findings of this article show that around 50% of the activities observed and identified by the caregivers as unsatisfactory, are used in outcome development. Moreover, important connections between caregivers were discovered as strong connections between activities and improvement".

Keywords: *Caregiver, Screening, Assessment, The 13 Disability Categories*

The international commitment to early intervention was the educational primary pact for conducting services for parents of, and infants with disabilities. This article presents the rationale as well as the strategies for early intervention in terms of empirical, realistic, and experiential findings. This article constitutes an important resource for all the professionals involved with at-risk infants as well as families of toddlers and young children having disabilities, in that it embraces the major issues present in early intervention. The first issue that arises is the recognition of the complexity of early intervention and its uniqueness as a domain for helping professionals. The second issue is the emphasis placed on the multidisciplinary approach to involve infants and young children with special needs. A third issue that stems from the need for a multidisciplinary approach and the complexity of early intervention, is the importance of individualization in the work with families. The latter is an issue that the researcher has effectively combined to simplify the important role of the Individualized Family Service Plan (IFSP). In the beginning, a caregiver needs to be certain that parents clearly understand why their child needs help.

The focus is on helping the family develop its own strengths in the resolution of issues. Children are vulnerable to a number of issues and situations that can hamper both their cognitive and affective development. In fact, the outcome of underachievement is always described as performance below expectation. The reasons behind this, may include different aspects such as social isolation, pressure to conform, family dynamics, learning or behavioral disabilities, attention-seeking, trauma, and lack of direction or orientation (Cummings, R. & Fisher, G. 1991).

Complementing the above-mentioned issues, there are three correlated issues relating to development, family, and environmental context. Actually, researchers consider the development of the child as transactional in nature, of which outcomes are determined by shared exchanges between the child and the family all the time (Kranowitz, C.S. 1998). An additional explanation of the lively nature of development is the recognition of the acquaintance of the child and the family with the environmental strains. The importance of the family in the development of the child, along with the ecological settings of the child and the family are additional issues that invade this article and offer a basis for assessment as well as interventional activities and services (Feldman, M.A. 2004).

Moreover, the belief in the benefits of early intervention is now being

recognized as a formal commitment to at-risk infants as well as families of toddlers and young children having disabilities. This article endorses such belief and offers a systematic approach to the implementation of theoretically rigorous and realistic interventions. The field of early childhood special education has come to be acknowledged nationally as a discipline by itself, with its own university and expert professional training and research programs, an active national professional organization, numerous professional journals of quality, and significant voices in the invention of a policy at the regional and local levels (Feldman, M.A. 2004).

Lastly, as the services expand, so do the need for comprehensive preparation of educators, therapists, psychologists, and health professionals who work with children under the age of three and their families. This fact is reflected in the increased number of university programs throughout the country that are confronted with the task of training teachers, speech and language pathologists, occupational and physical therapists, school psychologists, social workers, and program administrators, on how to implement the early intervention services (ثابت، م. وآخرون. 2012)Nevertheless, teachers and educators are already faced with the prospect of personnel shortage in early intervention. The primary factor that determines the quality in an early intervention program is the effectiveness of the professionals who work in it; and effectiveness is after all directly related to the quality of training.

Training and Preparation

It is the problematic of providing effective personnel's training that this article is aimed at. It places a strong weight on typical and atypical child development, combined with an ecological vision of intervention. The article is organized on two basic grounds: 1) the early intervention professionals require strong preparation in the representative categorizations of development that the children experience from birth, and 2) that effective intervention must take an ecological perspective in order to understand the background of the infant's or young child's environment. Additional emphasis has been place on these two premises, thus the first question is dedicated to a developmental perspective whereas the second question is dedicated to an ecological perspective.

Generally speaking, this article lays the foundation for the discussion of developmental research and theory, assessment and intervention, besides addressing family needs. It is also reflected in the new highlighting of early intervention programs for infants from birth. First, the article begins with a review of certain issues relevant to the early intervention field, including

the concepts of being at-risk and the least restrictive environment. Then, the researcher moves onto an updated review of typical cognitive, linguistic, physical, and social development.

Furthermore, the article focuses on examining the role of assessment for infants with disabilities from birth until the age of three, covering the screening and traditional assessment procedures, and ecological assessment including information on developing an Individualized Family Service Plan (IFSP). The article is about children whose developmental patterns remain outside the "normal" range, those who have special needs, and those who require special care or intervention from birth until the age of three.

The essential thing about a special service plan is that it is a service provided to the child and the family. It is centered and devoted to present a suggested training in early intervention. Early intervention is attached by a solid and a unified theoretical base (Kranowitz, C.S. 1998). Such theories make the core value intended for early intervention on the child surrounded by his family, and the structures and motives that impact their lives.

In practice, it is recommended that outcomes of any family plan should be taken from family routines; on the other hand, it is required that the plan recognizes the great role of including main concern and priorities in outcomes. Besides, there is a great necessity to examine the family plan setting in order to control the degree in which caregivers use the daily activities to develop consequences. Another purpose for this article is to test the way caregivers can develop outcomes and approaches for early intervention. What is more, the article sheds the light on the very early intervention pointed at serving children at-risk of delays in development, and children with disabilities from birth till the age of three. It focuses on the importance of assessing infants and toddlers, taking into consideration the development and the characteristics of these children. Last but not least, this article gives rise to the important role of the family in the process of improvement of struggling kids, given that children at this stage are sensitive and parent- attached.

This article was directed by a theoretical and conceptual framework based on Bronfenbrenner's Ecological Systems Theory, which is a theory of influence in the field of early intervention (Bronfenbrenner, 1979). This theory clarifies the connections between diverse social elements and the inclusive effect of these chains. In any family service, the ecological theory shows the development of the child within the child's and the family's environment.

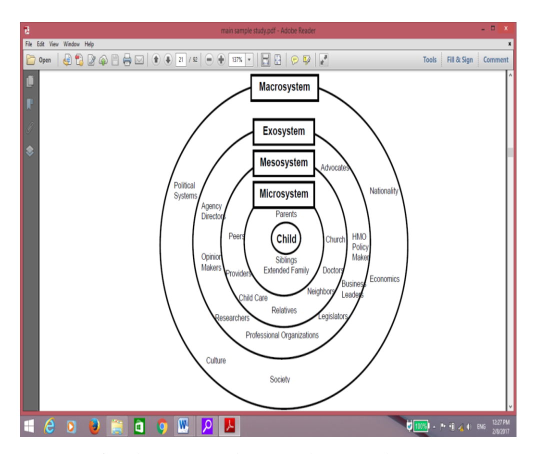


Figure 1. Urie Bronfenbrenner's Ecological Systems Model (1979).

Bronfenbrenner's Ecological System's Theory

This theory, as shown in Figure 1, defines complex "layers" of the environment, each having an effect on a child's development. This theory looks at a child's development within the context of the system of relationships that springs from the child's environment. This theory has recently been renamed "Bioecological Systems Theory" to accentuate on the fact that a child's own biology is the central environment operating his development. The collaboration between elements in the child's development, his direct family/community environment, and the social setting energies and guides his development. Modifications or struggles in one layer will flow all the way through other layers. To observe and monitor child's development we must focus at the child and his direct environment, and at the collaboration of the surroundings.

Bronfenbrenner (1979) defines these concentric layers as ascending from the center, where the child and his family are located in the deepest circle. There is another circle for the connections made by the child and his family; these connections are made of relatives, friends, neighbors, cousins and diverse related connections. Likewise, these preceding social units are encircled in a bigger system comprising of governments, and other systems that might probably have their effects on the child. Another vigorous standard of the Ecological Systems Theory is that any change in one of the units will surely influence the events in another unit.

Thus, to analyze the development of a child, a person should focus on the interaction of the larger environment concurrently.

Bronfenbrenner's Ecological Systems Theory fosters the excellence and framework of the child's environment for example economic rank, self-

esteem, self-concept, and the main needs impact the support required for a family.

Adult Learning Theory

Since the emphasis of early intervention transcend the children, to the wider context of the family, the relation with adults is as vital as the interaction with children. Modeled by Malcolm Knowles in 1979 to clarify how adults learn, Adult Learning Theory is centered on the succeeding norms:

grown-ups are self-directed learners;

gained knowledge and experiences contribute to the acquired learning of adults;

the need to know more is the key for adult's learning;

The main issue now is the acknowledgment of the roles of families as central and pertinent. Assessment and diagnoses are always shown as an ongoing process. It aims to "discover" with its interpersonal and intrapersonal learning. The assessor's primary function is to facilitate learning and intervention (McGraw, 2004).

The identification of a child presenting a developmental delay or with a disability, changes the dynamics with other family members. It is at this time that the family needs assistance.

One of the central goals of a toddler and early childhood mental health services is avoidance and early intervention. Taking into consideration the challenges and the developmental paths needed for a healthy, emotional, and intellectual growth, a counselor should provide a valid context to work with infants, young children, and their families at an early age. By doing this, the counselor reinforces the necessary foundations for a healthy development and therefore, finds a way to intervene in order to address the emerging challenges before they become prolonged. Subsequently, the counselor redirects young children and their families on a healthier developmental path. The family has been recognized as a primary and critical component in the development of the child (Lawlis, 2004). However, early intervention as a new approach has faced a lot of challenges in getting the families that have appeared as having a child at-risk beyond the reach of most assessment programs (Lawlis, 2004). These families often refuse to volunteer for, or cooperate with such services. Another challenge has been to organize programs that are satisfactorily

inclusive to help kids, young children, and families with all characteristics of their development. The truth is that all aspects of the child's and family's development are closely connected (Lawlis, 2004).

Providing comprehensive early intervention services for all infants, young children, and their families must be the goal of modern approaches to early intervention. Henceforth, it is important that such approaches be integrated into daycares and all backgrounds in which infants and young children and their families change. The approaches include non-stop educational chances for parents, caregivers, programs at daycare centers, and special programs for families facing difficulties. This article sheds light on how to implement the early intervention approach or the IFSP and explores how to work with families that are almost beyond the reach of most programs. A model will be presented for working with infants in their families, ranging from those who are progressing in a healthy manner to those with a variety of challenges. With the help of a work group, a caregiver should observe and record children's early emotional signs in both healthy and compulsive cases, motor and cognitive processing differences, and infant–caregiver and family interaction patterns (Jordan, R. & Jones, G.1999). As a result, this group will construct a comprehensive approach to assessment, diagnosis, and intervention such as the IFSP.

This approach includes not only children with emotional and behavioral difficulties, but also children with autism spectrum disorders as well as other disorders of connecting and communicating, Dyslexia, language problems, Down syndrome, fragile X syndrome, fetal alcohol syndrome, cerebral palsy, and even severe forms of Attention-Deficit Hyperactivity Disorder (ADHD). Educators are now in a position where there is an urgent need to redefine how we work with these children. Because of that, the researcher chose this topic and presented a model of plan that is used in the USA and the UK for infants and toddlers, the IFSP. This model addresses the family's relationship, because it is the cultural context in which the child's relationships and emotional interactions occur. Intervention for infants and children with mental health problems and special needs must involve a broad relationship, family, and community-based approach, and should be covered in the IFSP.

On a side note, it is very urgent to validate such a service in order to use it in Lebanon since there is no direct service for children and toddlers below the age of three. The absence of such service was clearly noticed after field trips to the ministry of Education and Higher Education, The Ministry of Health, The Ministry of Public affairs, and The Educational Center for Research and

Development (CERD). All of those ministries consecrate a special care for the people with physical disabilities more than disabilities on the educational and cognitive levels. However, it is worth mentioning that CERD gives a special attention for children with learning difficulties and learning disabilities from the age of three and above. To date, no research mentioned the toddlers in assessing them beyond medical tests and screening. However, there is no educational intervention to this target (infants and toddlers and their families). CERD initiated a lot of studies and statistics concerning learning difficulties. First, they issued a article among the official schools of Lebanon to spot out the number and kind of disabilities found. This article was not followed by statistical tables because it was not easy to evaluate the difficulties found. They only mentioned that 25- 28% of the students present learning difficulties in a sample of six schools all around Lebanon. Only 6-7% have difficulties such as dyslexia (ثابت، م. وآخرون 2012). However, the article has only focused on pupils from the age of three until the age of nine. The CERD article recommended focusing on the evaluation of the learning difficulties at an earlier stage in order to get the early intervention services and integrating competences to help pupils with difficulties in an inclusive classroom. Moreover, the CERD article recommended avoiding labeling the pupils in the inclusive classroom by building self-esteem and preparing teachers to deal with the ones with learning disabilities using many strategies, for instance the multiple intelligences, learning styles, affective and social growth, growth psychology, teaching strategies, and cooperative learning.

Furthermore, The CERD published guidance for educators to spot out the learning difficulties and find solutions for them. However, one of the most important limitations of CERD's article is the lack or insufficiency of the programs that target students with disabilities; they are only found in some private institutions.

Definitions

Caregiver. Early intervention is a special service used to appropriately allocate a caregiver for the child and his family. Countries differ in the technique they present this caregiver. Some use a model in which the caregiver does not offer any intervention service, whereas in other countries, the coordinator of the services may be provided by a special educator or speech therapist. For that reason, the caregiver performs as a helpful and experienced supporter and is accountable for supporting families in understanding and mastering their rights. Researches have proved that this relationship between families and the

caregivers is essential towards effective early intervention (Feldman, M.A. 2004).

Moreover, the caregiver needs services in the fields of technology, health, therapeutic, nursing, nutrition, occupational therapy, physical therapy, psychology, social work, or speech therapy. In addition to the coordination of services, the caregiver applies and assesses the Individualized Family Service Plan (IFSP) or any other intervention plan.

Screening. Screening is a large scale and a procedure designated to determine the presence or absence of developmental problems. Screening is done with the purpose of identifying those infants or children considered at-risk, that is, those who will probably need special services to aid their normal development. Screening is usually quick and inexpensive (Feldman, M.A. 2004).

Assessment. Assessment is the process by which children are identified as having a special need or having any kind of disability and in need of special education services. Testing is not a synonym of assessment because a test may result only in a score, whereas a good assessment will provide much information effective in educational programming and individualized planning (Feldman, M.A. 2004)... Assessment is not so much a process itself, as it is more of a part of a process; the other part is intervention, without which the assessment is deemed useless. It is a continual and ongoing process in which children are examined continuously over most of the duration of their education. It can provide early indicators on the performance of children. It can also provide what has been learned or gained by a particular stage.

Raising a child with a disability or illness is a journey filled with challenges on the personal and parental levels. Parents may experience a myriad of emotions, most of which are undesirable and uncomfortable. Parents will recalibrate their goals, their values, and their priorities in order to bring out the strengths they never knew they had. To begin with, neither of the parents knows anything about special needs nor on how to parent a special needs child. All what the parents know, initially, is that their world has been turned upside down and they need to seek professional help for their child, serving to provide, as well, a sense of understanding and orientation for themselves (Colorado, B. 2008). Their stories range from heartbreaking to heroic filled with hope, disappointments, and success. Families of children

with disabilities face challenges in different forms given that each family is unique. Children with special needs require particular help more often, and for longer periods of time; sometimes, for their entire lives. Some of the familiar problems that children face, resulting in special needs, are now categorized by IDEA (Individuals with Disabilities Education Act (P.L.108-446)) as of March, 2013 (Ghazi, M. et al).

The 13 Disability Categories

The IDEA defines the 13 disability categories. Similarly, the Lebanese Center of Educational Research established a dictionary for words related to the categories of the diverse learning disabilities (Ghazzi, M. et al). The categorization of the disabilities and their definitions are as follows:

Autism

Autism is a developmental disability, significantly affecting verbal and non-verbal communication, educational performance, and social interaction. Generally, autism is evident before the age of three, but not necessarily. Characteristics often associated with this disability, are engagement in repetitive activities and stereotyped movements, resistance to changes in daily routines or the environment, and unusual responses to sensory experiences. The term autism does not apply if the child's educational performance is adversely affected primarily because the child has emotional disturbance, as defined in number four below.

2. Deaf-Blindness

It is a concomitant hearing and visual impairment, the combination of which causes such severe communication and other developmental and educational needs. Such needs cannot be accommodated in special education programs dedicated for children with deafness exclusively nor with blindness exclusively.

3. Deafness

It is a hearing impairment, the severity of which damages a child's processing of linguistic information through hearing, with or without amplification, and that adversely affects the child's educational performance.

4. Emotional Disturbance

It is a condition exhibiting one or more of the following characteristics over a long period of time and to a marked degree, that adversely affects a child's educational performance:

(a) An inability to learn that cannot be explained by intellectual, sensory,

or health factors.

(b) An inability to build or maintain satisfactory interpersonal relationships with peers and teachers.

(c) Inappropriate types of behavior or feelings under normal circumstances.

(d) A general pervasive mood of unhappiness or depression.

(e) A tendency to develop physical symptoms or fears associated with personal or school problems.

The term includes schizophrenia. The term does not apply to children who are socially maladjusted, unless it is judged that they have an emotional disturbance.

5. Hearing Impairment

It is impairment in hearing, whether permanent or fluctuating, that adversely affects a child's educational performance, but is not included under the definition of "deafness".

6. Mental Retardation

It is a significantly sub-average general intellectual functioning, existing concurrently with deficits in adaptive behavior and manifested during the developmental period, that adversely affects a child's educational performance.

7. Multiple Disabilities

It is a concomitant impairment (such as mental retardation-blindness, mental retardation-orthopedic impairment, etc.), the combination of which causes severe educational needs. Such needs cannot be accommodated in a special education program dedicated for one of the impairments exclusively. The term does not include deaf-blindness.

8. Orthopedic Impairment

It is a severe orthopedic impairment that adversely affects a child's educational performance. The term includes impairments caused by a congenital anomaly (e.g. clubfoot, absence of some member, etc.), impairments caused by disease (e.g. poliomyelitis, bone tuberculosis, etc.), and impairments from other causes (e.g., cerebral palsy, amputations, and fractures or burns that cause contractures).

9. Other Health Impairment

It is having limited strength, vitality, or alertness, including a heightened alertness to environmental stimuli, that results in limited alertness with respect to the educational environment, that— (a) is due to chronic or acute health problems such as asthma, attention deficit disorder or attention deficit hyperactivity disorder, diabetes, epilepsy, a heart condition, hemophilia, lead poisoning, leukemia, nephritis, rheumatic fever, and sickle cell anemia; and

(b) Adversely affects a child's educational performance.

10. Specific Learning Disability

It is a disorder in one or more of the basic psychological processes involved in understanding or in using language, spoken or written, that may manifest itself in an imperfect ability to listen, think, speak, read, write, spell, or do mathematical calculations. The term includes conditions on the likes of perceptual disabilities, brain injury, minimal brain dysfunction, dyslexia, and developmental aphasia. The term does not include learning problems that are primarily the result of visual, hearing, or motor disabilities, of mental retardation, of emotional disturbance, or of environmental, cultural, or economic disadvantage.

11. Speech or Language Impairment

It is a communication disorder such as stuttering, impaired articulation, language impairment, or a voice impairment that adversely affects a child's educational performance.

12. Traumatic Brain Injury

It is an acquired injury to the brain caused by an external physical force, resulting in total or partial functional disability or psycho-social impairment, or both, that adversely affects a child's educational performance. The term applies to open or closed head injuries resulting in impairments in one or more areas, such as cognition, language, memory, attention, reasoning, abstract thinking, judgment, problem-solving, sensory, perceptual, and motor abilities, as well as psycho-social behavior, physical functions, information processing, and speech. The term does not include brain injuries that are congenital or degenerative, or brain injuries induced by birth trauma.

13. Visual Impairment Including Blindness

It is impairment in vision that, even with correction, adversely affects a child's educational performance. The term includes both partial sight and blindness.

In a perspective to fulfill the requirements of individuals presenting any kind of disability, the following is required :(الغزّي، وآخرون. 2014)

A specialized intervention at home or at school or in the community for the issue of delays in language, and physical, cognitive, or social development;

Regular medical treatments or interventions for health conditions;

Individualized educational programs or plans for learning disabilities;

Extra care for daily living skills;

A special help to enhance communication;

Special therapies for improving physical strength and coordination;

Special therapies for emotional or behavioral problems;

Special equipment to help increase movement;

Few years ago, there wasn't much help and hope for children with special needs. Most of them suffered under-education, underestimation and undervaluation. Nonetheless, time has changed and now we are increasingly aware, as a society, of the children's right to be valued, educated, and challenged. Laws are being enacted to ensure the rights of people with disabilities. Furthermore, technology is rapidly advancing, medical help is improving, and professionals are enhancing their knowledge and skills (Sternberg, R. J. & Grigorenko, E. L., 2000). A wider range of services for children and their families is emerging, as parents are becoming more enabled supporters. It is a long and a hard way for parents, professionals, and children with special needs because all together they are creating a new kind of future (Sternberg, R. J. & Grigorenko, E. L., 2000).

How early intervention services are provided to the child and the family is as important as which service to provide. How services are applied is based on modern suggested training in early intervention. Early intervention is fenced by a resilient theoretic basis. The theories that form the basis of early intervention focus on the child as a learner in the frame of his or her family, and the factors that influence their lives.

Early Intervention

Early intervention comprises a set of supports, services, and experiences to prevent or minimize long-term problems, as early as possible. While it can be offered at any age, whether before or during the early stages of disabling conditions and circumstances, the term, however, is commonly reserved for infants and young children. Typically, children who receive this early intervention are both, those already suffering and at-risk. The risk might be developmental, emotional, social, behavioral, or school problems due to biological reasons (e.g. low birth weight) or even environmental factors such as poverty.

Early interventions and orientations are manifold. Some programs take into account that the child needs an extraordinary learning environment. They highlight on the crucial role of the parents and home in shaping the child's future. Therefore, such programs offer several types of family-based intervention including case management, family support, home visits, and parent's education. These programs, then, target the needs of the family as

a whole and study the effect of early intervention on other family members (Peters, 2000). Under the IDEA, "infants and toddlers with disabilities" are children from birth till age two who need early intervention services, and that because they are experiencing developmental delays in one or more of the following areas: cognitive development, physical development, communication development, social or emotional development, adaptive development, as assessed by suitable assessment tools and procedures; or they have a diagnosed physical or mental condition that has a high possibility of resulting in developmental delays.

Individualized Family Service Plan

The Individualized Family Service Plan (IFSP) is addressed to support families in the improvement of results of their child. The IFSP works as a method to monitor supports and abilities for each child. It should be established by the family with the help of a multidisciplinary team to articulate information affecting the child and his or her family, taking into account many elements. The first element is a report of the child's current stages of cognitive, physical, communication, social, and emotional development. (Hammill, & Bartel, 1978).

Contemporary levels of cognitive development include a varied selection of mental capabilities or intelligences. The current level of cognitive development includes reports related to attention, memory, critical thinking, communication, and reasoning. Reports of physical development include vision, hearing, and other health issues adding to the motor skills of the child. Motor skills are made of two groups; large motor skills for instance climbing, walking, crawling, and rolling; and fine motor skills such as cutting, pinching, and holding small things. Moreover, contemporaneous levels of collaboration and social/emotional development need to be observed and reported including speech, gestures, and facial expression in order to observe verbal and non-verbal ways of communicating. Such development includes satisfactory ways of interacting with peers, siblings, and family members. Briefly, the development contains all the other domains like self-care or self-help skills as a demonstration of age-appropriate skills. These skills can include dressing, eating, toileting, and suitable autonomous working.

A supplementary prerequisite of the IFSP is a record of the family's resources, related to improving the development of the child. Plans of explicit early intervention services must contain the regularity, strength, interval, and technique of providing these services. The beginning of services, and the

person in charge for service coordination, as well as carrying out the plan are also stated on the IFSP. (Rapp, W. & Arndt, K. 2012). Additionally, the plan must also include the steps to take in order to involve the toddler in the preschool or other appropriate services.

Once prepared, the IFSP team should meet at least twice yearly to notice progress and provide revisions based on assessments, and other related information. Also, the IFSP should be revised with the family once every six months. Finally, the early intervention team must clarify to families the constituents of the IFSP and get families' confirmation for those services.

At-Risk Children

The term at-risk is normally used to include children and youth, and has a resilient innate meaning. However, the term has no reliable definition and can be observed by branding certain groups. The progressive side of this undetermined definition is that program providers have some flexibility in how they define "at-risk" for their programs. Regardless of this flexibility, it is still important to have a standard or a reference point for vibrant communication between providers, funders, policy makers, and the media about what "at-risk" precisely means. Some would debate that all children are at-risk some way or another, while others highlight that some children encounter greater risks than other children do. For example, children may qualify as at-risk if they already present a certain disability, or have been abused. On the other hand, some would argue that one should not describe children themselves as being at-risk, but rather the environment in which they grow. For instance, one can say that the family, as a whole, is at-risk.

Principally, families are the most critical setting for the development of children, and family risk factors, such as poverty, low parental education levels, have been regularly found to challenge children's development.

A third approach would focus on the community, neighborhood, or school background as an at-risk environment. For example, a low-income community with a high crime level and a low high school level might be viewed as a place that puts children at-risk of poor outcomes.

Maslow's Hierarchy of Needs

Maslow's Hierarchy of Needs is a pivotal theory used to train many in the domain. According to Maslow, some needs are more important than others

and must be met before anything else. The parents have to meet basic physiological and security needs that are placed in first priority. Until they find stable housing and can meet needs for food, health care, and other daily living necessities, parents will most likely not be able to focus on higher order achievement needs on the likes of engaging in early intervention (Thompson, Ch. L. & Henderson, D. A.). Such approach does not indicate that intervention is unimportant; it only explains that other, more serious needs must come first. Maslow's theory (1954) is built on the supposition that individuals have inside them an inherent hierarchy of needs as presented below in Figure 2.

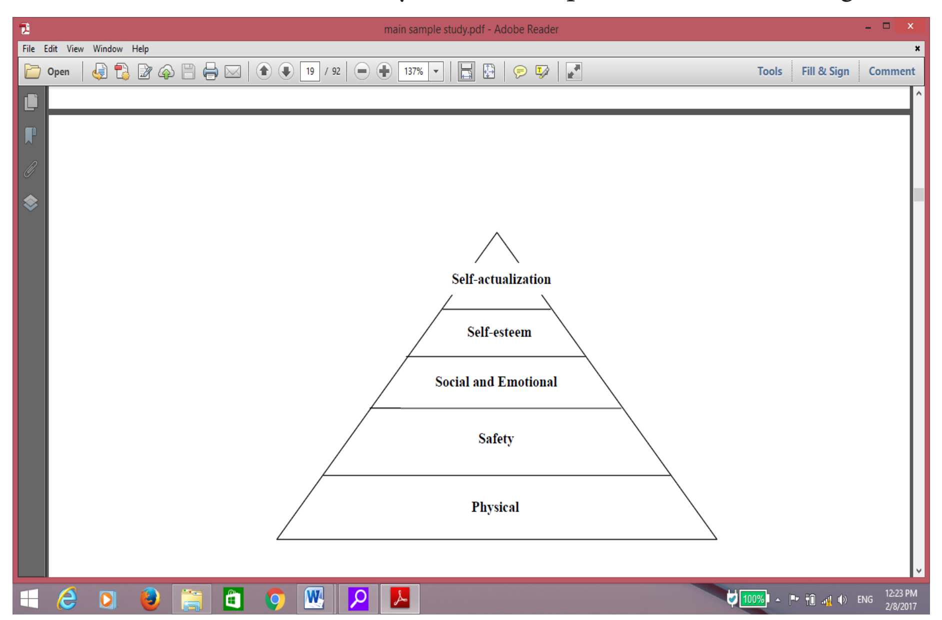


Fig. 2. Maslow's Hierarchy of Needs

Beginning from the lowermost, the classifications in the pyramid are physical requirements, security requirements, community requirements, appreciation requirements, and self-actualization needs. The most basic needs are placed at the bottom of the hierarchy such as food, water, and sleep. People move up the pyramid when needs in a previous level have been met. Consequently, when physical needs are satisfied, it becomes likely to transfer to the upper level of needs, safety. Succeeding safety needs, social needs must be addressed like love, belonging, friendships, family relationships, and ties. Next, esteem needs and self-actualization needs. In some situations, an individual might not be able to stay in one level for the reason that a need in one of the lower levels is demonstrated.

Families and Early Intervention

In the United States, the main duty of families in early intervention changed since the beginning of families in early intervention guideline. Families are the main debate of the Federal Early Intervention Law for young children with disabilities. By emphasizing on the family in Part C of IDEA, law gave another definition for the family members as receivers of services in acknowledgement of their serious role in a child's development. Conversely, services have not always mirrored this probability (أبو سعد، أ. 2014).

Development of the IFSP is a dynamic process that involves a collaborative planning effort and partnership between the parents or caregivers on one side, and the professionals on another side, who will deliver the services and supports to the infant or the toddler along with his or her family. It is intended as an ongoing process of planning and adjusting services to keep up with the changes in developmental needs. The IFSP should be reader and user-friendly, easily read and understood. Moreover, cultural values and believes should be respected and considered in the IFSP since it is addressing families as a family-centered approach.

Family-Focused Approach

Depending on the specific orientation of family systems, this approach has a variety of goals. Historically, the starring role of the family has improved after involving families in individualized plans. Families form an interconnected part of the mediation service group. Specialists and families cope together to regulate and improve the development of the child. Though, families request the professionals' advice and guidance to meet definite needs. The central consideration is regarding what is in the best interest of the family (Chapman, G. & Campbell, R. 1997). Outcomes are evaluated on the basis of the particular orientation of the professionals. On behalf of various experts, the swing from expert-focused, to family-focused services challenged their training, and produced an upsurge in the need for family involvement in the planning. In all the family approaches, change needs to happen relationally and not just physically (Chapman, G. & Campbell, R. 1997).

Studies designate that the family-centered approach leads to superior products for children than the outdated child-centered methodology. Indeed, family-centered approaches practice representations that introduce early intervention centering on the child surrounded by daily backgrounds

and connections. Studies have shown that there is a higher level of parents' participation when using family-centered practices, and a higher positive impact on the child. Such impact will positively influence the outcomes (Sears, W. & Thompson, L, 1998).

The Four Stages of Adaptation

Some parents who have kids with disabilities experience many stages in the journey of adaptation. In the discussions with parents of children with special needs, the researcher noticed that they experience many stages in their journey. There were distinct changes in all the parents' sense of control over their lives, their increased self-confidence and skills in their parenting roles, the balance of their lives, and their attitude about the future. The four stages of adaptation are surviving, searching, settling in, and separating (Woznick, L. & Goodheart, C. D. 2002).

Surviving

Surviving is what you do, as a parent, to keep going when you are feeling completely helpless, because something totally out of your control has taken away your child's equal chance at life. Surviving is different for everyone; it may last a week or even years. Some of the feelings may stay for a lifetime; some may be accompanied by expected events of unexpected memories. Surviving is reacting and coping, and it involves a lot of feelings that may include fear, confusion, guilt, blame, shame, and anger. Parents may experience different feelings at different times. There is no right way to get through this stage, but there are some things the parents can do to alleviate it. First, the parents have to understand that these feelings are quite normal. Then they must take care of themselves during this period and use support networks such as counselors, friends, or family members. They pass through this period of surviving in their own way and on their own time. There are a lot turning points for the parents to remember, for instance the formation of a sense of control, optimism, and hope after a certain period of time. Such formation takes place when the parents admit that they have to survive. As a matter of fact, to admit "They have survived", is to say "They have overcome"; Parents' survival is to move ahead with life with purpose, energy, and sense of trust that whatever happens to their family, they will somehow find a way to deal with it.

Everyone survives in different ways, some parents may know that their

child would have special needs even before he was born, for example from pregnancy diagnoses. While some parents may know that their child is going to have special needs directly after birth as a result of injury or illness, other parents may know gradually, one step at a time, as the child shows signs that something is not going right. Some parents may notice delays in learning or development, unusual behavior patterns, or continuous illness. But more importantly, the nature of the child's special needs and their level of severity do not make it any easier or any harder to deal with. Having special diagnoses may not make it harder to just knowing that the child is at-risk or is slow to develop. When and how the parents learn that their child has a problem does not make the process of adaptation easier or harder. Basically, the attitude of the extended family, the cultural group, or even the religious beliefs may affect whether the adaptation will be easier or harder. There is no perfect way or right way of getting through this beginning stage. When parents become aware that their child has a problem or is at-risk for a problem, they begin to deal with this issue in two ways, coping and reacting.

Coping.

Coping is the process of managing the issues that come the parents' way. Sometimes parents may feel like they are trying to empty a flooding ship with one bucket. They may have to make decisions without feeling confident about them. Plus, they may have to deal with specialists to whom they are unacquainted, who may give recommendations and advice that sound unfamiliar. Coping with all of this, is not an easy task but parents have shown ability to handle it even better than they guessed they could (Ricci, I. 1997).

Reacting.

Reacting drains energy and decreases feelings of control over own life. Until a certain time, parents of children with special needs, will not possess any sense of direction over their lives. They are always trying to figure out what is going on and what to do next. Their reactions may range from confusion, to fear, to incompetence and may be accompanied by feelings of grief, anger, guilt, and helplessness. These are the ways that many people feel, usually, upon hearing sad or frightening news. A parent with a child with disability probably experienced all of these feelings combined. Most of these feelings get resolved or fade as the parents find themselves ready to move on and as they begin to feel that they have control of their lives once again.

Surviving begins with a state of shock which is a normal reaction to a traumatic or major loss as in death or disaster. Shock is a psychological reaction to protect the body and mind from being overwhelmed (Cunningham, C. 2016). Surviving is an intensely personal journey. No one can exactly understand what it is like for the parents. Sometimes, they may feel like a helpless, incompetent victim. They may feel drained and lifeless, with a lot of loneliness.

Sadness is a normal emotional reaction to events, thoughts, stories, or memories that remind a person of a loss. He may feel sad about changes he is doing in his life or thoughts about what his child might not be able to do, or how will he tell the news to his friends and relatives. Sadness comes and goes and sometimes might lead to depression. Depression is a chronic mood state that may affect eating or sleeping when a person feels like the problem will linger. A state of confusion, chaos, uncertainty, ambiguity, fear, as well as worrying, guilt, shame, and embarrassment appear while trying to adjust and adapt to the new situation. These are called toxic emotions and on a more serious note, might lead to suicidal anger (Goleman, D. 1996).

At some point, there is a turning point from surviving to searching. This stage is filled with anger that can take many forms, starting with the general anger of taking it personal, to anger more specifically directed at someone in the form of blame such as a blame towards the hospital, towards the person who diagnosed or omitted to diagnose, or even towards the child. Resentment and envy are normal forms of anger at this stage where the parents make comparisons with normal children. Then a feeling of betrayal leads to conscious or unconscious denial as a protective device that the mind uses when a person is not ready to deal with problems.

Searching

Searching is the second stage of adaptation. Parents will probably have periods of searching during their whole lives with their child. There are two kinds of searching; outer searching and inner searching. Outer searching begins with the first questions about the child: "what is wrong? Can it be fixed?" Outer searching begins while parents are still surviving. It consists of looking for a diagnosis and for services.

Some parents feel incompetent towards, and frightened from the new challenge; others, conversely, feel motivated, energized, needed, and fulfilled. But what is certain is that almost all feel an exhausting conflict and mixed

emotions. Since every parent is different, there is no right way to feel, and many feelings have the ability to change the life direction and philosophy of the parents. Searching is an incredible journey that begins while parents are still struggling with the issues of surviving. For the purpose of properly taking care of the child and finding the appropriate help and intervention that cannot wait, parents must rapidly resolve all of the feelings and questions they are dealing with. This stage is the stage of mastery and direction towards the appropriate solution after diagnoses. Parents need to label the problem so that it becomes easier to understand it and treat it. This will also help in stereotyping and setting certain expectations of what the child may or may not be able to do. Searching gives strength and new awareness of special needs and the way they are treated in society. Besides, it connects the parents with other families with similar problems. A feeling of empowerment will arise as the parents feel more competent and successful while facing the frustrations of dealing with barriers. But nonetheless, searching is filled with mixed feelings of success and failure, hope and despair, and accomplishment and frustration (McGraw, Ph. 2014). In the process of searching, parents ask a lot of questions in order to rest assured about their children. Some of these questions are:

Can I be a good enough parent to meet all of my child's needs?

How will my child's disability affect my relationships?

How will my child's "special needs" affect my other children?

How will these circumstances affect the desire or ability to have more children?

Who can I understand what I'm going through?

What if my child grows up and cannot be independent, get married, or have children?

Will my child be able to go to school and have friends?

Will my child be normal, healthy, and happy?

Who will take care of my child if something happens to me?

Will I ever stop worrying about all of this?

After asking all these questions and struggling with answers parents realize that there are no quick cures or easy solutions and some of their questions do not, and will never have answers. Thus, searching will never stop but it

will develop into a state of peace of mind and that will be the turning point between searching and settling in.

Settling In

Settling in is the third stage in the adaptation process. It is a time of more predictable, settled-in living even if a person is still busy in searching issues. It is the stage of integrating a child's special needs into the rest of the parents' lives, and the stage of establishing a new sense of stability and harmony for the entire family. It is a shift in attitude, balance, and control as well. During survival, most of the energy is spent on coping. Some parents stay in the surviving stage for a longer time. And as the emotions felt in the searching move into the background, the parents settle down.

Separating

Separating is the fourth and last stage of adaptation. The process of separating includes both emotional separateness of the parents and children, and physical separation that may occur when a child has special needs. Separating begins at birth, since every step towards growth is a step towards independence and separation. However, the daily, small experiences children need in order to practice being independent in a safe and protected way, may not happen easily for the child. Separation for children with special needs often has to be initiated, planned, or supervised by the parents. The child may have to learn daily living skills in small steps with a lot of arrangement. Moreover, the child needs self-discipline because his parents will not always be the lifeguards and rescue squads. The child needs to know his strengths and weaknesses and needs to know the importance of self-regulation. The most important of it all, is that a child should understand his disability and learn how to fight his own challenges.

References

Peters, R (2000). Overcoming Underachieving: A Simple Plan to Boost Your Kids Grades and End the Homework Hassles. New York: Broadway.

Kranowitz, C.S. (1998). The Out- of – Sync Child. New York: Skylight Press.

Lawlis, F. (2004). The ADD Answer. USA: Penguin Group.

Cummings, R. & Fisher, G. (1991). The School Survival Guide for Kids with L.D. USA: Free Spirit Publishing.

Jordan, R. & Jones, G. (1999). Meeting the Needs of Children with Autistic Spectrum Disorders. Great Britain: The Gromwell Press Ltd.

Sears, W. & Thompson, L. (1998). The A.D.D. Book: New Understandings, New Approaches to Parenting Child. USA: Little Brown Company.

Hammill, D. & Bartel, N. R. (1978). Teaching Children with Learning and Behavior Problems. London: Allyn and Bacon, INC.

Severe, S. (2000). How to Behave so Your Children Will, Too! USA: Penguin Group.

Woznick, L & Goodheart, C.D. (2002). Living with Childhood Cancer: A Practical Guide to Help Families Cope. Washington: American Psychological Association.

McGraw, Ph (2004). Family First. New York: Free Press.

Bronfenbrenner, U. (1979). *The ecology of human development*, Cambridge, MA: Harvard University Press.

Chapman, G. & Campbell, R. (1997). The Five Love Languages of Children. Chicago: Northfield Publishing.

Cohen, L, et al. (2007). Research Methods in Education. London: Routledge Group.

Cunningham, C. (2016). Down syndrome: An Introduction for Parents and Carers. UAE: Jarir Bookstore.

Feldman, M.A. (2004). Early Intervention. UK: Blackwell Publishing.

Ghazzi, M, et al. Dictionnaire Des Mots Utilisés Dans Le Domaine Des Difficultés d'apprentissage. Liban: Centre De Recherche Et De Développement Pédagogiques.

Goleman, D. (1996). Emotional Intelligence. USA: Bantam Books.

McGraw, Ph (2014). Real Life: Preparing for the 7 Most Challenging Days of Your Life. UAE: Jarir Bookstore.

Rapp, W. & Arndt< K. (2012). Teaching Everyone. USA: Bookers.

Ricci, I. (1997). Mom's House, Dad's House: Making Two Homes for Your Child. New York: Fireside.

Thompson, Ch. L. & Henderson, D. A. Counseling Children. (7th Edition). USA.

أبو سعد، أ. الإرشاد الزواجي الأسري.(2014). (ط2). الأردن: دار الشروق.

ثابت، م. وآخرون. (2012). دراسة إحصائيّة لرصد أنواع وأعداد ذوي الإحتياجات الخاصّة في المدارس الرسميّة. لبنان: المركز التربوي للبحوث والإنماء.

الغزّي، وآخرون. (2014). دليل المفاهيم المتعلّقة بالصعوبات التعليميّة. لبنان: المركز التربوي للبحوث والإنماء.

Endnotes

١ R. Huygue, *Sens et destin de l'art. De l'art gothique au XX° siècle*, Pa-.ris, Flammarion, 1985, p. 200

٢ P. Jourde, *Géographies imaginaires de quelques inventeurs de mondes au XX° siècle. Gracq, Borges, Michaux, Tolkien*, Paris, José Corti, .1991, p. 322

٣ Mohammed Dib, *L'arbre à dires*, Paris, Albin Michel, ١٩٩٨, p. ١٨-.١٩

٤ *Les Hommes qui marchent*, p. ٤٣

٥ *Ibid*, p. ٢٦٦-٢٦٧.

٦ Ibid, p. ٢٩٣.

٧ *Dictionnaire des symboles*, p. ٩٩٧.

٨ Ibid, p. ٣٠٣.

٩ *La Transe des insoumis* est le second volet des *Hommes qui marchent*. Il s'agit d'un récit où s'entrecroisent le passé de Malika Mokeddem et sa vie d'aujourd'hui, ces deux époques étant liées par le thème de l'insomnie, mal dont souffre l'auteur depuis sa petite enfance. *La Transe des insoumis* est le nom qu'elle donne à l'insomnie. Cette incapacité à sombrer aisément dans le sommeil lui a très tôt fait prendre conscience de sa rébellion, et a peu à peu contribué à l'arracher à sa famille pour devenir un jour médecin puis écrivain. *La Transe des insoumis* revient sur les luttes essentielles de l'enfance et de l'adolescence et met en regard les thèmes, ruptures, solitude, livres, travail : scolarité puis études de médecine, apprentissage de la liberté Là-bas, c'est-à-dire en Algérie, et ici. Si *Les Hommes qui marchent* était le livre du départ, *La Transe des insoumis* est le livre du retour. Retour vers (le village natal en Algérie, retour vers le père, après vingt-quatre ans d'absence. (Grasset

١٠ *Les Hommes qui marchent*, p. ٨٥

١١ Ibid, p. ١٢٤.

١٢ Ibid, p. ٢٦٨

١٣ Ibid, p. ٢٧٨

١٤ Ibid, p. ٢٧٨

١٥ Ibid, p. ١٢

١٦ Ibid, p. ٣١

١٧ Ibid, p. ٢٣٦

١٨ Ibid, p. ٢٢

١٩ Ibid

٢٠ .

٢١ *Les Hommes qui marchent*, p. ١٢٤

٢٢ Ibid, p. ١٣

٢٣ Ibid, p. ١١-١٢

٢٤ Ibid, p. ٣٠١

٢٥ Ibid, p. ٣٢١

٢٦ .Ibid, p ١٦

٢٧ .Ibid, P ١١٦

٢٨ Claudia Mansueto, Entre le désert et la mer : *L'Interdite* et *N'Zid* de Malika Moukeddem, p. 163

٢٩ *La Transse des insoumis*, Paris, Grasset, 2003, p ٨٤

٣٠ *Mes hommes*, Paris, Grasset, 2005